قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

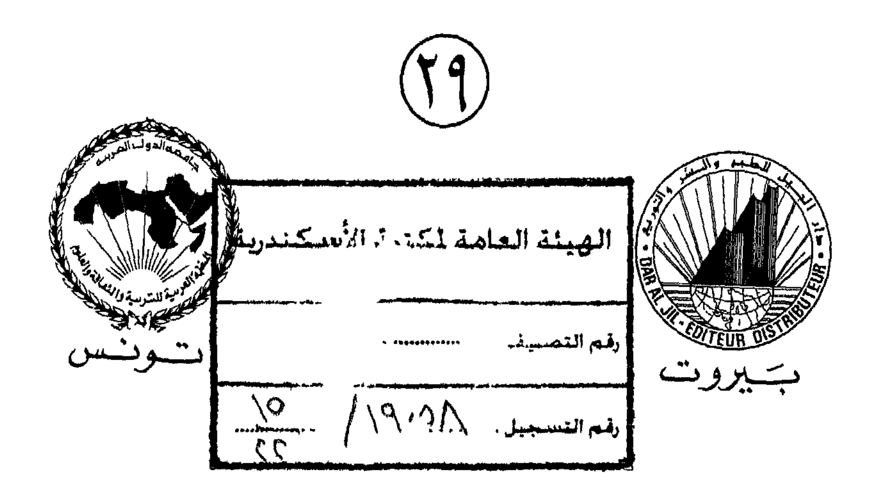
بداية عصر العقل

ترجمة
فؤاد أندراوس

مراجعة
علي أدهم

الجزء الثاني من المجلد السابع

٢٩



دار الجيل : ص.ب: ٨٧٣٧ - ت: ٢٦٦١٥٨ - ٢٦٠٤٦٥ - تلكس: ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي: دار جيلاب - بيروت - لبنان

الكتاب الثاني

صراع العقائد على السلطة

١٥٥٦ - ١٦٤٨

فهرس

الجزء الثاني من المجلد السابع

صراع العقائد على السلطة

١٥٥٦ — ١٦٤٨

الفصل التاسع

إيطاليا : الأم الخيرة

١٥٦٤ — ١٦٤٨

صفحه

الفصل العاشر

خاتمة اسبانيا وانحطاطها

١٥٥٦ — ١٦٦٥

الفصل الحادى عشر

العصر الذهبى للأدب الأسبانى

١٥٥٦ ١٦٦٥

الفصل الثانى عشر

العصر الذهبى للفن الأسبانى

١٥٥٦ — ١٦٨٢

صفحة

الفصل الثالث عشر

الصراع على فرنسا

١٥٥٩ — ١٥٧٤

الفصل الرابع عشر

هـنرى الرابع

١٥٥٣ — ١٦١٠

الفصل الخامس عشر

ريشـليو

١٥٨٥ — ١٦٤٢

الفصل السادس عشر

فرنسا إبان الحروب

١٥٥٩ — ١٦٤٣

الفصل التاسع

إيطاليا الأم الخيرة

١٥٦٤ – ١٦٤٨

١ – « الحذاء السحرى »

بعد أن هدأ عنف المعركة التى خاضتها إيطاليا فى ميدانى النهضة والاصلاح البروتستنتى ، راحت تستكين إلى حكم الأسبان استكانة يزعجها الفقر ، ويواسيها الدين ، ويضفى عليها السلام بريقا خداعا . كانت معاهدة كاتو – كامبريزى (١٩٥٩) قد خلعت دوقية سافوا على إمانويل فيليبرت ، أما جنوا ولوكا والبندقية وسان مارينو فقد مد فى أجلها فبقيت جمهوريات مستقلة . وأما مانتوا فظلت خاضعة لأمراء جونزاجا ، وفيرارا لأمراء استنزى ، وبارما لأمراء فارنيزى . وحكمت أسرة مديتشى توسكانيا – فلورنسة وبيزا وأريتزو وسيينا – ولكن موانيها كانت تحت سيطرة أسبانيا . وحكمت أسبانيا عن طريق نواب ملكها دوقية ميلان ومملكة نابلى التى كانت تضم صقلية وكل إيطاليا جنوب الدويلات البابوية . وحكم هذه الدويلات ، التى اخترقت وسط شبه الجزيرة من البحر المتوسط إلى الأدرياتى ، بابوات تحدق بهم القوة الأسبانية .

على أن هذه القوة لم تكن عدوانية عسكريا ، فهى لم تتدخل فى الشئون الداخلية للدويلات ، اللهم إلا ميلان ونابلى ، ولكن عزوفها عن التجارة وخوفها من الفكر الحر ألقيا حجابا كثيفا على الحياة الايطالية . وكان من أثر استيلاء أمم الأطلنطى على تجارة الشرق وأمريكا أن انتقلت إليها تلك الثروة التى كانت من قبل تنفق على حركة النهضة ، فأصبحت الآن تغذى الازدهار الثقافى الذى بدأ فى أسبانيا وإنجلترة والأراضى المنخفضة . وعانت إيطاليا فوق ذلك من اضمحلال الموارد البابوية نتيجة لحركة الاصلاح

البروتستنتى . كان الفلاحون الصابرون يكدحون ويصلون ، والرهبان الذين يفوقون الحصر يتعبدون ، أما التجار ففقدوا الجاه والثروة ، وأما النبلاء فضيعوا الحياة جريا وراء الألقاب وتعلقا بمظاهر البذخ والترف .

ومع ذلك أنجبت إيطاليا وسط هـذا الانهيار السياسى جاليليو أعظم العلماء فى جيله ، ووهبت العالم فلسفة برونو الجريئة البعيدة النظرة ، وهبته برنينى أعظم مثالى العصر ، ومونتيفردى أكبر مؤلفيه الموسيقيين أثرا ، ووهبته أشجع مبعوثيه الدينيين ، وواحدا من أعظم الشعراء الإيطاليين هو تاسو ، كذلك وهبته — فى بولونيا ونابلى وروما — مذاهب فى التصوير لا ضريب لها إلا فى الأراضى المنخفضة الوافرة الثراء . وهكذا ظل لواء الثقافة معقودا لإيطاليا .

١ — فى سفوح الألب

يطيب لنا أن نجوس من جديد خلال تلك الحديقة وقاعة الفن المسماة إيطاليا ، ولو بالفكر والقلم ، وأن نمر بها ولو مرور الكرام . فأما تورين فقد غدت عاصمة كبيرة تحت حكم كفء على رأسه امانويل فيليبرت ، وبفضل تشجيع زوجته مرجريت الأميرة الفرنسية السافواوية للأدب والفن . وأما ميلان فظلت محتفظة بأبهتها على الرغم من خضوعها لأسبانيا . قال ايفلين عام ١٦٤٣ فى وصفها : « انها من أفخم مدن أوربا ، ففيها ١٠٠ كنيسة ، و ٧١ ديرا ، ٤٠٫٠٠٠ من السكان . فيها القصور الباذخة ، وفيها الفنانون النادرون[١] » وبعد أن دمرت النار داخل باسليقا سان لورنزو ماجيورى (١٥٧٣) عهد كارلو بوروميو ، مطران ميلان الورع ، إلى مارتينو باسى ببناء داخلها وفق الطراز البيزنطى الرائع الذى بنيت به كنيسة سان فيتالى فى رافنا . وبنى الكردينال فيديريجو بوروميو ، وهو ابن أخى كارلو ، قصر أمبروز (١٦٠٩) ، وشيد فيه مكتبة أمبروز الشهيرة . أما قصر بريرا ، الذى بدىء تشييده عام ١٦١٥ ليضم كلية لليسوعيين ، فقد أصبح منذ عام ١٧٧٦ مقرا لأكاديمية الفنون الجميلة ، ومنذ عام ١٨٠٩

لقاعة بريرا الذائعة الصيت ، التى أصابتها الحرب العالمية الثانية بأضرار بالغة ، ولكنها رممت الآن ترميما جميلا ، وفيها نجد الكثير من آثار أسرتى بروكاتشينى وكرسبى ، وهما الأسرتان اللتان غلب تأثيرهما على التصوير الميلانى فى العصر الذى نتناوله .

وأما جنوه ، « الهادئة جدا » ، فما زالت من تلالها المرصعة بالقصور تختال فوق بحر متوسط انتشرت فوق أمواهه المراكب الجنوية . حقا لقد فقدت هذه الجمهورية التاجرة أملاكها الشرقية التى استولى عليها الترك ، وانتقلت بعض تجارتها مع دول الشرق إلى دول الأطلنطى ، ولكن التل الكبير الذى تقوم فوقه قيض لها ميناء ممتازا ظلت بفضله ، وما زالت إلى اليوم ، أهم الثغور الايطالية . هنا شاد أمراء التجارة أو ملوك المال طائفة من أعظم بيوت إيطاليا ترفا . وفى رأى ايفلين أن « الشارع الجديد » الذى صممه روبنز وازدان بقصور من الرخام المصقول « يزرى بأى نظير له فى أوربا »(٢) . وقد صمم جالياتزو أليسى وتلاميذه الكثير من هذه القصور الفاخرة التى اشتهرت بما حوت من قاعات فن ، وسلالم فخمة ، وجدران زينت باللوحات أو الرسوم الجصية ، وأثاث مترف — « موائد وأسرة كاملة من الفضة الثقيلة » ، ولا عجب ، فقد حذق أقطاب المال الجنويون تحويل عرق الشعب إلى ذهب . وفى عام ١٥٨٧ بنى « جاكومو ديللا بورتا » باسليقا « البشارة المقدسة » التى كانت أعمدتها المحززة ، ومنبرها البديع ، وقوسها المزخرف ، مفخرة الأتقياء من أهل جنوه . على أن هذه الكنيسة وكثيرا غيرها من كنائس جنوه وقصورها لحقها دمار كثير فى الحرب العالمية الثانية .

وأما فلورنسة فقد ظلت ، حتى إلى عهد فازارى ، تلقب بأثينة إيطاليا ، إذ تميزت بخصوبتها سواء فى الأدب أو الدرس أو العلم أو الفن . لقد زكا فيها كل شىء إلا العفة ، ففى عهد الدوق الكبير فرانشسكو الأول (١٥٧٤ — ٨٧) انحدرت أسرة مديتشى العظيمة إلى حمأة الفجور والدعارة . ثم تخلى الكردينال فرديناندو مديتشى عن وظيفته الكهنوتية

وأصبح « الدوق الكبير فرديناند الأول » ، فأتاح بذلك لتوسكانيا طوال اثنين وعشرين عاما (١٥٨٧ — ١٦٠٩) عهدا من العدل والاستنارة ، ووسع تجارتها إذ جعل ليفورنو (ليجهورن) ثغراً حراً مفتوحا لكل التجار من كل الأديان ، وأصلح بالقدوة الفاضلة أخلاق شعبه . أما خلفاه كوزيمو الثانى وفرديناند الثانى فكان لهما فضل إعانة جاليلو بالمال . ونقش بارتولوميو أماناتى نافورة نبتون الكبرى لميدان « السنيوريا » بفلورنسة ، وصمم قصر دوكالى بلوكا . وفى عام ١٥٨٣ أكمل جوفانى دابولونيا « اغتصاب السابين » ، وهو التمثال القائم فى « لوجا (قاعة) دى لانزى » ، وصب تمثال هنرى الرابع الذى أهداه كوزيمو الثانى إلى مارى مديتشى لبزين « البون نوف » فى باريس . وواصل اليساندرو أللورى وابنه كريستوفانو التقليد الذى درج عليه التصوير الفلورنسى من خيال جامح فى التلوين ، فى شىء من التخفيف ، وأشرف بيترو دا كورتونا على الكمال فى رسومه الجصية التى زين بها سقوف قصر بيتى ليصور مناقب الدوق كوزيمو الأول .

وأما بارما فقد كان يحكمها فى هذه الفترة دوق مشهور يدعى اليساندور فارنيزى ، ولكن بلغ انشغاله بقيادة الجيوش الأسبانية فى الأراضى المنخفضة حدا لم يتح له أن يتربع على عرشه قط : وفى عهد ابنه رانوتشو ذاع صيت جامعة بارما فى أرجاء أوربا ، وبنى أليوتى (١٦١٨) مسرح فارنيزى الذى اتسع لسبعة آلاف متفرج فى مدرج نصف دائرى لا يضارعه فى إيطاليا الحديثة سوى المسرح الأولمبى الذى بناه أستاذه باللاديو .

وأما مانتوا فقد دخلت عهدا من الرخاء اعاد إلى الأذهان ذكرى أيام ايزابللا ديستى المجيدة . فبفضل صناعة النسيج المزدهرة أقبل الناس على شراء القماش المانتوى ، حتى فى انجلترة وفرنسا المنافستين لمانتوا . وظل بيت جونزاجو الذى حكم هذه الدوقية منذ عام ١٣٢٨ ينجب الأكفاء من الرجال . ففى الدوق فنشنزو الأول تمثلت من جديد فضائل أمراء النهضة : رجل حلو الصورة لطيف المعشر ، يرعى روبنز المحظوظ وتاسو التعس على

السواء ؛ يجمع الآثار القديمة ، والتحف الصينية ، والآلات الموسيقية ، والنسيج المرسوم الفلمنكي ، وأزهار الطوليب الهولندية ، والنساء الجميلات ؛ يهوى الشعر والقمار ، مقاتل باسل ورجل دولة جرئ ، ولكنه ينهك نفسه بالفجور والحرب ، ويموت غير متجاوز الخمسين (عام ١٦١٢) . ثم يخلفه ثلاثة أبناء على التوالى ، وآخرهم وهو فنشنزو الثانى لم يعقب ، وكان من أثر تنافس فرنسا والنمسا وأسبانيا على تعيين خلف له والتحكم فى هذا الخلف أن غدت الدوقيـة مسرحا عاجزا لحرب الوراثة المانتوية (١٦٢٨ — ٣١) وكانت حربا ضروسا أوشكت أن تمحو مانتوا من سجل التاريخ .

وأما فيرونا فقد تكاسلت ثقافيا خلال هذه الحقبة واعتمدت على تراث النهضة . ففى فيتشنزا كانت واجهات باللاديو الكلاسيكية تحـدد الطراز الذى اتبعه كرستوفر رن فيما بعد . وقد أكمل فنشنزو سكاموتزى مسرح باللاديو الأولمبى ، ثم صمم قصر تريسينو — بارتون . وأصبح سكاموتزى همزة الوصل بين الكلاسيكية وفن الباروك بفضل ولعـه بالزخرف ، وهو ولع لم يستطع باللاديو كبحه فى فنـه .

ب — البندقيـــة

كان اضمحلال ملكة الأدرياتى ، كاضمحلال روما القديمة ، طويلا بهيا . انها تفقد تجارتها البحرية مع الهند لتستولى عليها البرتغال ، وعما قليل ستشعر بمنافسة الهولنديين لهـا . لقد تحملت وطأة توسع الأتراك بحرا ، وكانت بحريتها وقوادها عاملين رئيسيين فى الانتصـار عليهم فى ليبانتو (١٥٧١) ، ولكنها تخلت عن قبرص بعدها بشهور ، ومن ثم غدت تجارتها مع بحر المشرق مرهونة برضى الأتراك وشروطهم . ولقد كافحت ببسالة لتواجه تحدى الزمن المتغير ، فاستطاعت باتصالها بالقوافل القادمة من وسط آسيا عند حلب أن تعوض بعض التعويض ما خسرته من تجارتها البحرية مع الشرق . وظلت سفنها تسيطر على الأدرياتى ، وشاركت فى

أرباح تجارة الرقيق التى أصبحت الآن تسىء إلى سمعة البرتغال وأسبانيا وانجلترة ، أما أملاكها فى البر — وهى فنشنزا وفيرونا وتويسته وترنت واكويلا وبادوا — فقد أثرت وكثر سكانها ، وأما صناعتها فقد واصلت تفوقها فى الزجاج والحرير والمخرمات والطرف الفنية المترفة. كذلك كان لمصرفها المسمى « بانكو دى ريالتو » ، والذى أنشأته عام ١٥٨٧ بعد أن أخفق كثير من المصارف الخاصة ، الفضل فى دعم مالية البنادقة بقوة الدولة ، وكان المثال الذى احتذته بلاد أخرى فى إنشاء مؤسسات مماثلة فى نورمبرج وهمبورج وامستردام . وقد تعجب الرحالة من جمال عمارتها ، وفتنة نسائها ، ونظافة شوارعها ، وثبات حكومتها فى حزم وإصرار .

استهدفت سياستها الخارجية حفظ توازن القوى بين فرنسا وأسبانيا مخافة أن تبتلع احداهما الجمهورية التى لم تعد قوية البأس كما كانت من قبل . ومن هنا مبادرتها إلى الاعتراف بهنرى الرابع ملكا على فرنسا دعما لبلد مزقته الحرب . وفى عام ١٦١٦ اشترك الدوق أوزونا ، نائب ملك أسبانيا فى نابلى ، مع السفير الأسبانى فى البندقية ، فى مؤامرة للاطاحة بمجلس شيوخها واخضاع الجمهورية لحكم أسبانيا . وبارك فيليب الثالث المشروع ، ولكنه جريا على أسلوب الحكومات المهذب ، أمر أوزونا بالمضى فيه « دون أن تدع أحدا يعلم أنك تنفذه بعلمى ، وتظاهر بأنك تتصرف دون أوامر منى[٣] » . غير أن حكومة البندقية كانت تستخدم أبرع الجواسيس فى أوربا ، فكشفت المؤامرة ، وقبض على المتآمرين المحليين ، وذات صباح تعلم الناس درسا ينفعهم ، إذ رأوهم يتدلون من المشانق فى ميدان القديس مرقس ، محدقين فى الحمائم السعيدة بعيون انطفأ نورها .

هذه الاولجركية الهادئة الصارمة ، التى اتجرت مع الناس من جميع العقائد ، ومنحتهم الحرية الدينية ، كان موقفها من البابوية مستقلا على نحو ملحوظ . جبت الضرائب من رجال الدين ، واخضعتهم للقانون المدنى ، وحظرت بغير موافقتها بناء أى معابد أو أديار جديدة ونقل ملكية الأراضى

الكنيسة : وراح حزب من ساسة البندقية يتزعمهم ليوناردو دوناتو ونيكولو كونتاريني ، يقاوم بصفة خاصة دعاوى البابوية بأن لها سلطانا على الأمور الدنيوية . وفى عام ١٦٠٥ ارتقى كاميللو بورجيزى كرسى البابوية باسم بولس الخامس ، وفى السنة التالية اختير دوناتو « دوجا » للبندقية ، ووقف الرجلان اللذان كانا بالأمس صديقين ، يوم كان دوناتو مبعوثا لدى روما ، يواجه أحدهما الآخر فى صراع بين الكنيسة والدولة ردد عبر قرون خمسة أصداء ذلك النضال الذى احتدم من قبل بين البابا جريجورى السابع والامبراطور هنرى الرابع . وكانت صدمة للبابا بولس أن يعلم أن الزعيم الفكرى للحزب المناهض للاكليروس فى البندقية راهب سمىّ له ، ينتمى لجماعة « خدام العذراء » هو فرا باولو ساربى .

وساربى هذا كان فى رأى مولمنتى « ألمع العقول التى أنجبتها البندقية قاطبة[٤] » . كان أبوه تاجرا ، والتحق الصبى بجماعة « الخدام » وهو فى الثالثة عشرة ، وتشرب العلم فى شغف ، وحين بلغ الثامنة عشرة دافع عن ٣١٨ قضية علمية فى جدل علنى بمانتوا ، ووفق فى دفاعه توفيقا حمل دوقها على تعيينه لاهوتيا لبلاطه . ثم رسم كاهنا فى الثانية والعشرين ، وأصبح أستاذا للفلسفة ، وفى السابعة والعشرين انتخب ممثلا اقليميا لرهبنته لدى جمهورية البندقية . وواصل دراساته فى الرياضيات ، والفلك ، والفيزياء ، وشتى العلوم . واكتشف انقباض القزحية ، وكتب مقالات علمية ضاعت ، وشارك فى الأبحاث والتجارب التى قام بها « فابريزو داكوابندنتى » و « جامباتيستا ديللا بورتا » ، الذى قال انه لم يصادف قط « رجلا أغزر علما ولا أكثر دقة فى محيط المعرفة بأسره[٥] » وربما آذت هذه الدراسات الدنيوية عقيدة باولو ، فقد رحب بصداقة بعض البروتستنت ، وقدمت التهم ضده لمحكمة تفتيش البندقية — وهى نفس الهيئة التى لن تلبث أن تلقى القبض على جوردانو برونو . ورشحه مجلس الشيوخ اسقفا ثلاث مرات ، وثلاث مرات رفض الفاتيكان الترشيح ، وقوت ذكرى هذه الهزائم من عدائه لروما .

وفى عام ١٦٠٥ قبض مجلس الشيوخ على كاهنين وأدانهما بجرائم خطيرة. فطالب البابا بولس الخامس بإحالة الرجلين إلى القضاء الكنسى ، وأمر بإلغاء القوانين الموجهة ضد الجديد من الكنائس والديورة والطرق الدينية. ورفضت حكومة البندقية فى أدب ولباقة . فأمهل البابا الدوج والحكومة ومجلس الشيوخ سبعة وعشرين يوما للامتثال لأوامره . وهنا استدعوا فرا باولو باعتباره مستشاراً فى القانون الكنسى ، وأشار ساربى بمقاومة البابا ، وحجته فى ذلك أن سلطاته لا يسرى إلا على الأمور الروحية ، واعتنق مجلس الشيوخ رأيه هذا . وفى مايو ١٦٠٦ حرم البابا دوناتو والحكومة وأوقع حظراً على جميع الخدمات الدينية فى أراضى البندقية . وأصدر الدوج تعليماته للكهنة البنادقة بتجاهل الحظر ومواصلة أداء وظائفهم ، ففعلوا إلا اليسوعيين والثياتين والكبوشيين . ورحل اليسوعيون بجملتهم عن البندقية ، لأن قوانينهم تلزمهم بطاعة البابوات ، وذلك برغم انذار الحكومة لهم بأنهم ان رحلوا فلن يسمح لهم بعدها بالعودة . ونشر ساربى خلال ذلك ، ردا على الكردينال بللارمينى ، كراسات دعا فيها إلى تقييد سلطة البابا ، وأعلن أن للمجامع العامة سلطانا يسمو على سلطان البابوات .

ولجأ بولس الخامس إلى أسبانيا وفرنسا ، ولكن أسبانيا هذه طالما رفضت المراسيم البابوية ، أما هنرى الرابع ملك فرنسا فكان مدينا للبندقية بصنيعها معه . على أنه أوفد إليها رجلا حكيما هو الكردينال دجوايوز ، الذى ابتكر ما اقتضاه الموقف من صيغ تحفظ ماء الوجوه . فافرج عن الكاهنين وسلما إلى السفير الفرنسى ، الذى أسلمهما بعد قليل إلى روما ، ورفض مجلس الشيوخ الغاء القوانين التى اعترض عليها البابا ، ولكنه — أملا فى المعونة البابوية ضد الترك — وعد بأن الجمهورية « ستسلك بما عهد فيها من ولاء » . وأوقف البابا لومه ، ورفع جوايوز الحرم عن المحرومين . يقول مؤرخ كاثوليكى « لقد غلت مزاعم البابا بولس الخامس فى تشبهها بمزاعم القرون الوسطى غلوا جعل تحقيقها ضربا من المحال(٦) » . وكانت هذه آخر مرة أوقع فيها الحرم على دولة بأسرها .

وفى ٥ أكتوبر ١٦٠٧ هاجم بعض القتلة المستأجرين ساربى وتركوه وهم يحسبونه ميتا . ولكنه أفاق ، وروى أنه علق على الهجوم بهـذه الحكمة ، التى فيها من البراعة ما يجعل صدورها عنه لحظتها بعيد الاحتمال ، « انى تبين أسلوب الادارة البابوية الدقيق[٧] »(*) . ووجد القتلة الحماية والاستحسان فى الدويلات البابوية[٨] . بعد هذا عاش ساربى معتكفا فى صومعته يتلو القداس كل يوم ، ولكن « مرقمه » لم يكن معطلا . ففى عام ١٦١٩ نشر تحت اسم مستعار وعن طريق دار نشر لندنية « تاريخ مجمع ترنت » ، وهو اتهام ضاف للمجمع ، صور فيه حركة الاصلاح الدينى تصويرا بروتستنتيا خالصا ، وأدان المجمع لأنه باذعانه التام للبابوات حال دون رأب الصدع فى الكنيسة . وتحمس العالم البروتستنتى للكتاب ، وأطلق ملتن على مؤلفه « ممزق القناع العظيم » . أما اليسوعيون فعهدوا إلى فقيه منهم يدعى سفورتزا باللافتشينو بكتابة تاريخ معارض (١٦٥٦ — ٦٤) كشف تحيز ساربى وعدم دقته وباراه فيهما[٩] . وعلى الرغم من تحيز الكتابين فانهما سجلا تقدما فى جمع الوثائق الأصلية واستخدامها ، وفى سالة ساربى المسهبة سحر البلاغة النارية ، وهذا تشويق اضافى ذو خطر . لقد كان الرجل متقدما كثيرا على جيله فى الدعوة إلى الفصل التام بين الكنيسة والدولة .

فى ظل هذه الحكومة الأبية ، وفوق تلك القنوات المطمئنة العطرة ، واصلت البندقية سعيها وراء المال والجمال تسترضى المسيح بالعمارة ، والعذراء بالابتهالات ، فلكل أسبوع عيد يتذرع للاحتفال به بقديس ما ، وفى رسوم جواردى نرى أمثلة من هذه الانتشاءات الجماهيرية ، وتلحظ فى صور الأشخاص ذلك الترف الشرقى الحسى ، ترف الثياب والحلى .

(*) التورية هنا فى كلمة Stilus و Style . والكلمة الأولى كانت فى الأصل تعنى حديدة مستدقة الطرف ، ثم سناً من حديد استعمل فى الكتابة على ألواح من الشمع ، ثم قلما ، ثم طريقة فى الكتابة ، أى أسلوبا . والتصغير الايطالى Stiletto كان له معنيان : المرقم ، والخنجر الصغير .

وكان فى وسع المرء فى أية أمسية أن يسمع الموسيقى تعزف فى الزوارق (الجوندولا) . ولو وطئت قدماه زورقا من هذه الزوارق السحرية ولم يفه بأى توجيه للملاح ، لمضى به دون كلام كثير إلى بيت مومس شريكة له . وقد دهش مونتينى لكثرة بنات الهوى البندقيات ، وغلوهن فى التحرر ، وما هو بالرجل المغرض المتحيز ، وكن يدفعن ضريبة للدولة ، لقاء سماحها لهن بأن يسكن حيث شئن ، ويلبسن ما يشتهين ، ولقاء دفاعها عنهن ضد الزبائن الذين يأكلون حقوقهن(١٠) .

واكتسبت « القناة الكبرى » وأفرعها مزيدا من الحسن عاما بعد عام بفضل ما قام على ضفافها من كنائس فخمة أو قصور جديدة مشرقة أو جسور رشيقة . ففى عام ١٦٣١ عهد مجلس الشيوخ إلى بالداسارى لونجينا ببناء كنيسة رائعة للعذراء « سانتاماريا ديللا سالوتى » وفاء بنذر لأنها ردت إلى أهل المدينة عافيتهم عقب طاعون كبير . وفى ١٥٨٨ — ٩٢ أقام انطونيو دا بونتى بدلا من الجسر الخشبى العتيق « جسر ريالتو » الحديد الذى امتد عبر القناة الكبرى فى قوس واحد من الرخام طوله تسعون قدما ، وقامت المتاجر على جناحيه . وحوالى عام ١٦٠٠ بنى « جسر التنهدات » (بونتى دى سوسبيرى) عاليا فوق قناة تجرى بين قصر الدوج وسجن القديس مرقس — « فقصر على طرف وسجن على الطرف الآخر — » (١١) . وأتم سكاموتزى كنيسة باللاديو « سان جورجو » ومكتبة فيكيا التى بدأها سانسوفينو . وبنى سكاموتزى ولونجينا « البروكوراتى نوفى » (١٥٨٢ — ١٦٤٠) الملاصق لميدان القديس مرقس ليستخدم مكاتب جديدة لحكومة البندقية . وقامت الآن قصور شهيرة على ضفاف القناة الكبرى : بالبى ، وكونتارينى ديلى سكرينى ، وموتشينجو ، حيث عاش بايرون فى ١٨١٨ . والذين لم يروا من قصور البندقيـــة سوى ظاهرها لا يستطيعون أبدا تصور ما فى باطنها من بذخ — يجعله الذوق الرفيع سائغا : تلك السقوف ذات الرسوم الجصية أو الزخارف الغائرة ، والجدران المزدانة بالصور أو قطع النسيج المرسوم ، والمقاعد المكسوة بالساتان ،

والكراسى والموائد والصناديق المنقوشة ، والدواليب المطعمة بالصدف والعاج ، والسلالم العريضة الفخمة التى بنيت لتعيش القرون الطويلة . هنا نعمت أولجركية غيور ، قوامها عــدة مئات من الأسر ، بكل ثراء أقطاب التجارة ، وبكل المعايير الفنية المرهفة التى أتيحت للأرستقراطيات العريقة .

ولا يبرز فى هذه الفترة بين مثالى البندقية غير مثال واحد هو أليساندرو فينوريا ، ولكن فن التصوير البندقى أنجب اثنين من مصورى المرتبة الثانية . فقد أورث بالما فيكيو (مات ١٥٢٨) فنه عبر الأجيال إلى حفيد لأخيه يدعى بالما جوفانى — أو ياكوبو بالما الأصغر — الذى مات بعد موت جده بمائة عام تماما . والرأى فى فن جوفانى — إنه « منحط » لأن الرجل كان يرسم فى عجلة يشوبها الاهمال ، ولكن بعض صوره ، كصورة « البابا اناكليتوس » فى كنيسة الصلب ، تدنو من العظمة ، وفى هذه السطور التى خلفها مولمنتى يقفز هــذا الفنان الأصغر المهمل إلى الحياة .

« لم يكن لبالما جوفانى من هدف . . . سوى فنه ، الذى عجز أشد الأحزان عن أن يصرفه عنه . ففى فنه التمس العزاء عن موت ولديه ، اللذين مات أحدهما فى نابلى ، وقضى الآخر فى حياة الفجور . وبينما كانت زوجته تحمل إلى قبرها عكف على الرسم هروبا من الألم »(١٢) ؟

أما برنارد و ستروتزى فقد حصر بين ساقيه قمة الحذاء السحرى ، إذ ولد فى جنوه ، ومات فى البندقية (١٦٤٤) ، وخلف صورا لكل قاعة فن تقريبا بين البلدين . انفق بعض عمره راهبا كبوشيا ، ثم خلع رداء الرهبة ، ولكنه لم يستطع قط ان يخلع كنيته « الكبوشى » . وبعد أن بذل محاولات كثيرة ، وجد التسامح والتوفيق فى البندقية ، وفيها انتج أنتج أفضل أعماله . ويكفى أن نذكر مثلا منها « هو صورة أخ دومنيكى » (برجامو) : فـ « البيريه » العالية تزين الجبين العريض ، والعينان عابستان

مركزتان ، والأنف والفم ناطقان بقوة الشخصية ، واليد الرقيقة تنئ بعراقة الأصل ؛ أن تتسيانو نفسه لم يكن في وسعه أن يبدع خيرا من هذا الفن . ولو ظهر هـذان الوريثان للعمالقة من السلف فى أى وطن آخر لحسبا من العمالقة .

حـ — من بادوا إلى بولونيا

انحصر فخر بادوا بجملته الآن فى جامعتها . ففيها درس هارفى فى هذه الحقبة ، وفيها علم جاليليو . وفى إمارة فيرارا لم يبد الفونسو الثانى (حكم ١٥٥٩ — ٩٧) تقاعسا أو فتورا فى همة آل ايستى الذين حكموا الامارة منذ ١٢٠٨ . وصورته التى يحتفظ المتحف البريطانى بنسخة منها غفل من الترقيع يطل منها رأس قوى . ولحية آمرة ، وعينان تنبئان بعقل حازم مكتئب . كان فى وسعه أن يكون قاسيا لا يرحم الذين يقاومونه ، رفيقا بغيرهم ، صبورا على غضبات تاسو ، جريئا فى النزال ، مشتطا فى فرض الضرائب . وقد واصل التقليد الذى جرت عليه أسرة ايستى فى بسط رعايتها على الأدب والعلم والفن ، وجمع ثمارها كلها فى ثقافة بلاطه وبهائه ومرحه . أما الشعب فكان عليه أن يقنع بالكفاف — وأن يستمتع بثمار كده فى شخص وكلائه . وقد أخفق الفونسو فى أن يعقب ولدا برغم جبروته كله ، وبرغم زواجه من ثلاث نساء على التعاقب ، وأصبحت فيرارا دويلة بابوية فى ١٥٩٨ بمقتضى اتفاق كان قد أبرم فى ١٥٣٦ ، بعد أن ظلت طويلا اقطاعة بابوية — وهكذا انتهى تاريخها الثقافى .

أما بولونيا التى خضعت للحكم البابوى منذ ١٥٠٦ فقد اتيح لها فى هذا العصر ازدهار ثان تمثل فى مدرسة للتصوير سادت ايطاليا مدى قرنين ومدت نفوذها إلى أسبانيا وفرنسا وفلاندر وانجلترا . عاد لودوفيتشو كاراتشى ، وهو ابن جزار غنى ، إلى بولونيا بعد أن درس الفن فى البندقية وفلورنسة وبارما ومانتوا . وكان تنتوريتو قد حذره بأنه لم يوهب عبقرية التصوير ، ولكنه أحس أن الاجتهاد يمكن أن يقوم مقام العبقرية ،

ثم أن العبقرية لا تعوزه : وبعث بحماسته الحمية فى اثنين من أبناء عمومته هما أجوستينو وأنيبالى كاراتشى — وكان أحدهما صائغا والآخر خياطا ، فرحلا إلى البندقية وبارما ليدرسا فن تيشان (تتسيانو) وكوريدجو : فلما عادا انضما إلى لودوفيتشو وفتح الثلاثة أكاديمية « للبادئين على الطريق (١٥٨٩) . وقد وفروا فيها تعليم أصول الفن وتاريخه وطرائقه ، والدرس المدقق لأئمة الفن ، ورفضوا التشديد على « اللازمات » أو الاغرابات التى التزمها أى من الفنانين ، بل آثروا الجمع بين نعومة رفائيل الأنثوية ، وبلاغة كوريدجو الرقيقة ، وفحولة ميكلانجلو ، وتنويع ليوناردو الضوئى ، وتلوين تيشان الدافئ — كلها فى مذهب شامل واحد . هذه « المدرسة الانتقائية » أتاحت لبولونيا أن تنافس روما ، عاصمة فنية لايطاليا .

والصور التى خلفها المصورون كاراتشى لا تحصى ، وكثير منها محفوظ فى أكاديمية بولونيا للفنون الجميلة ، وبعضها فى اللوفر ، ولكنا نجدها فى أماكن أخرى كثيرة . ونتاج لودفيتشو أقلها جاذبية ، ولكنه يبلغ غايته فى صورة « البشارة » المشرقة ، وصورة « استشهاد القديسة أورسولا » ، وكلتاهما فى « قاعة صور الأكاديمية . أما اجوستينو ففنه يتجلى فى لوحة « عشاء القديس جيروم » القوية — التى لم تمنعه من الاستجابة للطلب الكثير على نسخ من الصور الفاجرة . وأما أنيبالى فكان ألمع أفراد الأسرة موهبة ،وقد نقل عن كوريدجو رهافة فى الخطوط والألوان ندر أن طاولها ابناعمه . تأمل الأناقة الشهوانية فى لوحته «الباخوسية» المحفوظة بقاعة الأوفتزى ، وصورة الأنثى الكاملة فى « الحورية والساطير » المحفوظة بقصر بتى ، وصورة الذكر الكامل فى « عبقرية الشهرة » المحفوظة بدرسدن ؛ وقد أبدع فى لوحته « المسيح والمرأة السامرية » (فينا) آية من آيات الفن فى هذه الحقبة — صورا جديرة بريشة رفائيل ، ومنظرا طبيعيا سبق به بوسان .

وفى عام ١٦٠٠ قبل أنيبالى وأجوستينو دعوة الكردينال فارنيزى لهما ليذهبا إلى روما ويرسما صالة قصره فيها . فاختارا موضوعا مناسبا ورسما « انتصار باخوس » ، وهى مهرجان روبنزى من المفاتن الأنثوية .

ومن روما انطلق أجوستينو إلى بارما حيث رسم لوحـة جصية هائلة للكازينو ، ومضى أنيبالى إلى نابلى حيث يرى فى متحفها القومى إلى اليوم ذلك المزج الذى اختص به بين لوحة « العائلة المقدسة » ولوحة « فينوس ومارس » . وقد ودع أبناء العم الثلاثة الحياة متفرقين ، وهم الذين طالما جمع الفن بينهم . فمات أجوستينو فى بارما (١٦٠٢) ، وأنيبالى فى روما (١٦٠٩) ، ولودفيتشو فى بولونيا التى ظل وفيا لها — فكان أول الوافدين عليها وآخر الراحلين عنها (١٦١٩) .

لقد دربت المدرسة الجديدة نفرا من أشهر رسامى ذلك العهد . وكان لأحدهما — وهو جيدو رينى — من الأتباع أكثر مما كان لأى مصور فى أوربا . فبعد تفتح مواهبه المبكر بفضل عناية المصورين كاراتشى ، استسلم لإغراء روما (١٦٠٢) ، واشتغل فيها عشرين عاما — ثم عاد إلى بولونيا ليرسم صورا فيها من حس التقوى ، وجمال العاطفة ، ما جعلها همزة وصل مرحبا بها بين سنية الايمان وهرطقات الجسد . أما جيدو نفسه فيبدو أنه كان مخلصا فى تدينه ، واثر عنه احتفاظه بعذريته كاملة إلى النهاية . وصورته الذاتية المحفوظة بمتحف الكابيتولينى تظهره فى شبابه ، فتى وسيما كالصبايا ، أشقر الشعر أبيض البشـرة أزرق العينين . وأروع صـوره صورة « الفجر » الجصية المرسومة على سقف قصر روسبليوزى بروما . وفيها ترى ربة الفجر تحلق فى الجو ومن خلفها جياد رشاق تجر فيبوس الأشعث فى مركبته ، تصحبه راقصات ملاح الوجوه حسان الأجساد ، يمثلن ساعات اليوم ، وكاروبيم مجنح كأنه خاتم المسيحية على هذه النشوة الوثنية . ورسم جيدو أساطير أخرى — مثل « اغتصاب هيلانة » فى اللوفر ، و « تفاحات الهسبريد » فى نابلى ، ولوحة « فينوس وكيوبد » الشهوانية فى درسدن . وعن العهد القديم أخذ لوحته المشهورة « سوسنه والشيوخ » (الأوفتزى) . ولـكنه فى أكثر رسومه قنع باعادة تصوير الموضوعات القديمة القريبة إلى قلوب الناس المحببة إلى الـكنيسة ، كقصة المسيح وأمه —

وكلها ينضح بما ندد به قساة النقاد من اسراف « مجدلى » (*) فى العاطفة ، على أنه أجاد فى تصوير الرسل ، كما تشهد بذلك لوحة « القديس متى » المحفوظة بالفاتيكان ، وقد رسم رأسا رائعا للقديس يوسف (بريرا) ، وفى لوحة « استشهاد القديس بطرس » بالفاتيكان جرب واقعية كارافادجو الصارمة . وحين عاد إلى العاطفة رسم لقاعات الفن لوحة « القديس سباستيان » المشهورة ، وفيها يبدو القديس وهو يتلقى السهام فى جسده الكامل هادئا رابط الجأش . وفى كل آثاره نلمح براعة الأسلوب المدرب خير تدريب ، ولكنا حين نقارن هذه اللوحات المقدسة ، المفرطة الحلاوة ، بلوحة رفائيل « ستانتزى » أو بسقف كنيسة السستين الذى رسمه ميكلانجلو ، لا يحركنا فى فن رينى غنى اللون ولا نعومة الخط ، بل « الافتقار إلى الجرأة » . كان يحلم حلما يغتفر له حين كتب يقول : « أحب أن اخلع على الوجه الذى ارسمه جمالا كالجمال الكامن فى الفردوس[١٣] » ، ولكنه فضح نفسه حين فاخر بأن لديه « مائتى طريقة لجعل العيون تطلع إلى السماء[١٤] » .

اتبع دومنيكينو (دومنكيو تزامبيرى) سياسة جيدو فى ارضاء الوثنيين والمتدينين جميعا ، ولما كان هذان فى كثير من الأحيان واحدا فان الخطة أثمرت . كان معقدا أكثر من جيدو ، فيه تواضع وحياء ، يحب الموسيقى ويعشق زوجته . وقد تعلم هو أيضا التصوير فى بولونيا ثم انطلق إلى روما سعيا إلى الفن والمال . وأثار نجاحه هناك حسد منافسيه فيها ، فاتهموه بانتحال صور غيره ، فقفل إلى بولونيا راجعا ، ولكن جريجورى الخامس عشر استدعاه ليكون كبير معمارى الفاتيكان ومصوريه . فصمم فيللا لودوفيزى بروما ، وهى اليوم أثر بعد عين ، كما صمم جزءا من فيللا الدوبراندينى بفراسكاتى ، مستعينا فى فنه بشىء من تعدد البراعات الذى

(*) لاحظ أن هذه الكلمة maudlin تحريف لكلمة magdalen ـ التى ما زالت تنطلق « مودلن » فى أسمى كلية مودلن باكسفورد ، وكلية مودلن بكمبردج ـ أما مريم المجدلية ذاتها فلم تعفها ريشة جيدو الحسية من المطاردة الملحة .

أثر عن رجال النهضة . ولما انتقل إلى نابلى بدأ سلسلة من الصور الجصية فى كاتدرائيتها . وكاد يتم مهمته برغم ما لقى من مشاق ضاعف منها مصورو نابلى ، ولكنه مات (١٦٤١) فى الستين من عمره وهو لا يزال فى عنفوان فنه . وأعظم لوحاته « عشاء القديس جيروم الأخير » المحفوظة بالفاتيكان . واستنادا إلى هذه الرائعة لم يفضل بوسان عليه من المصورين سوى رفائيل[١٥] ، ونحن نحترم هذا التحمس أكثر مما نحترم الحكم . أما رسكن ففى رأيه أن دومنيكينو « عاجز بصورة واضحة عن الإتيان بشىء حسن ، أو عظيم ، أو صواب ، فى أى ميدان ، أو سبيل ، أو فرع ، كائنا ما كان[١٦] » ، ونحن لا نعجب بالحكم ولا ببلاغة العبارة هنا .

أما آخر تلاميذ آل كاراتشى الثلاثة المشهورين فقد شتهر بكنية مؤسفة هى جويرتشينو — « الأحول » — ما أصاب عينه من تشويه أثر حادث وقع له فى طفولته ، ولكن أمه سمته جوفانى فرانشسكوباربيرى . مارس التصوير فعلا ، متأثراً بأسلوب كارافادجو القوى ، قبل أن يأتى ليدرس على يد آل كراتشى ، لذلك توسط فى فنه بين بولونيا وروما . وظل أعزب مثل جيدو ، وعاش عيشة التقشف ، وأظهر خير فضائل حركة الاصلاح الكاثوليكى فى حياته الهادئة الكريمة . وقد خلف لنا الكثير من الصور اللطيفة ، منتشرة من روما إلى شيكاغو ، وكان أضعف مصورى المدرسة البولونية وأحبهم إلى الناس .

إن النظرية الأساسية التى قامت عليها المدرسة الانتقائية — وهى أن فى الاستطاعة تكوين الفنان العظيم بمحاولة الجمع بين مختلف المزايا التى تفرد بها سابقوه — هذه النظرية كانت خطأ بغير شك ، ذلك لأن شيمة العبقرية كثيرا ما تكون التعبير عن شخصية وشق مسالك جديدة ، بيد أن « أكاديمية البادئين على الطريق » أفادت فى بث تقليد ونظام ربما اشتطت العبقرية لولاهما وأغربت .

والنجاح الذى أصابته المدرسة يعزى جزئيا إلى تعاونها الحاضر مع

حاجات الكنيسة ، فقد احتاجت البابوية بعد اصلاحها ، كما احتاج اليسوعيون بعد اتساع منظمتهم ، إلى ألوان جديدة من التعبير عن قصة المسيح ، ومن التحريض الحى على التقوى والإيمان . وقد مس المصورون الباروكيون كل وتر عاطفى فى العابدين ، وانتشرت الصور التى رسموها للعذراء والعذلية فى العالم المسيحى الكاثوليكى قاصيه ودانيه . ومنذا الذى ينكر أن الناس أقروا بالفضل لهذه الإلهامات ، أو أن الكنيسة حين وفرتها اثبتت أنها أعظم السيكولوجيين فى التاريخ فهما لطبائع البشر ؟

كانت الدولات البابوية قد استوعبت منذ زمن فورلى ورافنا وريمنى وأنكونا ، ثم ضمت إليها أوربينو عام ١٦٢٦ ، وبيزارو عام ١٦٣١ . وإذا اتجهنا جنوبا ، مارين بفودجا وبارى وبرنديزى حتى كعب « الحذاء السحرى » — ومارين بتارانتو وكروتونى وريدجو كالابريا حتى ابهامه ، وعرضا من سيلا إلى كاريبديس مخترقين صقلية ، وشمالا على طول الساحل الغربى إلى كابوا — وجدنا مملكة نابلى ، التى أصبحت ولاية أسبانية منذ ١٥٠٤ . هنا كان ثلاثة ملايين من السكان المشبوبى العاطفة ، يكدحون فى ذل الفقر بين أرجاء هذه المملكة المنبسطة فى غير نظام ليدبروا المال الذى تطلبه بهاء عاصمتها المتألقة . وقد رأى ايفلين نابلى عام ١٦٤٥ وقال فى وصفها : —

« إن كبار الحكام يفتنون فى الاثراء من كد الشعب التعس لما فيهم من شره شديد للمال . وعمارة المدينة إذا قيست بحجمها أفخم من أى نظير لها فى أوربا : فالشوارع واسعة جدا ، جيدة الرصف ، كثيرة الأنفاق لصرف الأقذار ، ومن ثم أصبحت غاية فى الجمال والنظافة . . وتملك المدينة أكثر من ٣٠,٠٠٠ كنيسة ودير ، وهى خير ما فى إيطاليا بناء وزخرفا . والقوم شديدو التظاهر بالوقار الأسبانى فى لباسهم ، وهم يهوون الجياد الفارهة ، والشوارع حافلة بالوجهاء المتأنقين يمتطون الخيل أو

يركبون المركبات أو الحفات . أما النساء فلاح الوجوه عموما ، ولكن فيهن شبق شديد[١٧] » .

كان الكل يبـــدون مرحين ، تفيض لفوسهم بالموسيقى والشعر والتقوى ، ولكن تحت هذا السطح المرح ، وتحت بمصر محكمة التفتيش ، كانت النفوس تجيش بالهرطقة والثورة . ففى هذا العهد عاش الفيلسوف تيليزيو ومات (١٥٨٨) ، وفى نولا ، القريبة من نابلى ، ولد برونو (١٥٤٨) . وفى عام ١٥٩٨ اشترك كامبانيللا فى حركة تمرد استهدفت جعل كالابريا جمهورية مستقلة ، ولكن المؤامرة فشلت ، وقضى الشاعر الفيلسوف بعدها سبعة وعشرين عاما فى غياهب السجن .

وفى عام ١٦٤٧ انتاب نابلى ضرب من الهوس من جراء انتفاضة من هذه الانتفاضات المسرحية التى عطلت بين الحين والحين الاستغلال الزراعى فى إيطاليا . ذلك أن تومازو أنييللو ، المشهور بمازانييللو ، كان بائع سمك متجولا حكم على زوجتــه بغرامة كبيرة لتهريبها القمح . فلما فرض الحاكم الأسبانى ضريبة على الفاكهة ليمول البحرية ، وأبى زراع الفاكهة وباعتها أداء الضريبة ، دعا تومازو الناس إلى العصيان المسلح . فتبعه مائة ألف إيطالى حين زحف على قصر الحاكم مطالبا بسحب الضريبة . وروع الحاكم فأذعن للطلب ، وأصبح تومازو — الذى كان يومها فى الرابعة والعشرين — سيداً على نابلى ، وحكمها عشرة أيام ، أعدم خلالها ألفا وخمسمائة من الخصوم فى حمى الدكتاتورية ، وسعر الخبز بثمن أقل ، وكان عقاب خباز رفض الامتثال للتسعيرة ان شوى حيا فى فرنه[١٨] — ولكن أعداء تومازو هم الذين كتبوا التاريخ ، وذكروا أن تومازو ، الذى ارتدى ثوبا من الذهب ، أحال بيته المتواضع إلى قصر يرفل فى مظاهر السلطان ، وطاف حول الخليج فى زورق فاخر . ولكن فتاكا استأجرتهم أسبانيا اغتالوه فى ١٧ يوليو . وأخذ أتباعه الجثة التى قطعت أوصالها فجمعوا الأشلاء وشيعوها فى مشهد جليل . وماتت الحركة بعد أن فقدت قائدها .

استطاع ضرب من الفن الدينى القاتم أن يحتفظ بالحياة برعاية المطارنة والحكام . ففى عام ١٦٠٨ انفقت الكنيسة مليونا من الفلورينات لتشيد فى كاتدرائية سان جينارو كنيسة صغيرة تسمى « كابيللا ديل تيزورو » لتكون ضريحا لأنائين يحتويان الدم المتخثر الذى تخلف عن القديس يانواريوس حامى نابلى . وقيل للشعب انه لا بد أن يسيل الدم ويجرى مرتين فى العام لكى تزدهر نابلى وتأمن غائلة فيزوف .

أما التصوير فى نابلى فقد ظل يهيمن عليه حينا ثلاثى من الفنانين الغيورين — كورينتزيو ، وكاراتشولو ، وريبيرا — الذين عقدوا العزم على أن يكون كل التصوير فى نابلى وقفا عليهم أو على أصحابهم . وقد بلغ من تهديداتهم لانيبالى كاراتشى أنه أكره على الفرار إلى روما ، حيث ادركه الموت بعد قليل من جراء رحاته المحمومة التى اضطر إليها تحت شمس حامية[١٩] : وحين حضر جيــدو رينى لزخرفة « كنيسة الكنز » تلقى انذارا بأن يرحل عن نابلى أو يموت ، فرحل من فوره تقريبا وهو لم يكد يبدأ مهمته . وأركب اثنان من مساعديه بقيا بعــد رحيله سفينة كبيرة لتشغيل العبيد وانقطع خبرهم بعدها . ثم حضر دومنيكينو ، وأتم اربع صور جصية فى الكنيسة على الرغم من أن الصور محيت غير مرة ، وأخيرا فر من تهديدات ريبيرا ، ثم عاد بعد أن تعهد الحاكم بحمايته ، ولكنه مات بعد قليل ، ربما مسموما[٢٠] .

على أننا لا بد أن نشيد بذكر جوزى أو جوزيبى ريبيرا ، برغم كل جرائمه ، لأنه أعظم مصورى هذا العهد فى إيطاليا . وتدعيه أسبانيا لنفسها استنادا إلى أنه ولد فى زاتيفا قرب بلنسيه (١٥٨٨) ، وقد درس حينا على فرانشيسكو دى ريبالتا ، ولكنه قصد روما فى بواكير شبابه . هناك عاش فى فقر مدقع ، ينسخ الصور الجصية ولا يجمع غير الفتات ، حتى قيض الله له واحدا من هؤلاء الكرادلة عشاق الفن كان لا يزال يشعر بوحى النهضة ، فاستضافه فى قصره ويسر له الغذاء والفراش والألوان

والكساء . وراح جوزيبي ينسخ في جد ومثابرة لوحات رفائيل في الفاتيكان وصور آل كاراتشي في قصر فارنيزي . ثم فر « الأسباني الصغير » إلى بارما ومودينا ليدرس كوريدجو حين وجد أن الراحة اطفأت حماسته . وعاد إلى روما ، وتشاجر مع دومنيكينو ، ثم انتقل إلى نابلي . وفيها أو في روما وقع تحت تأثير كارافادجو ، الذي زاده أسلوبه الوحشي رسوخا في المذهب الطبيعي القاتم ، ولعله أخذه من قبل عن ريبالتا . واستلطفه تاجر صور غني فعرض عليه أن يتزوج ابنته الحسناء . وظن جوزيبي المملق أن الرجل يسخر منه ؛ ولكن حين اعاد العرض قفز صاحبنا إلى حياة الزواج والثراء .

ورسم الآن لوحته المسماة « سلخ جسد القديس برتولميو » ، وفيها من احتمال الحقيقة الدامي ما جعلها — حين عرضت — تجتــذب حشدا من المتفرجين استهواهم الدم أكثر من الفن . أما الحاكم الأسباني — وهو أوزونا الذي عرفناه متآمرا على البندقية — فقد أرسل في طلب اللوحة والمصور ، وافتتن بهما ، ثم عهد إلى ريبيرا بكل أعمال الزخرفة في القصر . وأقصى الأسباني النهم كل منافسيه ، حتى عهــد إلى جوفاني لانفرانكو صديقه برسم الصور الجصية لكنيسة الكنز ، . وقام هو نفسه بتنفيذ صور المذبح التي مثل فيها يانواريوس ، القديس الذي لا تؤذيه النار ، يخرج من أتون مشتعل دون أن يمسه لهيبه .

بعد هــذا أصبح ريبيرا إمام فنه غير منازع في نابلي . وبدا أن في استطاعته إن شاء أن يضارع نعومة رفائيل وكوريدجو دون أن يقع في عاطفية جيدو ريني أو موريللو ، وأن يرتفع بواقعية كارافادجو إلى مزيد من القوة بفضل حدة تصوره وعمق تلوينه . وحسبنا أن نستشهد بلوحتين فقط من لوحاته « بييتا » و « الرثاء » ، في كنيسة سان مارتينو وديرها — « عمل إذا نظر إليه على أنه تجسيد لجلال الحزن الرهيب لهبطت كل التعبيرات المماثلة له في ذلك القرن إلى درك المشاهد المسرحية [٢١] » ، أوخذ من الأساطير لوحته « أرخميدس » . في متحف البرادو — فهو بالضبط ذلك

الصقلى العجوز المتغضن الذى قد يلتقى المرء بأشباهه اليوم فى سيراقيوز . وحين انتقل ريبيرا من الكتاب المقدس والتاريخ إلى الشارع ، وجد التنويع لفنه فى لقطات واقعية من صميم الحياة العامة ، فكان فى لوحة « الصبى الحافى » المثال الذى احتذاه فلاسكويز وموريللو (*) .

وعيوب ريبيرا تقفز إلى العين — غلو فى العنف ، وولع بالتجاعيد والضلوع ، وظمأ للدم . وقد لاحظ بايرون أن « هذا الأسبانى الصغير لوث ريشته بكل دماء القديسين[٢٢] » . ان ألوانه الكابية وتشديده على الجانب القاتم من الحياة يروع ويغم ، ولكن هذا الأسلوب المظلم وجد تقبلا حاضراً فى بلد كنابلى كابد حكم الأسبان وتقلبات مزاجهم . وتنافست عليه كل كنيسة أو دير جديد ، وكان فيليب الرابع وحكام نابلى بعض زبائنه الشرهين . وانتشرت رسوم ريبيرا ومحفوراته فى أسبانيا انتشارا أوسع من أعمال فيلاسكويز — الذى زاره مرتين فى إيطاليا . أما بيتـه فكان من أفخم بيوت نابلى ، وأما ابنتاه فايتان فى الفتنة السمراء ، وقد شرفت إحداهما باغواء « دون خوان » آخر لهـا! هو الابن غير الشرعى لفيليب الرابع ، الذى هرب بها إلى صقلية ، ولكنه سرعان ما ملهـا وهجرها ، فاعتكفت فى دير للراهبات ببالرمو . أما ريبيرا فأشرف على التلف كمدا وعارا ، والتمس العزاء فى صور للعذراء يخلع عليها الملامح التى لم ينسها ، ملامح ابنته ماريا روزا التى فقدها ، ولكنه مات بعد مأساتها بأربع سنوات (١٦٥٢) .

٢ — روما والبابوات

أصبحت عاصمة الدويلات البابوية(**) وقصبة العالم الكاثوليكى الرومانى

(*) يجد رواد المتاحف من صور ريبيرا ثلاثا وستين فى البرادو ، وملء نصف قاعة فى رواق الصالون كاريه باللوفر : وتحتفظ نيويورك بصورة « العائلة المقدسة » فى متحف المتروبوليتان للفنون ، وبصورة للمجدلية فى الجمعية الأسبانية .

(**) أهمها هذه المدن وما يحيط بها : روما ، وأوستيا ، وفيتربو ، وتيفولى ، وسبوليتو ، وفولينو ، وأسيسى ، وبيروجيه ، وجوبيو ، وأوربينو ، ولوريتو ، وأنكونا ، وبيزارو ، وريمينى ، وفورلى ، ورافينا ، وبولونيا ، وفيرارا .

مدينة من مدن المرتبة الثانية ، فيها من الأنفس ٤٥,٠٠٠ عام ١٥٥٨ ، زادوا إلى ١٠٠,٠٠٠ فى عهد سيكستوس الخامس (١٥٩٠) . وحين وفد عليها مونتيني عام ١٥٨٠ خيل إليه أنها أكثر من باريس اتساعا ، ولكن بيوتها لا تعدو ثلث بيوت باريس ؛ وبين السكان عدد غير قليل من المجرمين والبغايا (قبل سيكستوس الخامس) ، وكان كثير من النبلاء يحتفظون بنفر دائم من الفتاك . أما الفقر فمنتشر ولكنه هين تكسر من حدته احسانات البابا ، والاحتفالات الكنسية ، والأحلام الدينية . وأما عشائر النبلاء العريقة — كأورسيني ، وكولونا ، وسافللي ، وجيتاني ، وكيجي — فقد تناقص دخلها وسلطانها وإن لم تفتر دعاواها وكبرياؤها ، وكانت الأسر الأحدث عهدا — كألدوبرانديني ، وباربريني ، وبورجيزى ، وفارنيزى ، وروسبليوزى — تتصدر غيرها ثراء ونفوذا ، بفضل اتصالاتها بالبابوات عادة . وظفر أقرباء البابا بعهد جديد من المحاباة . فجنى آل ألدوبرانديني المنافع من انتخاب كلمنت الثامن ، وآل لودوفيزى من انتخاب جريجورى الخامس عشر ، وآل باربريني من انتخاب أوربان الثامن ، وآل بورجيزى من انتخاب بولس الخامس . ووضع الكردينال سكيبيونى بورجيزى ابن أخى بولس خطة لبناء فيللا بورجيزى ، وبنى الكازينو (١٦١٥) ، إذ كان يتمتع بأكثر من دخل كنسى وبراتب قدره ١٥٠,٠٠٠ سكودى فى العام ، ثم انشأ للكازينو مجموعته الفنية الغنية ، ونال قسطا لا بأس به من الخلود فى الرخام على يد محسوبه برنيني . وقد استخدم كثير من الكرادلة مالهم فى تشجيع الآداب والفنون .

وأعان كنيسة روما على البقاء سلسلة من البابوات الأقوياء الشكيمة برغم فقدها ألمانيا والأراضى المنخفضة واسكندناوة وبريطانيا — وكلها سلختها منها حركة الاصلاح البروتستنتى . وكان مجمع ترنت قد أكد سيادة البابوية على المجامع وزاد منها ، كذلك كانت جمعية يسوع (اليسوعيون) الفتية القوية تدين بالولاء للبابوية وتخلص لها الحب . وفى عام ١٥٦٦ ارتقى أنطونيو جيسليرى — الأخ الدومنيكى والرئيس الأعلى لمحكمة التفتيش —

عرش البابوية باسم بيوس الخامس وهو فى الثانية والستين ؛ . : وخيل إليه أن قداسة حياته الشخصية تنسجم تمام الانسجام مع الصرامة التى تعقب بها البدع الدينية . فسحب من كاثوليك بوهيميا الحق الذى منحوه من قبل ، حق تناول الأسرار بالخمر كما يتناولونها بالخبز . وحرم اليزابث ملكة انجلترة وأحل الكاثوليك الانجليز من الولاء لها . وحض شارل التاسع ملك فرنسا وكاترين مديتشى على مواصلة الحرب على الهيجونوت حتى يبادوا بغير رحمة[٢٣] . وامتدح الأساليب الفظة التى اتبعها ألبا فى الأراضى المنخفضة[٢٤] . وجاهد بقواه المحتضرة لتجهيز الأرمادا الذى هزم الترك فى ليبانتو . وما خفف فى حياته حكما كنسيا[٢٥] ، بل شجع محكمة التفتيش على تنفيذ قواعدها وعقوباتها بالقوة .

على أنه عنف مثل هذا العنف فى فرض الاصلاح الكنسى . فالأساقفة الذين يغفلون الاقامة فى اسقفياتهم يشلحون ، وعلى الرهبان والراهبات أن يعتزلوا الناس اعتزالا تاما ، وكل اخلال بالوظائف الكنسية يجب أن يكشف أمره ويعاقب . وحين شكا بعض من طردوا من رجال الحاشية الزائدين عن الحاجة من أنهم سيموتون جوعا ، أجاب بيوس بأنه خير للانسان أن يموت جوعا من أن يخسر نفسه[٢٦] . وكانت الكفاية ، لا المحسوبية ولا محاباة الأقرباء ، رائده فى التعيينات والترشيحات . أما هو فكان دءوبا على العمل ، يجلس الساعات الطوال يقضى فى الدعاوى ، لا يكاد يصيب من النوم أكثر من خمس ساعات فى اليوم ، ويضرب المثل لرجال الاكليروس بما أخذ به حياته الخاصة من بساطة وتقشف . فهو كثير الأصوام ، لا يزال يلبس قميص الرهبان الصوفى الخشن تحت عباءته البابوية . ولقد أفنى نفسه بهذا النسك الصارم ، فكان فى الثامنة والستين يبدو أكبر من عمره بعشر سنين — شيخا نحيل الجسد ، أعجف الوجه ، غائر العينين ، قد اشتعل رأسه شيبا . وأصر وهو لا يكاد يقوى على المشى على أن يحج إلى باسليقات روما السبع ، راجلا أكثر الرحلة . ولم تمض

على ذلك الحج تسعة أيام حتى مات بعد شهر من العذاب ، مرتديا ثوب القديس دومنيك . كتب مؤرخ بروتستنتي كبير يقول « قليل من البابوات من تدين لهم الكاثوليكية بفضل أكثر من دينها لبيوس الخامس ، حقا لقد قسا فى اضطهاد البدع ، ولكن ادراكه لضرورة الاصلاح ، وعزمه الوطيد على تنفيذه ، ردا إلى الكنيسة كثيرا من الاحترام الذى فقدته[٢٧] . وقد أدخلت الكنيسة بيوس فى عداد القديسين عام ١٧١٢ .

وواصل جريجورى الثالث عشر (١٥٧٢ — ٨٥) اصلاح الكنيسة بروح أكثر اعتدالا . ونحن نذكر فيه الرجل الذى أعطانا تقويمنا واحتفل بمذبحة القديس برتولوميو بقداس شكر لإله رحيم . على أنه كان رجلا فاضلا ، عيوفا ، رقيق الخلق . وكان له ولد غير شرعى قبل أن يدخل فى زمره الكهنوت ، ولكن أمثال هذه الزلة كان يغتفرها أهل روما الشهوانيون . كان سخيا فى العطاء ، دءوبا فى الادارة . وقد أثنى البروتستنت على اختياره لمن يلون مناصب الكنيسة[٢٨] . ورأى فيه مونتينى عام ١٥٨٠ « شيخا وسيما ، ذا وجه يطفح هيبة ، ولحية بيضاء طويلة ، صحيح البدن موفور العافية مع أنه ينيف على الثامنة والسبعين . . . دمث الطبع قليل الارتباك بشئون الدنيا[٢٩] » .

بيد أن مشاريعه الجزيئة — كتمويل المدارس اليسوعية ، وقمع الهيجونوت ، وخلع اليزابث — كانت تحتاج إلى المال . ولكى يجمعه أمر بتطبيق القانون بحذافيره على ملاك الضياع الكائنة فى الأملاك البابوية وعلى عقود التمليك . وهكذا صادر البابا كثيرا من الأملاك التى كان مآلها إلى البابوية لانقطاع خط الوراثة المباشر ، أو لعدم أداء الضرائب المفروضة على الاقطاعات البابوية . على أن ضحايا هذا الأمر البابوى ، الحاليين منهم أو المنتظرين ، سلحوا أتباعهم ، وقاوموا نزع ملكياتهم ، واتخذوا قطع الطريق سبيلا للانتقام . فتزعم رجال من أسر نبيلة ، كألفونسو بيكولوميني وروبرتو مالاتستا ، عصابات من طريدى العدالة واستولوا على

المدن وسيطروا على الطرق . فاستحال بعد ذلك جمع الضرائب ، وسد الطريق على الذهب المتدفق على روما ، وما لبثت الفوضى أن عمت الادارة البابوية . هنـا أوقف جريجورى مصادراته ، واصطلح مع بيكولوميني ، ثم مات في ذل الهزيمة وهوانها .

يقولون ان الضرورات صانعة الرجال ، وقد صنعت هذه الضرورة من فليتشي بيريتي (سيكستوس الخامس ١٥٨٥ — ٩٠) رجلا من أعظم البابوات وأجلهم قدرا . رأت عيناه النور أول مرة في جروتاماري ، قرب أنكونا ، في كوخ كان سقفه مهلهلا حتى لقد نفذت منه أشعة الشمس ، قال وهو كبير على سبيل المزاح انه « ولد في بيت منير[٣٠] » . تعلم في دير فرانسسكاني بمونتالتو ، وحصل على دكتوراة اللاهوت بدراسته في بولونيا وفيرارا ، ثم ارتقى سريعا بفضل بلاغته واعظا وكفايته إداريا . فلما اختير لكرسي البابوية وهو في الرابعة والستين ، كان الدافع لهـذا الاختيار أن مجمع الكرادلة تبين فيـه الشخصية الصلبة التي تتطلبها سلامة الدويلات البابوية وكفايتها المالية .

بيد أن أقاربه تزاحموا من حوله يمدون إليه أكفهم فلم يقو على ردهم ، وهكذا عادت محاباة الأقرباء ترفع عقيرتها ، ولكنه في غير ما يتصل بأسرته كان رجلا صلبا لا تلين له قناة . كان في مظهره ذاته ما يستوقف النظر : رجل قصير القامة ، عريض المنكبين ، متين البنية ، واسع الجبين ، أبيض اللحية كثها ، كبير الأنف والأذنين ، ضخم الحاجبين ، له عينان نفاذتان قادرتان على إسكات المعارضة دون كلمة . وكان وجهه المتورد ينسجم مع عنف طبعه ، ورأسه الكبير يوحي بارادة لا تنثنى . على أنه مع كل صرامته كان يملك معينا من روح الفكاهة ومن النكتة الذكيـة النفاذة أحيانا كثيرة . وقد تنبأ بأن هنرى الرابع سيهزم ماين ، لأن هنرى ينفق في الفراش وقتا أقل مما ينفقه ماين على موائد الطعام[٣١] . أما هو نفسه فكان قليل النوم شديد العكوف على العمل .

عقد العزم أولا على الضرب على أيدى قطاع الطرق المنتصرين . فبدأ بتنفيذ حظر مفروض على حمل الأسلحة الفتاكة ولكنه كان مهملا إلى حد كبير . وفى اليوم السابق لتتويجه قبض على أربعة شبان لانتهاكهم هذا الحظر ، وأمر سيكستوس بشنقهم فوراً . والتمس أقرباؤهم العفو عنهم أو تأجيل التنفيذ ، فأجاب « ما دمت على قيد الحياة فلا بد أن يموت كل مجرم أثيم » ؛ وما لبثت أن تدلت أجسادهم من مشنقة نصبت على مقربة من جسر سانتانجيلو ، وسط احتفالات التتويج ، فكان هذا بمثابة الخطاب الافتتاحى لسيكستوس والبيان لسياسته فى أمر الجريمة .

وأمر البابا النبلاء بطرد فتاكهم ، ووعد كل قاطع طريق يسلم إليـــه آخر حيا أو ميتا بالعفو عنه ومكافأته ، أما المكافأة فتدفعها أسرة اللص الأسير أو موطنه . فإذا أذاع لص منهم تحديه للأمر ، أمر سيكستوس أسرته بأن يعثروا عليه ويأتوا به أو يلقوا الموت جزاء لهم . وقد أرضى دوق أوربينو البابا[٣٢] . بأن حمل بغالا طعاما مسموما وأمر سائقيها بالمرور بمخبأ قاطع طريق منهم ، وسرق اللصوص الحمل وأكلوا الطعام وماتوا . ولم يكن هناك أى اعتبار للمراتب الكهنوتية أو الاجتماعية ، فالمذنبون من « الأسر الأولى » يعدمون دون رحمة أو تأجيل ، وكان بين المشنوقين قسيس خارج على القانون . وما لبث الريف أن انتشرت فوق ارجائه الجثث تتأرجح فى الريح ، وقال ظرفاء روما إن عـــدد الرءوس المقطوعة المعلقة على جسر سنتانجيلو يفوق عدد ثمار الشمام المعروضة فى أكشاك السوق[٣٣] . ولغط الناس بقسوة البابا الهمجيه ، ولكن السفراء أخبروه أنهم « أينما ساروا فى دويلاته كانوا يجتازون بلدا رفرف عليه السلام والأمن[٣٤] » وأمر الجبر الفخور بضرب عملة كتب عليها **Noli me tangere** « حذار أن تمسنى » . وفى غضبة مضربة للفضيلة أمر بحرق قسيس وغلام جزاء ارتكابهما اللواط ، وأكره شابة على أن تشهد شنق أمها التى باعتها للبغاء . أما كل جرائم الزنى التى يكشف أمرها فجزاؤها الموت الزؤام . وكان يقبض على الناس لجرائم

ترتد إلى تاريخ بعيد، حتى أن اعلانا جداريا نقل عن القديس بطرس ارتعاده فرقا ، مخافة أن يوجه سكستوس إليه التهمة لقطعه أذن مالخوس عند إلقاء القبض على المسيح .

على أنه فى غمرة هذه المطاردة المجنونة وجد الوقت للحكم والاصلاح. فانهى حرب المصادرات التى خاضها جريجورى الثالث عشر مع الأشراف . ووفق بين عدوين قديمين هما آل أورسينى وآل كولونا إذ وحد بينهما بالزواج . ووزع الكرادلة على أحد عشر « جمهورا » جديدا من العابدين وأربعة من القدامى ، وقسم بين هؤلاء وظائف الادارة البابوية . وأمر رجال الاكليروس باتباع جميع مراسيم الاصلاح الصادرة عن مجمع ترنت ، وطلب إلى الأساقفة تفقد الاديرة دوريا واصلاحها . وكانت عقوبة مضاجعة راهبة هى الموت للمذنبين جميعا . وقد نفخ الحياة فى جامعة روما فنشطت بكامل قوتها . ورغبة فى تدبير المكان الكافى للعدد المتعاظم من الكتب كلف دومنيكو فونتانا بتصميم بيت جديد فخم يضم مكتبة الفاتيكان . وأشرف بنفسه على طبعة منقحة من ترجمة جيروم اللاتينية للكتاب المقدس — وهى تضارع فى روعتها الترجمة الانجليزية للكتاب فى عهد الملك جيمس الأول .

بيد أنه لم يشارك أسلافه من بابوات النهضة شعور الاحترام لمخلفات الفن الوثنى . فأتم هدم سبتزونيوم سيفيروس ، ليوفر الأعمدة لكنيسة القديس بطرس . واقترح هدم مقبرة سسيليا ميتيللا . وهدد بهدم الكابيتول ذاته ان لم تنزع منه تماثيل جوبيتر تونانس ، وأبوللو ، ومنيرفا ؛ ثم أبقى على منيرفا ، ولكنه أطلق عليها اسما جديدا هو روما ، واستبدل برمحها صليبا . وأخرج الشياطين من أعمدة تراجان وماركوس أوريليوس بأن وضع فوق قمتها تماثيل للقديس بطرس أو القديس بولس وأطلق اسميهما على الأعمدة . وامعاناً فى الرمز على خضوع الوثنية للمسيحية كلف دومنيكو فونتانا بأن ينقل إلى ميدان القديس بطرس المسلة التى جلبها كاليجولا من

من هليوبوليس وأقامها نيرون فى ملعب مكسيموس . وكانت هذه الكتلة الواحدة من الجرانيت الوردى تعلو ثلاثة وثمانين قدماً ، وتزن أكثر من مليون رطل رومانى . وكلن أساطين المعمار ، من أمثال أنطونيو دا سانجاللو وميكلانجلو ، قد أفتوا بأن لا طاقة لمهندسى النهضـــة بنقلها . واستغرق انجاز هذه المهمة عاماً كاملا من دومنيكو وأخيه جوفانى (١٥٨٥ — ٨٦). وأنزلت الآلات الضخمة هذا الأثر ونقلته ، وقام ثمانمائة من الرجال تشد أزرهم الاسرار المقدسة ، و ١٤٠ حصاناً ، بجر أربعة وأربعين حبلا سمك الواحد منها كذراع الرجل ، ليقيموا المسلة فوق موقعها الجديد . وغـــدا دومنيكو بطل روما بعد نجاحه فى المهمة ، أما سيكستوس فضرب الداليات التذكارية ، وأعلن النبأ رسمياً للحكومات الأجنبية . واستعيض عن الكرة التى فى قمة المسلة بصليب يحوى قطعه من «الصليب المقدس» الذى مات عليه المسيح . وأحس سيكستوس أن المسيحية استعادت سلطانها بعـد أن عطلته النهضة حينا .

وجدد هذا البابا الذى لم يعرف الكلل عمارة روما غير الدينية خلال بابويته القصيرة التى لم تزد على خمس سنوات ، فجلب لها كمية جـديدة من الماء الصالح — تغذى سبعا وعشرين عيناً جـديدة — وذلك بإعادة بناء أكوا ألسندريا ، التى أطلق عليها اسمه « أكوا فيليتشى » . وطهر الهواء بتمويل تجفيف المستنقعات ، وأمكنه تحقيق تقدم طيب فى هذا الميدان واستصلح من الأراضى ٩,٦٠٠ فدان ، ولكن المشروع هجر بعد موته . وتنفيذاً لأمره شق دومنيكو فونتانا شوارع فسيحة جديدة وفق النظام الكلاسيكى ، نظام الخطوط المستقيمة ، ومد طريق سيستينا وغير اسمه إلى طريق فيليتشى ، وأصبحت كنيسة سانتا ماريا مادجورى الرائعة مركزاً يتوسط عدة شوارع تتفرع منه ، وبدأت روما تتخذ شكلها الحديث . ولكى يمول سيكستوس مشاريعه وخزائنه التى كانت خالية الوفاض عند البدء بتنفيذها فرض الضرائب حتى على ضروريات الحياة ، ومذق العملة ، وباع المناصب ، وأصـدر

تأميناً بدخل سنوى يدفع مدى الحياة لقاء ما يقدم للخزانة البابوية من عطايا ؛ وقد أدار ماليته بكفاية وعناية ، وخلف خمسة ملايين كراون فى خزانته عند موته .

أما شغله الشاغل فكان السياسة الخارجيه . فهو لم يطلق الأمل قط من إعادة إنجلتره وألمانيا إلى حظيرة الكاثوليكية وتوحيد كلمة العالم المسيحى ضد الإسلام . أعجبته كفاية البرابث فى السياسة والحكم ، ولكنه مد يد المعونة للمؤامرات التى استهدفت خلعها . ووعد بالمساهمة فى نفقات الأرمادا الأسبانية ، ولكنه ارتاب فى تباطوء فيليب ، واشترط فى دهاء أن تكون معونته رهناً بنزول الجيوش الإسبانية فعلا على أرض إنجلتره ، وكانت فرنسا مشكلته الكبرى . فالهيجونوت الذين افترض أنهم أبيدوا عام ١٥٧٢ كانوا يزحفون على باريس بقيادة هنرى نافار الذى لا تفل له عزيمة . وكان فيليب الثانى يموّل الحلف ليتفذ فرنسا من براثن البروتستنتية ويحفظها للكاثوليكية — ولأسبانيا . وكان على سيكستوس أن يختاز بين أمرين : فإما أن يترك فرنسا تنحرف إلى البروتستنتية ، وإما أن يعين فيليب على تحويل فرنسا إلى ولاية أسبانية . ولكن توازن القوى بين فرنسا وأسبانيا يدا أمراً لا غنى عنه للبابوية إن أرادت التحرر من سلطان القوى الدنيوية . وفى عام ١٥٨٩ وعد سيكستوس بالاشتراك فى حرب ضد هنرى ، ولكنه انسحب من هذه الخطة حين تعهد هنرى باعتناق الكاثوليكية . وهــدد فيليب يسلخ أسبانيا من واجب الطاعة للبابا ، وندد يسوعى أسبانى بالبابا لأنه يحرض على الهرطقة ، ولكن سيكستوس لم يهتز ، فاستقبل سفير هنرى بالترحيب ، وتبين آخر الأمر أنه على حق فى ثقته بهنرى ، فقد استنقذت الكنيسة فرنسا ؛ واستمرت فرنسا ميزان قوة ضد أسبانيا .

وكان هذا آخر انتصاراته ، ولعل الجهد الذى بذله فيه أضناه . ولم يحزن على موته (١٥٩٠) لا الكرادلة ولا الأشراف ولا الشعب ، أما الكرادلة فقد أجفلتهم صرامته ، وأما الأشراف فقــد أكرهوا على طاعة

القانون برغم ما ألفوا من عادات تقدست كثيراً بحكم القدم . وأما الشعب الذى فرض عليه أقصى ما يمكن فرضه من ضرائب وأدّب ليلزم سلاماً لم يألفه ، فقد حاول تحطيم التمثال الذى أقيم لسيكستوس فى الكابيتول ، ولكن بعد أن فقدت الضربات التى كالها لذعتها ، استطاع الخلف أن يوازنوا بين انجازاته وبين قسوته وكبريائه وولعه بالسلطة . وفى رأى « ليكى » المؤرخ العقلانى أنه « وإن لم يكن أعظم الرجال الذين ولوا عرش البابوية ، فهو إلى حد كبير أعظم رجل دولة بين البابوات[٣٥] » .

ومن خلفائه فى هذه الحقبة تفرد بالذكر رجلان . أما أولهما وهو كلمنت الثامن (١٥٩٢ — ١٦٠٥) فكان أقرب ما يكون إلى روح المسيحية . يقول صلى الهيجونوتى « كان بين جميع البابوات الذين تربعوا منذ أمد طويل على كرسى روما أخلاهم من الهوى الحزبى ، موفور الحظ من تلك الوداعة وذلك الحنو اللذين أوصى بهما الإنجيل[٣٦] » بيد أنه رفض الرأفة على بياتريشى تشنشى (١٥٩٩) ، وأذن لمحكمة التفتيش بحرق جوردانو برونو (١٦٠٠). وأما الثانى فهو أوربان الثامن (١٦٢٣ — ٤٤) ، الذى قدم المعونة أول الأمر لأسبانيا والنمسا فى حرب الثلاثين سنة ، ولكنه خشى أن تطوقاه حين حاولتا ابتلاع مانتوا ، فاتجه بمناوراته الدبلوماسية إلى التعاون مع ريشليو فى استخدام جيوش جوستاف أدولف البروتستنتية لإضعاف قوة الهابسبورج . وقد سرت إليه العدوى من روح العصر العسكرية ، فأخضع الشئون الدينية لمقتضيات التوسع شأن الملوك ، واستولى على أوربينو وفرض عليها الضرائب الثقيلة — كما فرضها على دويلاته الأخرى — ليموّل جيشاً بابوياً يعده لمحاربة دوق بارما . ولكن الجيش كان عاجزاً لا خير فيه ، وخلف موته المملكة البابوية « فى حال من الانحلال والأعياء » كما يقول سفير بندقى « بحيث يستحيل أن تقوم لها قائمة بعد اليوم[٣٧] » . على أن السفير كان مخطئاً فى حكمه ، فقد ظهرت عناصر الانتعاش فى كل مكان فى الكنيسة ، وشقت طريقها صعداً إلى البابوية . فالشعب الإيطالى البسيط ،

هذا الشعب الذى كان يتعزى عن شقائه الطويل بالتمسك بأهداب الدين وبالورع الخصب الخيال ، ظل أفراده يقدسون مزاراتهم كما كانوا يفعلون من قبل ، ويمشون خاشعين فى المواكب الدينية ، ويتجاذبون حديث المعجزات الجديدة ، ويصعدون « السلم المقدس » على ركبهم فى وجد صوفى أليم . لقد كشف قديسون كفيليب نيرى ، وفرنسيس سيلز ، وفانسان دبول ، عن قدرة الكنيسة العريقة على أن تلهم أتباعها أعمق مشاعر التقوى والولاء ؛ وهكذا نرى يسوعياً مثل الويسيوس جونزاجا يموت غير متجاوز الثالثة والعشرين وهو يخدم ضحايا الطاعون فى روما (١٥٩١) . لقد تقهقر الفساد والحرص اللذان ابتليت بهما الإدارة البابوية أمام هجمات المصلحين البروتستنت ، وحض القديسين ، والقدوة الملهمة التى أتاحها للناس أحبار كالقديس شارل بوروميو الميلانى . فنمت ، ولو فى شىء من التعثر ، حركة الاصلاح الذاتى من بابا إلى آخر . ونفخ من جديد فى الطوائف الدينية القديمة واستكثر من الطوائف الجديدة — الأوراتوريون (١٥٦٤) ، ومنذورو القديس أمبروز (١٥٧٨) ، وصغار الكهنة النظاميون (١٥٨٨) ، واللعازريون (١٦٢٤) ، وأخوات البر (١٦٣٣) ، وكثير غير هؤلاء . وانشئت الكليات اللاهوتية فى أرجاء العالم المسيحى لإعداد طبقة متعلمة من أكليروس غير منتسب إلى رهبنة . وانطلق المبعوثون الكاثوليك إلى كل بد غير مسيحى ، يقابلون المكاره والأخطار ، ويعنون بالمرضى ، ويعلمون الصغار ، ويبشرون بالدين . أما اليسوعيون المدهشون ، الذين لا تفل لهم عزيمة ، فقد تحركوا فى كل مكان ، يصارعون البروتستنتية فى ألمانيا ، ويدبرون المؤامرات السياسية فى فرنسا ، ويموتون فى سبيل عقيدتهم فى إنجلتره ، ويحملون الإيمان إلى « الوثنيين » فى قارات الدنيا الخمس .

٣ — اليســـوعيون

١ — فى أوربا

بعد أن مات دييجو لاينز (١٥٦٥) ، اختارت « جمعية يســوع » فرانشسكو بورجا قائداً لها ، وكان خلقه وسـيرته علامة على جيله . فهذا الرجل الذى ولد غنياً ، والذى كان حفيداً للبابا اسكندر السادس ، وارتقى دوقا لجانديا ثم حاكماً لقتلونيا ، والذى صاحب الملوك — هذا الرجل دخل الطائفة الجديدة عام ١٥٤٦ ، ووهبها كل ثروته الشخصية ، واكتسب مرتبة القديسين بما اتصفت به حياته من قداسة صارمة . أما خليفته ايفيرارد مركوريان فــلم يترك أى أثر فى التاريخ ، ولـكن كلوديو أكوافيفا قاد الجمعية بكثير من الحكمة واللباقة خلال أربعة وثلاثين عاماً من المتاعب (١٥٨١ — ١٦١٥) حتى ليعده كثير من اليسوعيين الآن أرفع مكانة من جميع قادتهم بعد لويولا . وحين تقلد الزعامة كان عدد اليسوعيين زهاء خمسة آلاف ، وحين مات كان عددهم ثلاثة عشر ألفاً .

وقد وضعت لجنة من فقهاء اليسوعيين تحت إدارته (١٥٨٤ — ٩٩) خطة للتعليم ظلت إلى عام ١٨٣٦ تقرر نظام الدراسات فى الكليات اليسوعية وطريقتها . فهذا النظام الدراسى الذى يتسلم الأولاد من سن الحادية عشرة إلى الرابعة عشرة ويمتد ست سنوات ، كان يتيح لهم ثلاث سنوات من دراسة اليونانية واللاتينية لغة وأدباً ، أما السنوات الباقية فتخصص للفلسفة بأوسع معانيها ، فتشمل العلوم الطبيعية والمنطق والميتافيزيقا والأخلاق . وتجمع الشواهد على أن هــذه المواد كلها كانت تدرس على نحو يدعو للإعجاب . صحيح أن الفلسفة كانت وسيطة (سكولاستيه) ولـكن لم يكن عنها بديل مقبول بعد . أما الأحياء والتاريخ الدنيوى الحديث فقد أهملا إلى حد كبير كما كان الشأن فى جميع مدارس العصر تقريباً ، ربما لأن بساطة الإيمان الواثقة كانت تتأذى من بشاعة مشهد الصراع على البقاء بين الحيوان،

ومن موكب الحرب الذى لا يكاد ينقطع بين بنى الإنسان . لقد كانت خطة الدراسة فى جملتها توفيقاً ماهراً بين العصور الوسطى والنهضة . ففى قدرة بالغة على التكيف ، رحب اليسوعيون بمولد الدراما من جديد ، فترجموا وألفوا ومثلوا المسرحيات ، واكتشفوا فى المسرحيات المدرسية وسيلة حية لتعليم الكلام والبلاغة ، وتقدموا عصرهم فى إدارة المسرح ومشاهده . واستعانوا بالمناظرات شحذا للذكاء وقوة الحجة ، ولكنهم ثبطوا أصالة الفكر فى المعلم والطالب على السواء . ولقد كان هدفهم فيما يبدو إعداد صفوة متعلمة ولكنها محافظة ، قادرة على القيادة الذكية العملية ولكنها بنجوة من متاعب الشكوك العقائدية ، راسخة فى الإيمان الكاثوليكى لا تحيد عنه قيد أنملة .

وكانت المدارس اليسوعية فى جميع الحالات تقريباً يقوم بإنشائها ومنح الهبات لها السلطات الزمنية أو زعماء الكنيسة أو الأفراد الميسورون ، ولكن اليسوعيين احتفظوا بالهيمنة الكاملة عليها . ومع أن بعض كلياتهم أنشىء خصيصاً لأبناء الأشراف ، فإن كلها تقريباً كان مفتوحاً ، دون رسوم تعليم ، لأى طالب مؤهل فقيراً كان أو غنياً (٣٨) . أما المدرسون الذين كانوا عادة من رجال الطائفة فأفضل إعداداً من نظرائهم البروتستنت ؛ أوفياء لمهنتهم لا يتقاضون عنها أجراً ، يتيح لهم ثوب الكهنوت وتأثيره سلطاناً محترماً مكنهم من حفظ النظام دون اللجوء إلى التخويف أو العقاب البدنى . وقد أرسل كثيرون من البروتستنت أبناءهم إلى الكليات اليسوعية(٣٩) لكى ييسروا لهم ، فضلا عن الإلمام السليم بالدراسات الكلاسيكية ، تدريباً رفيعاً على الفضيلة وآداب السلوك وقوة الخلق . يقول فرانسس بيكون « أما الجانب التربوى فأقصر قاعدة أن يقال لك استشر مدارس اليسوعيين ، لأنه لم يجرب ما هو خير منها »(٤٠) . وفى عام ١٦١٥ كان لليسوعيين ٣٧٢ كلية ، وفى عام ١٧٠٠ كان لهم ٧٦٩ ، وأربع وعشرون جامعة منبثة فى أرجاء العالم . وفى الدول الكاثوليكية كاد التعليم

الثانوي بأسره يكون فى قبضتهم ، مما أتاح لهم نفوذاً هائلا فى تشـكيل الفـكر القومى .

ثم التمسوا مسمع الملوك فى طرف السلم الآخر . وقد حظر عليهم أكوافينا أن يصبحوا كهنة اعتراف للملوك ، وثناهم عن الاشتراك فى السياسة . ومع ذلك فحتى فى عهد أكوافيفا قبل الأب كوتون دعوة هنرى الرابع له ليكون مرشده الروحى ، وبعد هذا وافق اليسوعيون على رأى ألمع تلاميذهم فولتير ، وهو أن خير السبل لتشكيل الشعب هو تشكيل ملكه . وما وافى عام ١٧٠٠ حتى كانوا آباء الاعتراف لمئات من أبرز الشخصيات . وكان النساء على الأخص شديدات الشعور بحسن آدابهم وبتقبلهم السمح للدنيا ، وبفضل تلقيهم اعترافات لنساءذوات أهمية ، استطاع الآباء الدهاة أن يصلوا إلى رجال ذوى أهمية .

وإذ جهروا بنية الاختلاط بالناس بدلا من الاعتزال فى الأديرة ،فقد كيفوا مبادئهم الخلقيةوفق طرق البشر العصية علىالاصلاح . ففى رأيهم أن الأخلاق المسيحية الصارمة لم تكون ميسورة إلا للنساك والقديسين ، فواقع الطبيعه البشريه يقتضى بعض التخفيف من قاعدة الكمال . ومثل هـذه التوفيقات للقانون الخلقى وضعها أرسطو رداً على نزعه أفلاطون الكماليه ، ووضعها معلمو الناموس اليهود ليلائموا بين الشرائع العبريه القديمه والظروف الجديدة للحياة الحضرية . ومع أن اليسوعيين فى مذهبهم — وفى تطبيقهم للمذهب عادة — يحتقرون الجسد ، فإنهم فهموا الجسد ، وأتاحوا له ملاذا خلقياً لكيلا يكره الخطاة على التمرد فتخسرهم الكنيسة . ورغبة فى تخفيف التوتر بين ناموس المسيح وطبيعة البشر ، طور اللاهوتيون من اليسوعيين وغيرهم فكرة الإفتاء — أى تطبيق التعاليم الخلقية على الحالات الخاصة . ولـكن لنترك الآن هذا العلم العويص حتى نصل إلى أعدى أعـدائه بليز باسكال .

ويمكن القول عموماً بأن اليسوعيين مالوا فى لاهوتهم إلى الرأى السمح

والنظرة المتحررة . كان من رأى بعضهم ، كالأب ليس والأب هاملى فى لوفان (١٥٨٥) ، إنه ليس من الضرورى الإيمان بأن كل كلمة أو كل تعليم فى الكتاب المقدس موصى به من الله (٤١). وقد أكد كل اليسوعيين تقريباً المعتقد السكولاسى القائل بأن الحكومات الزمنية تستقى سلطتها من الشعب ، وقد بشر عدد غير قليل منهم — مثل ماريانا وبوزنباوم — بحق الشعب عن طريق ممثليه الشرعيين فى أن يعزل ، بل أن يقتل ، الملك « الفاسد » ، ولكن « الفاسد » فى هذا المجال كان معناه المهرطق ، وربما كان مبعث هذا التشديد الديمقراطى رغبة اليسوعيين ، بحكم ولائهم المطلق لسيادة روما ، فى الاعلاء من سلطة البابا التى تفردت بالقداسة والسمو . وعلى النقيض من لوثر ، آمن اليسوعيون بفعالية الأعمال الصالحة فى نيل الخلاص ، واستنكروا التأكيد على الخطية الأصلية ، وقابلوا الجبرية القائمة التى قال بها بولس ، وأوغسطين ، ولوثر ، وكلفن ، ويانسن ، بالتأكيد من جديد لحرية الإرادة . ولقد أثار لويز مولينا ، وهو يسوعى أسبانى ، ضجة لاهوتية حين زعم أن الإنسان يستطيع تقرير مصيره الأبدى بإرادته وأعماله ، وأن اختياره الحر يمكن إما أن يتعاون مع النعمة الإلهية أو يغلبها . وطالب اللاهوتيون والدومنيكان بإدانة مولينا بالهرطقة ، ولكن اليسوعيين خفوا للدفاع عنه ، وحمى وطيس الجدل إلى حد دعا كليمنت الثامن إلى أمر الفريقين بالكف عنه (١٥٩٦) .

ونضافرت أخلاقيات اليسوعيين ، الرحيمة بالقياس إلى أخلاقيات غيرهم ، مع أفكارهم الراديكالية ، واتصالاتهم المحافظة ، وسلطانهم المتسع ، لتزهد فيهم الاكليروس الكاثوليكى غير المنتسب إلى الرهبنات وتثير كراهية البروتستنت لهم . فرماهم القديس شارل بوروميو بالتساهل المخزى مع ذوى النفوذ من الخطاة (٤٢) . وقال ساربى لو أن القديس بطرس كان مرشده كاهن اعتراف يسوعيا لوصل به الأمر إلى إنكار المسيح دون أن يحسب ذلك عليه خطيئة (٤٣) . أما موتيو فيتيللسكى ، قائد

اليسوعيين الذى خلف آكوافيفا ، فقد نبه أفراد الطريقة إلى أن حرصهم على جمع المال يثير اللوم عليهم من جمع الناس (٤٤) . وأما القساوسة البروتستنت فى انجلترة ، الملتزمون بعقيدة الحق الإلهى لملوكهم فى الحكم ، فقد صدمتهم آراء اليسوعيين فى سيادة الشعب وقتل الملوك أحيانا . وندد روبرت فيلمر برأى الكردينال بللارمينى القائل بأن « السلطة الزمنية أو المدنية . . كائنة فى الشعب ، إلا إذا خلعها على ملك. » (٤٥) . أما البروتستنت الألمان فحاربو اليسوعيين زاعمين أنهم « مخلوقات من الشيطان تقيأتهم جهنم » ، وطالب بعضهم بحرقهم كما تحرق الساحرات (٤٦) . وفى عام ١٦١٢ ظهر فى بولنده كتاب « التعليمات السرية » ، وهو يوهم قارئه بأنه تعليمات سرية لليسوعيين فى فن الظفر بالتركات والوصول إلى السلطة السياسية . وأعيد طبع الكتاب اثنتين وعشرين مرة قبل عام ١٧٠٠ . وكان يصدق إلى وقتنا هذا تقريبا، ولكن أغلب الرأى فيه الآن أنه أما هجاء ذكى أو تزوير وقح (٤٧) .

ب — فى الأقطار غير المسيحية

كان الرأى عند الجماهير الكاثوليكية أن أخطاء اليسوعيين لها ما يرجحها كثيرا من فضائل فى التعليم وجرأة فى التبشير . صحيح أن طرقا دينية أخرى شاركت فى هذه المغامرة التقية ، مغامرة نشر الدين ، ولكن أين هذا من جرأة اليسوعيين وإقدامهم واستشهادهم فى الهند والصين واليابان والأمريكتين ؟ ففى الهند مثلا دعا السلطان المغولى المستنير أكبر بعض اليسوعيين إلى بلاطه فى فاتحبور سكرى (١٥٧٩) ، واستمع إليهم فى حب استطلاع وتعاطف ، ولكنه أبى أن يطرد حريمه . وانضم شريف إيطالى يدعى «روبرتودى نوبيلى إلى جماعة اليسوعيين ، وذهب إلى الهند مبشرا (١٦٠٥) ، وهناك درس العقائد والطقوس الهندية، واتخذ لباس البراهمة واتبع نظامهم، وألف الكتب بالسنسكريتية ،

وحول البعض إلى المسيحية . ومارس يسوعيون آخرون اليوجا ، وعملوا بين الطبقات الدنيا . وعبر المرسلون اليسوعيون الهملايا إلى التبت حوالى عام ١٦٢٤ وزودوا أوربا بأول معلومات وثيقة — وآخرها حتى وقت طويل — عن ذلك العالم المحجوب .

أما اليابان فقد دخلها اليسوعيون فى تاريخ مبكر (عام ١٥٤٩) ، وفى عام ١٥٨٠ زعموا أنهم حولوا إلى المسيحية ٠٠٠ ر١٠٠ ، وفى عام ١٥٨٧ أمروا بالرحيل عن الجزر ، وفى عام ١٥٩٧ لقى اليسوعيون والفرنسسكان اضطهادا عنيفا صلب فيه القساوسة والرهبان وآلاف المسيحيين اليابانيين — وهى طريقة جديدة زعم قاتلوهم أنهم أخذوها عن الأناجيل . وحوالى عام ١٦١٦ دخلت فئة جديدة من اليسوعيين اليابان وكسبوا مسيحيين جددا لا يستهان بعددهم ، ولكن التجار الهولنديين والانجليز حرضوا الحكومة على اضطهادهم من جديد ظنا منهم بأنهم يمهدن الطريق للتجارة البرتغالية أو الأسبانية (٤٨) ، فأعدم من اليسوعيين واحد وثلاثون ، ولم تحل سنة ١٦٤٥ حتى اختفت المسيحية من اليابان .

وأما الصين فكانت خطراً يتحدى اليسوعيين ، إذ توعد الأباطرة أى مسيحى يجرؤ على دخول « المملكة الوسطى » بالموت. وقدرأينا فى غير هذا الموضع من الكتاب كيف مات اليسوعى فرانسيس زافير (١٥٥٢) وهو قاب قوسين من الصين بعد أن عول على كسبها للمسيحية . وفى عام ١٥٥٧ أنشأ التجار البرتغاليون مستعمرة فى مكاو ، على ساحل الصين الجنوبى الشرقى . هناك انقطع بعض اليسوعيين لتعلم لهجات الصين وعاداتها. وأخيرا دخل اثنان منهم ، وهما ماتيو ريتشى وميكيلى رودجيرى ، ولاية كوانتونج مسلحين باللغـات والفلك والرياضة والساعات كبيرها وصغيرها والكتب والخرائط والآلات . وافتتن حاكم الإقليم بهذه الطرف وكانا يتخذان أسماء صينية ولباسا صينيا ، ويعيشان عيشة البساطة ،

ويشتغلان بجد ، ويسلكان مسلك التواضع الذى توقعة الصينيون من أبناء حضارة حديثة العمر قليلة النضج كحضارة أوربا ،لذلك سمح لهما بالبقاء . واتخذ ريتشي سمته إلى كانتون حيث أثار أعجاب المندريين (كبار الموظفين) بمعارفه العلمية والجغرافية . وهناك أقام المزاول ، ورسم الخرائط المريحة الوثيقة ، وأجرى الحسابات الفلكية العويصة . ثم أدخل أصدقاءه الجدد إلى حظيرة المسيحية بكتابته خلاصه مفرغة فى أسئلة وأجوبة شرحت العقائدالأساسية للمسيحية ، ودعمت بمقتبسات من النصوص الشرقيه القديمه . وشجعه التسامح الذى لقيه فانتقل إلى ضاحيه من ضواحى بكين (١٦٠١) وأرسل ساعة كبيرة إلى الأمبراطور كانج . هسى . فلما تعطلت الساعه ولم يستطع أحد من العلماء الصينيين أن يديرها من جديد ، أرسل «ابن السماء» فى طلب مهديها . وحضر ريتشي ،وضبط الساعه ، وقدم إلى الحاكم الطلعة مزيدا من الأدوات العلمية ، وما لبث ريتشي وآخرون من اليسوعيين أن ثبتوا فى بلاط مينج . ولم يضع الامبراطور الطيب أى عقبه فى سبيل اعتناق كثير من علية الصينيين للمسيحية . وبعد موت ريتشي (١٦١٠) واصل يسوعى آخر يدعى « يوهان آدم شال فون بل » عمل البعثه العلمى والتبشيرى . فأصلح التقويم الصينى ، وصنع المدافع الممتازة للجيوش الصينية ، وغدا الصديق الحميم للامبراطور وموضع أكرامه ، ولبس الحرير المندرى ، وسكن قصرا ، وقامر بالسياسة ، ثم ألقى فى أحد السجون ، ومات بعد سنة من الافراج عنه .

وقد تكون بقية القصة ، التى اتصلت إلى القرن الثامن عشر ، باعث تسلية لمؤرخ فلسفى النزعة . ذلك أن اليسوعيين فى الصين كانوا بفضل تبحرهم فى العلم ، قد نفضوا عنهم تزمت اللاهوت . فحين درسوا آداب الصين الكلاسيكية تأثروا بما كشفوه فيها من حكمة سامية . وبدت لهم عبادةالصينيين لأسلافهم كأنهادافع رائع على الاستقرار الخلقى والاجتماعى ،وكان فى كونفوشيوس الكثير ممايبرر تبجيله. ولكن مرسلين

آخرين شكوا إلى محكمة تفتيش روما (١٦٤٥) من أن اليسوعيين يغضون من قدر الصليب وعقيدة الخلاص الإلهى لما قد يصدم الصينيين منهما إذ لا عهد لهم بفكرة البشر يقتلون إلها، ومن أن اليسوعيين يتلون القداس بالصينية دون اللاتينية ، وأنهم أذنوا لمن نصروهم بأن يحتفظوا بكثير من شعائر دينهم القومى ، وأن المبعوثين اليسوعيين يقتنون المال لأنهم يعملون أطباء وجراحين وتجارا ومرابين ومشيرين للقواد والأباطرة . أما اليسوعيون فقد راعهم إصرار الدومنيكان والفرانسسكان على أن يقولوا للصينيين إن المسيحية هى الملاذ الوحيد من الهلاك الأبدى ، وأن الأسلاف الذين يعبدونهم إنما يصلون نار جهنم . وأمر أنوسنت العاشر اليسوعيين بحظر قرابين اللحم والشراب التى تقدم لظلال الأجداد . وكان الآباء اليسوعيون خلال ذلك يرسلون إلى أوربا أوصافا لحياة الصين ودوينها وفكرها ، وهى الأوصاف التى قدر لها أن تشارك فى ازعاج السنية المسيحية فى القرن الثامن عشر .

وأما فى أمريكا الجنوبية فقد اكتسب المرسلون اليسوعيون احترام الوطنيين وثقتهم بفتحهم المدارس والمراكز الطبية ، وبذلهم الجهود الشاقة للتخفيف من وحشية السادة الأسبان . وقد صنفوا المعاجم وكتب النحو ، وارتادوا المجاهل الداخلية الخطرة ، ودفعوا الجغرافية دفعة هائلة . وأرسلوا إلى أوربا قشرة الشجرة البيروية التى أصبحت — فى هيئة الكينين — العقار الثابت لعلاج الملاريا . وفى براجواى أنشأوا مجتمعا مثاليا شيوعيا .

هنالك فى سهول البامبز والغابات التى تحف بنهر أوروجواى ، وفوق الشلالات الخطرة التى ثبطت همة المستعمرين ، نظموا مستوطناتهم الهندية . وأذن لهم فيليب الثالث ملك أسبانيا فى أن يحظروا الإقامة فيها على جميع البيض فيما خلا اليسوعيين وحاكم المستعمرة . وقالوا إنهم وجدوا فى الأهالى براءة ومودة — ومائتا ألف من الهنود صالحون من جميع

الوجوه لملكوت الله . » (٤٩) . فتعلموا لغة الأهالى ولم يعلموهم الأسبانية ولا البرتغالية ، وثبطوا كل اتصال بالمستعمرين . واستمالوا الناس إلى المسيحية بالمحبة والرحمة والموسيقى . وأنشأوا المدارس لتعليم الموسيقى ، وألفوا الفرق الموسيقية التى تعزف على جميع الآلات الأوربية الهامة وتؤدى كل ألوان الألحان تقريبا ، حتى المختارات من الأوبرات الايطالية. وسرعان ما تعلم الأهالى أن ينشدوا أضخم ألحان الكورال . وقيل على التحقيق إنه فى فرقة من ألف صوت لم تسمع نغمة ناشزة واحدة . وكانت فرقة الموسيقى تتقدم الناس فى غدوهم ورواحهم ، وتصحب جهدهم فى المتاجر والحقول . واحتفل القوم بالأعياد المسـيحية بالغناء والرقص والألعاب الرياضية ، وألف الآباء اليسوعيون المسرحيات الفكاهية وعلموا الرعية كيف يؤدونها .

ولقد هيمنوا على الاقتصاد كما هيمنوا على شئون الحكم . وأبدى الأهالى استعداداً ملحوظاً لمحاكاة المنتجات الأوربية ، حتى صناعة الساعات المعقدة ، والمخرمات الهفافة ، والآلات الموسيقية . وكان العمل إجبارياً ، ولكن للشباب الحرية فى اختيار حرفهم ، ويباح الفراغ اللازم للترفيه والتثقيف . أما يوم العمل فثمانى ساعات فى المتوسط . وحدد اليسوعيون ساعات العمل والنوم والصلاة واللعب . وكان جزء من الأرض يملكه الأفراد ، ولكن أكثرها ملك مشاع . ونتاج العمل الجماعى يسلم للحكومة ويفرز جزء منه للبذر أو لسنوات الجدب ، وجزء يؤدى فرضة رءوس لملك أسبانيا ، وأكثره يوزع على العشرين ألف أسرة كل حسب حاجته ، ومن المسلم به أن جزءاً كان يخصص ليعول ، على مستوى متواضع (٥٠) ، اليسوعيين المائة والخمسين الذين يعملون مديرين وملاحظين وأطباء ومعلمين وقساوسة . وقد حرم عليهم بمقتضى مرسوم ملكى اقترحه اليسوعيون أن يشاركوا فى أرباح الاقتصاد ، وطلب إليهم أن يقدموا حساباً دورياً لرئيسهم الإقليمى . أما القانون فيطبقه قضاة وشرطة من الوطنيين ، وأما العقوبات

فهى الجلد والسجن والنفى وليس فيها الإعدام . ولكل مستوطنة مستشفاها وكليتها وكنيستها ووسائلها للتيسير على الشيوخ أو العجزة . لقد كانت شيوعية دينية ، ينال فيها الوطنيون الرزق والأمن والسلام وقسطاً من الحياة الثقافية نظير قبولهم المسيحية والنظام .

من أين يا ترى استقى اليسوعيون فكرة هذا النظام العجيب ؟ ربما بعضها من « يوتوبيا » مور (١٥١٦) ، وبعضها من الأناجيل ، وبعضها من دستور جماعتهم التى كانت هى ذاتها أشبه بجزيرة شيوعية وسط بحر يدين بالفردية . أياً كان الأمر ، فقد أثبت النظام أنه محل حب الوطنيين لأنه أقيم على الإقناع دون ضغط ، وحافظ على كيانه ١٣٠ عاماً (تقريباً ١٦٢٠ — ١٧٥٠) ، وحين هوجم من الخارج دافع عن نفسه بحماسة أذهلت المهاجمين ، وكان مثار الإعجاب حتى من شكاك حركة التنوير الفرنسية . يقول دالمبير « أقام اليسوعيون بالدين سلطة ملكية (؟) فى برجواى ، لا تستند إلا على ما أوتوا من قوة فى الإقناع وترفق فى الحكم . وإذ كانوا السادة المتصرفين فى البلد فإنهم أسعدوا الشعب الذى حكموه . » أما فولتير فوصف هذه التجربة بأنها « انتصار للإنسانية »[٥١] .

وقد انتهى النظام بكارثة لأنه لم يستطع عزل نفسه عن العالم الخارجى فالتجار الأسبان نعوا على اليسوعيين اشتغالهم بالتجارة ، والمستعمرون الأسبان كرهوا أن يحال بينهم وبين منطقة تغرى باستغلال الموارد والبشر[٥٢] . وراحت عصابات خطف الرقيق تهاجم المستوطنات اليسوعية المرة بعد المرة ، وأخلى الآباء ورعاياهم الأقاليم الأكثر تعرضاً لغاراتهم . فلما أوغلت الغارات حصل اليسوعيون على إذن من ملك أسبانيا بتسليح الأهالى بأسلحة أوربية ، وبعدها أمكن مقاومة الغارات بنجاح . على أن خطراً أكبر على المستعمرة كان يكمن فى مجرى السياسة والفكر الأوربيين . ذلك أن الدسائس السياسية المستمرة التى تورط فيها اليسوعيون فى فرنسا وأسبانيا والبرتغال تضافرت مع نهضة الفكر الحر والعداء للاكليريكية لتفضى إلى طرد جماعة اليسوعيين

من جميع الأقطار تقريبا فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر . ونشط المركيز بومبال — وهو وزير حاكم فى البرتغال — نشاطاً ملحوظا فى حركة العداء لليسوعيين . ففى عام ١٧٥٠ رتب إبرام معاهدة بمقتضاها نزلت البرتغال لأسبانيا عن مستعمرة سكرمنتو ، على مصب ريو دلابلاتا ، لقاء أراض أسبانية أبعد منها شمالا — شملت سبع مستوطنات يسوعية تضم ثلاثين ألف هندى . وراجت خلال ذلك شائعة تزعم أن بهذه الأراضى ذهبا وأن اليسوعيين يختزنونه . وأمرت السلطات البرتغالية الآباء والأهالى بالرحيل عن المستوطنات السبع خلال ثلاثين يوما . أما اليسوعيون فأشاروا بالتسليم (كما توقع الناس) ، وأما الهنود فآثروا المقاومة ، وردوا الهجمات البرتغالية طوال سنوات خمس . ولكن فى عام ١٧٥٥ جلب الجيش البرتغالى المدفعية ، وذبح المئات من الهنود ، أما الباقون ففروا إلى الغابات أو استسلموا ، وأصدر الرؤساء اليسوعيون فى أوربالمرءوسيهم الأمر بالعود، إلى أسبانيا . وهكذا اختتمت تجربة « المسيحية السعيدة » كما سماها موراتورى(٥٣) .

أما قصة المبعوثين اليسوعيين فى أمريكا الشمالية فهى أشهر ، ويكفى أن نلم بها إلمامة سريعة لنحيط بمجال النشاط اليسوعى فى هذه الحقبة . فقد دخلوا المكسيك عام ١٥٧٢ وشاركوا فى تحويل الوطنيين بسرعة إلى المسيحية ، ولكن عبء هذه المغامرة الأكبر وقع على كاهل الدومنيكان والفرانسسكان . وترك الفرنسسكان قافلة من البعثات والهيئات اللطيفة للرهبان « المتسولين » على طول الطريق من المكسيك إلى المدينة الفاتنة التى تحمل اسم مؤسس طريقتهم . ولقى كثير من اليسوعيين العذاب وأبشع الميتات فى محاولتهم ضم الهنود إلى حظيرة الكاثوليكية . من ذلك أن إسحاق يوجس شوه جسده واستعبد ثم قتل . أمان جان دبريبوف ، وجابرييل لالمانت ، وأنتونى دانيال ، وغيرهم من اليسوعيين ، فقد أحرقوا أو غلوا على النار خلال عامى ١٦٤٨ — ٤٩ . لقد نختلف مع هؤلاء الرجال على

اللاهوت الذى حاولوا بثه ، ولكن يجب أن نحترم إنسانيتهم وإخلاصهم ، ولو لمجرد كونهما النقيض المؤسف لقسوة المستعمرين والمسيحيين وجشعهم ، هؤلاء الصيادين الجلابين للرقيق ، الذين شكوا من أن نشاط المبشرين الإنسانى يحول دون تحضير الهنود .

٤ — أيام إيطاليا ولياليها

كتب مونتينى حين رأى أهل روما عام ١٥٨١ « إنهم يبــدون أقل تديناً من أهل المدن الصــالحة فى فرنسا ، ولكنهم أكثر ولعاً بالمراسم والطقوس.(٥٤) » وكانت احتفالات أسبوع الآلام تشمل مواكب من أفراد يجلدون أنفسهم حتى تسيل دماؤهم ، وإذاعة قرارات الحرم البابوى ، وعرضاً للقناع الذى مسحت به فيرونيكا العرق من جبين المسيح . « رأيت فى عشية القيامة بكنيسة القديس يوحنا لاتيران رأس القديســين بولس وبطرس ، المعروضين هناك ، والمحتفظين بلحمهما ، وجلدهما ، ولحيتهما ، كأنهما حيان (٥٥) » . وكان إخراج الأرواح النجسة يمارس بطقوس شديدة الوقع فى النفوس ، ربما كضرب من العلاج النفسى الجماعى . ولقــد تجاهلت الكاثوليكية فى إيطاليا عن عمد عقول الصفوة من الناس وقدمت لجماهير الشعب ناموساً خلقياً خيراً ولكن غير مرحب به ، لف فى الشعر والدراما والرمزية والتنفيس والرجاء ؟

وشهد مونتينى بتحسن عام فى أخلاق الناس ، ولكن ما زالت العلاقات بين الجنسين يشوبها كثير من التراخى القديم . فقد بلغ من خلاعة المسرح الإيطالى سواء فى الحركة أو الحوار أن مجلس شيوخ البندقية طرد جميع الممثلين من أراضيه (١٥٧٧) (٥٦) مع أنه كان يغضى عن البغاء . وكان الأدب الفاجر يشترى فى أى مدينة كبيرة كما هى الحال اليوم فى أى مكان تقريباً من العالم المسيحى . وحين اعتبر البابا بيوس الخامس اللواط جريمة كبرى جزع للقرار شباب روما من النبلاء . وقد دخل ثمانية لواطيين

برتغاليين فى زواج رسمى ، فقبض عليهم وأحرقوا (٥٧) . كذلك أمر بيوس بطرد البغايا من الدويلات البابوية (١٥٦٦) . وشكا رجال الأعمال من أن المرسوم سيقفر المدينة،فأذن البابا لبعض المومسات بالبقاء فى حى معزول، وقدم المعونة الكبيرة للنساء اللاتى حاولن الانتقال إلى مهنة أحدث عمراً . أما سيكستوس الخامس ، ذلك الذى قهر قطاع الطرق ، فلم يصب غير انتصارات باهظة الثمن على الغانيات ، كما تشهد مراسيمه المتكررة فى ١٥٨٦ و ١٥٨٨ و ١٥٨٩ .

وإذ كان الحب الرومانسى لا يزال نزوة خارج الرباط الزوجى ، والزواج تزويج المال بالمال ، والطلاق محظوراً بأمر الكنيسة ، فقد انغمس الأزواج من أرباب الخيال فى الزنى . وفكر بيوس الخامس فى اعتبار الزنى جريمة كبرى . وقد ورد فى تقرير بتاريخ ٢٥ أغسطس ١٥٦٨ « إن التهديد بتقرير الإعدام عقوبة على الزنى أمر متوقع ، فإما أن يتمسك كل امرئ بالفضيلة أو يرحل عن المدينة. » على أن بيوس لان وقنع بعقوبات أخف : فصدر حكم على سيدة من أشراف روما بالسجن المؤبد ، وجلد مصرفى بارز بالسوط علانية ، ونفى الكثيرون من المذنبين غير هؤلاء .

وفى أواخر القرن السادس عشر دخلت عادة وصفاء الزوجات إلى إيطاليا من أسبانيا بطريق نابلى وميلان : فكان للزوج من علية القوم أن يأذن لصديق بأن يكون وصيفا (تابعاً شريفاً) لزوجته ، والظاهر أن هذه العادة نشأت فى أسبانيا إبان الحروب المتكررة وطول غياب الزوج عن بيته . وكان الوصيف الفارس يخدم السيدة النبيلة منذ استيقاظها حتى نومها، ولكن العرف لم يكن قد أغضى بعد عن الزنى الذى كثيراً ما رافق هذه العادة فى إيطالية القرن الثامن عشر .

أما الجريمة فقد أفرخت برغم المعوقات اللاهوتية . فكثر الفتاك فى بيوت النبلاء ، ورجال العصابات فى الطرق العامة ، والقراصنة فى البحر المتوسط ، والاغتيالات السياسية والغرامية . من ذلك أن باولو جوردانو

أورسيني خنق إيزابللا مديتشي في فراشها كما فعل عطيل بزوجته ؛ وقتل بييرو مديتشي زوجته لشبهة الزنى ، وقد رأينا كيف نقل جون وبستر عن قصة فيتوريا أكورامبوني الدامية روايته « الشيطان الأبيض » ، ومثل هذا سيفعله شلي مع بياتريتشي تشنشي ، التي كان أبواها فرانشسكو تشنشي مضرب المثل في الرذيلة والتوحش . وفي عام ١٥٩٤ حوكم بتهمة اللواط ، ولكنه أفلت بغرامة قدرها ١٠٠٫٠٠٠ سكودي . وماتت زوجته الأولى بعد أن ولدت له اثني عشر طفلاً ، ثم تشاجر مع أبنائه ، فغادر روما مع بياتريتشي وزوجته الثانية لوكريتسيا بتروني ، وانتقل إلى قلعة منعزلة في الطريق إلى نابلي . هناك حبسهما في عليتين وعاملهما بمنتهى القسوة ، ولو أننا لا نملك دليلا على وجود علاقة محرمة بينه وبين ابنته . ووجدت بياتريتشي وسيلة للدخول في علاقة غير شرعية بينها وبين حارس القلعة . وبتحريض بياتريتشي ، وزوجة أبيها ، وشقيقيها جاكومو وبرناردو ، أو لقاء أجر دفعوه له ، قتل الحارس الأب في فراشه (١٥٩٨) ، مستعيناً بأحد القتلة المحترفين . وقبض على المتآمرين وحكموا ، فدفعوا بالاستفزاز الذي لا يحتمل، وتقدم مواطنون كثيرون بطلب الرأفة إلى كلمنت الثامن ، ولكنه أبى . فقطع رأسا بياتريتشي ولوكريتسيا ، وعذب جاكومو حتى الموت(٥٨) .

ومع ذلك أخذت الأخلاق تنصلح ، وآداب السلوك ترق ، وكان للمجتمع الإيطالي مفاتن ولطائف لا يباريه فيها غير الفرنسيين . فاللباس عند الطبقات العليا بهاء ملون من المخمل والساتان والحرير . وحوالي هذه الفترة بدأت نساء النبلاء يؤطرن وجوههن ، ويكللن رءوسهن ، ويطرحن على أكتافهن الحرير الأسود « المانتيليا » وكان زياً فاشياً في أسبانيا . وظل وجهاء القوم يلبسون الجوارب الطويلة . أما العوام والتجار الذين ألفوا الزي التركي فأخذوا يعتادون لبس السراويل . وهزأت المسرحيات الفكاهية الإيطالية بهذه العادة في شخص « بانتاليوني » الهزلي المألوف ، الذي اشتق

منه لفظاً « بانتالونز » و « بانتز » (فى الإنجليزية) .

أما الملاهى فكانت كثيرة كما هى الحال فى معظم الأقطار اللاتينية . فكان لروما كرنفالها السنوى قبل الصوم الكبير ، وكانت الشوراع كما شهدها إيفلين عام ١٦٤٥ « تعج بالبغايا والمهرجين والغوغاء من كل شكل ولون»(٥٩) وكانت هناك سباقات فى الكورسو ، ترى فيها الجياد المغربية الفارهة ، لا يمتطيها فارس ولكن تدفعها مهاميز تتدلى على جوانبها ، وسباقات للحمير ، والجواميس ؛ والشيوخ ؛ والرجال العرايا ، والغلمان ، وكانت المسرحيات تمثل على مسارح متنقلة فى الهواء الطلق . وكانت فنون الرقص والحديث والغزل تزين البيوت والحدائق والشوارع . وهل كان هناك إيطالى يجهل الغناء ؟ .

٥ — مولد الأوبرا

لقد شارك الدين ، والحب ، والرقص ، والبلاط ، بل حتى العمل ، فى مولد الموسيقى . ووجد إيفلين أهل الريف الإيطالى «غاية فى المرح وإدمان الموسيقى ، وحتى الزراع كانوا كلهم تقريباً يعزفون على القيثارة . . . ويمضون عادة إلى الحقل ومعهم كمانهم(٦٠) » وكان لكل بلاط دوق فرقة مرتلين وقائد للعازفين فى الكنيسة ؛ وفى فيرارا أثار رباعى من النساء اشتهر باسم « فرقة موسيقى السيدات » الدموع فى عينى تاسو وأطلق قلمه بالقوافى . ونسجت أغانى الحب الشعرية شكاواها المتعددة الأصوات ، فجعلت التعبد للمرأة حتى زواجها موضع توقير يكاد يرقى إلى توقير الابتهالات الموجهة إلى والدة الإله . وانطلقت القداديس وصلوات المساء والألحان والتراتيل يصدح بها ألف أرغن . وحوالى عام ١٦٠٠ بدأت فرق من خصيان صغار تشنف آذان المصلين . ووصف زائر بروتستنتى موسيقى الكنيسة الكاثوليكية « التى يرتلها خصيان وأصوات أخرى نادرة ، تصحبهم الآلات الموسيقية ، كالعود والبيان القيثارى والفيول ؛ ترتيلا كاد

بذهب بألبابنا (٦١) ، ودرب الرهبان والراهبات فى فرق ترتيل تبعث الإيمان القويم حتى فى الصدور المتوحشه . واجتذب أندريا جبريبلى ، وكلوديو ميرولو ، وجوفانى جـبريبلى (ابن أخى أندريا) على التوالى ألوف المستمعين إلى كنيسة القديس مرقس بالبندقية لينصتوا لعزفهم على الأرغن ولفرقتهم الموسيقية ولفرق المرتلين التى يقودونها . وحين عزف جيرولامو فرسكوبالدى على الأرغن الكبير فى كنيسة القديس بطرس احتشد ما لا يقل عن ثلاثين ألفاً فى الكنيسة أو من حولها ليستمعوا لعزفه . وقد أثرت ألحانه المنوعه ، المعقـدة بتجاربها العويصة ، فى دومنيكو سكارلاتى ؛ ومهدت للتطويرات الهارمونية التى جاء بها يوهان سباستيان باخ .

وكانت الآلات الموسيقية متنوعة تنوعها اليوم تقريباً . وحوالى منتصف القرن السادس عشر بدأ الكمان ، المتطور عن القيثارة ، يحل محل الفيول . وكانت بريشيا مقر أول صانعين من صناع الكمان العظام ، وهما جاسبارو داسالو وتلميذه جوفانى ماجينى . ويلوح أن أندريا أماتى أخذ الفن عنهما وحمله إلى كريمونا ؛ حيث أسلمه أبنـاؤه إلى آل جوارنيرى وآل ستراديفارى . وقد لقيت الآلة الجديدة مقاومة من أولئك الذين آثروا أنغام الفيول الأكثر نعومة ورقة . وقامت المنافسة بين الفيول والعود والكمان قرناً من الزمان . ولكن حين وجد آل أماتى الوسائل للتخفيف من حدة صوت الكمان ارتقت الآلة الجديدة إلى مقام الصدارة غير منازع ، يعينها عليه ازدياد غلبة أصوات السوبرانو فى الموسيقى الصوتية .

كانت الألحان لا تزال توضع للصوت أكثر منها للآلة . وإلى هـذه الفترة تنتمى شخصية شاعرية هى شخصية كارلو جزوالدو ، أمير فينوزا ، الذى زين النبالة بالموسـيقى ؛ والقتل بالأغانى الشعرية . ولد فى نابلى (حوالى ١٥٦٠) وأصبح عازف عود ممتازاً ، وتزوج سـيدة عريقة المولد ؛ ودبر قتلها هى وعشيقها لشبهة الزنى ؛ ثم هرب إلى فيرارا ، وتزوج دونا اليونورا ديستى ؛ ونشر خمسة كتب من أغانى الغزل تنقلت أنغامها

الجزئية وانتقالات طبقاتها الحادة من قوالب النهضة إلى قوالب الأصوات المتعددة الحديثة . وفى فبراير ١٦٠٠ أخرج اميليو دى كافاليرى ، فى مصلى القديس فيليب نيرى بروما ، قصة رمزية شبه مسرحية ، الحركة فيها للرمز فقط ؛ ولكن يصاحبها الأوركسترا والرقص والخورس والمغنون المنفردون. هــذه الموشحة الدينية « الأوراتوريو الأولى » ، سبقت أوبرا بيرى المسماة « أوريديتشى » بثمانية شهور لا أكثر ، وشابهتها من وجوه كثيرة . وبعد مرور جيل آخر ألف جاكومو كاريسيمى أوراتوريوات وكنتاتات أثرت تراتيلها الفردية فى تطور الإلقاء الأوبرى الملحون .

والتقت خطوط كثيرة أخرى من التطور الموسيقى لتخرج لنا الأوبرا . فبعض « التمثيليات المقدسة » التى خلفتها العصور الوسطى أضافت الموسيقى والغناء إلى الحركة . ففى هذه ، وفى موسيقاها المعبرة عن آلام المسيح ، كانت الكنيسة أما للأوبرا أو حاضنة لها كما كان شأنها فى كثير من الفنون الأخرى . فقد كانت المقاطع الملحونة المصحوبة بالموسيقى تسمع فى القصور أواخر العصور الوسطى . وذكر علماء النهضة أن قطعاً من المآسى اليونانية كانت تغنى أو ترتل بمصاحبة الموسيقى . وفى بلاط مانتوا ، عام ١٤٧٢ ؛ جمع إنجيليو بولتسيانو بين الموســيقى والدراما فى مسرحيتــه القصيرة «فافولا دى أورفينو» (خرافة أورفينو) ، وبدأت هذه الأسطورة الحزينة تشق الآن طريقها الطويل إلى الأوبرا . كذلك شقت مسرحية الأقنعة « الماسك » التى اشــتد الإقبال عليها فى قصور القرن السادس عشر طريقاً آخر إلى الأوبرا ؛ ولعل الباليه ؛ والمشاهد المسرحية المترفة ؛ والملابس الفخمة التى نراها فى الأوبرا الحديثة ، منحدرة من الرقص والمواكب والثياب الفاخرة التى غلبت على الحركة فى مسرحيات الأقنعة أيام النهضة .

وفى أخريات القرن السادس عشر اقترح فريق من المتحمسين للموسيقى والأدب التقوا فى بيت جوفانى باردى بفلورنسة أن يحيوا مسرحية اليونان الموسيقية بتحرير الأغنية من تعدد الأصوات الشــديد ومن لغة القصائد

الغزلية المغرّقة المكتومة، وردها إلى ما كانوا يعتقدونه أسلوب المأساة القديمة الفردى (المونودى) . فقام أحدهم وهو فنشنزو جاليلى ، أبو الفلكى ، بتأليف موسيقى مونودية لأجزاء من جحيم دانتى . ووضع عضوان آخران من الجماعة ، هما الشاعر اوتافيو رينوتشينى والمغنى ياكوبو بيرى ، النص والموسيقى لما يمكن أن نعده أول أوبرا واسمها « دافنى » ، وقد أخرجت فى بيت ياكوبو كورسى فى ١٥٩٧[٦٢] . وقوبل الأداء بالاستحسان الكبير حتى أن رينوتشينى دعى إلى وضع الكلمات للحن أهم ، وبيرى وجوليو كاتشينى إلى تأليف موسيقى اللحن ، وذلك احتفالا بزفاف هنرى الرابع وماريا دى مديتشى بفلورنسة (٦ أكتوبر ١٦٠٠) . و « الأوريديتشى » التى مثلت هناك هى أقدم الأوبرات الباقية على قيد الحياة . وقد اعتذر بيرى عن عيوب هذا العمل المستعجل ،راجيا « أن أكون قد فتحت الطريق لموهبة غيرى من المؤلفين ، ليتأثروا خطاى نحو هذا المجد الذى لم يتح لى بلوغه[٦٣] » .

هذا المجد بلغه أحد الفحول فى تاريخ الموسيقى ، وهو كلوديو مونتيفردى . حذق العزف على الكمان فى مسقط رأسه كريمونا ، حتى أنه عين عازفا للكمان فى قصر دوق مانتوا وهو لا يتجاوز الثانية والعشرين (١٥٨٩) ، وفى الخامسة والثلاثين أصبح قائد فرقة المرتلين فى الكنيسة . وقد ندد النقاد تنديدا شديدا بكتبه الخمسة فى الأغانى الشعرية (١٥٨٧ — ١٦٠٥) لما أخذوه عليها من تنافر شديد ، و « نقلات شديدة التحرر » ، ومتواليات هارمونية « غير قانونية » ، وخروج على قواعد مزج الألحان (الكونتر بنط) . كتب جوفانى أرتوزى فى « مثالب الموسيقى الحديثة » (١٦٠٠ —٣) يقول « هؤلاء الملحنون المحدثون يحلو لهم فيما يبدو أن يخرجوا أعظم ما يستطيعون من ضوضاء بالجمع بين عناصر لا رابط بينها اطلاقا ومجموعات متعاظمة من الأنغام المتنافرة[٦٤] » .

ووجه مونتيفردى محاولاته المتهورة إلى الشكل الجديد الذى سمعه فى

فلورنسة ، فأخرج فى مانتوا أول أوبرا من تلحينه ، وهى « أورفيو » أخرى (١٦٠٧) يشارك فى عزفها أوركسترا من ستة وثلاثين عازفا . وسجلت الموسيقى والحركة فى هـذه الأوبرا تقـدما عظيما على أوبرا « أوريديتشى » لبرى . وفى الأوبرا الثانية التى لحنها مونتيفردى ، واسمها « أريانا » (١٦٠٨) كانت الحركة أشد مسرحية والموسيقى أكثر استهواء للسامعين . وبدأت إيطاليا كلها تردد عويل أريادنى التى هجرها حبيبها « دعونى أمت » ، وفى توسيع مونتيفردى للأوركسترا واعادة تنظيمه ، وفى تمييزه المتكرر لكل شخصية بلحن خاص ، وفى افتتاحياته (سنفونياته) التى استهل بها أوبراته ، وفى تجويده للموسيقى الصوتية والألحان ، وفى جمعه الحميم ، المعقد ، بين الموسيقى والدراما ، فى هذا كله سجل من التقدم الحاسم فى الأوبرا ما كان يفعله معاصره شكسبير فى المسرح .

وانتقل مونتيفردى فى ١٦١٢ إلى البندقية قائدا للمرتلين بكنيسة القديس مرقس . ولحن مزيدا من الأغانى الشعرية ، ولكنه غير من هـذا اللون الآخذ فى الانحلال مسرفا فى العنصر الالقائى اسرافا حدا بالنقاد إلى اتهامه بأنه يخضع الموسيقى للدراما (على نحو ما سيتهم به برنينى من اخضاع النحت للدراما) ، ومما لا ريب فيه أن أوبرا مونتيفردى- ككل أوبرا تقريبا — ضرب « من الباروك » الموسيقى . وافتتحت البندقية أول دار عامة للأوبرا « تياترو دى سان كاسيانو » ، وفيها استمر عرض أوبرا مونتيفردى « أدونى » من عام ١٦٣٩ إلى كرنفال ١٦٤٠ ، بينما كانت أوبرا أخرى له تسمى « أريانا » تشغل مسرحا آخر بين الحين والحين . فلما أخرج آخر أوبراته « تتويج البابا » (١٦٤٢) اغتبطت إيطاليا لأنها رأت أنه ما زال فى عنفوانه رغم بلوغه الخامسة والسبعين (شأن فردى الذى اخرج « عطيل » وهو فى الرابعة والسبعين) . وبعد عام مات تاركا دنيا الموسيقى بعد أن ألهمتها وجددت شبابها ثورته الخلاقة .

٦ — الآداب

يدهش المرء حين يرى إيطاليا جياشة بالعبقرية فى كل ميدان ، حتى فى فترة الاضمحلال المزعوم هذه . لقد كان عصراً مثمراً فى الأدب الإيطالى كما وتوقدا ، ولا يحول بيننا وبين انصافه هنا سوى الافتقار إلى الوقت والحيز والمعرفة .

كان طبيعياً أن يضمحل العلم الإيطالى بعد مالحق الهام النهضة من كلال ، فما كان فى الإمكان أن يمضى الناس فى الكشف من جديد عن اليونان والرومان إلى ما شاء الله . لذلك ترك الاهتمام بالآداب إلى الأكاديميات الأدبية ، التى كانت محافظة بحكم نظامها . وكان لكل مدينة تقريباً فى إيطاليا معهد أو جماعة منقطعة لبث الآداب وتبادل الشعر فى سماحة . وقد سبقت أكاديمية كروسكا (أى الهشيم) التى أنشئت بفلورنسة عام ١٥٧٢ ، الأكاديمية الفرنسية إذ صنفت قاموساً للغة (١٦١٢ وما بعدها) وحاولت تنظيم الأسلوب والذوق الأدبيين .

أما المؤرخون الإيطاليون فكانوا خيرة مؤرخى العصر . وقد رأينا كتاب ساربى النارى « تاريخ مجمع ترنت » . كذلك أخرج الكردينال جويدو بنتيفوليو تاريخاً للثورة فى الأراضى المنخفضة مشرباً بروح التعاطف الشديد . وكان من الجائز أن ينتج المزيد ، لولا أنه مات فى مجمع الكرادلة فى اللحظة التى بدا اختياره للبابوية قاب قوسين . وقد أفضى إلى موته ، كما يقول نيكيوس اريتراوس ، شخير كردينال فى الحجرة المجاورة حرمه النوم إحدى عشرة ليلية متعاقبة(٦٥). ومؤرخ آخر هو الكردينال شيزارى بارونيوس صنف تاريخاً ضخماً للكنيسة (الحوليات الكنسية ١٥٨٨ — ١٦٠٧) يقع فى اثنى عشر مجلداً من القطع الكبير زاده العلماء بعد ذلك إلى ثمانية عشر . وكان حكم رانكيه عليها أنها عاطلة من التشويق(٦٦) ، ولكن جيبون وجد فيها عونا له ، وقد بذل الكردينال جهداً مشكوراً

ليكون منصفاً ، فقال « سأشعر بالحب الصادق للرجل الذى يصحح أخطائى بكل صرامة وقسوة[٦٧] » ، وتكفل إسحاق كازوبن بهذه المهمة ، ولكنه أقلع عنها بعد أن كتب مقدمة ناقصة فى ثمانمائة صفحة من القطع الكبير .

وأما المسرح فقد زكا ، ولكن الدراما اضمحلت . فقل من التمثيليات الباقية الذكر ما ألف ، ولكن كثر ما أخرج منها ، وأخرج بسخاء فى المناظر وبراعة فى التمثيل جعلت اينيجو جونز يعجب ويتعلم . واشتد الطلب على الممثلين الإيطاليين فى القارة طولا وعرضاً . وبينما كانت أدوار النساء يقوم بها الغلمان فى المسرح الإنجليزى ، كانت النساء يؤدينها فى إيطاليا . كان الناس يعبدون الممثلات ؛ وقد كتب تاسو سونيتة لأيزابللا أندرينى ، التى لم تكن ممثلة جميلة فحسب ، بل شاعرة لا بأس بها وزوجة فاضلة كذلك .

وتطالعنا فى هذا العصر تمثيليتان ممتازتان ؛ من جهة لأنهما أرستا لوناً جديداً على المسرح — وهو الدراما الرعوية . وقد أعطاها تاسو دفعة بتمثيليته « أمينتا » (١٥٧٣) ، أما جوفانى باتيستا جوارينى فقد أخرج مثلها الكلاسيكى فى درامته « الباستور فيدو » (الراعى الوفى) (١٥٨٥) . قال تاسو « إذا لم يكن قرأ أمينتا فهو لم يبزها[٦٨] » وقد وبخه الكردينال بللارمينى لما فى التمثيلية من إباحية ، وقال إنها ألحقت بالعالم المسيحى من الضرر فوق ما ألحقته كل هرطقات لوثر وكلفن ؛ على أن البحث الدءوب لم يعثر على منظر أكثر وقاحة من منظر كورسيكا الجميلة وهى تقدم «تفاحتى» صدرها لسيلفيو الذى لا يقدرهما ، وهو صياد « يفرح بحيوان واحد يصيده . . . أكثر من فرحته بكل حوريات البحر[٦٩] » وإذا استثنينا سيلفيو هذا وجدنا فى المسرحية — ككل شعر هذه الفترة الإيطالى تقريباً — حرارة فى الحس تصهر الحياة كلها فى الحب . وتتجلى الحركة فى ضرب من « الأركاديا » الرعوية ، فى ذلك « العصر الذهبى الجميل ، حين كان اللبن غذاء الناس الأوحد » ، فلا رذيلة ، ولا حزن يلوث الإنسان ، أما

الحب فخلو من كل لوم وقيد(٧٠) . وتضافرت « أمينتا » ودرامة « الراعى الوفى » هذه ، وتمثيلية مونتمايور « ديانا العاشقة » ، وتمثيلية سدنى « أركاديا » وتمثيليه فلتشر « الراعية الوفية » لتطلق نصف جمهور القراء الأوربيين ليسرحوا فى المراعى .

وقد عدّ كرستشمبينى من ناظمى السونيتة ٦٦١ فى إيطاليا لم يعيهم العثور على قواف رنانة لقصائدهم المغايرة قليـــلا لسونيتات بترارك(٧١) . ومن أروع سونيتات العصر ما كتبه كامبانللا وبرونو ، وكأنه شرار نفثته نار فلسفتهما . وقد هجا الساندرو تاسونى كتاب السونيته وعشاق بترارك ومارينى وتاسو فى قصيدة من عيون الشعر الإيطالى تدعى « الدلو المسروق » . وأبى الناشرون أن ينشروها لأن ضحيتها كان نبيلا ذا سطوة ، ولكن الطلب عليها اشتد حتى لقـــد أثرى النساخ بلسخها وبيعها بسعر ثمانية كراونات للمخطوطة ، وأخيراً طبعت فى فرنسا وهربت إلى إيطاليا . ولم يفتتن القراء الإيطاليون بما فى تعليقاتها اللاذعة من ذكاء وحدة فحسب ، بل بفواصل من الشعر المصفى تخللت ذلك المرح الصاخب — قصة غرام أنديميون مروية جنباً إلى جنب تقريباً مع صورة لعضو فى مجلس الشيوخ يسافر إلى الجنة على كرسى مرحاض .

ولم يبز تاسونى فيما حظى به من استحسان فى هذه الحقبة سوى شاعرين إيطاليين — هما تاسو وجوفانى باتيستا مارينى . أما جيوفانى فقد ولد فى نابلى ونشئ ليكون محامياً ، ولكنه هجر المرافعات إلى القوافى ، واستمتع حيناً بحياة التشرد . ثم منحه المركيز مانسو حجرة فى قصره مغتفراً له إباحية شعره الغنائى ، وهناك استطاع الفتى أن يشهد ، على بعد خاشع ، تاسو المحزون المشرف على الفناء. ثم ألقى به السجن لأنه ساعد صديقاً على خطف فتاة ، ولما أفرج عنه مضى إلى روما ، حيث عينه الكردينال السمح بيترو ألدوبراندينو سـكرتيراً خاصاً له . ثم اصطحبه الكردينال إلى تورين وهناك أخذه منه شارل امانويل دوق سافوا . وراح مارينى يرشف حيناً ما فى حياة البلاط من خمر وخل .

وتهكم بشاعر منافس يدعى جسبارو مورتولا ، كمن له فى الطريق ، وأطلق عليه النار ، ولكنه أخطأ وأصاب خادماً من خدم الدوق . وحكم على مورتولا بالإعدام ، ولكن مارينى حصل له على العفو ، وناله أشد النكران من غريمه . وبعد أن سجن مارينى عقاباً له على هجائيات موجهة ضد أصحابها توجيها مكشوفاً ، قبل دعوة من مارى مديتشى ليكون زينة بلاطها فى باريس (١٦١٥) . ورحب به الإيطاليون فى حاشيتها باعتباره الصوت المعبر عنهم فى فرنسا ، وكان محل الإعجاب الشديد ، وتلقى وظائف شرفية دسمة ، وأجزل له النبلاء والنبيلات المال ثمناً لنسخ من ملحمته « أدونى » قبل نشرها . ووجدت نسخة منها طريقها إلى الكردينال بنتيفوليو ، فناشد مارينى أن ينقى القصيدة من فقراتها الفاجرة ، ولا ندرى إلى أى حد حاول المؤلف ذلك . ونشرت أدونى بباريس فى ١٦٢٣ ، وأدرجت فى قائمة الكتب التى تحرمها الكنيسة ، وأصبحت البدعة الفاشية فى إيطاليا والموضوع الذى تلوكه الألسن . وحين عاد مارينى إلى نابلى (١٦٢٤) ، رمى قطاع الطرق عربته بالورد ، وخرج النبلاء لمرافقته ، وهفت الحسان إليه من شرفاتهن . ولم يمض عليه عام حتى مات غير متجاوز الثانية والخمسين وقد بلغ ذرى الثروة والشهرة .

أما أدونى هذه فقصيدة من عيون الشعر حتى فى بلد يكاد الشعر أن يكون فيه كالغناء سجية وطبعاً . وطولها يوقفنا — ألف صفحة بها ٤٥,٠٠٠ بيت . أما أسلوبها فستغرق فى كل ألاعيب الكلام التى أطربت لايلى فى إنجلترة ، وجويفارا وجونجورا فى أسبانيا ، وبعض « متحذلقات » الأوتيل درامبوييه فى فرنسا ؛ لقد كان التأنق اللفظى جزءاً من وباء أوربى . وكان لهذا الإيطالى الماهر غرام بالألفاظ يكاد يكون شهوانياً ، فراح يقذف بها فى مفارقات رنانة ، وأخيلة غريبة ، وإطنابات بارعة ، بل فى نكت وتوريات رشيقة . ولكن الجمهور الإيطالى فى القرن السادس عشر ، بما طبع عليه من تدفق بالحديث الحار ، لم يسؤه هذا الولع بحيل الألفاظ وألاعيبها .

وأى بأس بهذه الألاعيب اللفظية فى عصر كان أنشودة تسبيح للجنس فى شتى صوره — العادى منه والوحشى ، والشـاذ ، والحرام ؟ هنا رويت أساطير هيلاس الغرامية فى رقة وظرف ، هنا يلهو مارس وفولكان مع أفروديت ، وهنا زيوس يغوى جانيميد ، ومفاتن جسم الرجل هى حديث القوم السائر ، وحاسة اللمس يشاد بها لأنها المصدر المدهش لألذ مباهج الإنسان . هنا تتغزل النساء والرجال والوحوش فى أدونيس البطل الذى حبته الآلهة حسن الصبايا كله ، وتتودد إليه فينوس بحيلها الناعمة ، ويحاول زعيم عصابة أن يجعل منه محظيته ، وينتهى أمر الفتى المحبوب حباً يوقفه موقف العاجز ، بأن يجرح فى أصل فخذه جرحاً مميتاً أصابه به خنزير برى مدفوعاً بأحر النيات الغرامية . ترى هل كان هـذا التركيز المخنث على الجنس تفريجاً وملاذاً من الغلو فى الدين والإفراط فى تسلط الأسبان ؟

٧ — تاســو

توافر لتوركواتو تاسو الكثير من المغريات بالشعر . ولد فى سورنتو (١٥٤٤) حيث البحر ملحمة ، والسماء أغنية ، وكل ربوة من الأرض أنشودة . وكان أبوه برناردو شاعراً ، وموظفاً فى البلاط ، وإنساناً مرهف الحس مشبوب العاطفة ، تآمر على الحاكم الأسبانى ، ونفى فى مملكة نابلى (١٥٥١) ، وجاب الأرض من بلاط إلى بلاط تاركاً وراءه زوجته وولده فى عوز وضنك . وتنتمى أمه بورنسيا دى روسى إلى أسرة توسكانية عريقة تجرى الثقافة فى عروقها . ودرس الصبى ثلاث سنوات فى مدرسة لليسوعيين بنابلى ، فشرب اللاتينية واليونانية فى جرعات تحطم الأعصاب ، ودرب على التقوى العميقة التى أثارت فيه الرجفة اللاهوتية تارة ؛ ووهبته السـلام الذى يجل عن الوصف تارة أخرى . وفى العاشرة لحق بأبيه فى روما ، وتركه موت أمه بعد عامين شديد التأثر طويل الحسرة . ثم رافق أباه إلى أوربينو والبندقية ، وهناك نشر برناردو قصـيدته « أماديجى » (١٥٦٠) التى حكى فيها بالشعر قصة غرام من العصر الوسيط .

وكان توركواتو نفسهُ يجيش الآن بالشعر . أرسل إلى بادوا ليدرس القانون ، ولكن قدوة أبيه كانت أقوى من مبادئه ، فأهمل الفتى درس الشرائع وراح ينظم القوافى ، وكان منذ أمد بعيد قد وقع أسيراً لسحر فيرجل . فعزم الآن على أن يطبق الأسلوب المانتوى الرفيع الجاد على أساطير الفروسية التى عالجها أريوستو علاج المازح العابث . وهكذا فاجأ أباه برواية فى اثنى عشر قسما تسمى « رينالدو » . وكان شعور برناردو مزيجاً من الحزن والابتهاج ، فقد تكشف له ما سيلقاه من صروف الأيام شاعر لا يملك غير عبقريته ، ولكنه طرب لرؤية ولده الذى لم يجاوز الثامنة عشر ربيعاً ينافس أشعر شعراء العصر رقة وخيالا . ونشرت الملحمة الصغيرة بأمزه (١٥٦٢) . واغتبطت نفسه بما لقيت من استحسان ، فأذن لتوركواتو بأن يهجر دراسة القانون فى بادوا ويستبدل بها الفلسفة والأدب فى بولونيا . وهناك أثارت موهبة الفتى المتاعب ، لأنه كتب « الأبجرامات » اللاذعة فى مدرسيه ، فهددوه برفع دعوى القذف ضده ، وعاد من فوره إلى بادوا .

واقنع برناردو الكردينال لويجى دستى ، أخا الدوق الفونسو الثانى أمير فيرارا ، بأن يستخدم توركواتو سكرتيراً له (١٥٦٥) . والتحق الشاعر مغتبطاً بهذا البلاط الذى كان يعد يومها أينع زهرة فى بستان الثقافة الإيطالية . هناك ألفى مجتمعاً يزخر بالموسيقى والرقص والأدب والفن والدسائس والحب . وافتتن تاسو بأختين للكردينال ، لوكريتسيا المتغطرسة الجميلة بنت الواحدة والثلاثين ، وليونورا ، بنت التسعة والعشرين ، المعاولة التقية التى جعلتها مشاجراتها مع الفونسو معبودة البلاط . وتروى الأساطير (كما نقرؤها فى مسرحية جوته وفى قصيدة بايرون « عويل تاسو ») عن الشاعر وقوعه فى غرام ليونورا ، وما من شك فى أنه طارحها القصائد المشبوبة كما اقتضى العرف ، وفى أن السيدتين قبلتاه فى صداقة طوقت بهالة النبالة ، ولكن أحداهما كانت تكبره بأحد عشر عاماً ، والأخرى بتسعة أعوام ، ويبدو

أن واحدة منهما لم تمنحه شيئاً أدفأ من أذنيها . ولم يتزوج تاسو قط ، إذ لم يكن فى وسعه أن يعشق إلا أميرات ، أما الأميرات فلم يكن فى وسعهن الزواج إلا من ذوى اليسار . ولعله خشى مطالب الزواج وقيوده ، فقد جمع بين ضعف الثقة فى قدراته ، والتيه بشعره .

وفى عام ١٥٦٩ مات أبوه وهو لا يملك شروى نقير ، واضطر تاسو إلى الاستدانة ليدفنه . وبعد عام اصطحبه الكردينال دستى إلى باريس ، فجزع حين وجد شارل التاسع يخالط زعماء الهيجونوت فى لطف وود ، وجاهر بنقد الحكومة على انسجامها مع المهرطقين . أما الكردينال الحريص على رضاء الملك فقد رد سكرتيره المتعب إلى إيطاليا . ولم يغتفر له تاسو هذه الفعلة قط .

وعزّى ألفونسو الشاعر بأن ألحقه ببيته وأجرى عليه معاشاً سنوياً دون أن يحمله من المسئوليات شيئاً غير أن يهدى الدوق الملحمة التى عرف أنه يكتبها عن الحرب الصليبية الأولى . تلك كانت سنوات سعيدة بالقياس إلى غيرها . ففى صيف عام ١٥٧٣ أنجز فى البلاط درامته الرعوية « أمينتا » ، وقد أثلج صدره ما لقيت من نجاح . فسادة فيرارا وسيداتها الذين كانوا يعيشون على استغلال الفلاحين انتشوا حين رأوا نعيم الريفيين — على المسرح . وأطربت كل وجهاء البلاط صورة العصر الذهبى الذى كانت فيه كل الأشياء السارة حلالا وخيراً :

لك الله أيها العصر الذهبى الجميل !
لست جميلا لأن أنهارك كانت تفيض لبناً ،
ولا لأن أشجارك كانت تقطر مناً ،
بل لأن ذلك الألم الكاذب الذى خلقناه لأنفسنا ،
وصنم الخطيئة ، ذلك المحتال المعبود ،
وذلك الشرف — الذى سمته كذلك عقول العوام المرتاعة — ،
لم يكن قد استبدّ بطبيعتنا بعد ،

لم يكن قد جاء ليكدر صفو الحظيرة الحلوة السعيدة ،
حظيرة البشرية الوادعة ،
ولا قيد ناموسه القاسى نفوساً ربيت على الحرية ،
بل كان هناك قانون جميـــل ،
قانون ذهبى ســـعيد ،
خطتـــه يد الطبيعة :
« كل لذيذ حـــلال » (٧٣)

ولـكن جرأة الروح غير المعهودة فيه فارقته حين وجد نفســه ينهى ملحمته « أورشليم المحررة » (١٥٧٤) . لقد كان هذا الجهد ذروة جهود حياته ، فلو أنه باء بالفشل ، أو لو أن الكنيسة أدانته بالإباحية أو الهرطقة لودع السعادة إلى الأبد . وفى رهبة وخوف بعث بمخطوطته إلى سبعة نقاد مستفتياً فى حبكة القصيدة وشخوصها ولغتها وآدابها . وقد بلغ نقدهم لها من الكثرة ما جعله يلقى القصيدة جانباً لأنه لم يعرف كيف يرضيهم جميعاً . فظلت محبوسة عن النشر خمس سنوات . إنه وهو عليم بأنه كتب رائعـــة اشتط فى مطالبه من النقاد ومن الحياة . وقد اعترف بأنه « لم يطق العيش فى مدينة لا يخلى نبلاؤها مكان الصـــدارة له ، أو على الأقل يسوون بينه وبينهم مساواة مطلقة » . ولا ريب أنه كان يستحق هذه المساواة ، ولـكنه أضاف أنه « كان يتوقع أن يعبده الأصدقاء ، ويخدمه الخدم ، ويعانقه أهل البيت ، ويكرمه السادة ، ويحتفل بذكره الشعراء ، ويشير إليه الجميع بأصابعهم.»(٧٤) وكثرت فى فيرارا فئة تنقد شعره ، وخلقـــه ، ودعاواه . فبدأ يحلم بمكان ألين فى قصور ألطف وأرق .

كانت المنغصات البدنية والنفسية قد هزت أعصابه : حمى الملاريا ، ونوبات الصداع المتكررة ، والصدمات المتراكمة إثر نفى أبيه ، وموت أمه ، وإملاق أبيه وهو مشرف على الموت ، يضاف إلى هذا كله أن الشكوك اللاهوتية التى ساورته ــ شكوك الجحيم والخلود ، وألوهية المسيح ــ ألقت على عقله ظلا ثقيلا من الاحساس بالإثم ودفعته إلى الاكثار من

الاعتراف وتناول الأسرار[٧٥] . وقد وقر فى نفسه أنه مارس قوة السحر الأسود (أى الشيطانى) ، وتراءت له الرؤى المرعبة عن الدينونة الأخيرة ، وشهد الله يسوق الهالكين إلى النار الأبدية[٧٦] . وانتابته أوهام الاضطهاد — فخامرته الظنون فى افشاء الخدم لأسراره ، واعتقد أن أمره أبلغ لمحكمة التفتيش ، وتوقع كل يوم أن يدس له السم . لقد كان ضيفا عسير الارضاء[٧٧] .

ولكن الفونسو ترفق به ؛ ذلك أن أروع قصائد العصر — برغم كل شيء — أهديت إليه وأفردت نصف قسم منها (السابع عشر) للأشادة بنسبه . فأعفى الشاعر من الحضور إلى البلاط ، وأرسله إلى فيللا بلريجواردو اللطيفة ليعيه على التغيير والسكينة . ولكن صبره نفد حين وجد أن تاسو يتفاوض خفية مع فرانشسكو مديتشى — أقوى منافسى الفونسو وأعدى أعدائه — ليقبله متقاعدا بمعاش فى بلاط فلورنسة . وفى نوفمبر ١٥٧٥ غادر الشاعر فيرارا زاعما أنه ذاهب إلى روما لينال غفران اليوبيل . ومضى إليها ، ولكنه عرج على فلورنسة مرتين فى الطريق . على أنه لم يقع من نفس الدوق الكبير موقعا حسنا ، وكتب فرانشسكو إلى صديق له (٤ فبراير ١٥٧٦) يقول «لست أدرى هل أدعوه إنسانا مجنونا أم ذكيا مسليا» ؛ وبعد عام قرر أنه « ليس فى حاجة إلى وجود رجل مجنون فى بلاطه »[٧٨] وقفل تاسو إلى فيرارا كسير الخاطر محزونا .

وطلب إلى الفونسو أن يعينه فى وظيفة المؤرخ الرسمى للبلاط ، فنال الوظيفة . وفى يناير ١٥٧٧ مثل أمام محكمة التفتيش فى بولونيا واعترف بأنه ارتاب آثما فى العقيدة الكاثوليكية ، وأعادته المحكمة بكلمات من المواساة والتشجيع . وفى يونيو من ذلك العـــام ، بينما كان فى مسكن لوكريتسيا دستى ، شهر سكينه على خادم أثار شبهته . فأمر الفونسو بحبس الشاعر فى حجرة بالقلعة ، ولكنه أفرج عنه بعد قليل وأخذه إلى بلريجواردو . كتب تاسو يقول ان الدوق عامله « وكأنه أخ له لا أمير عليه »[٧٩] . وطلب

الشاعر أن يرسل إلى دير القديس فرنسيس ، فأمر الفونسو بارساله إليه ، وأوصى بأن يعطى مسهلا . وخضع تاسو ، ولكن ثائرته ثارت فى الدير ، فاتهم الرهبان بأنهم يغشون نبيذه ، وطلب الرهبان اعفاءهم من وجوده . فرد إلى قلعة الدوق ووضع تحت الحراسة . ولكنه هرب متخفيا فى ثوب فلاح ، وضرب فى الأرض سيرا على قدميه وحيدا عبر الأبنين حتى بلغ بيت أخته كورنيليا فى سورنتو . فاستقبلته بحنان مشرب بالمحبة .

وكان ممكنا أن يظفر بشىء من صفاء الذهن والسعادة هناك لولا قلقه على مصير القصيدة العظيمة التى ما زالت محبوسة عن النشر والتى خلفها وراءه فى فيرارا ، ولعله بعد أن طال إلفه لحياة القصور افتقد أسباب الراحة التى صاحبت شدائده ، فذهب إلى روما ورجا سفير فيرارا أن يتشفع له عند الفونسو . وأرسل الدوق مالا للعناية به ووافق على عودته شريطة أن يتعهد بالتزام الهدوء والخضوع للعلاج الطبى . وحين وصل إلى فيرارا (١٥٧٨) أعطى مسكنا خاصا خارج القصر ، وزود بخادم ، ووافوه بالطعام من مائدة الدوق . وقبل تاسو المسكنات والمسهلات طائعا ، وواصل كتابة الشعر الرائع . ولكنه كان يأمل فى العودة إلى مكان الحظوة فى البلاط ، فوجد بدلا من هذا أن كل إنسان تقريبا يعامله كأنه مجنون . ولم يعد الدوق ولا الأميرتان يسمحون له بمجالستهم . أما شر الاهانات فأمر الفونسو بأن تؤخذ مخطوطات الشعر منه ، ومن بينها « أورشليم » مخافة أن يتلفها .

وفى يونيو ١٥٧٨ هرب تاسو مرة أخرى من فيرارا ، وذهب إلى مانتوا وبادوا والبندقية وأوربينو وتورين . وهناك أكرم الدوق شارل ايمانويل مثواه ، وبذل له كل أسباب الراحة التى عهدها فى فيرارا . ولكن ما مضت ثلاثة أشهر حتى التمس الشاعر القلق من الفونسو أن يرده ، ربما حرصا منه على استرداد مخطوطاته . ووافق الفونسو ، وفى فبراير ١٥٧٩ أسكن تاسو مرة أخرى قصر الكردينال لويجى دستى . ولكن الفونسو

التواق إلى وريث كان يتزوج للمرة الثالثة ، ولم يكن ليعير الشعراء أذنه ، ولم يدع تاسو إلى الحفلات . وظل أسبوعين يحتمل هـذا الإغفال مغيظا محنقا ، وأخيرا غادر مسكن الكردينال (١٢ مارس ١٥٧٩) ، واقتحم قصر بونتيفولى وهو يصيح مهاجما الدوق ، والدوقة الجديدة ، وجميع الحاشية . وجرى إلى القلعة ، مصرا على لقاء الدوقة واستعادة مخطوطاته . وأمر الدوق بايداعه مستشفى قريبا لمرضى العقول يدعى سانتانا ، وهناك ظل حبيسا أكثر من سبع سنين .

لم يكن مجنوناجنوناً مطبقاً . فقد كانت له أويقات صفاء كتب فيها الشعر واستقبل الأصدقاء . وزعم مونتيني أنه زاره . ووفدت عليه سيدات من البلاط ليطيبن خاطره ، واصطحبته لوكريتسيا مرة لبيتها فى بلفـديرى ، ولـكن عنفه روعها فرد إلى المستشفى بناء على طلبها .لقد كان العقل المحطم نهبا لرعب متقطع تثيره هلوسات بأصوات أشباح يسمعها ، وبأرواح علوية تغزو حجرته وتسطو على قصائده .

وأخيرا نشرت ملحمته . ذلك أن المحتفظين بمخطوطتها أرسـلوها للناشرين بعد أن علموا أن قراصنة الكتب نسخوها (١٥٨٠) . وظل النقاد يتسقطون الأخطاء فيها ، ولـكن إيطاليا استقبلتها استقبالا حماسيا ، وأطرى رجال الكنيسة موضوعها وتقواها . وتتابعت طبعات القصيدة ، وبيع منها فى يوم واحد ألفا نسخة ، ورددت البيوت والقصور أنغامها ، واختلف الناس فى أمر تاسو ، أيضعونه فى صف أريوستو أم فى صف بترارك . وفضل فولتير القصيدة على الالياذة وهو على ما نعلم من بعد عن التحيز للمسيحية[٨٠] . أما اليزابث ملكة إنجلترا فبعد أن استمعت إلى أجزاء منها مترجمة إلى اللاتينية حسدت دوق فيرارا على أنه عثر على هوميروس يخلد ذكره[٨١] .

ونستطيع إذا همزنا حاستنا التاريخية أن نبدأ فى فهم السبب فى استجابة أوربا بهذه الحماسة لهذه القصة المثيرة — قصة الحرب الصليبية الأولى .

لقد رحبت بها باعتبارها ملحمة العالم المسيحى التى طال انتظارها ومست الحاجة إليها . ذلك أنه حين بدأ تاسو قصيدته كانت أوربا تحشد الأسطول الذى التحم بالأتراك فى ليبانتو . ودارت رحى المعركة الهائلة بينما الشاعر ينظم ملحمته ، وكسب الأوربيون المعركة ، ولكن انتعاش الأتراك السريع كان يهدد أوربا ، لا سيما إيطاليا ؛ وتعرضت روما ، معقل المسيحية ، للخطر والقصيدة تكتمل . وساد الخوف من الاسلام أرجاء العالم المسيحى إذ ذاك ، كخوف أوربا اليوم من شرق نفخت فيه الحياة من جديد . وفى هذا الجو قرأ الرجال والنساء فى شعر يأخذ بالألباب قصة تشدد عزائمهم إذ تحكى كيف قاد جودفرى أمير بويون فى ١٠٩٩ جيشا مسيحيا ظافرا برغم ما لحقه من ضربات واستولى به على أورشليم .

وهكذا يبدأ تاسو قصيدته متفاخرا ، ذاكرا عبارة فيرجل « Arma virumque cano » ومتحدياً إياها ، « انى أتغنى بذكر الجيوش الصالحة والقائد الذى حرر قبر المسيح العظيم » . وهو يناشد ربة الشعر أن تلهب صدره بحماسة من السماء ، ويهدى قصيدته إلى الفونسو ، الأمير الهمام الذى أنقذه من زعازع الخطر وهيأ له مرفأ طيبا . ويرسل الله رئيس ملائكته جبريل ليأمر جودفرى بأن يحزم أمره ويزحف قد ما على أورشليم . وحين يدنو المسيحيون من المدينة يأمر حاكمها التركى علاء الدين رجاله بأن ينقلوا تمثالا للعذراء من كنيسة مسيحية إلى جامع للمسلمين ، مؤمنا بأن التمثال سيجلب النصر لمالكه . على أن التمثال يسترد فيخفيه المسيحيون ، ويأمر علاء الدين بذبح كل من بقى بأورشليم من المسيحيين . وتقدم العذراء سوفرونيا نفسها قربانا عن شعبها ، وتخبر علاء الدين كذبا أنها سرقت التمثال وأحرقته ، فيحكم بحرقها . على أن حبيبها الذى لا تبادله الحب ، أوليندو ، يحاول افتداءها ويزعم أنه المذنب ، فيحكم عليهما جميعاً بالموت ، ولكن البطلة المسلمة كلوريندا تنقذهما . ويدعو بلوتو رب العالم السفلى جمعاً من أتباعه للنظر فى طرق هزيمة المسيحيين الذين يحاصرون المدينة ،

فيقع اختيارهم على أرميدا الحسناء أداة لتنفيذ خطتهم ، وهى عذراء دمشقية ذات قوة سحرية . ويقع رينالدو وغيره من الفرسان فى فخ حديقتها المسحورة ، ويرتاح رينالدو بين ذراعيها . أما تانكرد ، الفارس المسيحى المثالى ، الشهم الهمام ، فيعجب بشجاعة كلوريندا ويقع فى غرامها برغم حواجز العقيدة . وفى جزء من أجمل أجزاء القصيدة (١٢) تتخفى كلوريندا وتقاتل تانكرد حتى تقتل ، ثم تتوسل إليه وهى فى النزع أن يدخلها فى دينه. ويرسل جودفرى الجند للعثور على رينالدو والفرسان المفقودين ، فيكتشفون قلعة أرميدا ، ويتجنبون « الحسان العرايا » اللاتى يسبحن فى بركتها ، ويحررون الأسرى . وتغضب أرميدا لهجر رينالدو لها ، فتعرض نفسها مكافأة لمن يقتله . ويضطلع تسيفرنيس بالمهمة ، ولكن رينالدو ينفذ رمحه فيه . وتنوى أرميدا الانتحار ، لكن رينالدو يثنيها عنه بحب متجدد ، فترتضى اعتناق المسيحية ، وتستسلم له بعبارة مريم العذراء « هوذا أنا أمة الرب » . ويتسلق المسيحيون الأسوار ، ويذبحون جيش المسلمين ، ويقدمون الشكر لله . ولكن القصة لا تسترسل إلى ذكر حرق اليهود .

كان أريوستو يرمق قصة الفروسية بابتسامة ساخرة . أما تاسو فقد أحياها بملء الجد ، وأضاف سحر العصر الوسيط ومعجزاته إلى الجهاز الكلاسيكى — جهاز الأرباب التى تتدخل فى الأحداث . وكانت الحركة المعارضة للإصلاح البروتستنتى قد قمعت حيناً روح الفكاهة الإيطالى القوى . والافتقار إلى الفكاهة مهد لجنون تاسو ، فالكون يجب ألا يؤخذ مأخذ الجد الخالص . ولكن تاسو فى ملحمته هو الإيمان غير منازع ، والعاطفة لا مخفف لها . وهو يزين القصيدة بأخيلة جعلت جاليليو يشبهها بمتحف من الغرائب[٨٣] ، ويكتب نقداً غاضباً على هامش نسخته[٨٤] . والتقليد فى الملحمة واضح : تقليد هومر فى مناظر القتال ، وفرجل فى زيارة الجحيم ، وأريوستو فى الغراميات ، وفرجل ودانتى وبترارك فى الأفكار وفى أبيات بأسرها . أما السحر فصبيانى ، وأما الأمازونيات فغير معقولات . ولعل ملحمة «أورشليم »

ليست ضريباً فى عظمتها للإلياذة، ولا آخذة بالألباب كالأوديسة ، ولا رفيعة كالأنياده ، ولكنها تحتفظ بتشويق القارئ كأى ملحمة ، وأسلوبها مرصع بانعطافات النغم وتدفقاته الموفقة ، وشخوصها حية ، وأحداثها مذابة بمهارة فى موضوعها الرئيسى . وكثير من مشاهدها وأحداثها ألهم الفنانين لوحات شهيرة . وقد أعان شعرها وروحها سبنسر على تأليف ملحمته « ملكة الجان » . أما مقاطعها فحين لحنت كانت عزاء لملاحى الجندولا البنادقة عن رتابة عملهم المضنى .

لم يجن تاسو فى أوقات صفائه غير السرور القليل ، والربح الأقل ، من نجاح قصيدته . فلم ينل فلساً واحداً من الناشرين . وكانت أوقية من اللوم ترجح عنده رطلا من المديح كما هو الشأن مع أكثر المؤلفين . وقد جزع حين قرأ النقد القاسى الذى وجهه إليه نقاده ، الذين زعموا أن قوافيه فى أكثرها ليست إلا صلصلات ، وأن مشاهد حبه مسرفة فى الشهوانية ، وأن مسلميه يثيرون الإعجاب فوق ماينبغى ، وأن بطلاته فى الأغلب مسترجلات . ولكن باقى الإيطاليين هللوا له كأنه فرجيل ولد من جديد ، وعلت الأصوات مطالبة بمعاملة أرفق للشاعر المنكوب . على أن زواره رأوا حاجته للملاحظة الدقيقة ، وأن الفونسو يعالج الأمر بكل الرعاية التى تتوقع من رجل أسيء إليه كثيراً وشغلته تبعات الحكم .

وصلحت حال الشاعر . وفى يوليو ١٥٨٦ حصل فنشنزو جونزاجا ، الوريث الشرعى لدوقية مانتوا ، على الإفراج عنه بعد أن تعهد بالعناية به . وعاش تاسو فى مانتوا شهرا ثم رحل عنها إلى برجامو ، ومودينا ، وبولونيا ، ولوريتو ، وروما ، يبيع قصائده ومدائحه لمن يشتريها . ولقى حسن الاستقبال فى روما ، ولكنه سرعان ما بدأ الترحال من جديد ، فمضى إلى سيينا ، ففلورنسه ، ثم عاد إلى مانتوا ، ثم لنابلى مرة أخرى ، حيث صادقه المركيز مانسو ، ثم عاد إلى روما حيث أنزله الكردينالان تشنزيو وألدوبرانديو مسكنهما بالفاتيكان (١٥٩٤) . وأراد العودة إلى

فيرارا ليموت فيها ، غير أن الفونسو رفض الأذن له . ورتب له البابا كلمنت الثامن معاشا وأعد العدة لتتويجه شاعراً للبلاط البابوى . ولكن فى أبريل ١٥٩٥ لم يكن بد من نقل الشاعر الذى انهارت قواه وأدركته الشيخوخة والعجز وهو بعد فى الحادية والخمسين ، إلى دير سان أونوفريو بروما ، ليجد رعاية أفضل . هناك ، وبعد غضبة أخرى من غضباته ، مات (٢٥ أبريل) وهو يتمتم « فى يديك يا رب أستودع روحى » ووضع على نعشه أكاليل الغار الذى لم يعش ليلبسه . وحمل جثمانه فى مشهد إلى كنيسة القديس بطرس وخرج منها تشيعه حاشية البابا وأشراف روما وعلماؤها ، ووورى التراب فى كنيسة الدير وفوق مثواه قبرية بسيطة ، « هنا يرقد توركواتوس تاسوس » وأصبحت الصومعة التى نزلها مزارا للحجاج كما هى اليوم .

٨ — مجىء الباروك : ١٥٥٠ — ١٦٤٨

كان الفن الكلاسيكى — كالبارثينون وأفريزه ، ومنحوتات ميرون وبوليكليتوس ، وساحة روما ، والاينياد ، وستانزا رفائيل بالفاتيكان ، وصور كنيسة مديتشى لميكلانجلو — هذا الفن كان اختزال الفوضى إلى نظام ، والتعدد إلى وحدة ، والحركة إلى ثبات ، والشعور إلى فكر ، وغير المميز إلى مميز ، والمعقد المبهم إلى البسيط الواضح ؛ كان المادة مصوغة فى الشكل . ولكن كل شىء حتى الكمال يزهده الناس حين يطول به العمر . فالتغيير ضرورى للحياة ، والحس ، والفكر ؛ والجديد المثير قد يبدو جميلا لهذه الجدة ذاتها ، حتى يعود القديم المنسى على عجلة الزمن فيرحب به الناس على أنه فتىّ وجديد . وهكذا طردت النهضة الفن القوطى من إيطاليا باعتباره فنا همجيا ، حتى إذا ضاق الفنانون ورعاة الفن بالنسب الجميلة والتناسق المقيِّد ، وضحكوا كما ضحكت تماثيل الكاتدرائيات البشعة الوجوه على الأعمدة والاعتاب

والقواصر الـــكلاسيكسية ، أعادوا الروح القوطية ممثلة فى شذوذات الباروك وتفصيلاته الزاخرة بالحيوية والمرح (*).

كان الفن الكلاسيكى ينشد الافصاح عن الموضوعى ، اللاذاتى ، الـكامل ، أما الباروك فقد أتاح للفنان الفرد ، حتى لنزوته العارضة ، أن تجد التجسيد فى عمل لا يمثل موضوعا يصور تصويرا واقعيا (كما فى التصوير الهولندى) بقدر ما يمثل انطباعا أو شعورا موضعاً عن طريق أشكال متخيلة جزئيا . وهكذا نرى أن صور الجريكو النحيلة الطويلة ليست صور رجال أسبان بل صور ذكرياته أو بدواته هو ؛ وصور العذراء التى رسمها موريللو وجويدو رينى لم تكن صور الأمهات المرهقات اللاتى عرفاهن بل الورع المثالى الذى طلب إليهما التعبير عنه . يضاف إلى هذا أن بلدا كإيطاليا زلزلت إحساسه حركة الإصلاح البروتستنتى وشحذ عاطفته الدينية من جديد أفراد كلويولا ، وتريزا ، وزافير ، وشارل بوروميو — إيطالية ما بعد لوثر هذه ما كان فى الأمكان أن تستكين إلى سلام المثل الكلاسيكى ، ذلك السلام الهادئ الفخور ، لذلك راحت تؤكد عقيدتها من جديد ، وتبدى رموزها فى تحد ، وتزين هيا كلها ، وتسكب فى الفن دفقا جديدا من اللون والاحساس ، وتنوعا جديدا وحرية فى التركيب والحركة لا يمكن التنبؤ بها ، انطلقت من عقال القواعدوالضوابط والخطوط الكلاسيكية . لقد أصبح الفن تعبيرا عن الشعور بالحلية ، لا ضغطا للفكر لإحداث الشكل .

أما العمارة فلم تعد رياضيات يونانية أو هندسة رومانية ، بل موسيقى ، وأحيانا أوبرا ، مثل دار الأوبرا فى باريس . واتجه المصممون والبناؤن من الثبات إلى السيولة والايقاع ، فرفضوا التناسق الساكن مؤثرين عليه عدم التوازن وعدم الوحدة المتعمدين ، وفصصوا

(*) الباروك مشتقة من الـكلمة البرتغالية barroco ، وهى صدفة غير منتظمة الشكل كثيراً ما تستعمل حلية .

الأعمدة والأعتاب أو لووها عن قصد . وسمموا السطوح الساذجة والكتل الثقيلة ، وقطعوا الكرانيش ، وشطروا القواصر شطرين ، وبعثروا النحت فى كل اتجاه . أما المثالون فقد ضاقوا بأطراف الجسد الكاملة، والملامح الساكنة ، والوقفة الأمامية الجامدة ، فاتخذوا لأشكالهم أوضاعا غير متوقعة ، داعين الناظر إلى اتخاذ نظرات منوعة ، واستخدموا مؤثرات التصوير فى صناعة التماثيل ، فنحتوا الأضواء والظلال فى الحجر ، والحركة فى الجسد ، والفكر والشعور فى الوجه . وأما المصورون فتركوا الخطوط النقية ، والضوء الصافى ، والسكينة البريئة — تركوا هذا كله لبيروجينو ، وكوريدجو ، ورفائيل ، وغمروا الدنيا فى اللون كما فعل روبنز ، أو ظللوها بالغموض كما فعل رمبرانت ، أو أيقظوها للحس مثل رينى ، أو كدروها بالعذاب والوجد مثل الجريكو . وأما نقاشو الخشب فبعثروا الزخرف على الأثاث ، وأما صانعو الأدوات المعدنية فقد حولوا مادتهم إلى أشكال غريبة أو مضحكة . وحين عهد اليسوعيون عام ١٥٦٨ إلى فينولا برسم « كنيسة يسوع » فى روما ، اشترطوا أن تجمع كل الفنون فى فيض من الأعمدة ، والتماثيل والصور ، والمعدن النفيس ، تصمم لا للتعبير عن الهندسة ، بل لتلهم الإيمان وتشيعه فى النفوس .

ولما كانت إيطاليا لا تزال فى الفن قائدة أوربا ، فإن الأسلوب الجديد فى الزخرفة والعاطفة والتعبير لم ينتقل إلى أسبانيا وفلاندر وفرنسا الكاثوليكية فحسب ، بل حتى إلى ألمانيا البروتستنتية حيث بلغ بعضاً من أكثر أشكاله مرحاً وبهجة . أما الأدب فأحس تأثير الباروك فى لعب مارينى وجونجوزا ولايلى المسرف بالألفاظ ، وفى لغة شكسبير الرنانة الطنانة ، وفى مسرحية مارلو « الدكتور فاوستس » ومسرحية جوته « فاوست » . وأما الأوبرا فما هى إلا موسيقى بأسلوب الباروك . على أن الأسلوب الجديد لم يحقق انتصاراً فى كل مكان ، فقد آثر الهولنديون الواقعية الهادئة على انفعالات

الباروك : وفيلاسكويز فى أفضل أعماله كلاسيكى أو واقعى ، أما سرفانتس فبعد أن عاش حياة رومانسية ألف « دون كخوته » فى اتزان وهدوء كلاسيكيين . ولكن هل كان الفنانون والأدباء الكلاسيك دائماً كلاسيكيين ؟ وهل هناك أكثر باروكية من لاوكون المناضل ، القبيح ؟ إن التاريخ يبتسم سخرية من كل المحاولات التى تبذل لإكراه مياهه على أن تجرى فى قوالب نظرية أو أخاديد منطقية ،وهو يعبث أشد العبث بتعميماتنا، ويحطم كل قواعدنا . إن التاريخ ضرب من الباروك .

على أن عاملا قوياً واحداً ظل ثابتاً فى الفن الإيطالى ، فما زالت الكنيسة أنشط رعاته وأقدرهم على تشكيله . كان هناك بطبيعة الحال رعاة آخرون ومؤثرات أخرى . فقد شيدت أسر الأمراء والكرادلة المثقفون القصور الخاصة ، وواصلوا فى تزيينها بعض الموضوعات الوثنية ، مثال ذلك أن أودواردو فارنيزى عهد إلى المصورين كاراتشى بأن يرسموا له « انتصار باخوس » و « حكم الغرام » . ولكن مجمع ترنت وحركة الإصلاح الكاثوليكى التالية له حددا للفن اتجاهاً أكثر صرامة ، فتراجعت الأجساد العارية من الفن الإيطالى ، ولم تعد الموضوعات الدينية تستخدم مطية للحس ولم يثن البابا كلمنت الثامن عن تغطية لوحة ميكلانجلو « الدينونة الأخيرة » كلها ، وسراويل دانييلى دا فولتيرا وما حولها ، إلا توسلات فنانى روما . وقد دافع المجمع عن الصور الدينية ضد هجمات الهيجونوت والبيوريتان ، ولكنه أصر على أن توحى هذه الرموز بالخشوع لا أن تلهب الدم فى العروق . وبينما استنكر المصلحون عبادة مريم والابتهالات إلى القديسين ، روى مصورو إيطاليا ومثالوها فى فترة معارضة الإصلاح البروتستنتى ، من جديد ، عذابات الشهداء ، ورووها بواقعية قاسية أحياناً ، وحكوا مرة أخرى قصة العذراء أم الإله ، بعاطفة واعية . وتعاون حرص الكنيسة على تجريد الفن من الوثنية وبث العقيدة والتقوى

فى النفوس ، مع انتكاسات إيطاليا السياسية والاقتصادية ، على جعل هـذا العصر آخر صدى من أصداء النهضة .

٩ — الفنون فى روما

ظلت روما قصبة العالم الفنية . صحيح أن عصر التصوير الرومانى العظيم قد انتهى ، ولم يعد الآن إيطالى ينافس روبنز أو رمبرانت ، ولكن العمارة الرومانية أزهرت ، وظل برنينى أشهر فنانى أوربا طوال جيل من الزمان . ومع أن بولونيا سطت على زعامة روما فى التصوير ، فإن نجوم هـذه المدرسة كانوا يفدون على روما استكمالا لازدهارهم ، وقد وصل فازارى عام ١٥٧٢ ليرسم الصور الجصية للصالة الملكية فى الفاتيكان . واحتشد فى « بوتيجى » روما الرسامون الذين ما زالوا محل التبجيل من أقليات مغرمة : ناديو وفدريجو زوكارو ، وجيرولامو موتزيانو ، وفرانشيسكو دى سالفياتى ، وجوفانى لانفرانكو ، وبرتولوميو مانفزيدى ، ودومنيكوفيتى وأندريا ساكى . وأكثر هؤلاء يصنفون عادة تحت اسم « أصحاب اللازمات » — أى الفنانون المقلدون لطريقة فنان بعينه من أساطين الفن أيام عز النهضة ؛ ويجوز أن نعتبر هذه « اللازمية » (١٥٥٠ — ١٦٠٠) مرحلة أولى للباروك .

أما فيديريجو زوكارو فقد نشر قلوعه فوق أمم أربع . ففى فلورنسة أكمل الصور الجصية التى بدأها فازارى فى قبة الكتدرائية ، وفى روما رسم « المصلى البولسى » فى الفاتيكان ، وفى فلاندر صمم سلسلة من الرسوم الهزلية ، وفى إنجلتره رسم لوحات مشهورة للملكة اليزابث ولمارى ستيوارت ، وفى أسبانيا شارك فى زخرفة الأسكوريال ، وحين عاد إلى روما أنشأ أكاديمية القديس لوقا ، التى أوحى نظامها لرينولدز بأكاديمية الفنون الملكية بانجلتره . وكان الإقبال على فنه أعظم من جميع الرسامين الإيطاليين فى ذلك الجيل ، ولكن الخلف فضلوا عليـه بييترو بريتينى

داكورتونا . وبروح الكفايات المتعددة التى أثرت عن فنانى النهضة صمم بييترو قصرى باربرينى وبامفيلى بروما ، ورسم فى قصر بيتى بفلورنسه صوراً جصية تزخر بالأشكال الغريبة فى كل غزارة الباروك وتدفقه .

أما القطب الحقيقى للتصوير الرومانى فى هذا العهد فهو ميكلانجلو مرزى دا كارافادجو . كان رجلا فيه روح تشللينى ، وقد ولد لبناء بالحجر فى لومبارديا ، ودرس فى ميلان ، وانتقل إلى روما واستمتع بعدة مشاجرات ، وقتل صديقاً فى مبارزة ، ثم هرب من السجن ، وفر إلى مالطة وقطانيا وسراقبوز ، ومات بضربة شمس على أحد شواطىء صقلية وهو فى الرابعة والأربعين (١٦٠٩) ، وفى الفترات التى تخللت هذه المغامرات أحـــدث ما يشبه الثورة فى مزاج التصوير الإيطالى وأسلوبه . وقد أحب التناقضات العنيفة بين الضوء والظل ، واستخدم حيلا كإضاءة المنظر من مدفأة مخفاة ، وشكل صوره بالضوء ، وأخرجها من خلفية معتمة ، وبدأ فى إيطاليا عهد « الفن المعتم » الذى تزعمه جويرتشينو ؛ وريبيرا ، وسلفاتور روزا . وإذ احتقر عاطفية الرسامين البولونيين المثاليه ، فقد روع العصر بواقعيته التى أشرفت على الوحشية . كان إذا تناول موضوعاً دينياً يجعل الرســل والقديسين يبدون وكأنهم عمال ضخام غلاظ نقلهم عن عمال أرصفة الموانى . وقد أكسبته « لوحة لاعبى الورق » (المحفوظة بمجموعة روتشيلد بباريس) شهرة دولية . أما لوحة « الموسيقيين » — وهم ثلاثة من المغنين وعواد جميل — فقد تراكم عليها التراب ثلاثة قرون قبل أن يعـــثر عليها فى متجر للتحف القديمة بشمالى إنجلتره حوالى ١٩٣٥ ، وبيعت لجراح بمبـــلغ مائة جنيه ، ثم اشتراها متحف المتروبوليتان بنيويورك (١٩٥٢) بخمسين ألف دولار . وقد درجت الكنيسة على رفض صور كارافادجو الدينية باعتبارها مشرفة فى الابتذال مفتقرة إلى السمو ، أما اليوم فهى مشتهى كل ذواقة للفن . وقد بلغ إعجاب روبنز بلوحة هذا الإيطالى المسماة « مادونا ديل روزاريو » مبلغاً حمله على جمع ١,٨٠٠ جولدن من فنانى أنتورب ليشتريها

ويهديها إلى كنيسة القديس بولس[٨٥] : ولوحة « عشاء عمواس » (بلندن) لا تبلغ فى عمقها نظيرتها التى رسمها رمبرانت ، ولكنها تصوير قوى لأشكال الفلاحين . أما « موت العذراء » (المحفوظة باللوفر) — وهى أيضا صورة ريفية — فكانت احدى الصور التى وطدت مدرسة « الطبيعيين » فى إيطاليا والواقعيين فى أسبانيا والأراضى المنخفضة . لقد أكثر كارافادجو من تأكيد ميلودراما العنف والخشونة ، ولكن التاريخ كالخطابة قلما يقرر نقطة دون أن يبالغ فيها . وقد اقشعر لمرأى عمال الشحن مفتولى العضل هؤلاء جيل استنفد موضوعات العاطفة ، ثم قبلهم على أنهم مدخل منشط دخل به إلى الفن رجال منسيون . والتقط ريبيرا فرشاة كارافادجو القاتمة ولحق به ، واقتفى رمبرانت أسلوب الإيطالى فى توزيع الضوء والظل وجوده ، وحتى مصورو القرن التاسع عشر شعروا بهذا التأثير العاصف .

أما المعمار فقد شهد مجيء الباروك وذروته . وراح البابوات الواحد تلو الآخر يحيلون عرق المؤمنين الراضين ودراهمهم أمجادا لروما . فأكمل بيوس الرابع البلفديرى وقاعات أخرى فى الفاتيكان . وبنى جريجورى الثالث عشر كلية روما وبدأ تشييد قصر الكويرينال — الذى أصبح مسكنا للملك عام ١٨٧٠ . أما دومنيكو فونتانا ، الأثير بين المعماريين عند سيكستوس الخامس ، فقد صمم قصر اللاتيران الجديد ، ومصلى السيستين فى كنيسة سانتا ماريا مادجورى ، ومقبرة بيوس الخامس فى هذا المصلى ، وهى باروك مسرف . وأضاف الكرادلة والنبلاء خلال ذلك إلى روما قصوراً جديدة (جوستنيانى ، ولا نشلوتى ، وبورجيزى ، وباربرينى ، وروسبليورى) ، وفيللات جديدة (بامفيلى ، وبورجيزى ، ومديتشى) . كذلك واصل الهدم أفاعيله ، ففى هذه الفترة هدم بولس الخامس حمامات قسطنطين التى عمرت منذ عهد أول الأباطرة دون أن يمسها سوء تقريبا .

وكثر عدد المعماريين الأكفاء ، ومنهم جاكوموديللا بورتا الذى أكمل بكفاية عدة معابد خلفها أستاذه فنيولا ناقصة ، كواجهة كنيسة يسوع وقبة كنيسة القديس بطرس ، وبهذه الضخامة صمم كابيللا جريجوريانا الفخمة ،

ولمس قصر فاريزى لمساته الأخيرة ، وكان ميكلانجلو قد بدأه ؛ وهو صاحب الفضل فى نافورتين رائعتين تضفيان على روماروا، شباب لا يشيخ. وابدعهما نافورة السلاحف التى أقامها تاديو لونديني أمام قصر ماتيى واشترك مارتينو لونجى الأب مع ديللا بورتا فى تشييد قصر الكونسرفاتورى، نقلا عن رسوم لميكلانجلو ، وبدأ هو ذاته قصر بورجيزى ، الذى أكمله فلامينو بونتزيو للبابا بولس الخامس . وأسهم دومنيكو فونتانا بنافورة « الفونتانونى » ديل أكوا فيليتشى ، وفونتانا ديل أكوا باولينا ، وشيد « قاعة البركة » الجميلة على الرواق المعمد الشمالى للاتيران القديس يوحنا . وخلفه ابن أخته كارلو مادير نا معماريا لكنيسة القديس بطرس ، فغير خطتها الأساسية من صليب ميكلانجلو اليونانى إلى الصليب اللاتينى ، وصمم واجهة هذا الضريح العظيم ، ووجد فى حمامات كاراكالا ودقلديانوس إلهاما بصحنها الهائل . وأعاد فرانشسكو بورومينى ، تلميذ مادير نا ، بناء مدخل لاتيران القديس يوحنا بناء فاخرا ، وبدأ رائعته — كنيسة سانت أجنيس — الفخمة الأنيقة التى تضارع « كنيسة يسوع » فى بيانها للباروك الرومانى .

أما كنيسة يسوع فقد صممها (١٥٦٨) جاكومودا فنيولا تحقيقا لرغبة اليسوعيين فى معمار تروع فخامته العابدين وتلهمهم وتسمو بنفوسهم ، وصمم المعمارى وخلفاؤه صحنا فسيحا دون أجنحة ، فيه الدعامات والسبندلات والتيجان والكرانيش المزخرفة ، ثم مذبح مهيب ، وقبة مضيئة ، وحلية رائعة من الصور والتماثيل والرخام والفضة والذهب . وفى عام ١٧٠٠ أضاف أندريا ديل بوتزو ، وكان هو ذاته يسوعيا ، مقبرة القديس اغناطيوس ومذبحه الرائعين . وقد اختلفت نظرة اليسوعيين للحياة عن نظرة غيرهم من رجال الكنيسة الكاثوليكية ، وكانت النقيض التام لنظرة البيورتان ، فالفن فى رأيهم يجب أن يطهر من الحس الدنيوى ، ولكن يجب أن يرحب به فى تزيين الحياة والإيمان . على أنه لم يكن هناك « أسلوب يسوعى » بعينه . كانت كنيسة يسوع باروكا فى الحجر ، وكثير من

كنائس اليسوعيين لا سيا فى ألمانيا كانت باروكا ، ولكن كل كنيسة اتبعت الأشكال والأمزجة المحلية والفاشية .

وكان اكمال كنيسة القديس بطرس آخر منجزات الفن الرومانى . فقد خلف ميكلانجلو نموذجا للقبة ، ولكن « الطبلة » وحدها هى التى كانت ممدودة حين ارتقى سيكستوس الخامس كرسى البابوية . وكان قطرها ١٣٨ قدما . ولم يجرؤ على تغطية مساحة هائلة كهذه دون دعامات تتخللها سوى برونولليسكى بفلورنسه . وأحجم المعماريون والمهندسون أمام العمل الذى اقترحه بووناروتى (ميكلا نجلو) ،وشكا رجال المال من أنه سيكلف مليون دوكاتية وجهد عشر سنين . ولكن سيكستوس أمر بالشروع فى العمل آملا أن يحيى القداس تحت القبة الجديدة قبل أن يودع الحياة . وتكفل جاكومو ديللا بورتا بالمهمة يساعده فيهـا دومنيكو فونتانا . وراح ثمانمائة من الرجال يكدحون ليل نهار — فيما عدا الآحاد — من مارس ١٥٨٩ ، إلى أن أعلنت روما فى ٢١ مايو ١٥٩٠ ، قبل موت الحبر الجرىء بثلاثة أشهر ، بأن «البابا المقدس سيكستوس الخامس، قد أتم عقد قبة كنيسة القديس بطرس ، لمجده الدائم وخزى أسلافه » (٨٦) .

وقد انتقص من وقع منظر القبة ، إلا على بعد ، واجهة الباروك التى أقامها ماديرنا فى ١٦٠٧ — ١٤ . أما الكنيسة نفسها فقد كرست نهائيا عام ١٦٢٦ ، بعد ١٧٤ سنة من البدء بتخطيطها . وفى عام ١٦٣٣ صب برنينى بالبرونز البلداكينو (أى المظلة) المزوقة فوق « مقبرة القديس بطرس » والمذبح المرتفع . وقد أنقذ النحات العظيم نفسه باحاطة المدخل إلى الضريح بصف أعمدة بيضى هائل (١٦٥٥ — ٦٧) أعان على جعـل كنيسة القديس بطرس أفخم بناء على وجه الأرض ، كما أن قبتها ذروة توجت كل ما بلغه الفن الحديث من انجازات .

١٠ — برنينى

جمع جوفانى لورينتزو برنينى فن روما القرن السابع عشر فى عمر

مسيطر واحد (١٥٩٨ — ١٦٨٠) . أخذ النحت عن أبيه المثال الفلورنسى، ولعله أخذ عن أمه النابولية حدة العاطفة وحرارة الإيمان . وفى عام ١٦٠٦ دعى الأب إلى روما للعمل فى كنيسة سانتا ماريا مادجورى . هناك درج « جان » فى جو من النحت الكلاسيكى والتقوى اليسوعية . وقد انتشى بتماثيل الفاتيكان « أنطنووس » و « أبوللو بلفديرى » ولكنه كان أعمق تأثرا بكتاب القديس اغناطيوس فى « الرياضات الروحية » ، التى مارسها حتى أحس الرعب والتقوى اللذين شعر بهما رجل جرّب آلام الجحيم ومحبة المسيح . وكان يستمع إلى القداس يوميا ، ويتناول الأسرار المقدسة مرتين فى الأسبوع .

وجرب التصوير ، حتى بلغت صوره المائة . وقد ظفرت إحداها ، وهى لوحة « القديسين أندراوس وتوما » فى مجموعة باربرينى بأعظم الثناء ، ولو أننا نفضل عليها صورته الذاتية المحفوظة بقاعة الأفتزى — فتى أسمر وسيم يجنح إلى التأمل الحزين . على أنه جوّد أكثر من هـذا فى العمارة . وقد أكمل قصر باريرينى لمافيوباريرينى ، فلما ولى راعى فنه هذا كرسى البابوية باسم أوربان الثامن ، عين برنينى كبير معمارى كنيسة القديس بطرس وهو فى الحادية والثلاثين . وهناك بنى — بالاضافة إلى صف الأعمدة والمظلة — فى الجزء الثانى من البناء « كاتدرا بترى » المزخرفة لحفظ المقعد الخشبى الذى اعتقد المؤمنون أن الرسول بطرس كان يستعمله، ومن حوله جمع أربعة تماثيل قوية الشخصية لآباء الكنيسة ، ومن فوق البناء العجيب كله نثر تماثيل الملائكة بحماسة رجل يملك فى ذهنه معينا لا ينضب من الروائع . وعلى مقربة منـه اختار مكانا لمقبرة ضخمة لحبره المحبوب أوربان الثامن . وصمم الشرفات ، وكثيرا من التماثيل التى تزين الركائز التى تسند القبة . وتحت القبـة وضع تمالا ضخما للقديس لونجينوس ، وفى الجناح الأيمن أقام أثرا تذكاريا مترفا لماتيلدا كونتيسة توسكانيا . وفى خارج الكنيسة أعاد تخطيط الصالة الملكية التى ترقى إلى قصر الفاتيكان مارة بأعمدة مهيبة ، وذلك بأسلوب أكثر

نقاء ، وفى فجوة فى هذا السلم الملكى أقام تمثالا لقسطنطين راكبا جواده وهو يطالع فى السماء دعوته لاعتناق المسيحية ؛ وأصبحت حرارة العاطفة فى هذا التمثال قالبا احتذاه عصر الباروك.وفى أخريات أيامه بنى فى مصلى السر المقدس بكنيسة القديس بطرس مذبحا لم تبدله رخاماته الساطعة ، وما توجه من ظلة وهيكل وقبة وملائكة مستغرقين فى العبادة — لم يبد له هذا كله تجسيدا مسرفا فى البهاء لسر القربان الذى ينطوى عليه القداس . كل هذا الجهد فى كنيسة القديس بطرس وما حولها يرى فيه الفنان العصرى اسرافا مسرحيا ومخاطبة خداعة للحواس ، أما برنينى فقد رأى فيه الأداة الخصبة لإيمان حار يصل إلى قلوب العابدين .

كان يمزج بين العمارة والنحت فى كل مكان ، ويحلم بفن يجمع بين العمارة والنحت والتصوير فى كل يستنهض الروح . وفى كنيسة سانتا ماريا ديللا فتوريا جمع قطع الرخام الثمين — الأخضر والأزرق والأحمر — وأطلق لخياله الزخرفى العنان ليبنى مصلى الكورنارو ، ذا الركائز المحززة والأعمـــدة الكورنثية الرشيقة ، وقد أودعها أعظم تماثيله فتنـــة وحرارة ، تمثال القديسة تريزا ، منهكة القوى غائبة عن الوعى فى نوبة من الوجد الصوفى ، وملاك حلو يتأهب لشق قلبها بسهم ملتهب رمزا لاتحاد القديسة مع المسيح . ووجة تريزا الذى يبدو كأن الحياة فارقته هو أحد انتصارات الباروك الإيطالى ، والملاك الذى يريش سهمه ان هو إلا أغنية فى الحجر .

كان لبرنينى منافسون . وقد أعجب مونتينى أيمـــا أعجاب بتمثـــال العدالة الذى نحته جاكوموديللا بورتا على قبر بولس الثالث فى كنيسة القديس بطرس . وصب توريجانو تمثالا نصفيا لسيكستوس الخامس ، فيه قوة وواقعية ، وهو الآن محفوظ بمتحف فكتوريا والبرت . ومزج بورومينو النحت بالعمارة مثل برنينى ، كما نرى فى قبر الكردينال فيللا مارينو بكنيسة سانتى أبوستولى فى نابلى . وبلـغ اليساندرو ألجاردى مستوى برنينى فى ثلاثة تماثيل نحتها لمقبرة ليو الحادى عشر بكنيسة القديس

بطرس ، وفاقه فى النقوش البارزة التى مثل بها « لقاء البابا ليو الأول وأتيلا » ، وهى أيضاً بكنيسة القديس بطرس .. أما تمثال إنوسنت العاشر النصفى الذى نحته الجاردى فى قصر دوريا با مفيلى ، فأكثر ارضاء للناظر من التمثال الذى نحته برنينى ، ويكاد يعدل فى القوة لوحة فيلاسكويز . ولكن أحدا فى هذا العصر لم يضارع برنينى فى خصوبته الفنية وخياله ومجموع منجزاته .

ثم شرح صدر روما بالنافورات الغريبة : فونتانا ديل تريتونى ، وفونتانا دى فيومى — حيث نقش مثالون أقل شأنا أربعة تماثيل للدانوب والنيل والجنج والبلاتا . وقد اختار إنوسنت العاشر من بين تصميمات المتسابقين المقدمة لهذه النافورة تصميم برنينى قائلا « على المرء ألا ينظر إلى تصمياته ما لم يكن مستعدا لقبولها »(٨٧) ولا بد أن ولع برنينى بالآثار القبرية الفخمة قد أوحى إلى رعاته بتقبل لذيذ لفكرة الموت . وقد عمر أوربان الثامن حتى رأى المقبرة التى أعدت لرفاته فى كنيسة القديس بطرس .

ونافس الكردينال سكيبونى بورجيزى البابا أوريان فى منح برنينى المال وتكليفه بالمهام . فصنع له المثال تمثالا حيا سماه « اغتصاب بروزرين » ، هو حلم من عضلات الذكر وانعطافات جسد الأنثى ، وتمثال « داود » يضرب جالوت بمقلاعه ، وتمثال « أبوللو ودافنى » — وهو تعبير مسرف فى الكمال عن شباب الرجل والمرأة . هذه التماثيل (وكلها فى قاعة بورجيزى للفنون) جرت على برنينى تهمة « اللازمية » والمغالاة المسرحية . وقد صور الكردينال نفسه فى تمثالين نصفيين ، هما تجسيد للطبع اللطيف والشهية الطيبة ، وأشد من هذين فتنة بطبيعة الحال التمثال النصفى لكونستانزا بوناريللى الجميلة ، المحفوظ بمتحف فلورنسه الوطنى ، وكانت زوجة مساعد برنينى ، ولكن برنينى — كما قال ابنه — نحتها فى الحجر ، بينما هو يعشق جسدها عشقا مشبوبا (٨٨) .

ويعكس برنيني عيوب الباروك أكثر من أى فنان آخر . فخطابه للعاطفة مسرف فى الوضوح ، وقد حسب التكاف دراميا ، واللطف جمالا ، والإفراط فى العاطفة تعاطفا ، والضخامة جلالا . وخلع على النحت تعبير الوجوه الحاد بينما هو ميزة اختص بها التصوير عادة . وقد أضعفت واقعية التفاصيل ، المغالية فى الدقة ، من التأثير السيكولوجى لفنه أحيانا . وقل أن بلغ فى تماثيله ذلك السكون الذى يضفى تفوقا خالدا على منحوتات أثينا فى عهد بركليس . ولكن لم يجب أن يعبر التمثال دائما عن السكون ؟ ولم لا تغزو الحركة والشعور وحرارة الحياة الرخام والبرونز وتبعث فيهما الحياة ؟ أنها فضيلة فى نحت الباروك وليست عيبا أنه جعل الحجر يحس ويتكلم . لقد اتبع برنيني المبدأ الهوراسى وأحس بما عبر عنه — بنعومة بشرة الفتاة ، وحيوية الشباب الرشيقة ، وهموم القادة ومتاعبهم ، وورع القديسين ووجدهم .

ولقد تقبله الناس قرابة خمسين عاما إماما لمعماريى عصره . وفى عام ١٦٦٥ ، حين فكر كولبير ولويس الرابع عشر فى إعادة تخطيط اللوفر وتوسيعه ، وجها الدعوة إلى برنيني ليحضر إلى باريس ويضطلع بهذه المهمة . فذهب إليها وصمم، لا بحكمة بل بغلو فى البراعة — وجاوز فى الفخامة الذوق والمال الفرنسيين . وفضلت على تصميمه واجهة بيرو الأكثر صرامة ، وقفل برنيني إلى روما يجرر أذيال الخيبة . هنا (١٦٦٧) رسم لنفسه تلك الصورة الطباشيرية الرائعة ، المحفوظة الآن فى قلعة وندزر — خصل بيضاء تتراجع فوق رأس قوى البأس ، ووجه خلف عليه الجهد التجاعيد والعقد ، أما العينان الوديعتان بالأمس فقد أصبحتا جامدتين خائفتين ، كأنهما تريان إلى أين تفضى مدارج المجد . ولكنه لم ينهزم بعد ، فقد ظل ثلاث عشرة سنة أخرى يبنى وينحت فى عنف ، « حاداً فى روحه ، راسخاً فى عمله ، حاميا فى غضبه (٨٩) » وحين خبت جذوته (٢٨ فبراير ١٦٨٠) كان قد عمر إلى ما بعد النهضة الإيطالية :

حين زار ملتن إيطاليا عام ١٦٣٨ ذكران العلماء الإيطاليين أنفسهم أحسوا أن مجد وطنهم قد زال بمجيء الحكم الأسبانى والحركة المعارضة للاصلاح البروتستنتى . ولعل التسلط والرقابة ألحقتا الضرر بفكر إيطاليا وفنها — ولو أن سرفانتس وكالديرون وفيلا سكويز كانوا يزدهرون فى ظل محكمة تفتيش أشد عتوا فى أسبانيا . ولكن الذى أنهى النهضة الإيطالية لم يكن قائداً أسبانيا ، ولا قائمة كتب حرمتها الكنيسة ، بل ملاحا برتغاليا ، هو فاسكودا جاما الذى عثر على طريق بمخر كله البحر إلى الهند ، طويل حقاً ولكنه أرخص من طرق التجارة البندقية والجنوية التى أغنت إيطاليا . وأخذت التجارة البرتغالية والهولندية تحل محل التجارة الإيطالية ، والمنسوجات الفلمنكية والانجليزية تنتزع الأسواق من الفلورنسيين . أما حركة الإصلاح البروتستنتى فكانت قد هبطت بالذهب المتدفق على روما من ألمانيا وإنجلتره إلى النصف .

وتألقت إيطاليا فى اضمحلالها . حقاً لقد هبط الفن من علياء رفائيل وميكل انجلو ، وفقد الفكر السياسى عمق مكيافللى وشجاعته ، ولكن لم يكن هناك اضمحلال بل نهوض فى السياسة والإدارة من ليو العاشر إلى سيكستوس الخامس ، وفى العلم من ليوناردو إلى جاليليو ، وفى الفلسفة من بومبوناتزى إلى برونو ، وفى الدراما الموسيقية من بوليتيان إلى مونتيڤردى ، اللهم إلا اضمحلال فى الشعر مختلف عليه من أريوستو إلى تاسو . وكانت إيطاليا خلال خلال ذلك ، كالأم الرءوم ؛ تسكب فنها وموسيقاها ، وعلمها وفلسفتها ، وشعرها ونثرها ، فوق الألب إلى فرنسا وفلاندر ، وفوق المانش إلى إنجلتره ، وفوق البحر إلى أسبانيا .

الفصل العاشر

فخامة أسبانيا وانحطاطها

١٥٥٦ — ١٦٦٥

١ — الحياة الأسبانية

إن الذين ربوا منا على المؤرخين الإنجليز قد ينسون بسهولة أن أسبانيا كانت بعد هزيمة الأرمادا ، كما كانت قبلها ، أعظم الإمبراطوريات على وجه الأرض وأعتاها وأكثرها اتساعاً ، وأنها اعتبرت نفسها — ولها العذر — أرقى من إنجلتره الإليزابيثية فى الأدب ، ومن إيطاليا المعاصرة فى الفن . فحين ارتقى فيليب الثانى العرش (٢٥٥٦) كانت الملكية الإسبانية تحكم أسبانيا ، وروسيون ، وفرانش كونتيه ، وسته ، وأوران ، والأراضى المنخفضة ، ودوقية ميلان ، ومملكة نابلى ، وصقلية ، وسردانيا ، والفلبين ، وجزر الهند الغربية ، ومعظم أمريكا الجنوبية ، وجزءاً من أمريكا الشمالية ، وكل أمريكا الوسطى ، يضاف إلى هذا (١٥٨٠ — ١٦٤٠) البرتغال والأملاك البرتغالية فى آسيا ، وأفريقيا ، والبرازيل ، كذلك محمية فى سافوى ، وبارما ، وتوسكانيا ، وحلف مع الامبراطورية الرومانية المقدسة التى حكمها فرديناند الأول عم فيليب* وكانت أسبانيا تمتلك جيشاً عدته خمسون ألف مقاتل اشتهروا بالبسالة وحسن النظام ، تحت امرة أفضل قواد العصر ، وأسطولا من ١٤٠ سفينة ، ودخلا سنوياً يبلغ عشرة أمثال دخل إنجلترة* وكان ذهب أمريكا وفضتها يتدفقان على الموانى الأسبانية . أما البلاط الأسبانى فى هذا العصر فأفخم بلاط فى العالم ، وأما الاستقراطية الاسبانية فأشد الارستقراطيات كبرياء وعجباً . وكان

الملايين من الناس خارج أسبانيا يتكلمون الأسبانية ، وفى كثير من الأقطار تعلمت الطبقات المثقفة اللغة الأسبانية كما تعلمت بعد ذلك اللغه الفرنسية فى القرن الثامن عشر . كذلك زينت العمارة الأسبانية المدن فى خمس قارات .

وبلغ عدد سكان أسبانيا الآن زهاء ثمانية ملايين . واضمحلت الزراعة بتحويل المزيد من الأرض إلى مراع للأغنام لإنتاج الصوف . وقد بلغ عدد عمال النسيج فى طليطلة وحدها خمسين ألفاً حوالى عام ١٥٦٠ ، وحفزت مطالب المستعمرات الأسبانية صناعات أسبانيا ، وأصبحت أشبيلية من أهم الثغور فى أوربا ، وأرسلت المستعمرات نظير ذلك الشحنات من الفضة والذهب . ورفع تدفق المعادن النفسية الأسعار رفعاً جنونياً — فبلغت نسبة الغلاء فى الأندلس ٥٠٠ فى المائة فى القرن السادس عشر ، وصعدت الأجور لتلحق بتكاليف المعيشة فى سباق محموم أصبح فى النهاية عديم الجدوى . وكان كثير من الصناعة يقوم على أكتاف المغاربة (المورسكو) — وهم المسلمون الذين اعتنقوا المسيحية ظاهرياً . أما الخدمة فى البيوت فألقى أكثر عبئها على العبيد المأسورين فى الغارات على أفريقيا أو فى الحروب التى شنت على « الكفار » : لقد كان عامة الأسبان يحتقرون العمل ويقنعون بالقليل فى تفلسف ، فالنوم فى كوخ ، والاصطلاء فى الشمس ، ومداعبة القيثارة ، والبكاء على شح الحسان — ذلك خير من الكدح والعرق شأن العبيد أو المسلمين . وقد ساهم طرد المغاربة عام ١٦٠٩ مع غلاء المنتجات الأسبانية فى اضمحلال الصناعة فى أسبانيا .

وكان طرد اليهود عام ١٤٩٢ قد ترك فراغاً فى بناء أسبانيا التجارى والمالى . وأصبح الجنويون والهولنديون أهم النقلة لتجارة أسبانيا الخارجية . أما أسبانيا التى كان يحكمها نبلاء تمرسوا بالدبلوماسية والحرب أكثر مما تمرسوا بشئون الاقتصاد، فقد تركت ثروتها تعتمد على استيراد الذهب، وازداد ثراء الحكومة حيناً بينما ظل الشعب فى فقره ، ولكن كثيراً من هذا الذهب كان ينزح لاستخدامه فى الحرب ، أو يأخذه التجار الأجانب

الذين ينقلون تجارة أسبانيا ، حتى كادت الحكومة تفتقر كالشعب . ورفضت أسبانيا الوفاء بديونها المرة بعد المرة (١٥٥٧ و ١٥٧٥ و ١٥٩٦ و ١٦٠٧ و ١٦٢٧ و ١٦٤٧) أو حولتها بالاكراه إلى قروض جديدة ، وهــذه الأزمات المالية هي التي ألجأتها إلى انهاء حربها مع هنرى الثانى عام ١٥٥٩ ، ومع « الأقاليم المتحدة » عام ١٦٠٩ . ففى التاريخ علينا أن نفتش لا عن « المرأة » بل عن « المصرفى » .

وفى أسبانيا علينا كذلك أن نفتش عن الكاهن . ذلك أن الدين لم يفرض هذا السلطان على الشعب ، ومن ثم على الحكومة ، فى أى بلد آخر من بلاد الله ، ولم تكتف أسبانيا برفض حركة الاصلاح البروتستنتى فحسب ، بل تجاوزتها إلى رفض النهضة أيضا — اللهم ألا لحظة إرزمية عابرة . وظلت « وسيطة » فى عالم حديث ، قانعة بنصيبها هذا . وكان فقر الشعب يتهلل لثراء الكنيسة . كان الكل متدينين ، من الملوك « الأشد كثلكة من البابا »(١) إلى قطاع الطرق الذين لم يروا قط إلا حاملين المداليات أو الشارات الكتفية الدينية . وفى عام ١٦١٥ سار نحو أربعين ألف أسبانى فى مظاهرة مظالبين بأن يجعل البابا من « حمل العذراء غير المدنس » (أى خلوها من لوثة الخطيئة الأصلية) عقيدة فى صلب الإيمان — أى اعتقاد الزامى على جميع الكاثوليك(٢). وفى كل مكان كنت تجد القساوسة والرهبان والأخوة ، لا متسامحين أو راضين عن مباهج الحياة والحب كما فى إيطاليا أو فرنسا ، بل ملقين جوا من اكتئاب الجريــكو على كل شيء الا مصارعات الثيران . وأصبح فى أسبانيا الآن ٠٨٨ ر ٩ ديرا ، و ٠٠٠ ر ٣٢ أخ دومنيكى وفرنسسكانى (٣) ، وعدد متزايد من اليسوعيين . وكانت الكنائس معتمة ، تزخر بالرفات الرهيبة ، وتزدان بالمرعبات الواقعية فى فنها . أما قصص القديسين ومعجزاتهم فهى الشعر الذى يعتز به الشعب . وحبب الناس فى التصوف أغانى القديس يوحنــا الصليبى وكتابات القديسة تريزا ووجدت الكنيسة لزاما عليها أن تحتج

على ما ادعاه « المهدئون » من صلة حميمة بالله ومن رؤى طوباوية ، وفى عام ١٦٤٠ وقعت فى براثن محكمة التفتيش طائفة من الألومبرادو — « أى المستنيرين » — زعموا أن اتحادهم الصوفى بالاله يطهرهم من كل اثم حتى وهم فى نشوات الجنس . علينا اذن أن نذكر هذا التدين الواسع الانتشار ، الشديد التحمس ، إن أردنا أن نفهم لم استطاع الشعب الأسبانى أن يرقب فى استحسان قوى حرق المهرطقين ، وأن يجود بماله حتى الأفلاس والأعياء دفاعا عن العقيدة فى ألمانيا والأراضى المنخفضة . لقد كان فى هذا الجنون شىء من النبل ، وكأن الأمة أحست بأنه ما لم يكن إيمانها صادقا فإن الحياة تصبح سخفا لا معنى له .

وهكذا مضت محكمة التفتيش فى وحشيتها التى أملاها عليها ضميرها ، فحدت بالعقوبات « المعتدلة » — كجلد المذنب مائة جلدة — من بدع كتلك التى زعمت أن الزنى ليس خطيئة ، أو أن الزواج مقدس كالتبتل الديرى . أما المارانو « المرتدون » — وهم اليهود الذين اعتنقوا المسيحية من قبل ثم ارتدوا إلى اليهودية سرا — فكان التكفير المقرر عن جريمتهم هو الموت أو السجن المؤبد . وحين وصل فليب الثانى إلى أسبانيا (١٥٥٩) استقبل فى بلد الوليد بتنفيذ حكم للمحكمة شهد فيه ٢٠٠٫٠٠٠ شخص يرأسهم الملك عشرة من المهرطقين يشنقون واثنين يحرقان أحياء[٤]. والتمس أحد المحكوم عليهم الرأفة من فليب فرفض ، واكتسب أعجاب الشعب بقوله « لو أن ابنى كان شقيا مثلك لحملت بنفسى الحطب لأحرقه »[٥] وقد قاوم فليب أحيانا جنوح محكمة التفتيش إلى توسيع سلطانها على حساب السلطة المدنية ، ولكنه على العموم شجع هذه المؤسسة باعتبارها أداة تعين الحماسة والوحدة القوميتين . وقد أراحه بعض الشىء أنه استطاع استخدام المحكوم عليهم عبيدا على السفن[٦]، وأنه فى سنة واحدة (١٥٦٦) تسلم ٢٠٠٫٠٠٠ دوكاتية من الذهب هى نصيب الثلثين المستحق للحكومة من غرامات محكمة التفتيش ومصادراتها .

واعتزت محكمة التفتيش بصونها عقيدة العصر الوسيط نقية لا غش فيها ، وبإنقاذها أسبانيا من الفرقة الدينية التى تتلوى فرنسا تحت قبضتها . وترك اهتمامها بالعقيدة دون السلوك حماية الفضيلة لرجال الاكليروس — وكانوا هم أنفسهم مشهورين بالتهاون فى سلوكهم — وللموظفين المدنيين الذين حد من سلطانهم على الشعب خضوعهم لما تصدره محكمة التفتيش من أحكام بالسجن أو الغرامة . أما عفة النساء فلم يقم حارسا عليها الدين والقانون فحسب ، بل « البونتو » ، أى حق الدفاع عن العرض ، وهو مبدأ يلزم كل ذكر بأن يدافع أو يثأر بالسيف لعرض أية امرأة فى أسرته هدد أو انتهك . وكانت المبارزة غير قانونية ولكنها محببة إلى الشعب . وكان كرام النساء يلزمن بيوتهن فى احتجاب شبيه بما كان عند العرب ، يأكلن بمعزل عن الرجال ، وقلما يصحبنهم علانية ، ويركبن المركبات المقفلة إذا انتقلن من بيوتهن . وكان طلاب يد الفتاة يتوددون بالموسيقى تعزف من الشارع للعذراء المحتجبة خلف نوافذ ذات قضبان ، وقل أن يؤذن لهم بدخول البيت حتى يصل والدا الطرفين إلى اتفاق ، ومع ذلك كثرت زيجات الغرام [٧] . وفى عهد فليب الثانى احتفظ بمستوى الأخلاق عاليا على قدر ما سمحت به فتنة النساء أو خيال الرجال ، وخفف من فساد الموظفين الطبيعى يقظة الملك ، وإلى هزيمة الأرمادا كان يصون روح الشعب المعنوية اعتقادهم بأن أسبانيا تخوض حربا مقدسة ضد الإسلام ، والأراضى المنخفضة ، وانجلتره ، فلما تحطم الحلم انهارت أسبانيا جسدا وروحا .

على أن الحياة الأسبانية كان لها بهاؤها وسحرها الملازمان لطبيعتها . فالاحسان واسع الانتشار ، والسلوك المهذب يسود جميع الطبقات . ونصف الأمة يزعم لنفسه عراقة الأصل ، ويحاول الارتفاع بحياته إلى آداب الفروسية ، ويصر على أن يرتدى لباس العشر الأعلى من السكان . وكان اللباس فى عهد فليب الثانى متوسط البساطة ، فالرجال يلبسون أطواق الرقبة والصدرات

والجوارب الطويلة القائمة الضيقة ، والأحذية ذات المشابك ، أما النبيلات (وكلهن نبيلات) فيغطين ما استدار من أجسادهن بالمشدات القاسية المستوية ، ويحجبن عن الجنس الآخر كل وجوههن فيما عدا العيون (وهى فى نساء الأسبان شديدة التوقد) ، ويخفين أقدامهن فى خفر بحيث كانت لمحة واحدة إليها أعظم المكافآت المثيرة التى تجزى بها توسلات العاشق الولهان(٨) . وأصبح لباس النساء أكثر بهاء إبان التراخى الخلقى الذى أعقب موت فيليب ، فالمراوح ترف فى مداعبة بلا كلام ، والصباغ الأحمر يلمع على الوجوه والأكتاف والنحور والأيدى ، والسيقان التى يلفها الغموض تخفى فى تنانير بلغ من سعتها أن أصحاب المسارح كانوا يتقاضون أجر كرسين من كل امرأة تعاظم حجمها على هذا النحو .

وظلت مصارعة الثيران الفرجة المفضلة . وقد أصدر البابا بيوس الخامس مرسوما بحظرها عام ١٥٦٧ ، ولكن فيليب الثانى احتج بأن هذا الحظر سيطلق ثورة فى أسبانيا ، فأهمل المرسوم . وأضافت المواكب الدينية شيئاً من الشعر الحزين إلى الأيام العادية الخالية من الاثارة . وسترت أقنعة الكرنفال كثرة من الخطايا . أما الموسيقى فغرام لا يفوقه غير الدين والعشق — وهو وثيق الصلة بهما . فالفويلا الشبيهة فى شكلها بالقيثارة تعزف الحانا شجية تلازم العلاقات الغرامية . وقد حظيت الأغانى الشعرية القصيرة بشعبية مؤقتة . ونافست أسبانيا إيطاليا فى الموسيقى الكنيسة . وقد نشأ توماس لويس دى فكتوريا ، وهو بمثابة فلاسكويز الموسيقى الأسبانية ، فى أفيلا (آبله) ، بلد القديسة تريزا ، ولعله وقع تحت تأثيرها . وكان يملك الصوت والوظيفة ، ولعله رسم قسيسا عام ١٥٦٤ ، ومن المؤكد أن فيليب أجرى عليه إعانة ليدرس الموسيقى فى إيطاليا . ونحن نراه فى سنة ١٥٧١ رئيسا لفرقة المرتلين فى الكلية الجرمانية بروما . وفى عام ١٥٧٢ أصدر كتابا من من الألحان يحوى موسيقى « Ovos omnes » (يا جميع الآلهة) الملهمة المرافقة لمراثى أرميا لأورشليم . ولما عاد إلى أسبانيا قدم لفليب الثانى

كتاب قداديس احتـــوى على لحن من أرفع ألحانه ، وهو قداس « O quam gloriosum » (ما أمجدك) . وكتب قداسا جنائزيا عميق التأثير لمأتم ماريا أخت فيليب ، وأرملة الامبراطور مكسليان الثانى ، وضعه مؤرخ نابه للموسيقى فى صف « أروع الألحان المدونة قاطبة[٩] » . وقد سمـاه أغنيته التم » ، وبعد نشره (١٦٠٣) تفرغ بكليته لواجباته الكهنوتية . وكان من ألمع النجوم فى أشهر عهد من عهود الملكية الأسبانية .

٢ — فيليب الثانى : ١٥٥٥ — ٩٨

هنا رجل من أغرب وأقوى شخصيات التاريخ ، متعصب ، ذو ضمير حى ، مكروه أشد الكره خارج أسبانيا ، محبوب أحر الحب داخلها ، يتحدى أى دارس يحاول جاهدا أن يكون موضوعيا . كان نسبه قدره المكتوب ، فأبوه شارل الخامس ، الذى خلف له ملكا والتزاما بالتعصب ، وجدته لأبيه جوانا لا لوكا ابنة فرديناند الكاثوليكى المجنونة ؛ فالصوفية والجنون إذن فى عروقه ، والعقيدة والاستبداد فى ميراثه . وكان لأمه ايزابللا البرتغالية ولدان آخران مات كلاهما بالصرع فى طفولته ، وماتت هى نفسها فى السادسة والثلاثين حين كان فيليب فى الثانية عشرة . ولد فى بلد الوليد عام ١٥٢٧ يوم كانت جيوش أبيه تنهب روما وتسجن البابا ، وربى على أيدى قساوسة ونساء أغرقوه فى التدين واقنعوه بأن الكنيسة الكاثوليكية هى السند الذى لا غنى عنه للفضيلة والملكية . وعلى حين كان أبوه — الذى نشأ فى فلاندر — قد شب رجل دنيا ، أصبح فيليب — الذى عاش فى أسبانيا معظم حياته — أسبانيا وجها وعقيدة ، جسدا وعقلا ، برغم جلده الأبيض ، شعره الأصفر الحريرى .

لم يكد يستمتع بشباب ، ففى الثالثة عشرة عين حاكما على ميلان ، وفى السادسة عشرة وصيا على عرش أسبانيا — وهى وصاية لم تكن مجرد اسم بلا مسمى . فقد رتب شارل مشيرين له ، وشرح له طباعهم ببصيرة نافذة ، وأمره ان يؤلب المشير على المشير ، وحضه على أن يحتفظ لنفسه

بكل السلطة الحقيقية وكل القرارات النهائية — وهو ما فعله فيليب إلى آخر نسمة من حياته . وفى تلك السنة (١٥٤٣) تزوج فيليب ابنة خاله الأميرة ماريا البرتغالية ، ولكنها ماتت عام ١٥٤٥ ، عقب أن أنجبت له ابنا « سيئ الطالع » هو الدون كارلوس ، فعقد فيليب زواجا من احدى بنات الشعب هى إيزابيلا دى أوزوريو ، التى أنجبت له عدة أطفال . وألح عليه أبوه فى فسخ هذا الزواج ، وكان لزاما على كل أمير هابسبورجى أن يعين على تأليف نطاق من الحلفاء حول العـدو القديم فرنسا . لذلك وجب على فليب — لكى يؤمن قوة أسبانيا فى الأراضى المنخفضة من تدخل إنجلتره — ان يبتلع حاسته الجمالية ويتزوج مارى تيودور ملكة إنجلتره الكاثوليكية . وينجب منها بنين يحتفظون بانجلتره فى حظيرة الكاثوليكية . وهكذا نراه فى عام ١٥٥٤ يعبر المانش ، ويتزوج مارى الدميمة ، العليلة ، المؤملة فى الخلف (وكانت تكبره بأحد عشر عاما) ، ويبذل قصاراه لاخصابها ، ولكنه يخفق ، فيرحل (١٥٥٥) ليصبح حاكما للأراضى المنخفضة .

وتمضى السنون وأعباؤه تثقل . ففى عام ١٥٥٤ كان قد نصب حاكما لمملكة نابلى وصقلية المزدوجة . وفى عام ١٥٥٦ تخلى له شارل عن تاج أسبانيا . وظل فيليب أربع سنوات يحكم أملاكه المبعثرة من بروكسل . وقد ناضل للتوفيق بين رزانته الأسبانية وبين المرح الفلمنـكى والمالية الهولندية . لم يكن يستطيب الحرب ، ولكن قواده كسبوا له فى سانت كوينتين (١٥٥٧) معركة حملت الفرنسيين على ابرام معاهدة كاتو — كامبريزى . ورغبة منه فى إقامة بعض روابط الصداقة مع فرنسا تزوج فيليب من اليزابث فالوا ، ابنة هنرى الثانى وكاترين مديتشى ، وبعـد أن خال الأمور قد استقرت ودع الأراضى المنخفضة وأبحر من غنت (أغسطس ١٥٥٩) وحبس نفسه بقية حياته فى أسبانيا .

ونقل العاصمة من طليطلة إلى مدريد (١٥٦٠) ، وما لبث أن حمله حبه للعزلة ، وعدم ارتياحه إلى الوجود وسط الجماهير ، على تكليف

خوان باوتستا وخوان دى هيرايرا بان يشيدا له على سبعة وعشرين ميلا شمال غربى مدريد مجمعا من العمائر يحوى قصرا ملكيا ، ومركزا إداريا ، وكلية ومدرسة لاهوتية ، وديرا ، وكنيسة ، وضريحا — ولا غرو فقد أصبح فليب الآن متدينا على قدر ما تسمح به مقتضيات السياسة . ففى معركة سانت كوينتين هدمت مدافعه كنيسة مكرسة للقديس لورنس ، وتكفيرا عن هذا الانتهاك للمقدسات وعرفانا بالجميل على انتصاره ، كان نذر أن يقيم للقديس ضريحا فى أسبانيا . وهكذا سمى مجمع العمائر الشاسع هذا السيتيوريال دى سان لورينزو « — أى المقر الملكى للقديس لورنس ، ولكن الزمن سماه الإسكوريال ، نسبة لمدينة قريبة ، اشتقت هى نفسها اسمها من لفظ « سكوريا » ومعناه خبث مناجم الحديد المحلية[١٠] . وكان الاعتقاد أن القديس لورنس قد أحرق حتى الموت على مشواة من حديد ، لذلك صمم خوان باوتستا خطة الأرض على هيئة مشواة تقطعها الصالات من جنب إلى جنب ، قاسمة الفراغ الداخلى إلى ستة عشر فناء .

ويعجب المرء وهو يركب السيارة من مدريد إلى هذا المكان كيف استطاع فيليب ، فى عصر لم يتح له من وسائل الانتقال ما هو أسرع من ظهور الخيل ، أن يحكم ملكه العالمى من مثل هذا الحرم الذى يتوه وسط تلال كئيبة ؛ ولكن مدريد كانت أكثر منه بعدا عن العالم . وقد هجر هذا المجمع العظيم اليوم إلا من الرهبان وخدماتهم ، ولكنه كان أيام عزه ، بواجهته المبنية بطرز النهضة والبالغ طولها ٧٤٤ قدما ، وبقلاعه وأبراجه ، وبقبة كنيسته الضخمة ، رمزا رهيبا للسطوة الأسبانية التى تبلت بالتقوى والفن . هنا كان يحكم نصف العالم المسيحى ، ووجد الدين والحكومة فى متاهة واحدة من السياسة والحجر ، وهنا كان فى استطاعة الملك أن يعيش كما يشتهى ، لا بين حاشيته ، بل بين القساوسة والرهبان والرفات المقدسة ، ويسمع مرات كل يوم الأجراس المعلنة للقداس . هنا كان البانتيون مزمعا أن يتلقى رفات ملوك أسبانيا وملكاتها ، والمكتبة أن تصبح من أغنى المكتبات فى أوربا ، ومتحف الصور أن

يضم عما قليل روائع بريشة رفائيل ، وتتسيانو ، وتنتوريتو ، وفيرونيزى ، والجريكو ، وفلاسكويز ، وهنا أقبل بلجرينو تيبالدى ، وبارتولوميو كاردوتشي ، وفدريجو زوكارو ، من إيطاليا للانضمام إلى خوان فرنانديز نافاريتى ، ولويزدى مورالبس ، ولويز دى كارباياك ، وغيرهم من الفنانين الأسبان ليرسموا الصور الجصية على الجدران والبوا كى التى لا نهاية لها . أما القصر الملكى فتركه بسيطا كل البساطة ، ولكن الكنيسة برغم بنائها على الطراز الدورى الصارم ، كان مذبحها يتلألأ بالرخام السماق واليشب والذهب ومن خلفه رافدة ذات حلية معقدة . وكانت القاعة المخصصة لاستقبال كبار القوم شاسعة حافلة بالزخرف ، أما حجرة فليب فأفقر حجرات البناء ، متواضعة كأنها صومعة عابد (١١) . كان البناء رمزا لسطوة فليب ، أما الحجرة فتعبير عن خلقه .

لقد جهد غاية الجهد ليكون قديسا ، ولكنه لم ينس أنه ملك . كان يعلم أنه أقوى حاكم على ظهر البسيطة ويشعر بالتزام سياسى بالكبرياء ، ولكنه كان فى لباسه آية فى البساطة حتى أن بعض الغرباء الذين صادفوه فى الاسكوريال حسبوه تابعا ، وسمحوا له أن يكون دليلهم (١٢) . وكان خليقا بهم أن يتعرفوا عليه من ذقنه الهابسبورجية الناتئة ، لأنها كانت تحديا بارزا للعالم . وفى عام ١٥٥٩ ، قبل أن يقسيه الزمن والتجارب ، وصفه سفير بندقى بأنه « يبدى دائما من الرقة والانسانية مالا يبزه فيه أمير (١٣) » ، وقال عنه سفير انجليزى أنه « ذو خلق لطيف ، وطبع لين ، وميل إلى الهدوء (١٤) . ولم يجد فيه أحد أى ميل للمزاح أمام الناس ، وذكر أعداؤه القساة أنه لم يبتسم فى حياته كلها غير مرة — وذلك حين سمع بمذبحة القديس برتلميو . على أنه فى حياته الخاصة كان يستطيب الدعابة والنكتة ويضحك من كل قلبه (١٥) . وكان يجمع الكتب بذوق ولذة ، ولكنه آثر الفن على الأدب ، فهو الراعى المرهف الذوق لتتسيانو ، والناقد لإلجريكو ، يحب الموسيقى ويعزف على القيثارة

حين لا يرقبه العالم ، تحليه كل آداب السلوك الأسبانية، ولـكنه يرتبك حياء ويجمد فى المناسبات الرسمية ، رشيق الجسم إلى أن أعجزه النقرس لولعه بالفطير والحلوى . كان منذ شبابه مستهدفا للمرض ، وإذا كان قد أدرك السبعين كاملة فإنما الفضل فى ذلك لتصميمه العنيد على اتمـام واجباته . وقد اتخذ الحكم واجبا مقدسا ، وراح يكد فيه ويكدح يوما بعد يوم طوال خمسين عاما . ويبدو أنه آمن حقا بأن الله اختاره لوقف المد البروتستنتى ، ومن هنا ما عرف عنه من عناد شديد وقسوة على مضض ، « ولم يكن بطبيعته يؤثر الطرق العنيفة [١٦] » ولم ينس قط صنيعا (اللهم إلا حالة أجمونت) . ولا نسى اساءة . كان المنتقم أحيانا ،الشهم الصفوح غالبا . وزع الصدقات بسخاء يمليه الضمير [١٧] . كان فى عدسر فاسد غير قابل للافساد ، وما كان لرشوة أو هدية أن تثنيه عن الاضطهادات التى دفعه إليها تدينه .

أما فى أخلاقيات السياسة فكان شبيها كل الشبه بمعاصريه — يكره الحرب ، ولم يبدأ حربا قط ، واحتمل من إهانات انجلتره جيلا كاملا تقريبا قبل أن يجرد عليها الارمادا . كان قادرا ، بل أقدر من معظم الحكام ، على الخداع المتخفى وراء التقوى ، والظاهر أنه شارك فى مؤامرة لقتل اليزابث حين أعيته الحيل لانقاذ مارى ستيوارت [١٨] . وكان حكمه لأسبانيا أوتوقراطيا ولكنه عادل ، « يهتم الاهتمام الشديد برعاياه، ويصلح أى مظالم اجتماعية يجد الوقت لاكتشافها [١٩] » .

أما خلقه الشخصى فيفضل خلق أكثر ملوك القرن السادس عشر . كان فى شبابه ببروكسل ، إذا صدقنا أعداءه ، « شديد الاباحية » و « لهوه المفضل أن يخرج ليلا متخفيا ليمارس شتى الشهوات المبتذلة فى المواطن المألوفة للرذيلة [٢٠] » ؛ وبعد سنوات اتهم وليم أورنج ، وهو يقود ثورة الأراضى المنخفضة ، ناسك الاسكوريال هذا بأنه قتل ابنه ودس السم لزوجته الثالثة [٢١] ، ولكن رجلا ساخطا مثل وليم لا يعتمد

عليه فى كتابة التاريخ . على أن مؤرخا لا يتطرق الشك إلى عظمته وجرأته ، وهو ماريانا اليسوعى الأسبانى ، يصدر عليه حكما عدائيا كهذا ، فبينما هو يشيد بـ «سماحة فليب وعزيمته ويقظته وزهده فى الطعام والشراب » يتهمه بـ « الشهوانية ، والقسوة ، والكبر والغدر ، وعدة رذائل أخرى »(٢٢) ولكننا نجد مؤرخا هولنديا محدثا يخلص إلى أن « فليب الثانى لا يمكن اتهامه بالفجور و . . والخلاعة والفساد ، فهو على قدر علمنا عاش بعد عودته إلى أسبانيا حياة فاضلة إلى حد الصرامة (٢٣) » زوجا وفيا وأبا شديد الاهتمام بأبنائه . وحين مرضت زوجته الثالثة اليزابث قالوا بالجدرى (وكان يومها فتاكا أغلب الأحيان) ظل ملازما لها لا يبرحها إلا نادرا مع أن وزراءه ألحوا عليه فى ألا يعرض نفسه لخطر العدوى . وبعد موت اليزابث عقد فليب زواجا دبلوماسيا آخر (١٥٧٠) بأميرة نمساوية من أميراتها العديدات المسميات « آن » ، وماتت آن هذه عام ١٥٨٠ وبعدها كرس عواطفه العائلية الحميمة لبناته . ورسائله لهن رسائل إنسانية فيها دعابة ومحبة (٢٤). وأصبحت اليزابث كلارا رفيقه الحميم وعزاءه الكبير وسط هموم الشيخوخة وهزائمها . وقد وصفها فى وصيته بأنها نور عينيه . أما أبناؤه فلم يجد فيهم أى عزاء .

وتضافرت الأسطورة والأدب (*) والشفقة الانسانية لتجعل من ابن فليب الأكبر رجلا أشهر من أبيه . كان كارلوس ضعيف البنية ، مستهدفا للحمى المتقطعة ، والاكتئاب ، ونوبات الغضب والكبرياء . كان سخيا فى إسراف ، شجاعا فى شراسة ، كان يضحك جده ، الذى كان بالأمس شارل الخامس العظيم . بلومه إياه على أنه فر من موريس أمير سكسونيا فى إنزبروك (١٥٥٢) — « لو كنت مكانك لما

(*) اتخذ هؤلاء الكتاب الدون كارلوس موضوعا لمسرحياتهم : شيلر ، والفييرى ، وأوتواى ، وماري جوزف دشنييه ، وخوان بيريز دمونتالفين . . . الخ .

قررت قط ! » (٢٥) وفى المحادثات التمهيدية لمعاهدة كاتو — كامبريزى كان هناك وعد بزواج كارلوس — وهو يومها فى الرابعة عشرة — من اليزابث فالوا ، ولكن فى المعاهدة نفسها اتخذ فليب هذه الأميرة زوجة له بعد أن ترمل بموت مارى تيودور ، وذلك ليحول الصداقة الفرنسية من انجلترا إلى أسبانيا ، وبعد عام وصلت العروس إلى مدريد (١٥٦٠). ولعل كارلوس حين رأى جمالها المتوارى خلف قناع من الحشمة ساءة هذا التحوير لحق « السيد الاقطاعى » ، ولكن ليس هناك دليل على وجود أية علاقة غرام بينه وبين الملكة ذات الأربعة عشر ربيعا(٢٦) .

وكان من المسلم به رسميا أن كارلوس وريث للتاج برغم علته . وفى عام ١٥٦١ أرسل إلى جامعة ألكالا « القلعة » . وهناك سقط من درجات سلم خلال مطاردته فتاة يغازلها ، فكسرت جمجمته ، وراح يهذى فى غيبوبته . ونشر الجراح الكبير فيزاليوس عظم رأسه فأنقذ حياة الصبى ، ولكن تحسن حالته عزاه الناس إلى رفات أخ فرنسسكانى تقى — مات قبل قرن — أخذت من تابوتها ووضعت على الفراش إلى جوار الأمير . وخلال نقاهة الفتى الطويلة مكث فليب « القلعة » وأنفق الوقت الكثير إلى جانبه . وأعيد كارلوس إلى مدريد، وهناك استرد من العافية ما سمح له بالانضمام إلى شباب النبلاء فى حوادث العنف يرتكبونها فى الشوارع ضد الرجال والنساء . وقوت اعتداءاته القاسية الصاخبة ، الشبهة فى أن سقطته قد ألحقت بمخه أذى لاشفاء له منه . ولم يكن مما يعينه على كسب عطف فليب أنه أعرب عن تعاطفه مع الثوار فى الأراضى المنخفضة . ولما عين ألفا قائدا للجيش هناك احتج كارلوس بأن هذه المهمة كان يجب أن تعهد إليه ، فنهى ألفا عن الذهاب ، وهاجم الدوق بخنجر شهره عليه حين أصر على الذهاب (٢٧) . ويبدو أن الأمير خطر له حينا أن يهرب إلى الأراضى المنخفضة ويضع نفسه على رأس الثورة (٢٨) . وكلف فليب بعض

وزرائه ، الزاهدين فى المهمة ، بأن يراقبوه . ووضع كارلوس الخطط للهروب ، وبعث بعملائه لجمع المال ، وجمع ١٥٠٠٠٠ دوكاتية ، وأمر بأن يؤتى له بثمانية جياد لهروبه (يناير ١٥٦٨) . غير أنه أسر بخطته لدون جوان النمساوى ، الذى أفضى بها إلى الملك . وخاف فليب أن تستعمل اليزابث ملكة انجلترا ، أو وليم أورنج ، ابنه — إذا سمح له بمغادرة أسبانيا — منافسا لأبيه تمهيدا لعزله ، فأمر بتشديد الرقابة على الأمير ، وهدد كارلوس بالانتحار ، فجرده فليب من كل سلاح وحبسه فى القصر الملكى بمدريد .

إلى هنا كان مسلك فليب يسمح بالدفاع عنه ، ولكن التعصب بدأ يعمق المأساة . ذلك أن الملك حين اشتبه فى هرطقة ابنه أمر بألا يسمح له بأى كتاب الا كتاب صلوات يومية وبعض كتب العبادة . ورفس كارلوس الكتب وأهمل كل الطقوس الدينية . وأنذره قسيس بأن مسلكه قد يحمل محكمة التفتيش على التحقيق فى صحة مسيحيته ، وحاول كارلوس أن يقتل نفسه ، ولكن حيل بينه وبين ذلك ، على أنه حقق هدفه بأن رفض كل طعام قدم إليه طوال أيام ثلاثة ، ثم أتخم نفسه باللحم والماء المثلج ، فأصيب بالدوسنتاريا ، ورحب الأمير بالموت ، وتناول القربان لآخر مرة ، وسامح أباه ، ثم مات غير متجاوز الثالثة والعشرين (٢٤ يوليو ١٥٦٨) . واتهم انطونيو بيريز — عدو فليب المنفى — الملك بأنه دس السم لكارلوس ، وصدقت معظم أوروبا التهمة ، ولكن البحث دحضها (*) . على أن صرامة سجن الفتى من النقط السوداء الكثيرة التى تلوث سجل الملك .

(*) « فى الحادث الأليم ، حادث سجن الدون كارلوس وموته ، سلك فليب مسلكا شريفا » — الموسوعة البريطانية ، ١٧ ، ٧٢٢ . قارن مارتن هيوم فى كتابه « أسبانيا ، عظمتها وانحلالها » ١٥٠ ، ور . تريفور ديفز « القرن الذهبى لأسبانيا » ١٤٩ .

وقد ألقى مسلكه من أخيه لأبيه ، دون جوان النمساوى ، ظلا آخر على الصورة . فيبدو أن هذا الابن غير الشرعى لشارل الخامس وبربارا بلومبرج أثار فى نفس فليب أعجابا تشوبه الغيرة . ومع ذلك رفع جوان إلى مرتبة الأمراء ، وعهد إليه بتنظيم حملة على قراصنة الجزائر . وأبلى جوان فيها بلاء حسنا . وقلده فليب قيادة القوات البرية ضد مغاربة غرناطة ، وأنفذ جوان مهمته دون أن يضيع وقتا أو يسرف فى رأفة . فعينه فليب — وهو بعد فى الرابعة والعشرين — أميرالا أكبر للأساطيل الموحدة فى « الحرب الصليبية الأخيرة » ، وهزم جوان الترك فى ليبانتو ، وغدا بطل العالم المسيحى . هنا شعر بأنه جدير بعرش مملكة ، ولكن شق عليه أن يكتفى فيليب بتنصيبه حاكما عاما على الأراضى المنخفضة .

ثم لام الناس الملك الصموت ، الذى كان على الدوام يأبى لكبريائه أن يفسر مسلكه أو يدافع عن نفسه على منبر الرأى العام ، لاموه أشد اللوم على مأساة أخرى . ذلك أنه رقى إلى منصب المستشارية لديه رجلا من عامة الشعب ذكيا أنيقا يدعى أنطونيو بيريز ، وكان الاعتقاد أنه الابن غير الشرعى لأخص أصدقاء فليب وأحوزهم لثقته ، وهو روى جوميز أمير ايبولى . فلما مات جوميز (١٥٧٣) ، أصبح بيريز الصديق الحميم — وربما العشيق [٢٩] — لآنا دى مندوزا ، أميرة ايبولى — الأرملة المغرقة فى الدس . وقيل أن فليب نفسه كان له علاقة بهذه الحسناء العوراء قبل أحد عشر عاما ، ولكن لعل « التاريخ » هنا لفق هذه القصة [٣٠] . وتآمر بيريز معها بغية الافادة من اطلاعها على أسرار الدولة . فلما هددهما خوان دى اسكوبيدو بأن يفضح نشاطهما المريب ، أقنع بيريز فليب بأن اسكوبيدو يتآمر على خيانته ، وأعطى فليب الأمر باغتيال خوان . واحتفظ بيريز بالأمر ستة أشهر ، ثم نفذه (١٥٧٨) مما أدهش فليب وأربكه . وبعد عام أقنعت أوراق دون خوان النمساوى السرية فليب ببراءة اسكوبيدو ، فقبض على بيريز ، وحبس الأميرة

فى قصرها . واعترف بيريز بجريمته تحت ضـــغط التعذيب ، ووافق على أن يرد للخزانة ۰۰۰ ر۰۰۰ ر۱۲ مارافيدى . ولكنه فر إلى اراجون بمساعدة زوجته ، وهناك طاردته محكمة التفتيش بتحريض فليب باعتباره مهرطقا . ففر إلى فرنسا ، وعزا اضطهاده إلى غرام فليب بلا ايبولى غراما لم يسله ، وأفشى مواطن ضعف أسبانيا الحربى والمـال لحكومتى فرنسا وانجلتره ، وحرض ايسيكس على الاغارة على السفن والشواطئ الأسبانية . وأخيرا مات بباريس عام ١٦١١ بعد أن حاول عبثا الحصول على عفو فليب الثالث وحمايته (٣١) .

لقد وجد فليب مبررا كافيا لاتباع نصيحة أبيه له بألا يثق بمساعديه. ذلك أن أشراف الأسبان — كالنبلاء الفرنسيين — كانوا غيورين من سلطة الملكية لا يتورعون عن الكيد للملك . ولقد أبقى على خلافاتهم فيما بينهم ، وضرب بعضهم ببعض ، وتلقى تقارير ملخصة عن آرائهم المتعارضة ، ثم اتخذ قرارته . ولما فقد الثقة فى مرءوسيه ، أكب بشخصه على دقائق الحكم والإدارة فى كل ميدان — فى السياسة البابوية ، والأشغال العامة ، والرذائل المحلية ، والطرق والكبارى ، وتطهير الأنهار للملاحة ، وانشاء المكتبات ، واصلاح القانون الأسبانى وجمعه وتنسيقه ، والاشراف على مسح جغرافى وتاريخى واحصائى واسع لأسبانيـــا ما زالت مجلداته الخمسة عشر ذات القطع الكبير دون نشر (٣٢) . على أن اضطلاعه بأعباء ينوء بها كل كاهل حتى كاهله أفضى به إلى سياسة التسويف والتأجيل ، فقد لاحظ أن كثيرا من المشكلات تفقد إلحاحها أو معناها إذا أجلت عمدا ، ولكن مجرى الأحداث فى عدة حالات — كحالة الأراضى المنخفضة — فصل فيها على عكس ما يشتهى بينما هو يزن ما للحلول وما عليها أو يضعها على الرف . وفى مهجعه الملكى كان يملى أو يكتب بيده التعليمات لموظفيه الذين عينهم فى خمس قارات . وقد افترض أن السلطة الملكية يجب أن تكون مطلقة ، وأغفل أو طغى على « الكورتيز » أو المجالس الاقليمية.

إلا فى الأراجون،وأصدر المراسيم — حتى مراسيم الاعدام — دون محاكمة علنية،وهدأ أوتقراطيته باليقين بأن هذا سبيله الأوحد إلى حماية الفقراء من الأغنياء(٣٣).وأنشأ تدريجا وبجهد ، داخل حكمه المستبد ، فى قارة استشرى الفساد فى كل ارجائها تقريبا ، بيروقراطية وقضاء امتازا بالقياس إلى غيرهما بالكفاية والعدل (٣٤) .

كان يحترم الكنيسة باعتبارها المشكل التقليدى للفضيلة والحارس القديم للملوك ، ولكنه أخضع الدين للدولة فى أسبانيا كما فعل هنرى الثامن أو اليزابث الأولى فى انجلتره . وعلق أهمية كبرى على الوحدة الدينيـــة باعتبارها أداة للحكم ، حتى أنه رأى « أنه خير للملك ألا يملك اطلاقا من أن يملك على مهرطقين » .(٣٥) فلما اقتنع بأن المغاربة فى أسبانيا ما زالوا يمارسون شعائر الاسلام برغم تظاهرهم بالكثلكة ، أصدر (١٥٦٧) أمرا عاليا يحرم كل العادات الاسلامية ويحظر استخدام اللغة العربية واقتناء الكتب العربية . وتمرد المغاربة (١٥٦٨)،واستولوا على اقليم كبير جنوبى عرناطة ، وذبحوا المسيحيين ، وعذبوا الكهنة ، وباعوا النساء والأطفال رقيقا للبربر نظير البارود والبنادق . ولكن التمرد أخمد بعد سنتين من الفظائع التى تنافس الفريقان فى ارتكابها . وطرد جميع المغاربة من اقليم غرناطة وشتتوا بين الجماعات المسيحية فى قشتالة ، وأودع أبناؤهم البيوت المسيحية ، وجعل الحضور إلى المدارس اجباريا على جميع الأطفال — وهو أول الزام من نوعه فى أوربا (٣٦) . واشتبه فليب فى أن المغاربة الباقين فى بلنسية وقتلونيا يتآمرون مع العدو ، وكان فى حرب مع الترك ، ولكن كثرة أعبائه أكرهته على أن يترك آخر مراحل المشكلة لخلفه .

وكان أبوه قد خلف له مهمة الدفاع عن العالم المسيحى ضد الإسلام باعتبارها جانبا هاما من سياسة الهابسبورج . ففى عام ١٥٧٠ انضم إلى البندقية والبابوية فى حرب صليبية تنهى سيادة الترك على البحر المتوسط .

وسقطت قبرص فى يد الترك بينما كان فليب يضع الخطط والحلفاء الثلاثة يحشدون أسطولهم . وما وافى عام ١٥٧١ حتى كانوا قد جمعوا فى مسينا ٢٠٨ سفينة شراعية كبيرة و ٥٠٠٠ ر ٥٠ بحار ، و ٠٠٠ ر٢٩ جندى ، ورفع فوق مقدم كل سفينة صليب ، ومنحت البركة للرايات ، وارتفعت الصلوات جملة إلى عنان السماء ، وأصدر الاميرال الشاب الملهم الصيحة الصليبية ، «المسيح قائدكم ، أنكم تخوضون معركة الصليب». وفى ١٦ سبتمبر ١٥٧١ أقلع الأسطول وحقق انتصارا قضى على تفوق الترك فى البحر المتوسط . وإذ كانت أسبانيا قد أسهمت بأكثر من نصيبها من السفن والرجال ، فإن بهاء ليبانتو سطع على دون جوان والملك ، وقارب فليب عندها ذروة مجده قبل انحداره . وواتته هذه الذروة حين ورث عرش البرتغال (١٥٨٠) فضم هذا البلد الاستراتيجى إلى ملكه المتعاظم .

أما همه المقيم فكان ثورة الأراضى المنخفضة . فقد علم ساخطا أن أن كولينى ، الزعيم البروتستنتى ، كاد يقنع شارل التاسع بأن فرنسا يجدر بها أن تتحالف مع الثوار . فلما بلغ فليب نبأ مذبحة القديس برتولوميو التى أطلق شارل وحوشها على الهيجونوت طرب له وشدد النكير على الأراضى المنخفضة . فحرض على اغتيال وليم أورنج ودفع أجر الجريمة ، وحاول شراء صداقة هنرى نافار ؛ ولكن هنرى لم يكن ممن تشترى صداقتهم بالمال . ومن ثم اشترى فليب آل جيز والحلف الكاثوليكى ؛ وحلم بجعل ابنته ملكة على فرنسا ، وعندها تتحالف قوى أسبانيا وفرنسا فتخضعان الأراضى المنخفضة ، وتنصبان مارى ستيوارت ملكة على انجلتره ، وتقطعان دابر البروتستنتية من كل مكان . فلما أرسلت اليزابث المعونة لهولندة (١٥٨٥) ؛ وشيعت مارى إلى آخرتها (١٥٨٧) ، وبعد سنين صبر فيها فليب وصابر على الغارات التى شنها قراصنة اليزابث على سفن أسبانيا وشواطئها وكنوزها . جنح آخر الأمر إلى الحرب ، فخرب مالية حكومته ليمول الأرمادا . وساندت أسبانيا كلها هذا الجهد وصلت من أجل النصر ، شاعرة بأن مصير الأسطول سيفصل فى تاريخ أوربا .

وتجلد فليب فى ظاهر الأمر لذل الكارثة وعارها ، وقال انه أرسل سفنه لتقاتل البشر لا الأنواء . ولكن الهزيمة حطمت روحه وكادت تحطم أسبانيا ، هذا برغم أنه عاش بعدها وقاتل عشر سنوات أخرى ، وأن أسبانيا استغرقت قرنا حتى سلمت بخرابها . إنه لم يستطع أن يصدق أن الله تخلى عنه بعد ثلاثين عاما من الكفاح فى سبيل الإيمان ، ولكن لا بد أن هذه الحقيقة الكئيبة طالعته فى النهـــاية ، وهى أنه بعد أن أفقر شعبه بالضرائب ، أخفق فى كل شىء إلا فى اكتسابه البرتغال بمحض الصدفة ، ورده الترك مؤقتا — وكانوا قد استولوا من جديد على تونس وأخذوا يستردون سطوتهم . لقد كان هنرى الرابع يسير إلى النصر فى فرنسا ؛ والأراضى المنخفضة فى ثورة لا سبيل إلى التصالح فيها ؛ وأبى البابا أن يتحمل فلسا من نفقات الأرمادا ؛ وقبضت البروتستنتية على ناصية الشمال الغنى ، وأخذت إنجلتره تهيمن على البحار ومن ثم على أمريكا والشرق بعد قليل ، أما تلك السليطة اليزابث ، فهى متربعة على عرشها المنيع وسط المياه ظافرة بعد أن تفوقت على كل ملوك عصرها فطنة ودهاء .

واصطلح على الملك الثكل ، والعزلة ، والمرض — اصطلحت عليه كلها لتذله بعد عز وتوهن من اعتداده بنفسه . كانت زوجته الرابعة قد ماتت عام ١٥٨٠ ، ولم يبق على قيد الحيـــاة من الأطفال الثلاثة الذين أنجبتهم غير غلام قليل الكفاية لا بد أن يورث أول امبراطورية لا تغرب الشمس فوق رقعتها . ان الشعب ما زال يحمل لفليب الاجلال برغم أخطائه وهزائمه ، فهو مقتنع بأنه ناضل من أجل قضية مقدسة ، وأنه لعب لعبة القوة دون أن يفوق أعداءه تحللا من مبادئ الشرف ، وهو صابر فى غير لوم على الشقاء الذى أوقعته فيه سياساته الاقتصادية ونظام ضرائبه وهزائمه . وقد أصاب أطرافه بالآلام المبرحة فى شيخوخته ، وأعجزه بالشلل ، ذلك النقرس الذى كان آخر تركة ورثها عن أبيه ، وخيمت على احدى عينيه سحابة من السد ، وشوهت جلده القرح المنفرة .

وفى يونيو ١٥٩٨ حمل على محفة إلى الاسكوريال ، إلى غرفته الأثيرة. التى يستطيع خلال نافذتها أن يتطلع إلى مذبح الكنيسة المرتفع . وظل ثلاثة وخمسين يوما يبلى جسده فى فراشه ، محتملا كل شىء وهو واثق أنه امتحان الأله لإيمانه ، محتفظا بذلك الإيمان إلى النهاية الرهيبة ، متشبثا بصليب لا يفتأ يلثمه مرددا الصلوات المرة بعد المرة . وأمر بالافراج عن السجناء ليكون ذلك آخر عمل من أعمال الرأفة . وأرسل فى طلب ابنه ، وأوصاه بالرأفة والانصاف ما دام حيا ، وأمره بأن يعتبر بالخاتمة المهينة التى تنتهى إليها القوة الدنيوية . ثم انتهى عذابه فى ١٣ سبتمبر ١٥٩٨ .

لقد بذل قصاراه بعقل غلت التربية فى تقييده ، عقل أضيق من أن يسع امبراطوريته ، وأصلب من أن يطوع نفسه لتبعاته المنوعة . وليس فى مقدورنا أن نعرف هل كان إيمانه زائفا ؛ وكل ما نشعر به أنه إيمان متعصب قاس ككل إيمان فى عصره تقريبا ، وأنه أظلم عقله وشعبه بينما واسى فقر هذا الشعب وسند كبرياء الملك . ولكن فليب لم يكن الغول الذى صورته أقلام خصومه المشبوبة . فقد كان — على قدر ما أوتى من بصيرة — لا يقل فى عدله وسماحته عن أى حاكم فى قرنه إلا هنرى الرابع . وكان مهذبا فى حياته الزوجية ، محبا لأسرته محبوبا منها ، صابرا على الاستفزاز ، شجاعا فى الشدة ، مخلصا فى الجهد . لقد دفع إلى التمام ثمن تركته الغنية المهلكة .

٣ — فليب الثالث : ١٥٩٨ — ١٦٢١

أما وريثه فكان فليبا آخر يختلف كل الاختلاف عن أبيه . لقد حزن أبوه حين رأى تراخى الفتى وقصر نظره قائلا « ان الله الذى رزقنى هذا الملك العريض لم يرزقنى ولدا يصلح لحكمه[٢٧] » كان فليب الثالث ، الذى بلغ العشرين الآن ، أتقى حتى من أبيه ، فترددت الشائعات فى رميه بأى خطيئة ولو عارضة . ولما كان خجولا وديعا ، شديد العجز عن القيادة ، فقد أسلم كل سلطات الحكم ومتطلباته إلى فرانشسكو جومز دى ساندوفال أى روجاس ، دوق ليرما .

أما الدوق فكان فيه شيء من البر بالناس ، لأنه رقى كل أقاربه تقريبا إلى المناصب الدسمة ، ولم يغفل ذاته فى بره ، ففى العشرين سنة التى رأس فيها الوزارة جمع ثروة طائلة قدرها الشعب المغيظ بمبلغ ٤٤,٠٠٠,٠٠٠ دوكاتية[٣٨] ، وهو رقم يستحيل تصديقه . وقد وفر للخزانة من المال ما يكفى لتجهيز أسطولين ضخمين ضد إنجلتره (١٥٩٩ و ١٦٠١) ، ولكن كليهما حطمته الأنواء العاتية . وكان للبرما من الحصافة ما جعله يرحب بعروض السلام التى قدمها جيمس الأول ، وهكذا أبرمت أسبانيا وإنجلترة صلح لندن (١٦٠٤) بعد تسعة عشر عاما من الحرب . أما الحرب فى الأراضى المنخفضة فاستمرت ، واستنزفت الذهب من أسبانيا بأسرع من وصوله إليها من أمريكا ، ووجد لبرما أنه ليس فى طاقته أن يشبع من موارد بلد مرهق حاجات قواده المعوقين ، وجيبه الخاص . وإذا أدرك أنه لم يعد هناك جدوى من بذل مزيد من الجهود لرفض منح « الأقاليم المتحدة » استقلالها ، فقد وقع معها هدنة تمتد اثنى عشر عاما (١٦٠٩) .

ولكن مشروعه التالى كان لا يقل تكلفة عن الحرب . كان مسقط رأسه بلنسبة ، حيث يعيش ثلاثون ألفا من أسر المغاربة ، وكان فيه من التقوى ما يكفى لتبغيضه فى هؤلاء المزارعين والصناع الذين كان لجدهم واقتصادهم الفضل فى احتفاظهم باليسر وسط فقر المسيحيين المستكبر العاجز . وكان يعلم أن هؤلاء المسلمين المتنصرين قد احتفظوا — بدافع من سخطهم لاضطهاد فليب الثانى لهم — باتصالات خائنة مع مسلمى أفريقيا وتركيا ، ومع هنرى الرابع ملك فرنسا ، الذى أمل أن يفجر الثورات فى أسبانيا فى الوقت المناسب[٣٩]. ورأى أنه ليس من الوطنية فى شىء أن يعاف المغاربة الخمر ويزهدوا فى أكل اللحم ، فنتيجة هذا أن يقع عبء الضرائب المفروضة على هذه السلع ، كله تقريبا ، على كواهل المسيحيين من الأسبان . وأعرب سرفانتس عن الخوف من أن هؤلاء المغاربة الذين ارتفعت نسبة المواليد فيهم عنها فى « المسيحيين القدامى » لندرة العزوبة عندهم ، سيسودون

أسبانيا عما قليل (٤٠) . وقدم خوان دى ريبيرا رئيس أساقفة بلنسية المذكرات إلى فليب الثالث (١٦٠٢) يحضه فيها على طرد جميع المغاربة الذين تزيد أعمارهم على السابعة ، وقال فى تفسيره للكوارث التى نزلت بأسبانيا ، بما فيها تدمير الأرمادا ، إنها عقوبات أنزلها الإله لإيوائها الكفار ، فهؤلاء المسيحيون المزيفون يجب ترحيلهم ، أو ارسالهم لسفن العبيد ، أو شحنهم بالمراكب إلى أمريكا ليشتغلوا عبيدا فى المناجم (*) (٤١) .

وبرغم تحذيرات البابا ، وبرغم احتجاجات ملاك الأراضى الذين كانوا ينتفعون من مستأجريهم المغاربة ، أصدر ليرما (١٦٠٩) مرسوما أمر به جميع مسلمى اقليم بلنسية — مع بعض الاستثناءات — بأن يستقلوا خلال ثلاثة أيام مراكب أعدت لهم لينقلوا إلى أفريقيا ، غير حاملين معهم من المتاع أكثر مما تطيقه ظهورهم . وتكررت الآن المناظر التى رافقت طرد اليهود قبل ١١٧ عاما . وأكرهت الأسر البائسة على بيع أملاكها بخسائر فادحة ، وساروا إلى الموانئ يتعثرون فى شقائهم ، وسرق الكثيرون منهم ، وقتل البعض ، فى طريقهم إلى السفن أو وهم على ظهورها . فلما وصلوا إلى أفريقيا تهللوا لبلوغهم أرضا مسلمة ، ولكن ثلثيهم هلكوا جوعا أو قتلوا باعتبارهم مسيحيين (٤٢) . وفى شتاء ١٦٠٩ — ١٠ أجلت حركات طرد أخرى من بقى من المغاربة فى غير بلنسية ، وهكذا نزعت أملاك ٤٠٠,٠٠٠ من أكثر أهل أسبانيا انتاجا وأقصوا عن البلاد. وكان هذا فى أعين الشعب أمجد منجزات الحكم ، وتطلع الأسبان السذج إلى عهد أكثر رخاء، بعد أن استرضوا الإله بتخليص أسبانيا من الكفار. واغتبطت الحاشية بالحصيلة التى تجمعت من مصادرة أملاك المغاربة، فكان نصيب ليرما منها ٢٥٠,٠٠٠ دوكاتية ، ونصيب ابنه ١٠٠,٠٠٠ ، ونصيب ابنته وصهره ١٥٠,٠٠٠ (٤٣) .

(*) أدخل خوان دى ريبيرا فى زمرة القديسين عام ١٩٦٠ .

وما حلت سنة ١٦١٨ حتى كان جشع ليرما وأهماله ، وأسراف الملك وحاشيته ، وفساد الموظفين ، وتمزق الاقتصاد بخروج المغاربة ، قد هبط بأسبانيا إلى درك نبه حتى هذا الملك الخامل إلى ضرورة التغيير . وفى فورة من فورات العزيمة طرد ليرما (١٦١٨) ، ولكن ليقبل ابنه — الدوق أو سيدا — رئيسا لوزرائه . واعتزل ليرما فى لباقة ، وتقبل قبعة الكردينالية وعاش سبع سنين أخر رافلا فى حلل التقوى والثراء . وفى عام ١٦٢١ أنذر مجلس قشتاله الملك بأن ملكه « فى طريقه إلى الافلاس والدمار لفداحة الأعباء والضرائب والرسوم » (٤٤) ، وتوسل إليه أن يعتدل فى نفقاته . فتقبل النصيحة ولكنه مضى يسلك مسلكا ملكيا مترف الجهاز والصيانة . فى هذه السنة بعينها مات مخلفا لولده ملكا عريضا لاحول له ولا قوة ، وحكومة فاسدة لا كفاية فيها ، وشعبا هوى إلى درك الفاقة والتسول والسرقة ، وطبقة استنكفت من أن تؤدى ضرائبها ، وكنيسة خنقت فكر الشعب وحطمت ارادته وأحالت خرافاته أكداسا من الذهب .

٤ — فليب الرابع : ١٦٢١ — ٦٥

خالف الولد أباه فى كل شىء إلا الإسراف . ونحن نعرفه ظاهرا من الصور الكثيرة التى رسمها له فيلاسكويز ، ففى متحف المتروبوليتان للفنون بنيويورك يطالعنا وهو بعد فى التاسعة عشرة (١٦٢٤) ، فتى وسيما أشقر الشعر متفتحا للحياة ، وفى متحف الصور الأهلى بلندن نراه مرحا واثقا بنفسه فى السابعة والعشرين ، ثم بدينا وقورا فى الخمسين ، وفى البرادو نراه فى خمس مراحل بين البهاء والانحلال ، كذلك نرى صوره فى فلورنسة ، وتورين ، وفينا ، وسنسناتى — لا بد أن هذا الرجل أنفق نصف حياته فى مرسم فيلاسكويز . ولكن هذه اللوحات لا تكشف إلا عن ملامحه الرسمية ، فهو لم يكن فى حقيقته بهذه الرزانة والكبرياء ، وقد نكون أكثر انصافا فى تصوره إذا تأملنا أطفاله فى لوحات فيلاسكويز ، وأغلب الظن أنه أحبهم حبا يفوق العقل كما نحب أطفالنا . كان فى صميمه رجلا

لطيفا ، كريما مع الفنانين والمؤلفين والنساء ؛ لا نصف قديس كأبيه ؛ بل مستمتعا بالطعام ، والجنس ؛ والتمثيليات ، والصور ؛ وحياة البلاط ، والصيد ، عازما على أن ينهل من الحياة ما استطاع حتى فى بلد محتضر كأسبانيا .

ولعل استطابته الخالصة للحياة هى صاحبة الفضل فى ازدهار الشعر والدراما؛ والتصوير والنحت ، فى عهده ازدهارا لم تشهد أسبانيا له نظيرا من قبل ولا من بعد . كان إذا بدت لذاته مشتطة فى فوضاها استكثر من الصلوات ؛واعتمد على نياته الطيبة فى أن تعبد له الطريق إلىالسماء . أنجب من الأطفال غير الشرعيين اثنين وثلاثين ، اعترف منهم بثمانية (٤٥) . وإذ لم يكن فى وقته متسع لشئون الحكم ، فقد فوض بسلطاته وواجباته رجلا من أبرز الشخصيات فى دبلوماسية القرن السابع عشر .

هذا الرجل — الدوق جاسبار دى جوزمان ، كونت أوليفاريس — جرت حياته موازية ومعارضة لحياة ريشليو . فقد لعب هذا الكونت العظيم مع الكردينال الداهية ، طوال واحد وعشرين عاما (١٦٢١—٤٢)، لعبة دامية من الذكاء والحرب للتسيد على أوربا . وقد أطلعنا فيلاسكويز على شخصية أوليفاريس—رجل خلا من الخوف والملامة ، فيه كل عدوان القوة ، تلتف شواربه الكبيرة المشذبة كأنها سيف معقوف رهيب ، وعباءات منصبه وأحزمته وسلاسله ومفاتيحه تنطق بالسلطة (٤٦) . أما العيوب التى شابت خلقه ، وهى الغطرسة والنزق والعناد الشديد ، فقد أقصت عنه كل الناس إلا من خبروا أيضا غيرته المتفانية ؛ وعكوفه الشديد على خدمة أسبانيا . وأمانته الصريحة فى بيئة فاسدة ، واحتقاره للذات الدنيا إلا أن تكون سبيلا لإرياك الملك ، وقصده فى الطعام وبساطة حياته الخاصة ؛ ومساندته الحارة للآداب والفنون . وقد ناضل مخلصا للتخفيف من الرذائل ، ولوقف الرشوة ، ولرد الأموال المختلسة إلى الخزانة ، وللتقليل من نفقات بلاط الملك ، ولفرض الاقتصاد والاعتدال

فى اللباس والأثاث ، وحتى للحد من قسوة محكمة التفتيش. اضطلع بكل أعباء الحكم ، والسياسة ، والدبلوماسية ، والحرب ، فكان يبدأ مهام يومه قبل طلوع الفجر ويواصلها حتى بعد أن يخر إعياء . وكانت اللعنة التى ابتلى بها ما عمد إليه ريشليو — بمثل هذا التفانى — من استنزاف لقوة الهابسبورج فى النمسا وأسبانيا فى بطء ، ودهاء،وعناد . وقد اقتضى لقاء هذا التحدى الرهيب وجود الجيوش فى قتلونيا والبرتغال وفرنسا ونابلى ومانتوا والممرات الفالتلينية والأراضى المنخفضة، وفى بالوعة حرب الثلاثين سنة الشاسعة الدامية . ولكن الجيوش تحتاج إلى المال ، والمال يتطلب فرض الضرائب . لذلك رفع « القبالة » أى ضريبة البيوع إلى ١٤ ٪ ، فاختنقت التجارة ؛ وكان الجباة يختلسون ثلثى الضرائب قبل أن يصل باقيها إلى الخزانة . وهكذا أوهن أوليفاريس،بعزيمة وطنية، اقتصاد أسبانيا لينقذ سطوتها السياسية .

وليس حتما أن نتتبع كلى تحركات لعبة الشطرنج الدامية هذه ، فهى لا تضيف شيئا إلى معرفتنا أو تقديرنا للبشرية . لقد كانت صراعا بين القوة لا بين المبادئ ، صراعا يغفل فيه كل طرف مذهبه فى سبيل الانتصار العسكرى ، فترى ريشليو يمول الجيش البروتستنتية فى ألمانيا ضد النمسا الكاثوليكية ؛ وأوليفاريس يبعث ٣٠٠,٠٠٠ دوكاتية كل سنة للدوق روهان ليطيل أمد ثورة الهيجونوت فى فرنسا (٤٧) . وتحطمت أسبانيا فى النهاية ؛ فقضى الهولنديون على قوتها فى البحر فى معركة داونز (١٦٣٩). وقضى الفرنسيون على قوتها فى البر فى روسيون(١٦٤٢) وروكروا (١٦٤٣) وانتهزت البرتغال وقتالونيا فرصة ضعف أسبانيا فانتزعتا حريتهما(١٦٤٠)، وخاضت جمهورية قتلونيا الحرب ضد قشتالة مدى تسعة عشر عاما بمعونة فرنسا . وأخيرا طرد الملك اللطيف وزيره على كره بعد أن كان محل ثقته خلال عشرات الكوارث (١٦٤٣) . وفر أوليفاريس من مدريد المناوئة إلى منفاه الاختيارى فى تورو البعيدة ، وهناك مات مخبولا بعد سنتين .

واضطلع فليب بالمهمة شخصيا إلى حين . فخفض نفقاته وكرس نفسه مخلصا للحكم . غير أن أسباب اضمحلال أسبانيا كانت فوق ادراكه أو سيطرته . واستمرت الحرب، ولم تخفف الضرائب ، وتناقص الإنتاج، وتقلص السكان . وفى صلح وستفاليا (١٦٤٨) كانت أسبانيا عاجزة ، فاضطرت إلى النزول عن الاستقلال للأقاليم المتحدة ، بعد حرب عقيمة امتدت قرابة قرن من الزمان . وختم صلح البرانس (١٦٥٩) بخاتمه مصدقا على السيادة الفرنسية فى أوربا . وسط هذه النكبات ماتت ايزابيللا البوربونية زوجة فليب الوفية الصابرة (١٦٤٤) ، ولحق بها بعد عامين ولدها الوحيد الباقى على قيد الحياة ، دون بالتازار كارلوس ، الذى صوره فيلاسكويز بأسلوب خلاب . ولم يبق للملك غير طفلة شرعية واحدة هى ماريا تريزا ، التى زوجها للويس الرابع عشر . وإذ كان فليب تواقا لوريث للملكه فقد تزوج (١٦٤٩) وهو فى الرابعة والأربعين ابنة أخ لا تتجاوز الرابعة عشر ربيعا ، هى ماريانا النمساوية التى كانت مخطوبة لبالتازار ، فمنحته ولدين : فليب ابروسبر الذى مات فى الرابعة ، وولدا آخر أصبح فيما بعد كارلوس سيجوندو (شارل الثانى) . أما الملك المرهق ، الذى هد قواه حصى المرارة ، وأوهنه نزف البواسير ، ولم يكف عن مطاردته الرهبان المتجرون بالسحر ، فقد استسلم للموت (١٦٦٥) تعزيه فكرة وجود وريث له ، ولكنه أعفى من العلم بأن ولده نصف الأبله هذا سيوصى بملك أسبانيا كله لفرنسا .

٥ — البرتغال : ١٥٥٧ — ١٦٦٨

تميزت هذه السنوات بثلاثة أحداث فى البرتغال . فقدت استقلالها ، ثم استردته ، وكتب كاموئنش « اللوسياد » .

لقد شاركت أسبانيا نشوة التوسع وشراسة العقيدة ، ثم سبقتها إلى الاضمحلال . وكان من أثر سرعة تطورها الاستعمارى أنها استنزفت وراء البحار أكثر أبنائها مغامرة ، وأهملت الزراعة أو ترك أمرها للعبيد

الخائرى الهمة ، وفاحت فى لشبونة رائحة المرتشين ، والتجار الجشعين ، والعمال المفلسين ، وكلهم يعيش فى النهاية على الاستغلال الامبريالى أو التجارة الخارجية . واقترح الملك الشاب سباستيان ، الذى ألهمه اليسوعيون الحماسة الدينية ، على ابن عمته فليب الثانى الاشتراك فى فتح المغرب وتنصيرها . ولكن فليب تردد لكثرة شواغله ، فاقترح سباستيان أن يضطلع بالمغامرة منفردا ، وحذره فليب من قصور موارد البرتغال عن انفاذ هذه الحملة ، فلما أصر سباستيان قال فليب لمجلسه ، « لو كسب الحرب أصبح لنا صهرا مفلحا ، ولو خسرها آل الينا ملك حسن[٤٨] » وغزا سباستيان المغرب فغلب على أمره وقتل (١٥٧٨) فى معركة القصر الكبير . ولم يعقب سباستيان وريثا لأنه كان أعزب وفيا لعزوبته ، فولى العرش عمه الأكبر الكردينال هنرى ، ولكن هنرى نفسه مات دون عقب عام ١٥٨٠ ، فانتهت بذلك أسرة أفيز التى حكمت البرتغال منذ عام ١٣٨٥ .

هنا واتت فليب الفرصة التى ترقبها . وكان هو وفيليبرت امانويل أمير سافوا الوريثين المباشرين للعرش الخالى باعتبارهما حفيدى مانويل ملك البرتغال . واعترف مجلس لشبونة بفليب وريثا ، وقاوم بعض المطالبين بالعرش من منافسيه دخوله ، ولكن ألفا الجبار انتصر عليهم ، وفى عام ١٥٨١ دخل فليب الثانى لشبونة باسم فليب الأول ملك البرتغال . وحاول بالمجاملات والرشا أن يكسب صداقة الأمة . فنهى جيشه عن نهب الريف ، وشنق الدوق ألفا من جنوده جزاء جرائم كهذه عددا كبيرا خشى معه نقصا فى الحبال ، ووعد فليب بابقاء الأملاك البرتغالية فى يد حكام من البرتغال ، وبعدم تعيين أى أسبانى فى منصب بالبرتغال ، وبصون امتيازات الشعب وحرياته . وأوفت أسبانيا بهذه العهود ما دام فليب حيا . وهكذا ورث فليب بسهولة مذهلة البحرية البرتغالية ومستعمرات البرتغال فى أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية . وزال خط الحدود القديم الذى وسمه

البابا ليفصل الممتلكات الأسبانية عن البرتغالية ، واستعد أقوى ملوك أوربا ، الذى ازداد الآن قوة على قوة ، لتدمير نفسه بغزو إنجلترة .

وبينما كانت إمبراطورية البرتغال تؤول إلى أسبانيا والهولنديين ، كان اعظم شعرائها يتغنى بأمجاد فتوحها. هنا أيضا تقوم حواجز القومية واللغة سدا منيعا أمام رغبتنا فى الفهم . فأنى لقوم لم يربوا على التاريخ البرتغالى ، ولا أحسوا بمعنى الكلام البرتغالى وموسيقاه ، أن ينصفوا لويز فاز دى كاموئز — المعروف لنا باسم كاموئنش ويوفوه حقه من التقدير .

لقد عاش أغنيته قبل أن يكتبها ، كان أحد أجداده جنديا شاعرا مثله ، وجدته قريبة لفاسكودا جاما بطل اللوسياد ، أما أبوه ، القبطان الفقير ، فقد تحطمت سفينته قرب جنوه ومات هناك عقب مولد لويز فى لشبونه أو كويمبرا . والراجح أن الفتى درس فى الجامعة ، لأن قصيدته تصدح بأصداء كاتللوس وفيرجل وهوراس وأوفيد . وبدأت تجربته العاطفية فى إحدى الكنائس ، فى لحظة تعبد ، إذ تراءت له حسناء « لها وجه ناصع البياض كالثلج ، وشعر فى صفرة الذهب » ، فتحرك فيه هاتف الشعر . ولا بد أن بعض شعره ساء القصر ، إذ أنه نفى إلى قرية على أعلى نهر تاجه ، وهناك حلم بملحمة « تزيد البرتغال فخرا ، وتثير حسد أزمير مسقط رأس هومر(٤٩) » . ولكن الحكومة التى لم تقدر شعره أرسلته إلى المنفى ، أو إلى الخدمة العسكرية فى سبته ، وهناك فقد احدى عينيه فى معركة أو عراك ، ولما عاد إلى لشبونه دافع عن بعض أصحابه فى مشاجرة ، وطعن رجلا من الحاشية ، فزجوه فى السجن ثمانية أشهر ، ثم أفرج عنه فى أغلب الظن بعد تعهده بالانخراط فى سلك الجندية خارج البرتغال . وفى ٢٦ مارس ١٥٥٣ أبحر إلى الهند جنديا عاديا على سفينة أمير الأسطول فرناو ألفاريس كابرال ، وكان يومها فى التاسعة والعشرين من عمره .

واحتمل ضجر الليالى الرطبة فى الرحلة التى استغرقت نصف عام بنظم

القسمين الأولين من اللوسياد . وفى سبتمبر رست السفينة على جوا ، وهى « سدوم » البرتغالية فى الهند . واشترك فى حملات كثيرة . على ساحل ملبار وتجاه شواطىء جزيرة العرب ، وفى ممبسة ، وفى جزر الهند الشرقية ، فى مكاو ، « سدوم » البرتغالية فى الصين ؛ وهو يصف نفسه ملوحاً بالسيف فى يد ، وبالقلم فى الأخرى ، ولقبه رفاقه بـ « ترنكافورتيس » — أى المتفاخر الطائش — ولعلهم احترموا سيفه أكثر من قلمه . وفى مكاو إلى اليوم غار يرى للزائرين على أنه المكان الذى كتب فيه كاموئنش بعض قصيدته . وتروى قصة غير مؤكدة أنه أعيد من مكاو فى الأغلال بعد أن قبض عليه لأسباب لا نعرفها . وتذكر قصة أخرى (جردته من أغلاله) كيف تحطمت سفينته تجاه ساحل كمبوديا فسبح لويز إلى الشاطىء وملحمته بين أسنانه (٥٠) . على أنه فقد فى غرق السفينة خليلته الصينية المحبوبة . وبعد أشهر من الشقاء وجد طريقه إلى جوا ، ولكنه طرح فى السجن هناك . وأفرج عنه ، ثم رد إلى السجن بسبب الدين هذه المرة . وأطلق حاكم صديق سراحه ، واستطاع الشاعر أن يستمتع برهة وجيزة بالحياة وبشتى الخليلات من كل لون . وفى عام ١٥٦٧ اقترض بعض المال واستقل مركباً إلى البرتغال ، ونفدت نقوده فى موزمبيق ، فتسكع فى الفاقة عامين . ودفع بعض الأصدقاء العابرين ديونه وأجرة سفره وعادوا به لشبونة آخر المطاف (١٦٧٠) ، وهو لا يملك من حطام الدنيا غير قصيدته . وأجرى عليه الملك سباستيان معاشاً متواضعاً . وأخيراً وصلت القصيدة إلى المطبعة (١٥٧٢) ، وأتيح لكاموئنش أن يعيش فى الفقر مع السلامة ثمانى سنوات . ومات فى لشبونة عام ١٥٨٠ ، ودفن مع غيره من ضحايا الطاعون فى مقبرة مشتركة . وتحتفل البرتغال بذكراه فى ١٠ يونيو ، وهو يوم عطلة تذكارية، وتعتز بقصيدته « أوس لوسيادس » ملحمة قومية ، وعنوانها معناه « البرتغاليون » وقد أخذ كاموئنش لفظ لوسيا من الاسم الرومانى القديم للجزء الغربى من أسبانيا وهو لوزيتانيا .

أما القصة الكثيرة التلاقيف فتدور حول رحلة فاسكو داجاما التاريخية (١٤٩٧ — ٩٩) من البرتغال إلى الهند دورانا حول رأس الرجاء الصالح. وقد استهلها الشاعر بدعاء للملك سباستيان و « حوريات نهر تاجه » . ثم تمضى القصة مع أسطول داجاما صعدا على الشاطىء الشرقى لأفريقيا . ويرى الشاعر لزاماً عليه أن يقلد هومر وفرجل ، فتراه يصــور اجتماعاً للأرباب يتناقشون فيه حول البعثة ، وهل يسمحون لها بالوصول إلى الهند ؟ أما باخوس فيقول لا ، ويؤلب مسلمى موزمبيق ليهاجموا البرتغال ، الذين يرسون على البر بحثاً عن الماء . وأما فينوس فتتشفع للملاحين عند جوبيتر . ويرد المغاربة على أعقابهم ، ويأمر جوبيتر داجاما بالمضى قدماً . ويرسو الأسطول على شاطىء كينيا فيستقبله الأهالى بالترحاب . ويسلك الملك الوطنى وفق خطة الشاعر ، فيطلب إلى فاسكو أن يقص عليه تاريخ البرتغال . وبعد لأى يستجيب أمير البحر للطلب ، فيروى مأساة اينيس دى كاسترو ، ويصف معركة ألجبروتة الحاسمة (١٣٨٥) ، حيث انتزع البرتغال أولا حريتهم من أسبانيا ، ويختم بإقلاع بعثته هو من لشبونة . وبينما يعبر هؤلاء المغامرون الجدد المحيط الهندى يبتليهم باخوس ونبتون بعاصفة هوجاء ، وهنا يرى الشاعر الذى جاز بمثل هذه العاصفة ، متجلياً فى وصف مثير . ولكن فينوس تهدىء ثائرة الأمواج ، ويصل الأسطول ظافراً إلى كاليكوت .

وفى رحلة العودة تعد فينوس وابنها كيوبيد وليمة للبحارة الذين نال منهم التعب ، فتخرج بأمرها « ناريدات » حسان من البحر ، يكدسن موائد القصر بأطايب الطعام والزهر ، ويذهــبن تعب البحارة بالطعام والشراب والحب :

« أى قبل جائعة تلك التى تبودلت فى الغابة ! وأى صوت رقيق علا بالشكوى الحنون ! أى عناق لذيذ ، وكم من طبع حيى مخضوب تحول تحولا لطيفاً بفضل هذا اللهو المرح ! لقــد ظلوا من مطلع الفجر حتى

الظهيرة ينهلون من هـذه المتع التى أججبت فينوس لهيبها ، والتى يؤثر الرجال ارتشافها على ذمها ، بل يؤثرون ذم الذين لا يستطيعون تذوقها (٥١) » .

ومخافة أن يشكو بعض البرتغاليين من أن فى هذه الأبيات إهانة لمبدأ الزواج بامرأة واحدة أكد انا كاموئنش أن هذا الغرام ليس إلا رمزاً، وأن الحوريات « لسن إلا جوائز . . . ترفع بها الحياة وتهذب » (٥٢) أياً كان الأمر ، فإن البحارة يتعثرون رمزيا عائدين إلى سفنهم ، ويجد الأسطول طريقه عوداً إلى لشبونة . وتختم القصيدة بتوسل إلى الملك أن يحسن جزاء الكفايات أينما كانت ، وليس أقلها جدارة بالمكافأة هذه الأغنية الوطنية .

ويستطيع القارئ الأجنبى ، ولو خلال ضباب الترجمة ، أن يشعر بما فى هذه القصيدة الرائعة من موسيقى رقراقة ونشوات غنائية ، ويحس بالدم الدافئ الذى يجرى فى عروق جندى شاعر ينقل لنا صلابة البرتغاليين وتاريخهم الحافل بالمغامرات فى أيام التوسع تلك : ويروى أن تاسو قال إن كاموئنش هو الشاعر المعاصر الوحيد الذى لا يقيس نفسه به قياس المطمئن الواثق ؛ وقد فضل لوبى دى فيجا القصيدة على الإلياذة والأنياده ، يوم لم يكن بين الأسبانيه والبرتقالية ما بينهما الآن من بون شاسع (٥٣) . واليوم تعد القصيدة رباط وحدة ، وراية فخر ورجاء ، أينما نطق الناطقون بلغة كاموئنش — فى لشبونة الجميلة ، وفى جوا ومكاو المنحطتين ، وفى البرازيل النشيطة ، المتفتحة ، الرخية .

وروى أن كاموئنش قال حين نمى إليه استيلاء فليب على البرتغال ، وكانت هذه آخر كلماته قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة « لقد أحببت وطنى حباً يجعلنى أموت معه . (٥٤) » لقد سارت أمور هذا الوطن الأسير سيراً لا بأس به فى حياة فليب ، ولكن خلفاءه حنثوا بعهوده . واقترح

أوليفاريس توحيد الأمتين واللغتين ، واستولت أسبانيا على معظم المكاسب التي غلتها مستعمرات البرتغال وتجارتها ، أما الإنجليز والهولنديون ، الذين كانوا في حرب مع أسبانيا ، فقد أسروا البرتغاليين ، كما أسروا الأسبان ، أو نهبوا ممتلكاتهم وأسواقهم وأساطيلهم . وملأ الأسبان المناصب البرتغالية ، وملأ الكنسيون الأسبان الكراسي الدينية البرتغالية ، وألقت محكمة التفتيش حجاباً كثيفاً على الأدب والفكر البرتغاليين .

وكان سخط الشعب يزداد كلما هبط الدخل القومي ، حتى انتهى الأمر بأن قاد الأشراف والأكليروس الأمة المحنقة إلى الثورة . وأعلن الوطنيون بتشجيع من إنجلتره وريشليو ، يوحنا دوق براجانزا ملكا على البرتغال (١٦٤٠) . وأرسلت فرنسا والهولنديون أساطيل إلى نهر تاجه لتحمي البرتغال ، وتعهدت فرنسا بألا تعقد صلحاً مع أسبانيا ما لم تعترف باستقلال البرتغال . وكانت الحرب الخارجية قد أرهقت أسبانيا إلى حد أعجزها عن تدبير المال أو الرجال لقمع انتفاضة جارتها ، ولكن حين خفت الضغوط الأخرى عليها ، جردت على الحكومة الجديدة جيشين عدتهما ٣٥,٠٠٠ مقاتل (١٦٦١) . ولم يكن في طاقة البرتغال أن تحشد أكثر من ١٣,٠٠٠ جندي ، ولكن تشارلز الثاني ملك إنجلتره أرسل إلى البرتغال قوة يقودها القائد الألماني فريدريك شومبيرج ، وذلك لقاء عروس هي كاترين أميرة براجانزا ، ولقاء مهر أجمل من العروس ، ومعاهدة رابحة تبيح التجارة الحرة مع الموانىء البرتغالية في جميع القارات . وهزم الغزاة الأسبان في أيفورا (١٦٦٣) ومونتس كارلوس (١٦٦٥) ، وفي عام ١٦٦٨ اعترفت أسبانيا المنهوكة القوى باستقلال البرتغال .

الفصل الحادى عشر

العصر الذهبى للأدب الأسبانى

١٥٥٦ — ١٦٦٥

---

١ — السيجلو دى أورو (القرن الذهبى)

كتب سرفانتس عام ١٥٨٤ يقول « ما أكثر العباقرة الملهمين الذين يعيشون اليوم فى وطننا أسبانيا » .(١) وأغلب الظن أنه هو ، دون سواه، الذى عرف أنه أعظمهم ، ولم يكن بعد قد ألف « دون كخوته » (١٦٠٤) فحين وافى هذا التاريخ فيما بعد كان « القرن الذهبى » (١٥٦٠ — ١٦٦٠) قد بلغ شأوه وتألق بكل سنائه ومجده .

ترى ما الذى أطلق هذا التفجر الثقافى ، هذا الحشد الرائع من نجوم الأدب والفن؟لعله انتصارات أسبانيا فى ميادين السياسة والاقتصاد والدين — فتح الأمريكتين واستغلالهما ، وقوة أسبانيا ومكاسبها فى إيطاليا ،والأراضى المنخفضة ، والبرتغال ، والهند ، والنصر على المسلمين فى أسبانيا والترك فى ليبانتو . ونحن لا نستطيع اليوم ، لما بيننا وبين أزمات الروح الأسبانية من بعد الشقة ، أن نفهم كيف أججت مخاطر هذه السنوات المثيرة وانتصاراتها حماسة الإيمان الكاثوليكى وجعلت أكثر الأسبان يفخرون بدينهم فخرهم بأنسابهم ؛ أما رقابة المطبوعات ومحكمة التفتيش اللتان قد نحسبهما خانقتين للحريات ، فقد تقبلتهما الأمة على أنهما من الاجراءات الحربية الضرورية للوحدة القومية فى الحرب الصليبية ضد الإسلام . وهكذا راح العقل الأسبانى ، الذى حظر عليه أن يشت بعيدا عن العقيدة المقدسة ، يحلق داخل حدوده المقيدة ، وسط عالم رفيع من القصص والشعر والدراما والعمارة والنحت والتصوير .

ولكنه كان إلى ذلك عصر العلماء الأمناء والمؤرخين الأجرياء ، عصر المؤلفات البارزة فى اللاهوت والحكم والقانون والاقتصاد والجغرافيا والدراسات الكلاسيكية والشرقية . وفى رأى العلامة هالام أن « العلم كان فى عهد فلب الثانى أكثر تقدما منه فى عهد إليزابث [٢] » . ولا ريب فى أن التعليم كان أوفر وأعم . فقد وجد الفقراء والأغنياء على السواء طريقهم إلى الجامعات الكثيرة ، وأضيف فى هذه الفترة عشرون جامعة جديدة إلى الجامعات المشهورة ، وكانت جامعة سالامانكا وحدها تضم ٥٨٥٦ طالبا عام ١٥٥١ [٣] . « لا يستطيع انسان أن يزعم «أنه كابالليرو (جنتلمان) مالم يكن كذلك أديبا » .[٤] وفتح الملوك والوزراء والنبلاء والأحبار خزائنهم للعلماء والشعراء والفنانين والموسيقيين . على أنه كان هناك بعض اللشاز فى هذا التصعيد ؛ ذلك أن الكنيسة شهرت سوطا فوق رءوس المعلمين ، وحرم فليب الثانى على الشباب ، حرصا منه على الاحتفاظ للجامعات الأسبانية بملئها من الطلاب وجعل العقول الأسبانية نقية من الناحية اللاهوتية ، حرم عليهم أن يدرسوا فى أى جامعات أجنبية الا كوامبرا وبولونيا وروما . ولعل هذا التزاوج الفكرى المحصور لعب دورا فى عقم أسبانيا الثقافى بعد العصر الذهبى .

وهناك رجلان بارزان من اليسوعيين يدخلان الصورة هنا . أما أولهما ، بالتازار جراثيان ، مدير كلية لليسوعيين فى تاراجونا ، فقد وجد الوقت ليكتب (١٦٥٠ — ٥٣) رواية من ثلاثة مجلدات تدعى « الكريتيكون » يصف فيها تحطيم سفينة لسيد أسبانى على جزيرة القديسة هيلانة ، وتعليمه للرجل المتوحش الوحيد الذى وجده هناك (أهذا مصدر لروبنسن كروزو ؟) ، ثم أسفارهما معا فى أرجاء العالم ، ونقدهما النفاذ للحضارة الأوربية . وقد أطرب تشاؤمهما وكرههما للنساء شوبنهاور ، فوصف الكتاب بأنه « من خيرة الكتب فى العالم[٥] » ونفح أحد الأصدقاء

جراثیان بعض العملة الدولية إذ اختار من كتبه ثلاثمائة فقرة نشرها تحت هذا العنوان « الوحي الميسر ، وفن الحكمة الدنيوية ». وقد قام شوبنهاور بترجمة من ترجماتها الكثيرة . وإلى القارئ عينات من هذه :

« حذار من أن يكسف ضوءك ضوء السيد . . . لقد كان التفوق دائما مكروها ، وكلما عظم اشتد الكره له . وشيء من الحذر كفيل بتغطية فضائلك العادية كما تخفى حسنك باللباس المهمل(٦) .

ان التوسط فى الكفاية يحرز بالاجتهاد تقدما أكثر مما يحرزه التفوق بدونه(٧) .

للحظ قواعد ، فالعقلاء لا يرون الأشياء كلها وليدة الصدفة(٨) .

ليس الكمال فى الكم بل فى الكيف . . . بعض الناس يحكمون على قيمة الكتب بركبهم ، وكأنها كتبت لتمرين الأذرع(٩) .

فكر كالقلة ، وتكلم كالكثرة . . . ان الحقيقة للقلة . . . ليعتصم الحكيم بالصمت ، فإذا سمح لنفسه أحيانا بالكلام فليكن فى حمى القليلين والفاهمين(١٠) .

تعلم كيف تقول لا . . . لا يكن الرفض قاطعا ، فالحقيقة تتجلى تدريجيا . . . عليك بالمجاملة لتملأ بها فراغ الرفض(١١) .

قد نتبين نضج امرئ من البطء الذى يصدق به ما يسمع(١٢) .

هناك دائما متسع من الوقت تضيف فيه كلمة ، ولا وقت لسحب كلمة(١٣) » .

كان المؤرخون الأسبان فى هذه الفترة خير المؤرخين فى أوربا . وجمع فليب فى دار المحفوظات بسيمانكاس مجموعة هائلة من الأوراق الرسمية وغيرها من الوثائق ، لأن « الاخباريين والمؤرخين قاصرو العلم بشئون

الدولة ، ورغبة فى تفادى هذا العيب كان من المرغوب فيه جمع ما أمكن من مواد قد تكون ذات فائدة »[١٤] على حد قوله . وأصبحت هذه المحفوظات ذخرا للمؤرخين منذ ذلك الحين . وقد رجع جيرونيمو دى زوريتا إلى آلاف الوثائق الأصيلة فى إعداد كتابه « حوليات مملكة أراجون » (١٥٦٢ — ٨٠) ، واشتهر فى أوربا بأسرها بـ « أعظم الكتاب تدقيقا » .

أما أعظم المؤرخين الأسبان قاطبة ، وهو خوان دى ماريانا ، فقد بدأ حياته ابنا غير شرعى لكاهن فى طلبيرة . وإذ ترك فى صباه ليدير شئونه بنفسه ، فقد شحذ ذكاءه على حجر الضرورة القاسية والفقر الطاحن . وزوده اليسوعيون بتعليم صارم بفضل ما عهد فيهم دائما من سرعة فى تبين الموهبة . فلما بلغ الرابعة والعشرين أرسلوه للتدريس فى كليتهم بروما ، ثم إلى صقلية ، ثم إلى باريس ، حيث اجتذبت محاضراته عن توما الأكوينى جماهير المستمعين المتحمسين . على أن صحته انهارت ، فسمح له وهو فى السابعة والثلاثين (١٥٧٤) بالاعتكاف فى بيت الطائفة اليسوعية فى طليطلة ، فلزمه لا يبرحه إلا نادرا طوال سنيه التسعة والأربعين الباقية من عمره . وهناك كتب رسائل هامة أثارت إحداها ضجة دولية (كما سنرى) ، ورسالة أخرى « فى عملة المملكة » كانت هجوما جريئا على غش ليرما للعملة ، وثالثة تركها دون نشر شرحت « الأخطاء فى حكومة جمعية يسوع » . وقد أفرغ أكثر جهده فى الأربعين سنة الأخيرة من حياته فى تأليف « كتاب فى تاريخ أسبانيا » (١٥٩٢) — الذى كتبه باللاتينية ليتيح لكل الأوربيين المثقفين أن يعرفوا كيف ارتقت أسبانيا إلى مقام الزعامة والقوة . وقد ترجم أكثر الكتاب إلى أنقى اللهجات القشتالية بحض من الكردينال بمبو تحت عنوان « تاريخ أسبانيا » (١٦٠١) ، وهو أجل المنجزات فى تأليف التواريخ الرسمى الأسبانى ، نابض بالحياة فى سرده ، بديع فى أسلوبه ، متمكن فى رسمه

للأشخاص ، جرىء فى أمانته — « أروع ما شهده العالم من جمع بين العرض الزمنى المثير ، والتاريخ الرصين[١٥] » .

وكما أن كتب الأخبار المعروضة حسب تسلسلها الزمنى ، تدرجت (كما نرى فى مؤلفات كالتى ذكرنا) إلى كتب التاريخ بوصفه ضربا من الأدب والفلسفة ، كذلك نرى القصص الأسبانى فى هذا العصر ينتقل من رواية الفروسية والقصة الرعوية ليبلغ فى قفزة واحدة أرفع القمم فى تاريخ القصة : لقد ظلت روايات الفروسية كثيرة يقبل عليها فى نهم كل أسبانى من القديسة تريزا إلى سرفانتس ، وربما كانت عند بعض القراء تفريجا من حدة الدين الأسبانى المتسامية ، لأن عقيدة هذه الروايات كانت الغرام ، وولاء الفرسان لم يكن للعذراء مريم بل لمن اختاروا أو هووا من النساء ، وفى سبيل الدفاع عنهن أو تملكهن تراهم على استعداد لتكسير النصال الكثيرة وتحطيم عدد غير قليل من نواميس الله والبشر . ولكن التهافت على مثل هذه القصص كان يتناقص حين كتب سرفانتس ، وكان مونتيى وخوان لويز فيفز قد سخرا منها ، وكان مجلس قشتاله شكا منذ سنين طويلة (١٤٣٨) من أن « كثيرا من الأذى يلحق بالرجال والفتيان والفتيات وغيرهم » بسبب هذه الروايات ، وان الكثيرين « قد أضلتهم هذه القصص عن التعليم المسيحى الصحيح[١٦] » .

وبلغت الأمور الذروة بفضل تطور آخر . ففى عام ١٥٥٣ كان كاتب مجهول الهوية قد كتب فى « لاثاريللو دى تورمس » أول قصة بأسلوب البيكارسك (أى التشرد) الذى جعل من أحد الوضعاء الظرفاء بطلا يكفر عن فقره بالتمرد على القانون ، وعن تمرده على القانون بالفكاهة الذكية ، وفى عام ١٥٦٩ نشر ماتيو أليمان قصة مرحة سماها « حياة المتشرد جوثمان دى الفاراتشى » . وبعد خمس سنوات تناول سرفانتس هذين المزاجين — حلم الفارس الشهم الآخذ فى الزوال ، وحكمة رجل الشارع الممزوجة بالفكاهة ، وجمع بينهما جنبا إلى جنب فى أشهر القصص قاطبة وأروعها اطلاقا .

٢ — سرفانتس : ١٥٤٧ — ١٦٦٦

فى ٩ أكتوبر ١٥٤٧ ، وجريا على العادة الأسبانية بتسمية كل طفل باسم القديس الذى يحتفل بذكراه فى يوم ميلاده ، عمد خالق دون كخوتة وسانشو بانزا باسم « ميجل دى سرفانتس » فى « القلعة » . وقد أضاف — وربما أضاف أبوه أيضا — اسم سافيدرا ، من الأسرة القشتالية التى تزاوج فيها أسلافه الغاليسيون فى القرن الخامس عشر . وكان الأب طبيبا غير مرخص ، ثقيل السمع قليل المال ، يتنقل من بلد إلى بلد ليجبر العظام ويطبب الاصابات الخفيفة ، ويبدو أن الصغير ميجل صحبه إلى بلد الوليد ، ومدريد ، واشبيلية . أما تعليم الصبى فلا نعرف عنه شيئا ، فيلوح انه لم يحظ بتعليم عال برغم مولده فى مدينة جامعية ، ومن ثم لم تطهره الدراسات الكلاسيكية ولا زحمته ، واضطر إلى التقاط معرفته بالحياة من العيش فيها .

وأول ما نملك من الحقائق عنه بعد سجل عماده أن معلما من مدريد نشر عام ١٥٦٩ مجلدا احتوى ست قصائد بقلم « تلميذنا العزيز المحبوب » سرفانتس . وفى سبتمبر من تلك السنة قبض على المدعو ميجل دى سربانتس بتهمة الاشتراك فى مبارزة ، ونفى من أسبانيا عشر سنوات يعاقب دونها بقطع يده اليمنى . وفى ديسمبر نجد فتانا ميجل يخدم فى بيت كبير من رجال الكنيسة فى روما . وفى ١٦ سبتمبر ١٥٧١ نرى ميجل هذا ، ربما مدفوعا (مثل كاموئنش) بتفضيل الخدمة العسكرية فرارا من السجن ، مبحرا من مسينا على السفينة «ماركيزا » فى أسطول دون جوان النمساوى . وحين التحم الأسطول بالترك فى ليبانتو كان سرفانتس مريضا بالحمى فى عنبر سفينته ، ولكنه وضع على رأس اثنى عشر رجلا فى زورق إلى جوار السفينة لأنه أصر على لعب دوره ، وأصيب بثلاثة جروح من طلقات نارية ، جرحين فى صدره والثالث أعجز يسراه عجزا مستديما — « لنصرة الحق » على حد قوله . وأعيد إلى مستشفى بمسينا ودفعت له الحكومة

الأسبانية اثنتين وثمانين دوكاتية . ثم شارك فى معارك حربية أخرى — فى نافارينو ، وتونس ، وجوليتا (لاجوليت) . وأخيرا سمح له بالعودة إلى أسبانيا ، ولكن قرصان البربر أسروه هو وأخاه رودريجو فى رحلة العودة إلى الوطن (٢٦ سبتمبر ١٥٧٥) وباعوهما فى سوق الرقيق بالجزائر . وأقنعت الرسائل التى حملها من دون جوان وغيره آسريه بأنه رجل ذو حيثية ، فطلبوا عنه فدية كبيرة . وظل ميجل أسيرا خمس سنوات مع أن أخاه أطلق سراحه فى عام ١٥٧٧ . وحاول الهروب غير مرة . ولكنه لم يجن من محاولاته غير تشديد النكير عليه . وصرح الداى ، وهو الحاكم المحلى ، بأنه « إذا استطاع أن يؤمن حراسة ذلك الأسبانى المعطوب الذراع فقد أمن عاصمته وعبيده وسفنه*[١٧] » وكافحت أمه لتجمع الخمسمائة كراون التى طولب بها للافراج عنه ، وضحت أخواته بمهورهن فى هذا السبيل ، وأخيرا (فى ١٩ سبتمبر ١٥٨٠) أفرج عنه ، وبعد رحلة مضنية لحق بأسرة أمه فى مدريد .

كان مملقا عاجزا ، لذلك لم يكن أمامه من سبل الرزق غير العودة إلى الانخراط فى الجيش . وهناك من الدلائل ما يشير إلى أنه مارس الخدمة العسكرية فى البرتغال والأزوره . ووقع فى غرام سيدة نبيلة تصغره بثمانية عشر عاما ولا تملك غير أسمائها الكثيرة : كاتالينا دى بالاكيو سالازار إى فوزميديانو الإسكيفية . وتحت إلحاح الحب والفاقة كتب سرفانتس رواية رعوية تسمى « غلاطية » باعها بمبلغ ١،٣٣٦ ريالا (٦٦٨ دولارا ؟) . وتزوجته السيدة الآن (١٥٨٤) ، فقدم إليها ابنة غير شرعية وأقنعها بأن تربيها كأنها ابنتها ، وكانت قد ولدتها له حسناء عابرة قبل سنة[١٨] . أما كاتالينا نفسها فلم تنجب . وكانت تعنفه بانتظام على فقره ، ولكنها ظلت وفية له فيما يبدو ، وعمرت بعده ، وحين ماتت طلبت أن تدفن إلى جواره .

(*) ان قصة الأسير فى « دون كخوتة » (الجزء الأول ، الكتاب الرابع ، الفصول ١٢ — ١٤) ترجمة ذاتية إلى حد كبير .

ولم تأت غلاطيه بمزيد من الريالات ؛ كان رعاتها مسرفين فى بلاغتهم ، إلا حين ينطقون بالشعر ، ومع أن سرفانتس كان ينوى كتابة بقية لها ، ومع أنه ظل إلى النهاية يعتبرها أروع ما كتب ، فانه لم يجد قط الوقت أو الحافز لاتمامها . ثم جرب كتابة التمثليات طوال خمسة وعشرين عاما ، فألف نحو ثلاثين منها ، وكان رأيه أنها ممتازة ، وهو يؤكد لنا أنها « مثلت كلها دون أن يعرض عليه أى جزاء[١٩] » ولكن واحدة منها لم تستهو الجماهير أو تلمس عرقا من ذهب. لذلك ارتضى وظيفة متواضعة فى إدارة تموين الجيش والبحرية (١٥٨٧) ، وسافر بصفته هذه إلى عشرات المدن تاركا زوجته فى البيت . وقد ساعد فى تموين الأرمادا الجبار . وفى عام ١٥٩٤ عين جابيا لغرناطة . وسجن فى اشبيلية لمخالفات فى حساباته ، وأفرج عنه بعد شهور ثلاثة ، ولكنه طرد من خدمة الحكومة . ومكث عدة سنين فى فقر مدقع بأشبيلية وهو يحاول الارتزاق من قلمه . ثم قبض عليه مرة أخرى فى أرجا ماريللا وهو يجوب أسبانيا . وتقول الرواية انه فى سجنه وفى بؤسه واصل تأليف كتاب من أكثر الكتب مرحا فى العالم . فلما عاد إلى مدريد باع لفرانسسكو دى روبلز مخطوطة « حياة ومغامرات دون كخوته دى لامانشا الأشهر » فنشرت عام ١٦٠٥ . وهكذا ، وبعد ثمانية وخمسين عاما من الكفاح ، بلغ سرفانتيس شاطئ التوفيق .

ورحب كل الناس — عدا النقاد — بالكتاب مهرجانا من الفكاهة والفلسفة . وتقول رواية قديمة ان فليب الثالث « لاحظ وهو واقف يوما بشرفة قصره فى مدريد طالبا بيده كتاب على ضفة مانزاناريس المقابلة . وكان الطالب يقرأ ، ولكنه بين الحين والحين كان يقطع قراءته ويلطم جبينه لطمات عنيفة تصحبها حركات لا حصر لها من النشوة والطرب . وقال الملك « إن الطالب إما أن يكون مجنـــونا وإما إنه يقرأ . . . دون كخوته[٢٠] » .

إن فى هذه الصفحات الثمانمائة مآخذ كما فى كل رائعة — فحبكة

الرواية ليست غاية في البراعة — سلسلة من الأحداث المترابطة. تكشفها حكايات مقحمة غير متصلة بالموضوع ، خلو من الخطة خلو الفارس الذى « يواصل سفره على ظهر جواده مرخيا له العنان ليمضى حيث شاء » . وبعض خيوط الحبكة متروك عند أطراف مفكوكة أو شديدة التعقيد ، مثل ضياع حمار سانشو وظهوره ثانية دون تعليل . ويصبح السرد بين الحين والحين مملا ، والنحو غير دقيق ، واللغة مفتقرة إلى الصقل . ويقول الجغرافيون إن جغرافية الرواية مستحيلة . ولكن ما أهمية هذا كله ؟ فكلما مضينا فى القراءة مشدودين بجذب لطيف خلال المعقول وغير المعقول ، ازداد عجبنا من أن سرفانتيس استطاع وسط كل شدائده أن يجمع معا مثل هذا المشهد العريض من المثالية والظرف وأن يقرب قطبى الخلق الإنسانى المتباعدين فى مثل هذا التراكب المنير . أما الأسلوب فهو ما ينبغى أن يكون عليه أسلوب قصة طويلة — لا سيل مرهق من البلاغة ، ولكن جدول صاف جار ، يتألق هنا وهناك بعبارة حلوة ، كقوله « كان له وجه كالبركة[٢١] » وأما القدرة على اختراع الأحداث فتمضى إلى النهاية ، وأما معين أمثال سانشو فلا ينضب ، وآخر قطعة من الفكاهة أو التفجع لا تقل جمالا عن أولها . هنا ، فى هذا « التاريخ الجاد أعظم الجد ، المجلجل ، الدقيق ، الناعم ، الفكه » على حد قول سرفانتيس ، نلتقى بحياة أسبانيا وشعبها ، موصوفين بحب يبقى بعد أن ينقضى عـــدم التحيز ، وبمئات التفاصيل الصغيرة التى تخلق هذا الكل الملهم ، وتفعمه بالحياة .

ويلجأ سرفانتس إلى حيلة قديمة فيزعم لنا أن « تاريخه » مأخوذ عن مخطوطة لمؤلف عربى سماه السيد حامد بن انجلى . وتفصح المقدمة عن هدفه ، وهو أن يصف فى « هجو للفروسية الجوابة . . . سقوط ودمار ذلك الكوم البشع من روايات الفروسية . . . التى افتتن بهـــا أكثر الناس على نحو عجيب » . وقد فعل تشوسر مثل هذا فى حكايات كنتربرى (« شعر السير توباس ») ، ورابليه فى « جرجانتوا » ، وبولتشى فى « المورجانتى

مادجورى » ، وهزأ تيوفيلو فولنجو وغيره من شعراء التخليط بين اللاتينية واللغة القومية بالفرسان ، وسخر أريوستو في أورلندو فوريوزو » من أبطاله الرجال والنساء . على أن سرفانتس لا يرفض روايات الفروسية جملة ، فهو ينقذ من النار بعضها ، مثل « أماديس داجاولا » ، ومثل روايته « غلاطية » ، وهو يدخل فى قصته بعض مغامرات الفروسية . ونرى فى نهاية القصة أن هذا الدون الفارس ، بعد عشرات الهزائم والضربات المخزية ، هو بطل القصة الخفى .

ويصوره سرفانتس سيدا ريفيا خصب الخيال ، أذهلته القصص التى جمعها فى مكتبته ، فدجج نفسه بالسلاح من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، وارتدى سترة الفارس وخرج على فرسه روزنانتى ليذود عن حياض المظلومين ويصلح الفساد ويحمى العذارى والأطفال . أنه يمقت الظلم ويحلم بماض ذهبى يوم لم يكن هناك ذهب ، « يوم كانت هاتان الكلمتان القتالتان « مالك » و « مالى » فوارق مجهولة ، كل الأشياء كانت مشتركة فى ذلك العصر المقدس ... كله كان تآلفا واتحادا ، كله كان حبا وصداقة فى الدنيا »(٢٢). وجريا على قواعد الفروسية نراه يكرس سلاحه ، لا بل حياته ، لسيدة نبيلة تدعى دولتسينيا ديل توبوزو . ومع أن عينه لم تقع عليها قط ، فقد كان فى وسعه أن يتصورها تجسيدا كاملا للطهارة المحتشمة والجمال الرقيق . « نحرها مرمر ، وثدياها رخام ، ويداها عاج . والثلج ينكسف بياضه إذا دنا من صدرها »(٢٣) أما وقد ملأه هذا الرخام صلابة ، وبعث فيه هذا الثلج دفئا ، فهو ينطلق ليهاجم عالما حفل بالشرور . وهو فى هذه المعركة غير المتكافئة لا يشعر بأن أعداءه أعز منه نفرا « فأنا وحدى أعدل مائة منهم . » وبينما يلازم سرفانتس ذلك « الفارس ذا الوجه البائس » متنقلا بين الفنادق الصغيرة وطواحين الهواء ، بين المصارف القذرة والخنازير المذعورة ، تنتهى به الصحبة إلى حبه قديساً كما يحبه مجنوناً ، وفى كل هذه المغامرات الفاشلة والكبوات الأليمة يظل الدون المثال الحى للأدب

والعطف والسماحة . وأخيرا يتغير المجذوب المحزون على يد خالقه ، فيصبح فيلسوفا يتحدث —حتى وهو يتردى فى الوحل — حديثا عاقلا سويا ، ويغفر الإساءات للدنيا التى عجز عن فهمها ، ثم يغيظنا من سرفانتس أنه يواصل خبطه وتحطيمه التزاما بخطته المرسومة . ثم نعطف على الفارس الذى ينقشع الوهم عن عينيه حين يؤكد له سانشو إن الدولتسنيا ديل توبوزو الوحيدة التى تعرفها بلدتها ليست سوى « خادمة متمنطقة ، هى صبية بدينة ، مفتولة العضل ، مسترجلة » ، من أصل متواضع . ويجيب الفارس بحكمة ذهبية ، فيقول لسانشو ، « إن الأصل يشرف بالفضيلة ، إنما أصل الفتى ما قد حصل »(٣٥) .

والشيء الذى يفتقر إليه الدون هو روح الفكاهة ، وهو خير جوانب الفلسفة . ومن ثم يعطيه سرفانتس تابعا مرافقا أصله عامل من عمال المدينة الأقوياء ، وابن من أبناء الريف ، هو سانشوبانزا . ويؤمن الفارس خدماته بأن يعده بالطعام والشراب ، وبحكم ولاية فى الممالك التى يزمعان فتحها . فأما سانشو فرجل ذو إدراك بسيط وشهية طيبة ، يظل محتفظا بسمنته إلى آخر صفحة فى القصة برغم إشرافه دائما على الموت جوعا ، إنسان كريم النفس يحب بغلته كأنها « نفسه الثانية » ويقدر «عشرتها الحلوة» ، أنه ليس الفلاح الأسبانى النموذجى ، فهوسخى فى النكتة زاهد فى الوقار ، إنما هو — كأى أسبانى تحرر من سعار اللاهوت — طيب القلب محب للخير ، حكيم دون ثقافة أو تعليم ، وفى لسيده فى دنيا العذاب هذه وسرعان ما ينتهى إلى أن الدون رجل مجنون ، ولكنه هو أيضاً ينتهى إلى أن يحبه . يقول فى ختام القصة « لقد لازمت مولاى الطيب وصاحبته هذه الشهور الطوال ، والآن أصبحنا نحن الاثنين واحدا »(٣٦) ، وهذا حق ، لأنهما ليساسوى جانبين لأنسانية واحدة . أما الفارس فينتهى هو أيضا إلى احترام حكمة تابعه لأنها أعمق جذورا إن لم تكن نبيلة كحكمته . ويعبر سانشو عن فلسفته بأمثال يقفو بعضها بعضا حتى لتكاد تخنق تفكيره : « إن الدجاجة

والمرأة تضيعان إذا سرحتا» ، « بين قول المرأة نعم وقولها لا ، لا أوافق على أن أضع سن دبوس ، فالوحد منهما قريب جدا من الآخر » ، « إن الطبيب يبذل نصيحته بجسه نبض جبيك » ، « كل إنسان كما صنعه الله ، وكثيرا ما يكون أسوأ ».(٢٧) ولعل سرفانتس استعمل مجموعة مختارة من هذه الأمثال التي عرفها بأنها « عبارات قصيرة صيغت من خبرة طويلة » .(٢٨) ويعتذر سانشو عن هذا « الاسهال » في الحكم بأن هذه المأثورات تسد حلقه ولا بد أن تنطلق ، بترتيب ورودها على خاطره . ويستسلم الدون لهذا الفيض الدافق فيقول « حقا ، يبدو أنك لست أعقل مني ... أشهد أنك انسان مختلط العقل ، إنني أصفح عنك ، وقد فعلت »(٢٩) .

كان للتوفيق الذي أصابته " دون كخوته " الفضل في ظفر سرفانتس براعيين لأدبه ، الكونت ليموس وكردينال طليطلة ، أجريا عليه معاشا صغيرا يسر له أن يعول زوجته ، وابنته غير الشرعية ، وأخته الأرملة ، وابنة أخته . وبعد شهور من نشر كتابه قبض عليه هو وكل أفراد أسرته لشبهة اشتراكهم في مقتل جاسباردي ازبليتا على باب بيت سرفانتس . وأرجفت الشائعات بأن جاسبار كان يعشق ابنته ، ولكن التحقيق لم يسفر عن شيء ، فأفرج عنهم جميعا .

ومضى سرفانتس يكتب الجزء الثاني من « دون كخوته » في غير عجلة . وفي عام ١٦١٣ قطع هذا الجهد المحبب بنشر اثنتي عشرة قصة « مثالية جديدة » جاء في مقدمتها « لقد وصفت هذه القصص بأنها مثالية ، ولو تأملها القارئ لما وجد فيها قصة لا تعطيه مثالا نافعا » (٣٠) . وأولها قصة عصابة من اللصوص تعمل في انسجام مثالي مع رئيس شرطة اشبيلية ، وقصة أخرى اسمها « ندوة الكلاب » تصف سلوك تلك المدينة وأخلاقها . وفي التمهيد للمجموعة صور سرفانتس نفسه بهذه العبارات :

إن الرجل الذي ترونه هنا بمحياه النسري ، وشعره الكستنائي ، وجبينه الهادىء الطلق ، وعينيه اللامعتين ، وأنفه المعقوف المتناسب ، ولحيته

الفضية التي كانت ذهبية منذ أقل من عشرين عاما ، وشاربه الكبير ... وأسنانه التي لا تستحق الاحصاء ، وقامته الربعة ؛ وكتفيه طفيفي الانحناء ، وبنيته الثقيلة بعض الشيء ... أحيز لنفسي أن أقول لكم إنه مؤلف «غلاطية» و « دون كخوته دلا مانشا » (٣١) .

ولكنه فوجيء عام ١٦١٤ بظهور الجزء الثاني من « دون كخوته » ، لا بقلمه ، بل بقلم سارق مجهول انتحل اسم « أفيلانيدا » . وقد هزأت المقدمة من جراح سرفانتس ، وطربت للحيلة المتقنة التي ستقضي على جزء سرفانتس الثاني . وعجل الكاتب المنزعج بانجاز كتابه ونشره عام ١٦١٥ ، وابتهج القراء الأسبان حين وجدوا هذه التتمة ترقى إلى مستوى الجزء الأول خيالا وقوة ومرحا ، ففي كل هذه الصفحات الخمسمائة الجديدة احتفظ الكاتب بتشويقه للقارئ حتى النهاية ، وهي نهاية حزينة إن لم تكن أليمة ، وبدا للبعض أن حظ الدون وتابعه العاثر في بلاط الدوق ، وملك شانسو على ولايته ، والقصة المؤلمة التي روى فيها كيف ضرب عجزه — كل هذا من شأنه أن يجعل الجزء الثاني هو النصف الأفضل . فحين يولى سانشو حاكما على باراتاريا يتوقع الكل منه أن يتجاوز كل ما أثر عن الحكام من حماقات . ولكننا نجد على النقيض من ذلك أن طيبته وفطنته ، وأن نظمه واصلاحاته البسيطة العادلة ؛ وأن قراره الحكيم في دعوى هتك العرض (٣٢) — كل هذا يخجل واقع الحكم المعاصر له . ولكن قوى الشر الذي لا يعرف رحمة ولا هوادة تطغى عليه ؛ وأخيرا ترهقه ارهاقا يكرهه على التخلي عن منصبه والعودة مرتاحا إلى حياته تابعا للدون .

ولا يبقى بعد ذلك إلا أن يهرب الفارس مثل هذا الهرب من دنيا الأحلام إلى دنيا الواقع . إنه يخرج في طلب المغامرات الجديدة ، ولكنه يهزم هزيمة عارمة ؛ ينتزع المنتصر فيها تعهدا منه بأن يمضي إلى داره ويعيش سنة في هدوء لا شأن له بالفروسية . ويوافق المحارب المتعب ، ولكن تبدد أوهامه يجفف ينابيع حياته . فيرسل في طلب أصدقائه إلى جواره ، ويوزع

الهدايا عليهم؛ ويكتب وصيته ، وينبذ الفروسية الطوافة الباحثة عن المغامرات، ويدع روحه تنحسر انحسارا شديدا . ويعود سانشو إلى أسرته ؛ ويفلح حديقته قانعا قناعة ر ل خير من الدنيا ما يكفى لجعله عارفا بقدر بيته .
وفى النهاية يلوح أن هذه الواقعية الطيبة تنتصر على مثالية مولاه المغرقة فى الأوهام برغم سماحتها . ولكن الأمر فى حقيقته غير هذا . فروح الفارس هى صاحبة الكلمة الأخيرة فى القبرية التى أوصى بأن تكتب له . « إذا كنت لم أحقق جلائل الأعمال فإننى مت فى سبيلها » . وهكذا يتبين أن الواقعى يعيش إلى أن يدركه الموت ؛ ولكن المثالى يبدأ عندها الحياة .

ونشر سرفانتس فى السنة التى بقيت له فى أجله ثمانى تمثيليات ، ولم يؤيد الزمن تقديره لها ، ولكنه قدر تقديرا عظيما « لانومانسيا » ، وهى قصيدة تمثيلية فيها قوة وفيها جمال ، تحيى ذكرى مقاومة تلك المدينة الأسبانية للحصار الرومانى (١٣٣ ق . م) . وكان له كفارسه وهمه الذى يسنده ؛ فظن أن الأجيال القادمة ستكرمه أولا لتمثيلياته ، وتكلم فى غيرة لا تليق به وإن غفرناها له عن لوبى دى فيجا الذى وفق توفيقا هائلا ، ثم كتب وهو يحتضر تقريبا ، قصة أخرى من قصصه بعد أن هزأ بأكثر الروايات الغرامية « برسيليس وسجموندا » . وقبل أن يموت بأربعة أيام أهداها إلى كونت ليمور قائلا :

« مسحت بالأمس المسحة المقدسة الأخيرة ، واليوم أخط هذا الإهداء . ليس فى الوقت متسع ، وعذابى يزيد ، والآمال تتضاءل . . . فوداعا للمزاح إذن ، وداعا فكاهاتى البهيجة ، وداعا أصدقائى المرحين ، لأننى أشعر بأننى أموت ، ولا أمنية لى إلا أن أراكم سعداء فى الحياة الأخرى[٣٣] » .

ومات فى ٢٣ ابريل ١٦١٦(*) .

(*) فى الظاهر فى نفس اليوم الذى مات فيه شكسبير . وكانت انجلترة لا تزال تستعمل التقويم اليوليانى ، أما حسب التقويم الجريجورى التى أخذت به أسبانيا قبل ذلك فموت شكسبير وقع فى ٣ مايو ١٦١٦ .

كان قد تنبأ على طريقته « الكيخوتية » المميزة أن كتابه « دون كخوته » سيباع منه ثلاثون مليون نسخة . وابتسم العالم لسذاجته ، ثم اشترى ثلاثين مليونا . لقد ترجمت القصة العظيمة إلى لغات أكثر من أى كتاب باستثناء الكتاب المقدس . وفى أسبانيا يعرف أبسط القرويين من هو دون كخوته ، وهو عموما ، خارج الكتاب المقدس أيضا ، « أكثر شخوص الأدب كله حياة وفتنة وشهرة (٣٤) » ، وأكثر واقعيه من ألف علم من أعلام التاريخ المستكبرين . وقد استطاع سرفانتس ، بجعل قصته هذه صورة لآداب السلوك ، أن يرسى أساس الرواية الحديثة ، ويفتح الطريق لقصاصين مثل لوساج ، وفيلدنج ، وسموليت ، وستيرن ، ورفع هذا اللون الجديد إلى مقام الفلسفة إذ جعله يكشف عن طبائع البشر ويلقى الضوء على ما خفى من أخلاقهم .

٣ — الشعراء

إن رنين اللغة القشتالية الفحل ، مثله مثل جمال الإيطالية التسكانية الرخيم ، أسلم نفسه مختارا للموسيقى والقافية ، واستجابت روح الشعب للشعر بطبعها أكثر من استجابتها للنثر . وكثر الشعراء كثرة القساوسة . وفى قصيدته غار أبوللو (١٦٣٠) وصف لوبى دى فيجا مهرجانا للشعر وتنافسا عليه اقتتل فيه ، فى خياله ، شعراء أسبانيا المعاصرة الثلاثمائة على اكليل الغار . وكاد إقبال الشعب على هذه المباريات الشعرية يعدل إقباله على حرق المهرطقين . كانت هناك قصائد تعليمية منومة ، وعظات دينية بالشعر ، وروايات غرامية منظومة ، وشعر رعوى ، وشعر ساخر من البطولة ، وقصائد قصصية ، وشعر غنائى ، وملاحم . ولم يؤت كل المؤلفين شجاعة فرانسسكو دى فيجوبروا ، الذى حكم على أشعاره بالحرق لما فيها من هرطقات .

أما أروع الملاحم فملحمة « لا أروكانا » (١٥٦٩ — ٨٩) ، التى تصف

ثورة قبيلة هندية فى أمريكا الجنوبية ، كتبها الونسو دى ارسيللا إى زونيجا الذى أبلى بلاء حسناء فى تلك الحرب وهو جندى أسبانى . وربما كان أبدع الشعراء الغنائيين راهبا أوغسطينيا اسمه لويس بونسى دى ليون ، لم يمنعه بعض الدم اليهودى الذى اختلط بدم أسلافه من تصوير أرق جوانب التقوى المسيحية ، وأعجب من ذلك جمعه بين الشاعر واللاهوتى ، ففى سنته الرابعة والثلاثين عين أستاذا للإلاهيات فى جامعة سلامانكا ، وما برح طوال حياته متصلا بهذه الجامعة ، ومع ذلك لم تمنعه جهوده الدراسية وحياة النسك من التحليق فى أجواء الشعر الغنائى . ودعته محكمة التفتيش لتحاكمه (١٥٧٢) على ترجمة نشيد الانشاد إلى شكل من أشكال الحوار الرعوى . واحتمل عذاب السجن خمس سنين ، فلما أفرج عنه استأنف محاضراته فى الجامعة بهذه الكلمات الساخرة « لاحظنا فى آخر لقاء لنا . . .(٣٥) » وقد وافق رؤساءه على أن قرض الشعر لا يليق برجل اللاهوت ، فترك قصائده دون نشر ، ولم تصل إلى المطبعة إلا بعد موته بأربعين سنة . وهى بالاجماع أقرب إنتاج اللغة القشتالية إلى الكمال .

وكان لويس دى جونجورا وفرانسسكو جومز دى كويفيدو اى فيلليجاس لا يزالان يفوقانه شهرة لأنهما أثارا الضجيج بالجدل كما أثاراه بالشعر ، وخلفا بعدهما مدرستين متقاتلتين هما الجونجورية والكونسبتية ، باعتبارهما فلسفتين من فلسفات الأسلوب . وقال سرفانتس — الذى لم يبخل بكلمة ثناء على كل منافسيه فيما عدا لوبى وأفيللانيدا — فى وصف جونجورا إنه « عبقرى نادر ، مثير ، لا ثانى له(٣٦) » وفى هذا المقطع من قصيدة الشاعر القصصية « إلى الأرمادا » نلتقط صـدى بعيدا لصيحة الكراهية والحقد : —

« إيه أيتها الجزيرة ! كنت يوما وفية للكثلكة ، قوية البأس ، حصنا للإيمان انقلب هيكلا بغيضا للهرطقة ،

كنت معسكرا للحرب المدربة ، ومدرسة للحكمة المقدسة ،

أتى عليك زمن كان فيه هذا الجلال جلالك
وتغنى الشعراء أول ما تغنوا ببريق تاجك ،
أما الآن فالأعشاب الكثيبة التى تنبت عند بركة الجحيم
تصلح اكليلا لك . يا وطن الكماة .
من كل أرثر ، وإدورد ، وهنرى ! أين هم اليوم منك ؟
أين أمهم التى سعدت يوماً بيأسهم .
وثبتت فى قوة الإيمان ؟ إيه يا جرأة المرأة
التى تحكمك الآن ، لقد قضى عليك بالعار الأبدى
أيتها الملكة المغيضة يا قاسية القلب عابسة الجبين ،
أيتها الفاجرة الصارمة الشرسة الداعرة ،
يا مرأة تربعت على العرش ، يا لعنة الفضيلة الصادقة
يا شبيهة الذئبة فى كل طباعها ،
لتمطر السماء على ضفائرك الكاذبة لهيبها العادل ! (٣٧)

هنا قلم جدير بالتودد له . لا عجب إذن أن جعل فليب الرابع هذا الشاعر النارى (الذى أصبح الآن قسيسا) كاهنه الملكى الخاص ، فربط مواهبه بالعرش . وجهد جونجورا ليكتسب نعومة الأسلوب ودقة العبارة ، وأعلن الحرب على الكتابات المتعجلة ككتابة لوبى دى فيجا ، وأصر على وجوب تهذيب كل بيت من الشعر وتصفيته وصقله ليكون حجرا كريما . ولكنه فى تحمسه غالى فجعل من الفن صنعة وتكلفا ، وأثقل أبياته بالكثير المسرف من الاستعارات ، والنعوت ، والتقديمات والتأخيرات ، والطباقات ، حتى بز لايلى فى تأنقه وفاق مارينى فى تكلفه . انظر إليه يقول فى مفاتن صبية يخلب حسنها الألباب :

عيناها التوأمان اللامعتان كالشمس
تحيلان صقيع النرويج صيفا ،
وتلك العجيبة البيضاء ، يدها الناصعة كالثلج ،

تجعل الحبشى يبيض دهشة وذهولا .

وانقسم شعراء الأسبان الآن معسكرات ثلاثة ، ففريق اتبع الجونجورية (أو الكولتيه) ، وفريق اعتنق مذهب كويفيدو (الكونسبتية) ، وفريق ثالث قاوم الوبائين كما فعل لوبى ذى فيجا .

أما كويفيدو فقد نال فى «القلعة» مراتب الشرف فى القانون، واللاهوت، واللاتينية ، واليونانية ، والفرنسية ، والعربية ، والعبرية ، والمبارزة . وكان برغم قصر بصره وتشوه قدميه رهيبا بسيفه وقلمه على السواء ، وكانت هجائياته بتارة كحسامه . وقد فر إلى صقلية ونابلى بعد أن قتل عددا من غرمائه . وحين بلغ الخامسة والثلاثين تقلد هناك وزارة المالية. وشارك فى مؤامرة أوزونا على البندقية (١٦١٨) ، فلما فشلت أودع السجن ثلاث سنين . وعاد بعدها إلى مدريد ، فلم تسكته وظيفة شرفية هى وظيفة السكرتير لفليب الرابع ، وراح يسلق بشعره الحاد الملك والبـابا وأوليفاريس والنساء والرهبان . وفى كتيبه المقذع « الكلب والحمى » (١٦١٥) نبح كل شىء ، وأطلق على الكل عاصفة من الأمثال أكثف من أمثال سانشو بانزا وأشد لذعا ، وكانت نصيحته التى لم يعمل بها قط أن يقف المرء بعيدا عن المعركة و « يدع القاذورات تمر » [٣٨]. ولمـا أعوزه الخصوم والأهداف ، هاجم « كولتية » الجونجوريين ، وعارضها بـ « الكونسبتيه » ، وقال إن على الشاعر ، بدلا من تصيد العبارات والألفاظ الخيالية ، أن يبحث عن الأفكار — لا الأفكار العامة الظاهرة التى أبلاها الزمن أو لوثها الابتذال ، بل المفاهيم الدقيقة ، الجليلة ، النبيلة ، العميقة .

وقد اتهم ظلما بكتابة خطابات تنبه الملك إلى ضرورة الكف عن التبذير ، وطرد وزرائه العاجزين . فأودع زنزانة رطبة خمس سنين ، ولما أفرج عنه كان رجلا محطما ، فلم يعش بعدها غير ثلاث سنين (١٦٤٥). إنه لم يعش

حياة أدبية هادئة مطمئنة ، بل حياة كان فيها المداد دما ، والشعر جربا ، وإذ شارف نهايته أنذر بلاده بأنها هي أيضا فى طريقها إلى الموت :

رأيت أسوار وطنى
تتداعى بعد منعتها ،
لقد أوهن من قواها أسلوب هذا الجيل الجديد
الذى أبلى كل جليل وأفسده ،
مضيت إلى الحقول حيث رأيت
الشمس تلتهم مياه الثلوج الذائبة ،
وفوق التلال تنبش الماشية النائحة الأرض ،
لقد سلبنى شقاؤها ضياء النهار ،
ومضيت إلى بيتى فرأيت كيف أفسدت
الأشياء القذرة البالية هذا البيت القديم ،
لقد تقوس عكازى الذاوى الذى أتوكأ عليه
وأحسست أن الشيخوخة انتصرت ، رأيت سيفى صدئا
ولا شىء تقع عليه العين
إلا ذكرنى بالنهاية .(٣٩)

٤ — لوبى دى فيجا : ١٥٦٢ — ١٦٣٥

كثر كتاب المسرحية فى ذلك العصر النشيط كثرة الشعراء . كان المسرح هنا ، شأنه فى انجلتره المعاصرة ، بدعة مرتجلة إلى ذلك الحين ، فالممثلون الجوابون يسرحون بفنهم على المدن مفلسين ، ومحكمة التفتيش تصدر حظرا على جميع التمثيليات (١٥٢٠) فى كفاحها للهيمنة على جلافة تمثيلياتهم الفكاهية فلما أصبحت مدريد مقرا للملك (١٥٦١) ، استأذنت فرقتان تمثيليتان الملك فى الاستقرار فيها ، فأذن ، ورفع الحظر الكنسى (١٥٧٢) ، وبنى مسرحان ، تياترو دلاكروز (مسرح الصليب) وتياترو دلبرنسيبى (مسرح الملك) —

يعبر الاسمان عن أهم ولاءات أسبانيا وأقواها . وما وافى عام ١٦٠٢ حتى قامت المسارح أيضا فى بلنسية ، واشبيلية ، وبرشلونه ، وغرناطة ، وطليطلة ، وبلد الوليد ، وفى عام ١٦٣٢ كان فى مدريد ألف ممثل ، وفى قشتالة ستة وسبعون من الكتاب المسرحيين ،وكان الخياطون والباعة والرعاة يكتبون التمثيليات . ولم تحل سنة ١٨٠٠ حتى كانت أسبانيا قد استمعت إلى ثلاثين ألفا من مختلف التمثيليات . ولا يذكر التاريخ بلدا آخر ، حتى انجلتره الاليزبيثية ، انتشى بمثل هذه النشوة المسرحية .

وتطور شكل المسرح من الأفنية — المحاطة بالبيوت والمواقف المؤقتة — التى كانت تمثل فيها المسرحيات الأولى ؛ وصممت المسارح الدائمة صفوفا من المقاعد وألواجا تحيط بمكان مسيج ، وكانت الملابس أسبانية أيا كان مكان التمثيلية أو زمانها ، والنظارة خليطا من جميع الطبقات ، والنساء يختلفن إلى المسرح ولكنهن يجلسن فى قسم خاص بهن ويلبسن الأقنعة الثقيلة . وكان الممثلون يعيشون عيشة قلقة هبطت بمعنوياتهم، بين المجاعات والولائم ، يتعزون عن الفاقة والتشرد بالفوضى وحلو الأمانى . ونال بعض « النجوم » الذكور من الثراء والشهرة ما أدار رءوسهم ، فراحوا يختالون فى أهم شوارع مدريد وهم يصلحون سيوفهم ويفتلون شواربهم ، ونامت بعض كبريات المغنيات مع الملوك فى مضاجعهم .

أما ملك المسرح الأسبانى فهو لوبى فيلكس دى فيجا كاربيو . ففى عام ١٦٤٧ اضطرت محكمة التفتيش إلى حظر « قانون إيمان » منشور مطلعه « أؤمن بلوبى دى فيجا ضابط الكل ، شاعر السماوات والأرض » (٤٠) ولعل كاتبا آخر فى التاريخ لم يحظ بمثل هذه الشهرة فى جيله . ولم يقتصر معظم هذه الشهرة على أسبانيا دون غيرها من الأقطار إلا لصعوبة ترجمة الشعر المقفى ، ولكن حتى مع هذا القيد كانت مسرحياته تمثل بالأسبانية فى نابلى وروما وميلان،وانتحل اسمه فى فرنسا وإيطاليا لمسرحيات لم يكتبها، وذلك اغراء للجماهير بحضورها .

ولد في مدريد قبل مولد شيكسبير بعامين لأسرة فقيرة ولكنها — كما يؤكدون — عريقة . فلما ناهز الرابعة عشرة هرب من البيت والمدرسة وتطوع في الجيش وشهد بعض المعارك الدامية في الأزورة . ثم أحب ، ولكنه أنقذ نفسه دون أن يصاب إلا بجراح طفيفة ، وكتب « ابجرامات » سافلة في حق السيدة النبيلة ، فقبض عليه بتهمة القذف ، ونفى من مدريد . ولكنه تسلل إلى المدينة ، وفر مع ايزابل دى أوربينا ، وتزوجها ، فطورد ، والتحق بالأرمادا تهربا من القانون . وقد شارك في هزيمة الأسطول ، ومات أخوه القتيل في المعركة بين ذراعيه . وتركه موت زوجته حرا ولكنه تورط في مشاكل أخرى . فقد أنجب طفلين من الممثلة ميكالا دى لوخان(٤١) ، وتزوج ثانية ، وأصبح موظفا في محكمة التفتيش (١٦٠٩) ، ثم فقد زوجته الثانية ، ورسم قسيسا (١٦١٤ ؟) ووقع في أكثر من غرام(٤٢) .

أما أسبانيا فقد اغتفرت له خليلاته لقاء مسرحياته . فقد كتب منها زهاء ألف وثمانمائة ، بالإضافة إلى أربعمائة « فصول مقدسة » قصيرة تمثل في الاحتفالات الدينية . وذاع عنه أنه ألف عشر تمثيليات في أسبوع واحد ، وتمثيلية قبل الفطور ، وتقهقر سرفانتس يائساً أمام هذا السيل الجارف ، وسمى منافسه « وحش الطبيعة » . كان لوبى « كوميديا فنية » في ذاته ، فهو يؤلف المسرحية وهو يرتجلها . وإذ كان ينجب بمثل هذه الخصوبة المستهترة ، فإنه لم يزعم لنفسه تفوقا في الفن أو الفلسفة . وقد اعترف بلطف في كتابه « الفن الجديد في كتابة المسرحيات » انه إنما يكتب ليرتزق ، ومن ثم فهو يزود الجمهور بما يروقه(٤٣) . وما كان ليطبع تمثيلياته لولا قراصنة الناشرين الذين درجوا على ايفاد رجال ذوى ذاكرة معجزة إلى حفلاته ، وكان في استطاعة هؤلاء الرجال بعد الاستماع إلى المسرحية ثلاث مرات أن يتلوها عن ظهر قلب ويقدموا نصا محرفا للناشرين الذين لا يدفعون للمؤلف فلسا واحدا . وذات مرة أبت فرقة لوبى أن تمضى في تمثيل المسرحية ما لم يطرد

عجيبة من عجائب الذاكرة هؤلاء خارج القاعة(٤٤) — فنشرها قد هبط بعدد روادها . على أن لوبى نشر فى عناية وحب رواياته الشعرية — اركاديا ، وسان ايسيدرو ، وأورشليم المفتوحة ، ولا هور موسورا دى أنجليكا ، ولا دوروتيا ، وكلها مشجية متوسطة الجودة .

والحبكة فى مسرحياته هى كل شىء ، أما الشخوص فقلما تحظى من مؤلفها بدراسة وثيقة ، ويخيل للمرء أنه يصدق على هذه المسرحيات ماقاله ثورو فى الصحف — وهو أنك لو غيرت أسماءها وتواريخها لا أكثر ، لوجدت المحتوى دائما هو هو . فالقصة تدور فى كل الحالات تقريبا حول عاملين : الدفاع عن العرض ، ثم من يضاجع السيدة . أما جمهور النظارة فلم يكن يمل قط من معالجة الموضوع الثانى فى صور متنوعة ، لأنه حرم ممارسة أى من صوره هو . وكان خلال ذلك يستمتع بالفكاهة العارضة ، والحوار الذكى ، والشعر العاطفى الذى يتدفق سريعا رشيقا من أفواه النساء الحسان والرجال البواسل . وهكذا اتخذت روح الرومانسيات ، التى لم تنقرض قط ، حياة جديدة على المسرح الأسبانى .

وأشهر مسرحيات لوبى هى « نجمة إشبيلية » . ففى هــذه المسرحية يفد سانشو الشجاع ملك قشتالة على إشبيليته ، فيطرى بهاء شوارعها ، ولـكنه يطلب إلى مستشاره أرياس أن يزيده حديثا عن نسائها بنوع خاص .

« الملك : ثم نساؤها ذوات الحسن السماوى ، لم لا تحدثنى عنهن ؟ ... قل لى ، ألا تلتهب عواطفك بهاء مفاتنهن ؟

أرياس : أن الدونا ليونور دى ريبيرا بدت لى كأنها السماء المنيرة ذاتها ، ففى وجهها أشرق ضياء شمس الربيع .

الملك : إن فى وجهها شحوبا كثيرا . . . أريد شمسا تحرق ولا تجمد .

أرياس : إن المرأة التى ألقت إليك الورود هى الدونا منثيا كورونيل .

الملك : سيدة جميلة ، ولكنى رأيت أجمل منها . . . واحدة منهن

تفيض حسنا ولم تذكرها . . . فمن تلك التى لفتت نظرى من شرفتها ، فخلعت لها قبعتى ؟ من هى التى أرسلت عيناها البرق كصواعق جوبيتروراشت سهامها الفتاكة فى قلبى ؟ . . .

أرياس : اسمها الدونا ستيللا تابيرا ، وتسميها اشبيلية نجمتها إطراء لها .

الملك : وقد يخلق بها أن تسميها شمسها . . . لقد قادنى نجمى الهادى إلى اشبيلية . . . فكيف السبيل إلى رؤيتها والتحدث إليها أيها الدون أرياس ؟ يا له من حلم تضطرم له أعماق نفسى!»(٤٥)

على أن ستيللا تعشق الدون سانتشو أورتيث ، وهى ترفض فى غضب ما عرضه عليها أرياس من السماح للملك بالتمتع بـ «حق السيد» . ولكن أرياس يرشو الخادمة لتدخل الملك إلى مخدع مولاتها ، ويدخل بوستوس شقيق ستيللا الوفى فى اللحظة التى يجب فيها الدفاع عن العرض ، فيكف الملك ، ويكاد يقتله ، ولكنه إجلالا لمنصبه يخلى سبيله ، مزدرى ولكن دون أن يمسه سوء . وبعد ساعة يشهد الملك جسد الخادمة التى قبلت الرشوة مشنوقا فوق سور قصره . ويرسل فى طلب أورتيث ، ويسأله هل ولاؤه لمليكه لا يعرف الحدود ، فيتلقى جوابا فخورا مرضيا ، ومن ثم يأمره بقتل بوستوس . ويلتقى أورتيث ببوستوس ويتسلم منه رسالة من ستيللا تقول إنها تبادله الحب وتقبل تودده ، فيشكره ، ثم يقتله ، ويكاد يختلط عقله ، ويخشى الملك ثورة الشعب ، فيخفى عنه أن اغتيال بوستوس كان بأمر منه . ويقبض على أورتيث ويكاد يعدم لولا أن ستيللا تجد الوسيلة لإطلاقه . ولكن القصة لا تنتهى نهاية سعيدة ، فقد اتفق العاشقان على أن القتل قد سمم غرامهما إلى الأبد .

لقد أصبح لوبى معبود مدريد بعد أن أخرج ألف مسرحية من هذا النوع . وأغدق عليه الخاصة والعامة الاعجاب ، وبعث إليه البابا بصليب مالطة ودرجة الدكتوراه فى اللاهوت . وكان إذا خرج إلى الشوارع تزاحمت حوله الجماهير التواقة للقائه ، وقبلت النساء والأطفال يديه طالبين منه

البركة . وأطلق اسمه على كل شىء تميز فى بابه : فهناك خيل لوبى ، وشمام لوبى ، وسيجار لوبى (٤٦) . أما الناقد الذى يجد فيه عيبا فيعيش كل يوم فى خوف الموت على يد أنصار الشاعر الأوفياء .

على أنه لم يكن سعيدا برغم هذا كله . كان ينقد أجرا لا بأس به عن مسرحياته ، ولكنه ينفق أو يهب ماله بمجرد كسبه ، وبعد أن أصاب هذا التوفيق الكثير أدركه الفقر واضطر إلى التماس المعونة من فليب الرابع — الذى أرسل له مهرا سخيا برغم أفلاسه . ولكن أحزانه كانت أفتك به من فقره . فقد دخلت ابنته مارثيلا الدير ، والتحق ابنه لوبى بالبحرية وغرق ، وهربت ابنته انطونيا مع كريستوبال تونوريو آخذة معها عددا كبيرا من تحف أبيها القيمة . وتبرأ منها لوبى ، وهجرها كريستوبال . ووقر فى نفس لوبى أن هذه المحن ليست سوى عقاب من السماء على آثامه ، فحبس نفسه فى حجرة وأضعف جسده بفرط الصيام حتى تلوثت الجدران بدمه . وفى ٢٣ أغسطس ١٦٣٥ نظم آخر قصائده « السجلو دى أورو » (القرن الذهبى) ومات بعد أربعة أيام وقد بلغ الثالثة والسبعين . ومشت نصف مدريد فى مشهده الذى عرج على الدير ليمكن ابنتــه من أن تقرئه تحية الوداع من نافذة صومعتها . وهكذا مُثّل تمجيد الناس له على هذا المسرح الشعبى الكبير .

إننا لا نستطيع أن نعتبره ضريبا لشيكسبير كما فعل فولتير . ولـكنا نقول فيه إنه بعبقريته العارمة ، وشعره الجياش ، وشخصيته المحببة المشرقة خلال ألف مسرحية ، ارتفع إلى ذروة العصر الذهبى الأدبية التى لم يطاوله فيها سوى سرفانتس وكالديرون .

٥ — كالديرون : ١٦٠٠ — ٨١

كان هناك كتاب آخرون تحدوا تفوق لوبى فترة وجيزة . ومن هؤلاء جويللين دى كاسترو (١٥٩٦) الذى ألف مسرحية « شباب السيد » ،

وقد فضلها بعضهم على مسرحية كورنى « السيّد » الأكثر شهرة . ثم لويس فيليزدى جويفارا الذى انقطع عن ممارسة القانون فترة أتاحت له تأليف أربعمائة تمثيلية ، ومنها « الديابلو كوخويلو » وهى المصدر الذى استقى منه لساج مسرحيته « الشيطان الأعرج » . كذلك عرض تيرسو دى مولينا فى برشلونه (١٦٣٠) مسرحية « ساحر اشبيلية والضيف الحجرى » التى ثبتت شخصية دون خوان مجدفا شهوانيا ، وزدوت موليير بحبكة مسرحيته « الوليمة الحجرية » وموتسرت بحبكة أوبراه « دون جوفانى » وأوحت إلى بيرون ملحمته « دون جوان » ففى هذه السطور القليلة لمحات عن التأثير الهائل الذى كان للمسرحية الأسبانية فى الخارج . وفى عام ١٨٠٣ فاجأ أوجست فلهلم فون شليجل ألمانيـا بإعلانه أنه ليس بين كتـاب المسرحيـة الحديثة من يعلو على بيذور كالديرون دى لاباركا سوى شيكسبير .

اختتم كالديرون العصر الذهبى وعمر بعده كما فعل موريللو . كان أبوه وزيرا للمالية على عهد فليب الثانى والثالث ، وتلقى فى سلامنكا كل ما استطاع اليسوعيون أن يعطوا ويسمحوا به من تعليم ، وقد كان للاهتمام الشديد بالدين فى تربيته أثر قوى فى تلوين عمله وحياته . درس القانون فى سلامنكا ، ولكنه هجره حين اكتشف أن فى قدرته الكتابة للمسرح بنجاح . وقد احتوت احدى تمثيلياته على اشارة شديدة الوضوح إلى الحشو الجونجورى الذى شاب عظات واعظ ذى نفوذ ، لذلك أودع كالديرون السجن حينا ، ولكن اسمه ذاع بين الناس . ونشر مجلد بمسرحياته ومنها « لافيدا ايس سوينو » (الحياة حلم) عام ١٦٣٦ فكفل له من فوزه مكان الصدارة فى المسرح الأسبانى . وعينه فليب فى ذلك العام ليخلف لوبى دى فيجا مسرحيا للبلاط . وفى عام ١٦٤٠ انضم إلى فرقة من الفرسان المدرعين واكتسب شهرة بفضل بسالته وشهامته فى ترجونا . وكثيرا ما استطاع الأديب فى أسبانيا — كما استطاع فى البلاد الاسلامية

— أن يحقق حلما يضمره ، وهو أن يكون رجل أعمال لا أقوال فسحب. على أن صحة كالديرون تداعت بعد اشتغاله بالحرب سنتين ، فتقاعد بمعاش حربي . ووجهه الحزن على فقد الأقرباء وجهة الدين ، فأصبح عضوا علمانيا في طائفة الفرنسكان ، ثم رسم قسيسا (١٦٥١) ، وظل عشر سنوات يخدم أبرشية في طليطلة وهو يواصل الكتابة للمسرح بين الحين والحين . وبعد أن نال كل ما تمنحه هذه الدنيا من مظاهر التشريف ، مات في الحادية والثمانين وهو وطيد الأمل في أن ينال المثوبة على تأليفه مثات « الفصول المقدسة » واكتفائه بخليلة واحدة دون سوها .

ومسرحياته الدينية أجمل ما كتب في بابها ، ففيها وجدت قدرته العاطفية سندا من تقواه الصادقة . وقد حظيت مسرحياته الدنيوية زمنا طويلا بشهرة دولية أوسع من مسرحيات لوبي ، لأنها تضارعها شعرا وتفوقها فكرا . وكان يعوزه بعض ما وهب لوبي من حيوية وتنويع هائلين ، ولكنه هو أيضا كتب هذا اللون من مسرحيات «العباءة والسيف» بحيوية ومهارة . ولا يستطيع ايفاءه حقه الكامل من التقدير سوى خبير باللسان القشتالي ، ولكنا نسجل هنا أن شاعرين من شعراء الانجليز شعرا بعبقريته وناضلا لابتعاثها من بوتقتها اللغوية . وأولهما شلي الذى ترجم بتصرف اجزاء من « الساحر الرهيب » ، وكان متفقا مع شليجل في رأيه في كالديرون ، والثاني ادوارد فتزجيرالد الذى حاول في كتابه « ست مسرحيات لكالديرون» (١٨٥٣) أن يفعل للمسرحي الأسباني — دون أن يوفق — ما فعله بعد ست سنوات لعمر الخيام بتوفيق كبير .

و « الساحر الرهيب» صورة محورة لاسطورة فاوست . هنا نرى فقيها شهيرا من فقهاء انطاكية يدعى كبريان يقطع مبارزة بين اثنين من تلاميذه يشتهي كلاهما خوستينا ، ويحملهما على أن يغمدا سيفيهما بعد أن يوافق على الذهاب إليها للتحقق من أيهما تختار . ويمضى إليها ، ولكنه يقع في غرامها لأول نظرة . أما هي فتطرده في ازدراء ، ثم نحن إليه ، وأما

الطالبان اللذان صدتهما أيضا فتعزيان باختها ليفيا ، ولكن كبريان لايقوى على تخليص ذاكرته من فتنة خوستينا .

رائعة الجمال هي —
وأنا نهب بين حبي وغيرتي ؛
يعتصرني الأمل والخوف ،
مهما بدا هذا شائنا —
ما أمر الحياة التي أحيا ،
فأنصتي الآن يا جهنم !
إنني لأبذل لروحك البغيضة
نفسي ترثينها إلى الأبد ،
وأحتمل العذاب والسقم ،
نظير أن أملك هذه المرأة(٤٧)

ويقول الشيطان « قبلت » ، ولكن خوستينا تستعصى عليه . وأخيراً يأتي بها إلى كبريان ، ولكن حين يحاول العالم ضمها إلى صدره ينكشف قناعها فلا يبدى غير جمجمة . ويعترف لوسيفر (ابليس) أن قوة المسيح وحدها هي التي استطاعت أن تجيز عليه هذه الحيلة . وأخيرا ، وبينما يساق كبريان وخوستينا إلى الاستشهاد المسيحي ، تعترف بحبها له .

ومن التمثيليات التي ترجمها فتزجيرالد ظفرت « عمدة سلامبا » بالاطراء الشديد لتفوقها التقني . ولكن لمسرحية «الحياة حلم» مسحات باطنة أكثر عمقا . فهي تنحى موضوعات الشرف والحب القديمة جانبا ، وتعرض على المسرح في جرأة مشكلة تكاد تكون شرقية : فالى أي حد تكون صروف الدهر وانتصارات الحياة دائمة وحقيقية ؟ ألعلها ليست سوى أوهام ، وخدع ؛ وجزء من القناع الذي يحجب ما خلفه من حقيقة جوهرية خالدة ؟ هنا نرى باسليوس ملك بولندة يسجن ابنه الحديث الولادة ، الذي تتنبأ الطوالع بتمرده على أبيه . ويربى سجسمولد في الأغلال وسط حيوات

الغابة ، ويشب أشد توحشا من أى وحش طليق . على أن الملك يلين في شيخوخته ، فيدعو ولده للحضور ومشاركته العرش ، ولكن سجسموند الذى لم يدرب على الحكم يقاتل بضراوة وفى عنف أخرق يكره أباه على تخديره حتى يخضع . فإذا أفاق وجد نفسه قد عاد إلى كهفه وأغلاله فى الغابة . ويقال له إن سلطانه الأخير لم يكن غير أضغاث أحلام ، فيصدق ، ويتكلم كما تكلم رتشرد الثانى المهزوم فى مسرحية شيكسبير :

لا ريب فى أن الحياة فى وميض
هذه الدنيا ليست سوى حلم !
يحلم النائم بما هو عليه ولا يفيق إلا
حين يفاجئه الموت بصبحه الحافل بالأسرار .
فالملك يحلم بأنه ملك ،
وعلى هذا النحو الخداع
يعيش ويحلم بسطوة الملوك ،
ولكن كل الهتافات التى تجلجل من حوله
تتخذ لها أجنحة وتطير فى الهواء
لأنها وليـــدة الهـــواء .
ثم يذيب الموت كبرياءه وأبهته .
فيحيلها — وا أسفاه — رمادا فى رماد .
فمنذا الذى يشتهى التاج
وهو يرى أنه لا محالة مفيق
من حلمه وراء باب الموت ؟
قصارى القول ان الناس فى كل الأرض
يحلمون أيا كان مولدهم . . .
فما الحياة ؟ خيال يتراءى ،
سراب يترقرق كاذبا ،

فرحة زائفة ، راحة خداعة ،
فالحياة على أحسن الفروض حلم ،
وحتى الأحلام ذاتها ليست غير أحلام(٤٨)

ثم يلقى سجسموند عنه وحشيته ، بانقلاب آخر علله المؤلف تعليلا شديد القصور ، ويغدو إنسانا عاقلا ، فإذا أجلسته الثورة على العرش أصبح ملكا صالحا ، واعيا فى تواضع بأن هذا الارتقاء هو أيضا حلم ، فقاعة تافهة فى زبد الحياة .

والخطب فى المسرحيـــة طويلة طولا مؤلمـــا ، وتزويق العبارات « الجونجورى » يفسد خمر الشعر ، ولكنها مسرحية قوية برغم هذا العيب ، تمزج الحركة بالفكر وتحتفظ بالتشويق الدرامى إلى النهاية . وأغلب الظن أننا لو كان لنا وطن وتعليم غير وطننا وتعليمنا ، ولو أتيح لنا الفهم الجيد للغة القشتالية ، لاعتبرنا هذه التمثيلية من أعظم التمثيليات فى العالم .

ويستحيل علينا الآن أن نستعين بالخيال لنقتلع أنفسنا من سجن زماننا ومكاننا ، وندرك قوة الدور الذى لعبته الدراما فى أسبانية القرن السابع عشر ، ومدى النفوذ الذى حظيت به . ففى إيطاليا كادت تطرد المأساة الإيطالية من خشبة المسرح . وفى فرنسا زودت بالحبكات كتابا كآردى وكورنيى وموليير وكثيرين غيرهم ، وقد صاغت شكل المأساة الفرنسية قبل راسين ، إذ شددت على الشرف وأسقطت البلاغة ه فإذا ذكرنا إلى ذلك كله تأثير سرفانتس وغيره من الروائيين الأسبان على لوساج وديفو وفيلدنج وسموليت ، ومن خلال هؤلاء على دكنز وتاكرى ، وإذا قارنا فن إنجلترة الاليزابيثية ، أو حتى فن فرنسا المعاصرة ، بعمارة أسبانيا ونحتها وتصويرها فى أوجها ذاك — إذا فعلنا هذا كله بدأنا هذا ندرك لم تغلو شعوب العالم الناطقة بالأسبانية فى الفخر بميراثها والاعتزاز بنفسها .

الفصل الثانى عشر

العصر الذهبى للفن الأسبانى (*)

١٥٥٦ — ١٦٨٢

١ — الفن واحد ، وألوانه ألف

ترى كيف نفسر هذه الظاهرة ، وهى أن أسبانيا استطاعت فى هذه الحقبة — بعد أن انتزعت منها انجلترة السيادة على البحر وفرنسا السيادة على البر ؛ وبعد أن بدا أن كل مشروعاتها المادية قد أصابها الفشل والافلاس — أن تبنى كاتدرائية سيجوفيا (سقوبية) ، وتوجه نحت هرنانديث ومونتانيس ، وتلهم تصوير الجريكو ، وثورباران ، وفيلاسكويز ، وموريللو ؟ ألأن الكنيسة الأسبانية ما زالت غنية ، والبلاط الأسبانى ما زال مسرفا ، والذهب الأمريكى ما زال يدخل اشبيلية ، والفنانين الأسبان الذين يغذيهم الإيمان والمال ما زالوا يحسون وهج مجد لم ينطفىء كله بعد ؟

كان أقل البهاء فى العمارة ، ففيها أشبعت انتصارات الماضى كل حاجات الاتقياء . وفى اشبيلية أعلنت الكنيسة نصرها على المغاربة بتتويجها مئذنة جامع للمسلمين ببرج مسيحى أكمل جمال الجيرالدا (١٥٦٧) ، وبعد سنة توج بارتولومى موريل البناء كله بتمثال « الإيمان » الذى يزن طنا ، ومع ذلك ففى توازنه من الخفة ما يتيح له الحركة مع كل هبة ريح ليشرف على ملكه المبجل . وفى بلد الوليد بدأ خوان دى هيريرا ، معمارى الاسكوريال ،

(*) كل الصور الأسبانية الواردة فى هذا الفصل معروضة فى « البرادو » ما لم ينص على غير هذا .

عام ١٥٨٥ بناء كاتدرائية « الصعود » الصارمة ، على نطاق مفرط فى السعة حتى أنها ما زالت بغير أثاث . وفوق تل يشرف على سيجوفيا بدأ قرنان من المعماريين والحرفيين عام ١٥٢٢ الكاتدرائية الضخمة التى ترمز فى كبرياء إلى ورع أسبانيا العارم الذى لا يتزعزع . وفى سلامنكا صمم خوان جوميث دى مورا « السيميناريو كونثيليار » الضخم لليسوعيين بالطراز الدورى البالاديوى مضافا إليه القبة .

ولكن حتى أسبانيا كانت تتجه إلى فن دنيوي — وكانت القصور كما كانت الكنائس تتطلب الفن . ففى أرانخويث بنى فليب الثانى (١٥٧٥) مصيفا يلوذ بحدائقه اللطيفة الجو من قيظ الاسكوريال ووقاره . وأضاف فليب الثالث قصر الباردو منتجعا له ولأصحابه ، وبهو السفراء المحلى بالزخارف فى هذا القصر مشهور بما حوى من ثريات . أما فليب الرابع وأوليفاريس فكادا يسبقان فرساى ببناء حديقة لهو عند بوابة مدريد الشرقية تدعى « بوين ريتيرو » (المنتجع الطيب) (١٦٣١ — ٣٣) . وفى مسرحها الملكى مثلث مسرحيات كثيرة للوبى وكالديرون . وشيدت فى هذه الفترة قاعات مدن فخمة بليون واستورجا ، وصمم الجريكو قاعة منهـا بطليطلة .

أما النحت فكاد يكون كله كنسيا فى الشكل والمزاج . لقد عدل الطراز القوطى بفعل التأثير الإيطالى والزخرف الباروكى ، ولكن التمثال النصفى الذى لقى اقبالا شديدا فى إيطاليا أعرض عنه الناس فى أسبانيا بتحريم يقرب من تحريم المسلمين للتماثيل . وساهم المصورون — حتى أساطينهم من أمثال ثورباران وموريللو — بفنهم ليجعلوا النحت يقر فى نفوس العابدين الواقعية التى صوروها فى تماثيل المسيح المصلوب والقديسين المستشهدين . وكانت كل التماثيل تقريبا من الخشب المتعدد الألوان . وفى رأى السير وليم ستيرلنج — ماكسويل ، العلامة الاسكتلندى الذى أولع بالفن الأسبانى وأرخ له بحولياته ، أن خوان دى خونى « أفضل المثالين الأسبان » [1]

وقد أذاع اسم خوان مذبح أقامه فى كنيسة « سيدتنا عذراء أنتيجوا » فى بلد الوليد ، وتمثال فى كنيسة أخرى هناك سماه « الأم المتألمة » اعتز به الناس اعتزازا حدا بهم فى عمق إيمانهم الحزين إلى التماس السماح لهم بإلباس التمثال ثيابا غالية . وهناك مثال آخر تضعه أسبانيا فى صف يعلو حتى عن مقـام خوان ، وهو جريجوريو هرنانديث ، هذا أيضا نحت تمثالا آخر للأم المتألمة ، وفى واقعية اختص بها رسم على ثوبها بقع دم ووضع دموعا من زجاج فى وجهها ؛ ولعل تمثال هذه الأم الحزينة ، والمسيح الميت مسجى على حجرها ، هو أسمى ما بلغه فن النحت الأسبانى فى هذا العهد .

وأعظم هؤلاء المثالين خوان مارتينيث مونتانيس . ولم يكن يجاوز الثامنة عشرة يوم وفد هو وزوجته (١٥٨٢) على دير « دولثى نومبرى دى خيسوس » فى إشبيلية ، وأهداه تمثالا للعذراء ، وعرفانا بصنيعه كوفئ بسكن مجانى مدى الحياة . وقد سر اليسوعيين بتماثيل نحتها لأغناطيوس وزافير ، وأبهج الرهبان الهيرونيميين بتمثال للقديس جيروم . ومازالت كاتدرائية إشبيلية تعرض تمثاله للمسيح المصلوب ، الذى قال فيه أحد المؤرخين إنه ربما كان أسمى تشخيص للضحية الإلهية [٢] « وحين فرض البابا بولس على جميع الكاثوليك الإيمان بعقيدة « الحمل غير المدنس » ، سعدت أسبانيا جدا بهذا القرار لأنها — كفرنسا — كانت تركز تقواها على العذراء . وارتفع مونتانيس إلى متطلبات الموقف ، فنحت رائعته (المحفوظة بكاتدرائية اشبيلية) — وهى تمثل « أم الإله » الفتية تتأمل سر خلوها من الخطيئة الأصلية ، هذا التمثال أيضا عد من آيات النحت العالمى [٣] ، ولـكن العذراء الأندلسية تبدو شديدة الهدوء والرضى ، وأن أثقلتها كثرة الملابس .

ولو توخينا الانصاف برغم الإيجاز ، لقلنا أن صورة الفن الأسبانى لا بد أن تعدد مفاخره الصغيرة وتحتفل بها : هذه المشبكات والأستار

والبوابات من الحديد أو البرونز ، والمحفورات الخشبية على كثير من حواجز المذبح فى الكنائس ، ومقاعد المرتلين كتلك التى نقشها بيدرو دى مينا لكاتدرائية ملقا ، والمصابيح ، والصلبان والكئوس ، والعلب ، والمظال المشغولة بالفضة أو الذهب ، كصناديق خوان دى أرفى العالمية الشهرة ؛ ثم التماثيل الصغيرة من الخشب أو العاج أو المرمر أو البرونز ، والمطرزات والموشيات التى ازدانت بها مذابح الكنائس وتجملت بها النساء ، وزجاج برشلونة المغشى بالمينا ، وآنية تلافيرا (طلبيرة) من الصفيح المزجج .

كادت الكنيســـة قبل مجىء فيلاسكويز أن تكون الراعى والحكم الأوحد فى التصوير . وكان من آثار الأحاسيس القاتمة التى اصطبغ بها اللاهوت والورع الأسبانيان ، والتى ربما كانت انعكاسا لصخور الإقليم الكثيبة وقيظه المحرق ، أنها لم تسمح إلا بالقليل من الفكاهة أو الخفة أو التأنق فى علاج الموضوعات ، وأنها حرمت تصوير العرايا ، واعرضت عن تصوير الأشخاص ومناظر الطبيعة ، وشجعت ضربا من الواقعية الجافية التى اتكأت على جوانب الإيمان المخيف أكثر من جوانبه المعزية ، فعلى الصور أن تقر العقيدة وتؤججها فى النفس بالخيال الملتهب والصرامة الديرية . وانتهى الأمر بأن المصورين أنفسهم رأوا الرؤى وادعوا الوحى الإلهى . وقد نافس فليب الثانى الكنيسة فى رعاية المصورين، ولكن موضوعات التصوير ظلت دينية ، وحين كلفهم النبلاء برسم صور كانوا عادة يتبعون القاعدة نفسها ، ولم يبدأ توجيه التصوير وجهة دنيوية إلا بفيلاسكويز وفليب الرابع . ودخلت بعض المؤثرات الأجنبية لتعدل من هذا التأثير الكنسى . مثال ذلك أن كاردوتشى وتسوكارو ونحو ثمانية عشر فنانا إيطاليا آخرين طعموا الفن الأسبانى بطابع أرق ؛ وقدم انطونيس مور من فلاندر عام ١٥٧٢ ، وتأثر الرسامون الأسبان الذين زاروا الأراضى المنخفضة بروح فانديك ، كذلك ناشد روبنز ، الممتلئ حيوية ومرحا ، الفنانين الأسبان حين اكتسح مدريد عام ١٦٠٣ ، أن ينظروا إلى الحياة لا إلى الموت .

وفضلا عن أئمة الفن الأربعة الذين هيمنوا على التصوير الأسبانى فى هذا العصر كان هناك كثير غيرهم أقل نبوغا ، كألونسو سانتشيث كوئيللو الذى رسم بالأسلوب الفلمنكى لوحات لابن فليب الثانى الصغير دون كارلوس وابنته ايزابل ، وتلميذ كوئيللو خوان بانتوخا دلاكروث ، الذى ترك لنا صورة قاتمة لفليب الثانى (٤) ، وأخرى قوية للقديس أوغسطين ، وفرانسسكو دى ريبالتا الذى يظهر أسلوبه « القاتم » ، أسلوب الضوء تحيط به الظلمة ، فى لوحة « القديس فرنسيس يعزيه ملاك » ، وفرانسسكو باتشيكو الذى علم فيلاسكويز ، وزوجه ابنته ، وشرح مبادىء التصوير الأسبانى فى كتابه « فن التصوير » (١٥٤٩) ، كتب يقول « إن أكبر هدف للفن أن يعزى الناس بالتقوى ويعطف قلوبهم نحو الله (٥) » . وفى عام ١٥١١ زار الجريكو فى طليطلة ، وأدن صور اليونانى لأنها « تخطيطات تحضيرية (٦) » فلننظر الآن فى هذا الحكم .

٢ — إلجريكو : ١٥٤٨ ؟ — ١٦١٤

كان فى كريت مسقط رأسه يسمى نفسه كرياكوس ثيوتوكوبولس — أى الابن الإلهى للرب ، وفى إيطاليا سمى دومنيكو تيوكوبولو ؛ وفى أسبانيا دومنجو تيوتوكوبولى ، وكان يوقع بالحروف اليونانية دومنيكوس تيوتوكوبولس ، واختزل الزمن اسمه إلى الجريكو ؛ وهو الكنية التى اشتهر بها فى أسبانيا . ولا نعرف شيئا عن حياته فى كريت . ولعل أجداده هاجروا إليها من القسطنطينية بعد أن فتح المسلمون هذه المدينة اليونانية (١٤٥٣) ؛ على أية حال كان يستطيع فى كريت ، كما استطاع فى البندقية بعد ذلك ، أن يشعر بتأثير الفسيفساء البيزنطية الصارم . وكانت كريت فى حياته ملكا للبندقية ؛ لا عجب إذن أن يستقل الفنان الصغير السفينة إلى مدينة البحيرات ، تجيش فى صدره الآمال بعد ما سمع عن بلوغ التصوير أوجه فيها ، وأغلب الظن أنه انضم إلى الجالية اليونانية الكبيرة فى تلك العاصمة العالمية .

ودرس على يد تتسيانو عامين أو أكثر ، وأعجب بفن تنتوريتو فى جمعه الوجوه فى صور مزحومة ، وربما سرى إليه ولع فيرونيزى بالثياب الفاخرة البهية . وقد نسخ الصور الشهيرة بتواضع صابر فى البندقية وريدجواميليا ، وبارما ، وفلورنسة ، ووصل إلى روما عقب وفاة ميكل انجلو (١٥٦٤) .

وأول ذكر محددلدينا عنه ورد فى خطاب كتبه جوليو كلوفيو إلى الكردينال أليساندرو فارنيزى فى ١٦ نوفمبر ١٥٧٠ يقول فيه

« وفد على روما شاب من كانديا ، تلميذ لتتسيانو ، ومصور ذو موهبة نادرة فى ظنى ... وقد رسم لنفسه صورة أطراها كل المصورين فى روما . وبودى لو شملتموه سيادتكم بالرعاية ، دون أى اسهام فى رزقه سوى اعطائه حجرة فى قصر فارنيزى » (٧) .

وقبل الكردينال ، وكافأ الجريكو كلوفيو بلوحة رائعة (٨) . وحين كثر اللغط حول العرايا فى لوحة ميكل انجلو « الدينونة الأخيرة » عرض دومنيكوان يرسم بدلا منها — إذا رفعت — لوحة أخرى لا تقل عنهـا اتقانا وتمتاز بتغطية الأجسام على نحو أفضل (٩) ، فسقط فى أعين فنانى روما . وأخبره بعض الأحبار الأسبان فى روما أن فليب الثانى يبحث عن مصورين لتزيين الاسكوريال . فرحل إلى أسبانيا عام ١٥٧٢ بعد أن نفض عن قدميـه غبـار روما ، ولكنه استبقى على فرشاته بعض انحرافات « اللازمية » الإيطالية .

وليس لدينا بعد ذلك عنه ذكر حتى عام ١٥٧٥ ، حين نجده يصمم ويزين كنيسة « سانتودومنجو الانتيجيو » فى طليطلة ، العاصمة الدينيـة لأسبانيا . فرسم لمذبحها لوحة « صعود العذراء » الفخمة التى تحتل اليوم مكانا بارزا فى معهد الفن بشيكاغو — وهى تحذو فى نواح منهـا حذو لوحة تتسيانو « الصعود » بالفرارى فى البندقية ، وتلتزم الأجساد الفتيـة المفعمة شبابا والرءوس الهرمة لحلياة التى درج عليها الأسلوب الإيطالى فى

التصوير . وفى عام ١٥٧٧ رسم لكاتدرائية طليطلة لوحة مشهورة سماها « تقسيم أثواب المسيح » وأخذت لجنة شكلت للحكم على الصورة عليها أن سترة يسوع فاقعة الحمرة ، وأن النساء اللاتى يرين فى أسفل اليسار — المريمات الثلاث — لا محل لهن هناك ، لأن الأناجيل ذكرت أنهن كن ينظرن من بعيد ، ومع ذلك أعلن القضاة حكمهم المتنبئ بأن الصورة « لا تقدر بثمن ، وأنها عظيمة القيمة [١٠] » . وكانت إحدى المريمات منقولة عن خليلة المصور ، واسمها الدونا خيرونيا دلاس كيفاس ، التى يظهر وجهها الحزين اللطيف فى معظم عذارى الجريسكو . وهو لم يتزوجها قط برغم وفائه لها وولائه للكنيسة ، ولم تكن هذه عادة أسبانية قديمة بل عادة تقدست طويلا فى مراسم الفنانين .

ووصف كاتب من الجيل التالى ، يدعى خوزيه مارتينيث ، دومنيكو بأنه أصبح الآن على ثقة من الخلود ، قال :

« لقد استقر . . . فى طليطلة ، وأدخل أسلوبا شديد الاسراف بحيث لم ير إلى اليوم له نظير ، ومحاولة البحث فيه تشوش أسلم العقول . . . وقد صرح بأن فنه لا يعلو عليه فن . . . وكان فى طبيعته من الغلو مثل ما فى فنه . . . كان يقول إنه ما من ثمن يمكن أن يوفى رسومه حقها ، لذلك كان يرتهنها عند أصحابها ، الذين يقرضونه عنها ما شاء عن طيب خاطر . وكان معماريا ذائع الصيت ، عظيم البلاغة فى أحاديثه . أما تلاميذه فقلائل ، لأن أحدا لم يشأ أن يأخذ بأسلوبه المسرف المتقلب الذى لا يصلح إلا له »[١١].

وحوالى عام ١٥٨٠ أرسل فليب الثانى فى طلب الجريكو ووكل إليه رسم لوحة « القديس موريس والفيلق الطيبى » وبعد جهد سنوات أربع قدم الفنان ثمرة تعبه للملك . غير أن فليب وجد تجميع الأشخاص شديد الاختلاط ، فدفع ثمن اللوحة ولكنه لم يقبلها ، وعاد الجريكو محزونا إلى طليطلة ، ولم يبرحها بعد ذلك قط فيما نعلم . . وكان ذلك خيرا له ، لأنه أصبح حرا فى أن يعود إلى طبيعته الصوفية .

ثم رسم لكنيسة القديس توما (١٥٨٦) أشهر صوره اطلاقا ، وكأنه كان بذلك يثأر لنفسه ،وهي إحدى ذرى فن التصوير . وقد اشترط العقد أن يبدى فيها الكهنة يحيون تقليدا يزعم أن القديسين هبطوا من السماء ليدفنوا الدوق جونزالو رويز ، كونت أورجاز ، وأن يمثل القديسان اسطفانوس وأوغسطين (في أثواب الأساقفة) وهما ينزلان الجثمان إلى قبره وسط جمع جليل من وجوه القوم ، وفوق هذه الوجوه تبدى السماء المفتوحة ابن الله في مجده وبهائه . كل هذا فعله بحذافيره وأكثر منه ، فكل رأس تقريبا لوحة كاملة الصقل . والأرواب معجزة من الذهب والخضرة والبياض ، والدرع الدمشقي الحلية الذي يلبسه الكونت يتلألأ ضياء ، زد على ذلك أن الجريكو نفسه يرى من خلف القديس اسطفانوس. أما آية هذه الآية فرأس القديس أوغسطين بقلنسوته ولحيته ، أم لعلنا نؤثر عليه الجثمان الجميل ؟ أم وجه القديس اسطفانوس الحلو ؟ أم الكاهن الأصلع يتلو صلاة الدفن ؟ أم خورجي مانويل ، بن الجريكو ذا الثمانية الأعوام ممسكا في فخر مشعلاومبرزا من جيبه منديلا ليظهر توقيع الجريكو؟ وفي كتاب فرانسسكو دى بيزا « تاريخ طليطلة » (١٦١٢) نقرأ ما كان ينبغي أن نحزره : « إن لوحة (دفن الكونت أورجز) هذه من أبدع الصور في أسبانيا بأسرها . والناس يؤمونها من كل بلد غريب ليعجبوا بها إعجابا خاصا ، وأهل طليطلة لا يملونها ، بل يجدون فيها على الدوام جديدا يتطلعون إليه . وفيها يرى الكثير من مشاهير الرجال في عصرنا مصورين تصويرا واقعيا[١٢]. » ومع ذلك كله راح مجلس الأبرشية يساوم على أتعابها ، فرفع اليوناني الحامي الطبع الأمر إلى القضاء ، وكسب دعواه ، وتسلم ألفي كراون .

إنه الآن لا يشكو قلة الطلب على رسومه ، فلقد وجد نفسه ، ولم يعد يفكر في تتسيانو ولا في تنتوريتو ، وقد استطاع أن يجري تجاربه في إطالة الأشكال ، لا لأنه يعاني من أي قصور في البصر ، بل لأنه

فى أغلب الظن شعر بأنه بهذه الطريقة قد يرمز إلى التسامى الروحى لأشكاله — أجسام تمددها نفوس تشرئب إلى السماء . وفى لوحتى القديس أندراوس والقديس فرانسيس المحفوظتين بالبرادو يبدو هذا التحول غير مفهوم ما لم نأخذ هذه الرمزية فى الاعتبار ، ونتذكر التماثيل القوطية التى ترقق مراعاة للقيود المعمارية . على أن هذا كله يغتفر للفنان حين نصل إلى لوحته «القديس الديفونسو» التى رسمها لمستشفى الكاريداد بإلليسكاس ، فهنا ، فى الروح الوقور الذى خلعه على رئيس الأساقفة الوسيط ، وفى عقله المستغرق ، ووجهه المتقشف ، وشعره الأبيض الناحل ، ويديه الرقيقتين — هنا تصور من أعمق تصورات الجريكو . « هذه الصورة وحدها تكفى جزاء وعوضا عن الرحلة إلى أسبانيا » (١٣) .

ولا يدلنا القليل الذى نعلمه عن حياة الجريكو على أنه كان متدينـا على الطريقة الأسبانية ، ويبدو أنه كان يميل إلى اللذة لا إلى الورع . فحين رسم لوحة « العائلة المقدسة » لمستشفى تافيرا خلع على العذراء جمال الجسد لا وفاء الأم . أما لوحة « الصلب » ففيها علم واسع بالتشريح ، ولـكنها باردة فى العاطفة ، وقد أحس جرونيفالد بمأساة الصلب تلك احساسا أعمق بكثير . ففى صوره الدينية لا يتجلى الجريكو إلا فى اللوحات العارضة — كما نرى فى صورته هوبلحيته البيضاء ورأسه الأصلع فى «يوم الخمسين». ولم يجد مشقة ، فى بلد يعج برجال الدين ، فى العثور على شخصيات قوية يصورها ، كصديقه بارافيثينو الثالوثى (بوسطن) بوجهه نصف العـالم ونصف عضو محكمة التفتيش ، أو رئيس المحكمة نفسه، الكردينال نينودى جيفارا (نيويورك) — وصورته لا ترقى إلى صورة فيلاسكويز التى رسمها لانوسنت العاشر . وقد تجاوزها الجريكو ذاته فى لوحة « كردينـال تافيرا » الذى نرى فى وجهه المضنى — وكله عظام وعيون حزينة — تعبيرا آخر عن تصور الفنان لتكريس الكاهن نفسه لخدمة الدين . ولكن خير اللوحات كلها لوحات الأخوين كوفاروبيا : فواحد - وهو انطونيو — علمانى ،

أشيب ، متحرر من الوهم ، مرهق ، صفوح ، والآخر — دييجو — فى ثوب الكاهن ، ولكنه يبدو أشد اقبالا على الدنيا ، وأكثر مرحا ، وحسن التكيف مع محيطه . ولا يفوق هذه الدراسات العميقة سوى بعض لوحات رمبرانت وتسيانو ، ولوحة رفائيل « يوليوس الثانى » .

وهى بعض الذخائر التى يضمها متحف كازا ديلجريكو فى طليطلة . وفيه أيضا « تصميم مدينة طليطلة » ، وهو يشرف هنا على المدينة كلها وعلى التلال التى تكتنفها وكأنه يطل عليها من سحابة . وقد صورها مرة أخرى فى أخريات عمره فى لوحة « منظر طليطلة » ومن فوقها سماء عاصفة (نيويورك) — صورة تأثرية تزدرى الدقة الواقعية كل الازدراء . وحين أقبل عام ١٦٠٠ ، كان « اليونانى » قد أصبح من أشهر مواطنى المدينة ، يعرفه الجميع بروحه المتقلبة المتكبرة ، صوفيا بستطيب المال ، يشغل أربعا وعشرين حجرة فى قصر عتيق ، يستأجر الموسيقيين ليعزفوا له خلال تناوله الطعام ، ويجمع من حوله مثقفى طليطلة ، ويكرمه الناس بوصفه « فيلسوفا كبيرا ».(١٤) وحوالى عام ١٦٠٥ رسم صورة يفترض أنها صورته الذاتية (نيويورك) — أصلع ، أشيب ؛ يكاد يكون أعجف . وفى عام ١٦١١ وجده باتشيكو فى حال من الهزال أعجزته عن المشى . ولم يستطيع دفع ديونه وإن احتفظ بغرفه الأربع والعشرين ، وقرر له مجلس المدينة مبالغ كبيرة غير مرة . ومات عام ١٦١٤ وهو فى الثالثة والسبعين .

أما مقامه فى دنيا الفن فمغامرة تالية لموته . كتب عنه جونجورا سونيتة مديح ، وأقر فيلاسكويز بعبقريته ، ولكن فنه الغريب لم يوح بأى محاكاة له ولم يؤسس أى مدرسة . ولم تأت سنة ١٦٥٠ حتى تاه أمام بهاء شهرة فيلاسكويز ، وطواه النسيان تقريبا مدى قرنين ، ثم اكتشفه دلاكروا من جديد ، واحتذى ديجا ومانيه وسيزان طريقته فى التعبير عن الحالات النفسية ، ورأى فان جوخ وجوجان فيه سلفا لهما . وفى عام ١٩٠٧ رفعت « الرحلة الأسبانية » التى كتبها « يوليوس

مايير جريفى » الجريكو فوق فيلاسكويز إلى أعلى ذرى التصوير الأسبانى . على أن هذه الذبذبات فى الشهرة قلقة لاثبات لها لأنها عرضة لـ « تقلبات الذوق الجامحة » (١٥) . ولكن الجريكو سيظل قرونا طوالا المثال الحافز للفنان الذى جاوز الأشياء إلى الأفكار والمشاعر ؛ وجاوز الأجساد إلى الأرواح .

٣ — ثورباران : ١٥٩٨ — ١٦٦٤

وبعد الجريكو ظل فن التصوير الأسبانى جيلا لا يتحرك ولا يظهر فيه غير رجال أقل كفاية بذلوا ما وسعهم من جهد ثم اختفوا . وإذا فنانان يظهران فى آن واحد تقريبا ، هما فرانسسكو دى ثورباران وديجو ڤيلاسكويز ، ويفيضان فنهما العظيم على أسبانيا . وقد ظلا ثلاثين عاما يكمل الواحد منهما صاحبه . فثورباران يرسم كأنه راهب يدفعه الخوف إلى العبادة ، ويقترب بصلاته من الله ، وفيلاسكويز يلقى النجاح فى الدنيا ويلصق بمليكه .

أما ثورباران فقد عمد فى فوينتى دى كانتوس ، بجنوبى أسبانيا الغربى ، فى ٧ نوفمبر ١٥٩٨ ، ابنا لصاحب حانوت أتيح له من النجاح ما مكنه من إرسال ولده لينمى موهبته فى اشبيلية . وبعد عامين من الدرس وقع أول صوره المؤرخة (١٦١٦) ، وهى صورة للحمل غير المدنس . كان خليقا بها أن تقضى على مستقبله . وبعد سنة انتقل إلى ليريما ، على خمسة عشر ميلا من مسقط رأسه . وكانت المنطقة آهلة بالأديرة والكنائس والصوامع ، ومنها تلقى فرانسسكو مهامه المتواضعة وإلهاماته . وهناك تزوج ماريا بيريز ، وكانت تكبره بتسع سنين ، لكى يضفى الشرعية على ولده منها ، وقد ماتت بعد أن أنجبت له طفلين آخرين . وفى عام ١٦٢٥ تزوج أرملة تكبره بعشر سنين ، ولكن لها صداقا مغريا ، فولدت له ستة ، مات خمسة منهم فى طفولتهم . وبعد موتها تزوج بأرملة غنية ، فأنجبت له ستة ، مات منهم خمسة فى طفولتهم . وهكذا جاهد الحب لكى يتقدم الموت بخطوة .

أما في الفن فقد بدأت فترته الخلاقة بعقد كلف فيه بأن يرسم في ستة أشهر إحدى وعشرين صورة لدير دومنيكي بأشبيلية يدعى سان بابلو الريال (١٦٢٦) . وبعد أن أنجز ثوربارا ن هذه المهمة زار مدريد فيما يبدو ، وأحس بتأثير فيلاسكويز . وكانت صوره حتى ذلك الحين تعكس أسلوب كارافادجو القاتم الضخم ، وربما أسلوب ريبرا أيضا ، فأضاف الآن إلى طبيعيته الخشنة نعومة جديدة في الظلال ورهافة في الصقل ؛ وبعد قليل نلقاه في إشبيلية يرسم اثنتين وعشرين لوحة قماشية هائلة للرهبان « المرسيداريين » — (أي رهبان سيدتنا الرحيمة) خصصت لافتداء المسيحيين الأسرى . والصور الأربعة الباقية من هذه المجموعة ليست من الروائع ، ولكن في واحدة منها وجها صبيانيا تعيه الذاكرة لعله وجه خوان ابن الفنان ؛ ولا بد أن اشبيلية أحبت هذه الصور ، لأنها طلبت إلى فرانسسكو رسميا عام ١٦٢٩ أن يجعل فيها مقامه — «إن اشبيلية تشرف ... لأن التصوير من أهم ما تزدان به الدولة [١٦] » . وقبل ثورباران العرض ؛

وفي عام ١٩٣٠ رسم لكنيسة سان بونافنتورا الفرنسيسكانية طائفة من أروع صوره . ومنها صورة « القديس بونافنتورا يشير للقديس توما الأكويني على الصليب » ، ترى فيها اللاهوتي العظيم — ممثلا على هيئة راهب دومنيكي لسوء الحظ — ينبهه القديس في رفق إلى أن الدين ليس قوامه النظرية الفلسفية بل تأمل المسيح . وهذه الصورة — وهي الموضوع الذي يتردد في ثورباران — سرقها المارشال صولت من أسبانيا (١٨١٠) ووجدت طريقها إلى متحف القيصر فردريك في برلين ، ثم أتت عليها الحرب العالمية الثانية . وصورة أخرى في هـــذه المجموعة ، « القديس بونافنتورا على نعشه » ، أخذها صولت أيضا ، بيعت للوفر عام ١٨٥٨ وما زالت هناك ؛ والوجوه الأربعة التي إلى يسارها رائعة . وأروع من هذه « تمجيد القديس توما الأكويني » التي رسمها ثورباران لكلية دومنيكية بأشبيلية ؛ والفكر ينتقل في دهشة من وجه عميق إلى وجه آخر —

أمبروز ، وجريجورى ، وجيروم ، وأوغسطين ، وشارل الخامس . ولكن خيرونيمو فيلاسكويز كان ينقد على الإطار وحده ستة أمثال ما ينقده ثورباران على الصورة .

وحين انتقل المصور المشغول إلى كنيسة القديس البرتو الكرملية ، رسم القديس فرانسيس مستغرقا فى صلاته بخشوع ، والقديس بطرس توما ، راهبا كثير التجاعيد أضناه طول انتظار الفردوس . ولما عاد إلى دير المرسيداريين (١٦٣١) صور بعضا من أجلّ رهبانه ، ومن هذه الصور صورة « فراى بيدروما تشادو » وتكاثر عليه الطلب خلال سنة ١٦٣٣ : اثنا عشر رسولا لكنيسة فى لشبونه ، وثلاث صور للكارثوسيين بأشبيلية ، وعشر لمصلى القديس بطرس فى الكاتدرائية الكبرى ، واحداها — القديس بطرس نادماً — الموجودة إلى اليوم فى مكانها الأصلى ، تجربة مدهشة فى الواقعية ؛ ربما رسمها وهو يذكر ريبيرا .

وتعاظم الطلب على ثورباران الآن حتى وكل معاونيه بالكثير من أعماله . رسم لدير جوادالوبى فى استريمادورا صورة « إغراء القديس جيروم » ، ورأس القديس ويداه فى هذه الصورة من أعاجيب التقنية ، أما السيدات الرقيقات عازفات الموسيقى فليس من الانصاف أن يقاوم اغراؤهن . وطلبت صور الفنان حتى من بيرو وجواتيمالا ، وذهبت سلسلة من صور الرسل إلى ليما ، وأخرى إلى أنتيجوا ، وأرسلت إلى المكسيك لوحة « المسيح فى عمواس » ، التى تصور المسيح المقام فلاحا سليم الجسم سعيد النفس يتناول طعامه . وبعض هذه اللوحات القماشية أدى فى عجلة أو قام به معاونوه ، وقد اضطر ثورباران لمقاضاة ليما حتى يحصل على أتعابه .

ومنذ عام ١٦٤٥ بدأ الفنان الشاب موريللو يتحدى مكانته الرفيعة فى اشبيلية ، فزود الكنائس والأديار بصور تمثل قصة المسيحية بلغ من رقتها أنها هوت بالطلب على واقعية ثورباران المقلقة : وحاول المصور المكتهل

أن يلطف من مرعباته ، وكافح حينا ليبارى موريللو فى عاطفته العائلية الورعة ، كما نرى فى لوحته « العذراء والطفل مع القديس يوحنا » (المحفوظة بسان دييجو فى كاليفورنيا) ، ولكن هذا الأسلوب الجديد كان غريبا على فنه ومزاجه . وعلى ذلك شد رحاله إلى مدريد عسى أن يستقيم له الأمر ، ولكن فليب الرابع ، المفلس ، لم يجد ما يكلفه به خيرا من زخرفة كوخ صيده . وكان فيلاسكويز كريما معه ، ولكنه مات فجأة . وعمر ثورباران بعد موت صديقه وزوال شهرته .

ولم يكد صيته يجاوز جبال البرانس ، حتى استلطف قواد نابليون صور رهبانه الضخام وقديسيه العابثين فخطفوا بعضها وأتوا بها إلى فرنسا . ولما أتبعت الأديرة الأسبانية للدولة عام ١٦٣٥جلب المزيد من صوره إلى باريس ، وفى عام ١٨٣٨ افتتح الملك لوى فليب فى متحف اللوفر قاعة أسبانية تضم أربعمائة لوحة نسبت ثمانون منها لثورباران . والذوق الفنى فى أيامنا هذه يجد رقعته شديدة الضيق مغرقة فى الديرية ، ويجد روحه مغالية فى الكآبة والتفكير . ونحن نفتقد فيه صعاليك موريللو وفلاسفة فيلاسكويز وأميراته الجميلات . ومع ذلك ففى فنه اخلاص مكين ، وتفان عميق ، وقوة فى اللون والشكل ترفعه فوق دنيا الميول العابرة وتكفل له مكانه فى ذاكرة البشر .

٤ — فيلاسكويز : ١٥٩٩ — ١٦٦٠

كان جده لأبيه نبيلا برتغاليا رحل عن أوبورتو إلى اشبيلية بعد أن فقد كل ثروته . وولد الفنان لخوان دى سيلفا والدونا خيرونيما فيلاسكويز ، فى السنة التى ولد فيها فان ديك ، وبعد مولد ثورباران وبرنينى بعام ، وقبل مولد موريللو بثمانية عشر عاما . وسمى دييجو رودريجيز دى سيلفا إى فيلاسكويز ، وقد ألف أن يسمى نفسه باسم أمه ، وهى عادة شائعة فى جنوبى أسبانيا . وحظى بتعليم جيد ، وتعلم شيئا من اللاتينية والفلسفة ، وجرب دراسة العلوم حينا . ثم اتجه إلى التصوير ، فدرس فترة وجيزة

على خوان دى هبريرا وفترة أطول على باتشيكو . يقول باتشيكو « زوجته لابنتى بعد أن أغرانى شبابه ونزاهته وخصاله الحميدة وما يرجى لنبوغه الطبيعى العظيم من مستقبل مرموق[١٧] » .

وأقام فيلاسكويز مرسمه الخاص ، وسرعان ما لفت النظر بايثاره للمواضيع الدنيوية . وقد اختلط بالدهماء ، وكان يغتبط بنقل أفكارهم وترجمة حياتهم إلى وجوههم . ورسم وهو بعد فتى فى العشرين لوحة رائعة سماها « سقاء إشبيلية[١٨] » . هنا ، فى ثوب رث وفى صبر جميل ، صورة للفقر مع الأمانة . وفى عامه الثالث والعشرين صور الشاعر جونجورا (بوسطن) ببصيرة اكتمل نضجها — فالعينان والأنف نافذة إلى صميم الحيـــاة .

وأكبر الظن أن هذا العمل قام به فيلاسكويز خلال زورته الأولى لمدريد (١٦٢٣) . لقد كانت اشبيلية وكهانها أضيق من أن يتسعا لبوغه ، وساقته فورة من الطموح إلى العاصمة فانطلق إليها يتأبط « سقاءه » . هناك حاول التقرب من البلاط ولكنه لم يفلح . ذلك أن فليب الرابع وأوليفاريس كانا مشغولين بالسياسة والزيجات والحروب ، وكان هناك أكثر من عشرة فنانين يتسلقون نفس السلم . وقفل دييجو إلى إشبيلية . وانقضى عام ، ثم وفد الأمير تشارلز ستيوارت على مدريد ، وتودد إلى احدى بنات الملك ، وأبدى تذوقا للفن ، فأرسل أوليفاريس فى طلب فيلاسكويز . وركب الفتى الأسود العينين والشعر إلى العاصمة مرة أخرى ، فعين مصورا للبلاط ، واستهوى الملك إذ صوره خيالا باسلا يمتطى فرسا يطفر ، ولم يقنع فليب بالجلوس أمام فيلاسكويز ليصوره مرارا وتكرارا ، ولكنه شجع الأسرة المالكة (الاخوة والزوجات والأطفال) ورجال البـــلاط (الوزراء والقواد والشعراء والمضحكين والأقزام) أن يجلس كل بدوره أمام هذه الريشة المخلدة . وأعطى دييجو مرسما فى القصر الملكى ، وفيه ، أو على مقربة منه ، أنفق أكثر السنين السبعة والثلاثين الباقية من عمره . لقد كانت فرصة رائعة ، وكانت سجنا مضيقا للأفق .

على أن مؤثرين كبيرين وسعا من أفقه . ذلك روبنز ، أشهر الفنانين فى العالم يومئذ ، زار مدريد مرة أخرى عام ١٦٢٨ — وكان إمام الضوء والظل ، والمصور المستهتر للأرباب الوثنية والأجساد العارية الشهوانية . وتأثر فيلاسكويز بفن روبنز ، ونصحه هذا بأن يذهب إلى إيطاليا ، وإلى البندقية خاصة ، ويدرس أعمال نوابغ التلوين . والتمس دييجو الاذن من فليب ، فمنحه أجازة وأربعمائة دوكاتية ثمينة لنفقات الرحلة . وقد نحيط بمثال من سرعة الانتقال بالبحر فى ذلك العصر إذا عرفنا أن فيلاسكويز غادر برشلونة فى ١٠ أغسطس ١٦٢٩ ، ووصل جنوة فى ٢٠ أغسطس . ثم عبر إيطاليا إلى البندقية وجلس أياما يتأمل اللوحات القماشية العظيمة التى رسمها تنتوريتو وفيرونيزى ، وصور الأشخاص والأساطير التى رسمها تتسيانو . ثم انتقل إلى فيرارا وروما ، ونسخ صور التماثيل الرخامية القديمة فى ساحة روما العامة ، وحسد ميكلانجلو على رسمه الصور الجصية على سقف كنيسة السيستين الصغيرة . وقد أعانت هـذه الصور الفخمة فيلاسكويز على الانتقال من ظلال كارفادجو القاتمة إلى تصوير أكثر حدة للاشكال فى الضوء الواضح . ثم رحل إلى نابلى ابزور ريبيرا ، ومنها قفل راجعا إلى أسبانيا (يناير ١٦٣١) .

ترى أهو الغرور — ذلك الظل المساند لكل نفس — الذى دفع فليب ليجلس المرة بعد المرة إلى فنان أوتى مثل هذه النظرة الثاقبة والصدق المدقق ، أم كان الدافع له أن يهدى صورته لمن يطلبونها من أصحابه ؟ ولكنه تحول مؤسف ذلك الذى نلحظه على هيئته ، فصورة الشاب الفارع الطول الرشيق القوام الذى يبدو فى اللوحات الأولى تستحيل فى النهاية إلى صور رجل غاض اللون من وجهه وصبغ به شعره ، وأوتقراطية قائمة تتشبث بالبقاء — على الرغم من الزمن والهزائم — فى العيون الزرقاء الباردة والذقن الهابسبورجى الملتف . وإذا كانت السطحية عيب هـذه الصور الملكية ، فلعل السبب أنه لم يكن هناك شىء تحت السطح الظاهر . فإذا

كان هناك شيء ما ، كما فى صور جونجورا وأوليفاريس ، فإنه ينبعث على القماش .

وتخللت صور الملك صور للملكة ايزابيللا ، ثم للملكة ماريانا ، ثم للملكة ماريا المجرية أخت فليب ، وكلهن جلسن إلى المصور دون أن تحقق صورهن نتائج باهرة . واتخذ أخو فليب الأصغر ، الكردينال الأمير فرديناند ، زى الصياد يرافقه كلب كله عضلات وأعصاب ووفاء يقظ أما أوليفاريس فقد امتطى فرسا أدهم ليصور صورته المحفوظة بالبرادو ، وجوادا أبيض بنفس الوضع بصورته المحفوظة بمتحف المتروبوليتان للفن فى نيويورك ، غير تارك مجالا للشك فى هوية من يملك الزمام فى أسبانيا . وألطف صور الحاشية هذه صور الدون بالتازار كارلوس الصغير ، الذى كان مناط آمال الأسرة المالكة . وقد رسم فيلاسكويز هذا الطفل الجميل المرة بعد المرة فى اغتباط واضح ، مرة فى ١٦٣١ ومعه قزم تابع(١٩) ، ومرة فى ١٦٣٢ بعد أن أصبح فتنة البلاط(٢٠) ، ومرة فى ١٦٣٤ وهو يلوح بعصا المرشالية ، ممتطيا فى كبرياء جوادا ضخما (وهو بعد فى الخامسة) ، ثم صيادا يمسك بندقيته بعناية ، ولكن واضح أنه أرق من أن يقتل أو يحكم ؛ وفى هذا الوجه البرىء خير رد على أولئك الذين رأوا أن فيلاسكويز لم يرسم غير السطوح . وهكذا جاءت صور السلسلة تترى ، من سنة كارلوس الثانية إلى سنته السادسة عشرة ، حين أصابت الحمى الأمير المحبوب وقضت عليه .

أما القزم الذى يرى فى إحدى هذه الصور فكان من عدة أقزام أعطوا الفاشلين فى بلاط فليب شعورا معزيا بالتفوق والعظمة . كانت عادة منحدرة من روما الأمبراطورية ومن الشرق الأقدم منها . وحتى البلاط البابوى كان فيه أقزام ؛ وقد جمع الكردينال فيتيللى منهم أربعة وأربعين ليخدموا ضيوفه . وأهدى دوق بكنجهام الملكة هنريتا ماريا فطيرة احتوت قزما طوله ثمانى عشرة بوصة (٢١) . وكان أقزام فليب الرابع يلبسون الثيـــاب

الناخرةالتى تتألق بالجواهر والذهب ارضاء لهم وتسلية للناس . أما فيلاسكويز فقدصورهم بروح العطف والمرح ؛ فواحد منهم،اسمه انطونيو الانجليزى ، يبدى فى كبرياء طوله عن كلبه وإن كان دونه جمالا ؛وآخر اسمه سباستيان دى مورا يعبس فى لحيته الضخمة ويزم قبضتيه سخطا على قدره . كذلك كان فى البلاط مهرجون ، رسم فيلاسكويز منهم خمسة ، واحدا منهم ، صورته تسمى « الجغرافى (٢٢) » لأنه يشير إلى الكرة الأرضية ، يبدو أكثر تفكيرا من أوليفاريس ، وثانيا يسمى بارباروسا يستل سيفا رهيبا؛ وثالثا ارتدى زى دون جوان النمسوى ،ورابعا يحاول حمل كتاب ضخم، وخامسا تسمى صورته « الأبله » يبدو عليه جنون لا يؤذى ، بل يكاد يكون لطيفا .

وجد فيلاسكويز تفريجا من البروتوكول — برغم كونه دائما رجل بلاط وجنتلمانا لا تخطئه العين — فى دراسة حياة العامة الأجلاء الذين لا يزالون زينة المشهد الأسبانى . ففى بواكير اشتغاله بالتصوير (١٦٢٩) اقنع شابين جميلين وستة من الفلاحين بأن يجلسوا إلى صورة «السكارى»، وفيها باخوس عار تقريبا ، جالس فوق برميل ، يتوج بالكروم شخصا راكعا ، بينما تجمع حولهما عشاق للكرمة أجلاف ،أضنى بعضهم الكد، وأشاب بعضهم الزمن ؛ ولعل هذه هى الخمرية الخالدة الوحيدة فى الفن الأسبانى خلال القرن الذهبى . وأعجب حتى من هؤلاء السكارى لوحتان سمى فيلاسكويز الأولى « ايزوب »ـ، وهى صورة مؤلف حزين عجوز ، مملق نصف أعمى ، يحمل قصصه الخرافية عبر السنين ، والثانية «منيبوس» وهى صورة فيلسوف كلبى من فلاسفة القرن الثالث ق . م . ، هذان وجهان يعلقان بالذاكرة . ولا يقل عن هذا كله ما تركه لنا فيلاسكويز من صور الحيوان ؛ جياد تبدو لنا اليوم ثقيلة الحركة لضخامتها ، ولكن يعوض عن عيبها رءوس تختال وعيون تلمع ، ورأس غزال عليه سيماء الفلسفة ، وقد استسلم لوحشية البشر ، وكلاب متحفزة للجرى والوثب ، أو يقظانة نائمة .

تلك كانت الأعمال الجانبية التى تسلت بها ريشة فيلاسكويز ، رغبة تخففاً من مخاطر تصويره لكبار الحاشية دون أن ينال منهم المدح والثناء . وقد يزيد تقديرنا الأسبان القرن السابع عشر حين نرى هؤلاء النبلاء يرتدون الأثواب المتواضعة ، ومع ذلك يواجهون بأيمان فخور عالما بدا فيه وطنهم الحبيب عاجزا مشلول الحركة لما أصابه من انحلال . فالدون دييجو دبل كورال أى أريللانو ، والكردينال جاسبار دى بورخا أى فيلاسكو (٢٣) ، والنحات القوى البدن مونتانيس ، وفارس سنتاجو الشامخ (٢٤) ، وفرانسسكو دستى الثانى ، الحلو الحيى ، والدون خوان فرنسسكو بيمنتال الفخم المهيب — تلك صور تنفذ إلى صميم النفس . وإذا كانت « صورة رجل » المحفوظة فى قاعة كابيتوليني بروما هى حقيقة صورة فيلاسكويز نفسه ، كان مستحيلا على الناظر إلا أن يحبه — بشعره المجعد فى إهمال ، وثوبه المتواضع ، وعينيه الرقيقتين المفكرتين .

ويعجب المرء كيف زحم رجال الحاشية فى صور فيلاسكويز الكنيسة والموضوعات الدينية المقدسة ليحلوا محلها . لم يكن فى استطاعته أن ينافس الجريكو أو ثورباران فى رسم شيوخ الرسل والقديسين بتجاعيدهم الكثيرة ، ولم تنبعث قدراته كلها إلا فى صورة « تتويج العذراء » دون سائر صوره الدينية . فلقد كان اغتباطه أعظم بالمناظر الدنيوية . وفى صورته « لاس لانثاس » ، والمشهورة باسم « استسلام بريدا » بسط نفسه على اللوحة بسخاء ، فجعلها من أوسع اللوحات فى تاريخ الفن (١٢٠ بوصة × ١٤٤) ، ولكنها أيضا من أغناها تفاصيل . وبيان ذلك أن أمبروزيو دى سبينولا كان قد استرد للأسبانيا خلال الحرب الطويلة التى خاضتها ضد ثوار الأراضى المنخفضة مدينة بريدا الاستراتيجية فى برابانت الشمالية . والتقى فيلاسكويز بسبينولا عام ١٦٢٩ أثناء رحلته عائدا من إيطاليا ، ووقع من نفسه موقعا جميلا ذلك النبل الفروسى الذى اتسم به القائد الكبير ، فسجل هذا كله فى رائعة بدا فيها الرماحون الأسبان المنتصرون يرفعون حرابهم عاليا ، والمدينة

تحترق ، والقائد المهزوم المستسلم جوستين الناساوى يقدم مفاتيح [المدينة إلا سبينولا ، والفاتح الشهم يهنىء الرجل المغلوب على بسالة دفاعه : ولقد حقق فيلاسكويز فى مفارقات اللون العجيبة وفى تمييز كل فرد من الأتباع ، نصرا أسعد فليب الرابع أن يعرضه فى قصر بوين ريتيرو .

وفى عام ١٦٤٩ دفع فليب نفقات زيارة فيلاسكويز الثانية لإيطاليا مكافأة له على جهد ستة وعشرين عاما ، وكلف الفنان بالحصول على مصبوبات من التماثيل الكلاسيكية وبشراء لوحات بريشة أئمة الفن الايطاليين. ووجد فيلاسكويز أن الأسعار قد شطت ، وكاد يستحيل شراء أى أثر كبير للفانين البنادقة العظام بأى ثمن ، واضطر أن يدفع ٠٠٠ ر ١٢ كراون (٠٠٠ ر ١٥٠ دولار ؟) ثمنا لخمس صور . فهل كان أصحاب الملايين وغيرهم قد أخذوا يستغلون الفن وقاء من التضخم المالى ؟

أما خير صورة رسمت فى إيطاليا فى ذلك العام (١٦٥٠) فصورة فيلاسكويز لانوسنت العاشر. وحين ارتضى البابا أن يجلس إلى الفنان ليصوره ، وشعر هذا بقصور فى التمرين ، نشط يده وعينيه برسم صورة لعبده الخلاسى ، خوان دى باريخا (*) . (٢٦) ولقيت الصورة الاستحسان العام من فنانى روما ، الذين بادروا بانتخاب فيلاسكويز عضوا فى أكاديمية القديس لوقا . ولم يتح له البابا غير بضع جلسات ، وقام فيلاسكويز بدراسات مبدئية للرأس ، وتكاد واحدة منها — محفوظة بالقاعة الأهلية بواشنطون — لا تفرق العين بينهما وبين اللوحة النهائية التى توارثتها أسرة دوريا التى انتمى

(*) بعد أن أنفق باريخا سنوات فى تحضير فرش فيلاسكويز وألوانه ولوحاته ، وملاحظة عقله وعمله ، راح يستعمل هذه المواد بنفسه سراً ، وأخيراً أجاد التصوير إجادة حملت فليب الرابع على عتقه بعد أن حسب إحدى لوحات باريخا من عمل فيلاسكويز . ومع ذلك بقى خوان تلميذاً وخادماً فى أسرة المصور حتى مات (٢٧) .

إليها البابا ؛ وقداحتفظ بها فى قصر دوريا بامفيلى ، حيث حكم رينولدز حين رآها بأنها « أبدع صورة فى روما » (٢٨) . وحين يتطلع المرء إليها اليوم يشعر بأن فيها قوة ، سواء فى الشخصية أو فى الفن ، تضعها مع لوحة « يوليوس الثالث » لتتسيانو ، فى مصاف أروع الصور فى جميع العصور . وكان انوسنت العاشر فى السادسة والسبعين حين جلس إلى صورته تلك ، وقد مات بعدها بخمس سنين . وقد يخطئه الناظر فيحسبه أحد كبار قطاع الطرق الذين كدروا صفو كثير من البابوات ، لولا ثوب البابوية وخاتمها ، ولكننا حين ندرس تلك الملامح القاسية الحازمة ندرك أن انوسنت كان ما يجب أن يكون — حاكما يحكم دولة من الإيطاليين المتمردين ، وحبر يقود كنيسة من المسيحيين غير المتخلقين بخلق المسيحية ، المنتشرين من روما إلى الفلبين ، ومن روما إلى براجواى ، ولقد كان عليه أن يضع حديدا فى دمه ، وفولاذا فى عينيه ، وجبروتا فى طلعته ، وقد رآها كلها فيلاسكويز ثم سجلها على لوحته . وحين رأى البابا الصورة علق عليها تعليقا ساخرا واحدا : « إنها صادقة جدا ! » (٢٩) واعترف فنانو روما بتكوينها المتماسك ، والانسجام العجيب بين ألوانها الحمراء والبيضاء والذهبية ، والنظرة الشكاكة الفاحصة الجانبية تنبعث من عينين رماديتين زرقاوين ، وحتى اليدين المنبثتين بقوة الشخصية . وحين رحل فيلاسكويز عن إيطاليا (يونيو ١٦٥١) ، لم يعد طالبا يلتمس أئمة الفن القدامى ، بل إمام فن العصر غير منازع . ذلك أن روبنز كان قد طواه الموت ، وما كان لأحد أن يحلم بأن هولنديا مغمورا ، أثقلت كاهله الديون وأزمع على الاعتكاف بعد قليل فى مغارة بامستردام ، سيبعث من قبره بعد قرون لينازعه تلك السيادة .

فلما عاد فيلاسكويز إلى مدريد اقترف أفدح خطأ فى حياته ، ذلك أنه التمس ونال وظيفة « مدير للقصر الملكى » ، ولعله سئم التصوير ، أو لعله أحس أنه بلغ غاية امكاناته فى ذلك الميدان . ولم تكن الوظيفة تشريفا ، فقد تطلبت منه الاشراف الشخصى على القصر ، على أثاثه

وزينته ، وعلى تدفئته وصيانته الصحية ، يضاف إلى هذا ترتيب ما يقام فى القصر من مسرحيات ومراقص ومباريات ، وتوفير الاقامة للحاشية خلال أسفار الملك . وكان عليه أن يرافق الملك فى جميع رحلاته الكبيرة ، سواء للهو أو السياسة أو الحرب . أهناك شيء أسخف من هـذا لرجل صور انوسنت العاشر ؟ أن زهو المنصب عند فيلاسكويز طغى على شعوره بالعبقرية .

ولم يهب التصوير فى السنوات التسع الباقية له من الأجل غير الوقت الذى اقتطعه من مهامه الرسمية الثقيلة . فاستأنف تصوير الأسرة المالكة ، وكبار رجال البلاط ، والملك نفسه . ورسم ثلاث صور جميلة للأميرة مارجاريتا ، وصورها مرة أخرى مركزا لاحدى روائعه المسماة « وصيفات الشرف » ، فالخادمات والقزم والكلب من حول الأميرة ، ومن خلفهم فيلاسكويز ذاته برسمهم على لوحته . ثم صورها مرة أخرى فى تورتها الزرقاء الواسعة التى جعلت ساقيها بعد ذلك سرا مقدسا يكتنفه الغموض[٣] ، وقبيل موته رسمها معجزة من البراعة فى ثوب مخرم ، وفى عام ١٦٥٧ زاغ من البلاط ليرسم « نساجى القماش المرسوم » — وجوها رائعة اقتنصها بين ضجيج العمل ووقاره . وفى السنة ذاتها تحدى محكمة التفتيش ، وصدم احتشام أسبانيا ، وأبهجها برسمه ظهر « فينوس روكبى » وأردافها الجميلة ، وقد أطلق اسم روكبى على الصورة لطول ما مكثت فى بيت أسرة إنجليزية اشترتها بمبلغ ٥٠٠ جنيه ثم باعتها لقاعة الفن الأهلية بلندن بمبلغ ٤٥,٠٠٠ جنيه . وقد شقت احدى المطالبات بمنح المرأة حق الاقتراع ذلك الظهر الوردى بالسلاح فى ستة مواضع حين أحفظها هذا الفضح لأسرار المهنة ، ولكنه أصلح ثانية اصلاحا بديعا .

فى لوحة « وصيفات الشرف » نرى فيلاسكويز كما رأى نفسه فى سنيه الأخيرة — شعرا غزيرا ، وشاربا فخورا وعينين فيهما أثر من الاكتئاب . أما الفم فيبـدو شهوانيا ، ومع ذلك لا نسمع فى سجله شيئا من تلك

الانحرافات الجنسية والصراعات الشخصية التى تفنى الكثير فى كثير من الفنانين :
كان يحظى بمقام رفيع فى القصر بفضل آدابه العالية ، وروحه المرحة ،
وحياته الأسرية المهذبة . وقد خلف لنا صورا لزوجته خوانا وابنته
فرانسسكا(٣١) ، ولعل النموذج الذى نقل عنه لوحته « السيدة ذات المروحة(٣٢) »
هو أيضا فرانسسكا . وقد رسم زوجها خوان باوتستا ديل ماثو لوحة سماها
« أسرة الفنان(٣٣) » يبدو فيها فيلاسكويز وفى خلفيته مرسم ، ومعه خمسة
أطفال أعانوا على وحدة الأسرة .

وكان موته نتيجة لوظيفته . ففى ربيع عام ١٦٦٠ رتب المراسم
والاحتفالات المعقدة التى تقرر أن تصاحب توقيع معاهدة البرانس على جزيرة
فى نهر بداسوا الواقع على الحدود ، وخطبة الأميرة ماريا تريزا للويس الرابع
عشر . وكان على فيلاسكويز أن يدبر نقل الحاشية إلى منتصف الطريق عبر
أسبانيا إلى سان سباستيان ، ويجهز أربعة آلاف من بغال النقل لحمل الأثاث
والصور وقطع النسيج المرسوم وغير ذلك من زينات . وعاد المصور ،
الذى تاه الآن فى الموظف ، إلى العاصمة « وقد أضناه سفر الليل وكد النهار »،
كما ذكر لصديق . وفى ٣١ يوليو لزم الفراش مصابا بحمى ثلثية ، وفى ٦
أغسطس ، أو بعبارة أول مترجم لحياته « فى عيد تجلى المسيح . . . . أسلم
روحه لله ، الذى خلقها لتكون أعجوبة من أعاجيب الدنيا(٣٤) » . ولما
مضت ثمانية أيام حتى ووريت زوجته الثرى إلى جواره .

والذين لا علم لهم منا بتقنية التصوير لا يستطيعون إلا الاستمتاع بآثار
فيلاسكويز — لا حاكمين على جودتها ، بل تاركيها لترينا عصرا ، وبلاطا ،
وملكا خاملا ، وزوجا جمعت بين الكبرياء والرقة . وحتى ونحن فى هذا
الوضع قد نتذوق ما فى هذه الصور من صفاء وبساطة ووقار وصدق
كلاسيكى ، ونستطيع أن نحزر ما وراء انتصاراتها من جهد ومهارة ،
وما اقتصته من محاولات اجتهادية ، وتوزيع تجريبى للأشكال ، وتراكب
وعمق وشفافية فى الألوان ، وحركة مشكلة للأضواء والظلال . أما النقاد

الذين تعبوا من المديح المتكرر فقد أشاروا إلى عيوب الفنان الأسبانى الكبيرة: أخطاء صغيرة كالأغطية البلهاء التى ألبسها رءوس أميراته الصغار، وبطون جياده الغليظة، والوجه عديم التناسب، المعكوس فى المرآة، فى صورة « فينوس روكبى »؛ ثم عيوب كبيرة، كافتقاره إلى العاطفة، والخيال، والمثالية ورقة الاحساس، وفنائه فى الشخصيات لا فى الأفكار فناء يكاد يكون نسائيا، وعماه الواضح عن كل شىء لا تراه عيناه(٣٥). وحتى فى أيام فيلاسكويز، اتهمه أحد منافسيه المدعو فنتسنزو كاردوتشى بطبيعية قصيرة النظر تحسب أن التشخيص المدقق للواقع الخارجى هو أسمى وظائف التصوير.

فمن يجيب عن فيلاسكويز (الذى ما كان ليجيب قط) بأنه غير مسئول عن أغطية الرءوس ولا عن بطون الخيل تلك، وبأن العاطفة المضبوطة أوقع فى النفس من العاطفة المعلنة، وبأن صور بالتازار كارلوس والأميرات، وصور وصيفات الشرف، وصورة استسلام بريدا — كلها تبدى احساسا رقيقا مرهفا، وان « أيسوبس » و « منيبوس » دراستان فى الفلسفة، وان صور جونجورا، وأوليفاريس، وانوسنت العاشر، ليست محاكاة للظاهر بل ابتعاثا للروح؟ وليس فى فن فيلاسكويز سعى سافر وراء الجمال، بل بحث عن النوع الكاشف منه: اناث قليلات يرقق الحسن منهن، ولكن رجال كثيرون خطتهم الحياة وميزتهم.

ومع أن فيلاسكويز كان على الدوام موضع الاجلال فى أسبانيا بوصفه مصورها الأعظم، فان شهرته لم تكد تعبر البرانس — ربما لأن الكثير جداً من فنه كان فى البرادو — حتى قدمه رفائيل منجز لألمانيا عام ١٧٦١، وكشفت عنه حروب نابليون الأسبانية لإنجلتره وفرنسا، ونادى به مانيه والتأثريون رائدا لهم فى دراسة الضوء والجو والتعبير عنهما، ووضع فيلاسكويز طوال نصف قرن فى مصاف أعظم المصورين، وسماه وسلر « مصور المصورين » لأنه أستاذهم جميعا، وصرح رسكن بقوة الرجل

الحجة بأن « كل ما يفعله فيلاسكويز يمكن اعتباره صحيحاً على الإطلاق » . ثم ذهب ماير — جريفى إلى أسبانيا ملتمساً فيلاسكويز فى البرادو ، ولكنه عثر على الجريكو فى طليطلة ، فأعلن أن فيلاسكويز « وقف حيث بدأ الجريكو» ، و « أنه ظل دائما فى حجرة انتظار الفن»[٣٦]. وفجأة اعتقد نصف العالم أن فيلاسكويز من مصورى المرتبة الثانية .

والشهرة زى من الأزياء المتقلبة ، فنحن نمل تحميل أقلامنا عبارات الإعجاب القديمة ، ونجد البهجة والانتعاش فى أن ننبذ الأصنام البالية من خيالنا ، وأن ننزل الجبابرة الذين ماتوا عن عروشهم ، ونرفع آيات الحمد والثناء لآلهة جديدة نفخت فيها أصالتنا أو بعثها من رقادها صيت جديد . ولا ندرى أى مكان من العظمة سيحظى به فيلاسكويز حين يدور الزمن دورته ويغير الذوق اتجاهه من جديد .

٥ — موريللو : ١٦١٧ — ٨٢

أتى على الناس حين ، أيام شبابنا المؤمن ، كانت فيه صورة موريللو « حمل العذراء غير المدنس » تتمتع بصيت ذائع كصورة رفائيل « سيستينى مادونا » ؛ أما اليوم فما من إنسان مهما قل شأنه يؤدى لها حقها من الاحترام . ذلك أن اضمحلال الإيمان المسيحى فى أوربا وأمريكا قد اقتطع نصف الجمال من صور حسبنا الجمال ملازما لها . وموريللو ضحية من ضحايا هذه التعرية .

ولكن لنبدأ بتحية لألونسوكانو . رجل عجيب — قسيس ، ومبارز ، ومصور ، ونحات ، ومعمارى . ولد فى غرناطة ، وهاجر إلى إشبيلية ، ودرس التصوير (جنبا إلى جنب مع فيلاسكويز) على باتشيكو ، والنحت على مونتانيس ؛ صمم وحفر ورسم روافد للمذبح لكلية سان البرتو وكنيسة سانتا باولا ، حيث نافس ثورباران بنجاح . وحفر لكنيسة لبريخا تماثيل دينية جذبت الطلاب من خارج البلاد ليعجبوا بها ويحاكوها . وقد اشتبك فى مبارزة ، وجرح غريمه جرحا خطيرا ، فهرب إلى مدريد ، ونال حماية أوليفاريس حين تشفع له عنده فيلاسكويز ، ويفضل رسومه فى العاصمة

وقربها حصل على وظيفة بالبلاط . وفى عام ١٦٤٤ وجدت زوجته قتيلة فى فراشها ، فاتهم خادمه ، ولكن تهمة القتل وجهت إليه هو . ففر مرة أخرى من النجاح ، واختبأ فى ديرقصى ، ولكن مخبأه عرف ، فقبض عليه وعذب ، واحتمل كل الآلام دون أن يعترف بأنه المذنب ، فأفرج عنه ، وبدأ من جديد . وفى عام ١٦٥١ ، حين بلغ الخمسين ، عاد إلى غرناطة ، حيث أصبح قسيسا وكاهنا من كهان الكاتدرائية ، وصنع لها تماثيل وصورا ومقارئ وأبوابا بلغت كلها من الروعة ما يغتفر له معها غروره . ولما كلفه مراجع الحسابات الملكية فى غرناطة بصنع تمثال للقديس أنطونى البادوى ، انجزه على نحو أرضى هذا الموظف ، ولكنه مع ذلك ساومه على ثمنه . وطلب كانو مائة دوبلون (٣٫٢٠٠ دولار ؟) . فسآله الموظف « كم يوما استغرق منك صنعه » أجاب : « خمسة وعشرين » قال المحاسب ، « فأنت تقدر جهدك إذن بأربعة دبلونات لليوم ؟ » أجاب « أنك لا تحسن الحساب ، فقد أنفقت خمسين سنة لأصنع تمثالا كهذا فى خمسة وعشرين يوما » . قال « وأنا أنفقت شبابى وميراثى فى دراستى الجامعية ، والآن وقد أصبحت محاسب غرناطة ، وهى مهنة أشرف بكثير من مهنتك ، لا أكسب فى اليوم غير دوبلون واحد . » وصاح به المثال « تقول مهنتك أشرف من مهنتى ! فاعلم إذن أن فى قدرة الملك أن يصنع محاسبين من تراب الأرض ، ولكن الله يحتفظ لنفسه بخلق فنان كألونسو كانو . » ، ثم هشم التمثال لفوره فى سورة غضبه[٣٧] . وظن الناس حينا أن محكمة التفتيش ستسجنه ، ولكن فليب الرابع بسط عليه حمايته ، ومضى كانو فى رسم صور وحفر تماثيل — جلها دينى — حملت عشاق عبقريته المتعددة الجوانب على أن يلقبوه ميكل انجلو أسبانيا . وكان ينفق مكاسبه بالسرعة التى يحصل بها عليها ، على وجوه البر عادة ، وتقدمت به الأيام وهو فى فقر اضطر هيئة الكاتدرائية لاعتماد معونة مالية له . وقد رفض وهو على فراش موته صليبا يمثل المسيح مصلوبا قدم إليه ، لأنه سيئ الحفر .

أما برتولومى استيبان موريللو فرجل مختلف تماما — متواضع ، دمث الخلق ، تقى ، معبود تلاميذه ، ومحبوب منافسيه ، ومعين للبر بالناس ٥ شهدت إشبيلية مولده عام ١٦١٧ وهى يومها قصبة الفن الأسبانى ، وكان آخر أربعة عشر طفلا . ودرس التصوير على خوان دى كاستيللو ، ولكن موت أبويه فقيرين وهو بعد فى الرابعة عشرة اضطر الصبى اليتيم إلى كسب قوته برسم صور فجة سريعة لسوق أسبوعية . وإذ سمع أن فليب الرابع عطوف على الفنانين اتخذ سمته إلى مدريد (؟) حيث صادقه فيلاسكويز — فى رواية غير مؤكدة[٣٨] وأسكنه منزله ، وحصل له على إذن بدخول قاعات الفن الملكية ، وشجعه على دراسة أعمال ريبيرا ، وفان ديك ، وفيلاسكويز .

على أننا نلقاه فى إشبيلية ثانية عام ١٦٤٥ . ذلك أن ديرا فرانسسكانيا بها عرض أجرا غير مغر نظير رسم سبع صور كبيرة ، واحتقر الفنانون الراسخون هذا الأجر ، ولكن موريللو رضى به ، وأنتج أول روائعه «مطبخ الملائكة[٣٩]» ، وفيها يبدو الملائكة قادمين من السماء يحملون الطعام ويطهونه ويمدون الموائد ويطعمون الصالحين فى مجاعة ، ومع أن موريللو حاول أن يتأثر الأسلوب الفحل الذى جرى عليه ريبيرا وثورباران ، إلا أنه روى القصة متأثرا بميله للعاطفة الرقيقة . هذه الصورة ، هى وصورة «موت القديسة كلارا[٤٠]» صنعتا شهرة الفنان ، وأقبل نصف مثقفى إشبيلية ليعجبوا ، ثم تكاثر عليه الطلب . وكان أكثر ما طلب إليه صورا كنسية ، فتدفقت من ريشته صور العذراء ، والعائلة المقدسة ، والقديسين فى وفرة موفقة ، واغتنت الأساطير المسيحية بالجميل من النساء ، والوسيم من الرجال ، والظريف من الأطفال ، وبالألوان الوردية والجو الصوفى حتى انعطفت نحوه أوربا لأنه أحب العارضين لأحب العقائد إلى نفوس النـــاس .

وإذ وجد موريللو رزقه على هذا النحو ، فإنه غامر بالزواج وهو فى

الثلاثين ، وملأ بيته بضجيج تسعة أطفال وشجارهم وبهجتهم ، وشقى من أجلهم راضياً حتى موته . ونقدته هيئة الكاتدرائية عشرة آلاف ريال عن لوحته « القديس أنطونى البادوى » التى ما زالت معلقة هناك . وتؤكد لنا قصة يشتبه أنها صدى لأسطورة رويت عن زيوكس(٤١) ، ولكنها طبعت قبل موت موريللو بأحد عشر عاما ، تقول إن الطيور التى طارت داخل الكاتدرائية حاولت أن تحط على الزنابق المرسومة فى الصورة ، وراحت تنقر الفاكهة(٤٢) .

ومع أن مواضيعه كانت جلها دينية ، فإنه جعلها إنسانية أكثر منها كنسية . وإذا كانت أوربا الكاثوليكية الرومانية كلها قد أحبت النسخ الكثيرة التى أذاعها نقلا عن لوحته « حمل العذراء غير المدنس(٤٣) » فما كان ذلك لمجرد أنها احتفلت بموضوع محبب جداً لأسبانيا ولذلك الجيل ، بل لأنها توجت الأنوثة فى سحابة من المثالية والقداسة . وقد استوحى الفنان نساء الأندلس الفاتنات ذوات الحس الجنسى المتواضع ليرسم صور « عذراء الصلوات(٤٤) » والعذراء الغجرية ، وصورة « العائلة المقدسة والطائر » ذات الجمال الأسمر(٤٥) .

ومن رسم الأطفال خيرا منه ؟ ان صورة « البشارة » المحفوظة بالبرادو تطالعنا فيها صبية دخلت سن المراهقة ، فيها خفر ورقة ، آية الحياة ذاتها . وقد وجد موريللو نماذج للأشكال الكثيرة التى صور بها المسيح طفلا فى الأطفال الحسان الوجوه الذين أحاطوا به فى بيتـــه وشارعه ، ولعله استمتع بهم هم أكثر من استمتاعه بالموضوع المقرر ، ورسمهم فى صورة لا تقل فتنة عن أى صور للأطفال رسمت أيام النهضة الإيطالية . وكان إذا عجز عن حشر الأطفال فى لوحاته الدينية يرسمهم فرادى . وفى « بيت الفن » بميونيخ حائط حافل بهم : صبيان يرمون النرد ، وغلمان يأكلون الشمام لأنه طريقة محتملة لغسل وجوههم ، وصبى يمضغ الخبز بينما تفلى أمه شعره . وصورة « الصبى المطل من نافذة(٤٧) » تبين بوضوح

أن المال والسعادة تشاجرا وافترقا ، فليكن إذن « الصبي ذا الكلب[٤٨] » والعالم سبيله إلى الرزق. وفي صورة « الغلام المتسول » المحفوظة باللوفر يستأذن الفنان المثالي القوى العليا ، وينظر إلى الحياة على الأرض ، ويجدها جميلة حتى ولو لبست أسمالا بالية . ان موريللو في واقعيته يحتفظ بمثاليته .

وعاش — كما رسم — دون مأساة ، إلا في ختام عمره . ذلك أنه تسلق سقالة لينجز صورة في كنيسة بقادس ، فزلت قدمه وسقط فانكسر كسرا خطيرا أصاب دمه بالتسمم ، وما لبث ابن الأندلس جميعها، الأثير لديها ، أن مات (١٦٨٢) ، وكان موته مفاجئا حتى أنه لم يستطع إتمام وصيته، وخط فوق قبره ما أوصى به ، وهو اسمه ، وهيكل عظمي ، وكلمتان « فيفي موريتوروس » — أي عش كأنك تموت وشيكا .

وظلت مكانته طوال قرنين عالية عند أولئك الذين تهمهم ما تقوله الصورة أكثر مما تهمهم الكيفية التي تقولها به . وقد أذاع قواد نابليون صيته بسرقتهم صوره وبيعها غنيمة حلالا . وأكثر النساخ غير الأكفاء من نقل لوحاته فشككوا النقد في فنه. كان على علم بتقنية صناعته ، ولكن ضيق من رقعته كثيرا ذلك التوفيق الذي أصابه مع الكنيسة ؛ وقد غالى في الاستسلام لجانب الحياة الأنثوي العاطفي ، فما بدأ جميلا أصبح بالتكرار الثابت مجرد شيء لطيف على نحو لا يؤثر في نفس الناظر . وكان قديسوه يتطلعون إلى السماء في إصرار كثير أنسى أوربا هذا الفنان حين انصرفت عن السماء . ولهـذا السبب نفسه أغفلت النظر إلى التصوير الأسباني عامة بعد سنة ١٦٨٠ . وبينما كانت أوربا تتجادل حول المسيحية ، ظلت أسبانيا متشبثة بتراثها الوسيط ، فلم يلفت فنها أنظار العالم ثانية إلا عند مجيء جويا .

وإبان حياة موريللو قضت على القرن الذهبي للفن عشرات العوامل الفتاكة . وكان الذهب ذاته ، والبحث عنه في الأقطار الأجنبية ، بعض هذه العوامل : ذلك أن شباب أسبانيا وعنفوانها تحررا من سجن شبه الجزيرة ليكتشفا الأمريكتين ويستغلاهما ، والذهب الذي أرسلاه إليها أفسد

الحياة الأسبانية ، وشجع التكاسل ، ورفع الأسعار ، أو وقع غنيمة للسفن الهولندية أو الجنوية التى تحمل التجارة الأسبانية . واختزنت الحكومة المعادن النفيسة ، وغشت العملة ، وطردت المغاربة المتنصرين ، واستكثرت من الوظائف وباعتها ، وفرضت الضرائب على كل شىء إلى حد اللامبالاة الاقتصادية ، وبعثرت الثروة فى الحملات الحربية ومظاهر البذخ فى البلاط بينما الصناعة تذبل ، والبطالة تنتشر ، والتجارة تذوى ، والسكان يتقلصون ، والمدن تخرب . وفقدت الحكومة ذات الطابع الاستقراطى الضيق كل كرامة ، فوضعت صناديق التبرعات فى الشوارع ، والتمست المال من بيت إلى بيت لتمول عجزها فى الداخل وهزائمها فى الخارج(٤٩) . أما الجيوش الأسبانية المرابطة فى صـــقلية ونابلى وميلان ، الشاقة طريقها فى غابات العالم الجديد وبراريه ، المضنية نفسها فى حرب الثلاثين ، الخائضة حربا خاسرة لقهر عناد توار الأراضى المنخفضة وإصرارهم الذى لا يصدق — هذه الجيوش استنزفت الموارد البشرية والمادية لدولة صغيرة جبلية نصف صحراوية ، تحبسها حدودها فى بحر يسيطر عليه منافسوها التجاريون وأعداؤها البحريون. ولم يبق غير الأديرة والكنائس ، متشبثة بأملاكها الشاسعة ، اللاصقة بها ، المعفاة من الضرائب ، مستكثرة من الرهبان فى حياة عاطلة غالية الثمن . وبينما كان الدين يسترضى الفقر بصكوك على الجنة ، ويخنق الفكر ، ويدعو أسبانيا للعيش على ماضيها ، أجزلت فرنسا وإنجلترة مكافأة الصناعة ، واستولتا على التجارة ، ودخلتا رحاب المستقبل . ان التلاوم مع البيئة المتغيرة هو لب الحياة ، وهو أيضا ثمنها .

الفصل الثالث عشر

الصراع على فرنسا

١٥٥٩ — ٧٤

١ — القوى المتنافسة

الإنسان حيوان منافس ما دام يخشى الخطر أو يذكر افتقاره إلى الأمن . كذلك حال الجماعات والطبقات والأمم والأجناس التى تفتقد شعور الأمن . فهى تتنافس بذات الحرص الذى يتنافس به الأفراد المؤلفة منهم ، وبعنف أشد ، لأنها أقل تقيدا بالقانون ، وتمتعا بالحماية ؛ ان الطبيعة تدعو جميع الكائنات الحية إلى العراك . وفى حمى الصراع الأوربى بين حركة الاصلاح البروتستنتى (١٥١٧) وصلح وستفاليا (١٦٤٨) استخدم هذا التنافس الجماعى الدين ستارا وسلاحا لتحقيق الأهداف الاقتصادية أو المآرب السياسية . فلما ألقى المحاربون سلاحهم بعد قرن من النضال ، احتفظت احتفظت المسيحية ببقائها وسط الخرائب بشق الأنفس .

كانت فرنسا أول من عانى وأول من أفاق . فقد كانت « حروبها خاصتها من ١٥٦٢ إلى ١٥٩٤ بالنسبة لها ما ستكونه حرب الثلاثين (١٦١٨ — ٤٨) بالنسبة لألمانيا ، والحروب الأهلية (١٦٤٢ — ٤٨) بالنسبة لانجلترة . ذلك أنه عند موت هنرى الثانى فى صراع مؤسف (١٥٥٩) وارتقاء ابنه البالغ من العمر خمسة عشر ربيعا العرش باسم فرنسيس الثانى ، كانت الأمة على شفا الافلاس من جراء النزاع الطويل بين آل هابسبورج وملوك فالوا . كان مجموع ايراد الدولة السنوى آنئذ ١٢,٠٠٠,٠٠٠ جنيه ، وبلغ الدين الأهلى ٤٣,٠٠٠,٠٠٠ . وتخلفت رواتب كثير من الحكام المحليين أربع سنوات ، واستحال اقناع الشعب الفرنسى بدفع الضرائب[1] . وتردت ليون فى الفوضى الاقتصادية عام ١٥٥٩ إثر انهيار مالى مفاجئ . وكان من أثر تدفق فضة أمريكا وذهبها إلى فرنسا بطريق أسبانيا والبرتغال

أن هبطت قيمة العملة ، وتضخمت الأسعار ، وانطلق سباق شرس بين الأجور والأسعار لم يفد منه غير الرأسماليين العليمين ببواطن الأمور والمشتغلين بالمضاربات . وحاولت الحكومة عام ١٥٦٧ وعام ١٥٧٧ أن تسن القوانين لتحديد أقصى الأسعار والأجور ، ولكن التزاحم الاقتصادى طغى على القوانين(٢) ، واستشرى التضخم ، ربما باعتباره طريقة غير دينية لدفع نفقات الحروب الدينية . أما المنظمة الغنية الوحيدة فى الدولة فكانت الكنيسة الكاثوليكية التى انضوى تحت لوائها ٩٤٫٠٠٠ من رجال الدين (فى عام ١٦٠٠) ، و ٨٠٫٠٠٠ راهبة ، و ٧٠٫٠٠٠ راهب أو أخ ، و ٢٫٥٠٠ يسوعى ، وملكت الكاتدرائيات المهيبة ، والأسقفيات الفخمة ، والأراضى الشاسعة المثمرة . لقد كان ثلث ثروة فرنسا — وقيل ثلثاها — ملكا للكنيسة(٣) . وتوارث خلف الحروب الدينية تلك الرغبة فى الاحتفاظ بهذه الثروة الكنسية أو الحصول عليها .

ووانى الحظ الكنيسة بارتقاء شارل دجيز منصب كبير وزراء فرنسيس الثانى ، وكان قد نصب كردينالا للورين وهو لا يتجاوز الخامسة والثلاثين . وقد أخذ الأدواق من آل جيز لقبهم هذا من قلعتهم القريبة من لاون ، ولكن مقرهم الرئيسى كان فى اللورين ، التى لم تندمج فى فرنسا إلا مؤخرا . أما الكردينال فكان رجلا وسيم الطلعة ، حاضر الذكاء ، مهذب المسلك ، إداريا قديراً ، يملك ناصية البلاغة فى اللاتينية والفرنسية والإيطالية ، ولكن شغفه بالمال والسلطان ، ونفاقه المصقول ، وتحفزه لاضطهاد الخوارج والانتقام من المعارضين ، وخفضه الجرىء لنفقات الحكومة — كل هذا خلق له أعداء فى كل طبقة تقريبا . وكان أخوه الأكبر ، فرنسيس دوق جيز ، قد اكتسب سمعة فى الاستراتيجية وميادين القتال ، وأصبح الآن وزيرا للحربية ، ولكن افلاس البلاد كان يتطلب السلام ، لذلك كان على فرنسيس أن يشبع أطماعه فى تبطل مثير ، فعشق مظاهر العظمة ، والثياب الفاخرة ، والعرض الفروسى ، ولكن آدابه الملوكية وكياسته ومسلكه

الشخصى — كلها جعلت منه معبود فرنسا الكاثوليكية . ولم يكن يطيق الهرطقة ، فرأى استئصال شأفتها بالقوة(٤) — وكان هو وأخوه على يقين من أن الكنيسة ستشرف لا محالة على الفناء إذا اعتنقت فرنسا البروتستنتية كما اعتنقتها ألمانيا وإنجلترة ،وأن فرنسا ستفقد تلك الحماسة الدينية التى دعمت من قبل نظامها الاجتماعى ووحدتها القومية . وفى سبيل الدفاع عن ايمانهما وسلطانهما تحدى الأخوان جيز الكثير من المخاطر ، ولقيا حتفهما قبل الأوان ، وشاركا تبعة إيذاء فرنسا وتعذيبها .

لم يعد الهيجونوت أقلية ضئيلة عاجزة من الفرنسيين البروتستنت يقودهم ويلهمهم كالفن من جنيف ، بل ثورة عقائدية واجتماعية واسعة الانتشار على الكنيسة . وقد قدرهم كالفن بعشر الشعب الفرنسى عام ١٥٥٩(٥) . وقدر ميشليه إن عددهم تضاعف عام ١٥٧٢(٦) . كان لهم مراكز فى كل إقليم من دوفينى إلى بريتنى ، ولا سيا فى الجنوب الغربى من فرنسا ، حيث استؤصلت فى الظاهر هرطقة الألبيجنس قبل ثلاثة قرون . فعقدوا اجتماعاتهم للصلاة برغم قوانين الحظر التى أصدرها فرنسيس الأول وهنرى الثانى ، وعاشوا على العظات الجادة التى تبشر بالجبرية ، وأصدروا الكتيبات النارية حول مفاسد الكنيسة وعسف الأخوين جيز ، وعقدوا مجمعا عاما فى باريس (٢٦ مايو ١٥٥٩) تحت سمع الملك وبصره . لقد أعلنوا ولاءهم للملكية الفرنسية ، ولكنهم نظموا الأقاليم التى سادوها وفق الأساليب الجمهورية . وصاغوا لهم ما تصوغه أية أقلية مضطهدة من أيديولوجية مؤقتة للحرية ، ولكنهم وافقوا الكاثوليك على أن من واجب الدولة أن تفرض « الدين الحق » على فرنسا كلها . وكانت نظريتهم الخلقيـــة أكثر صرامة من ناموس خصومهم الذى تراخى مع الزمن ، فاجتنبوا الرقص ، والثياب البهية ، والمسرح ، ونددوا ساخطين بأخلاق القصر ، حيث « الرجال لا يغرون النساء ، بل النساء يغرين الرجال(٧) » كما قالت جان دالبر لابنها .

أما الملكة الأم ، كاترين دى مديتشى ، فرأت أن الدين عند الفريقين « إن هو إلا ستار لانفع له الا إخفاء الأحقاد والضغائن ، ومع ذلك فقلوبهم لا تنطوى على شيء أضأل من الدين »[٨] . ولعلها قست فى حكمها هذا ، ولكن ما من شك فى أن العوامل الاجتماعية والاقتصادية كانت تكمن خلف الصراع الدينى ؛ وثبت الفلاحون على الكثلكة ، ولم يكن لهم مصلحة فى هذا النزاع ، ولم يجدوا فى عقيدة جبرية صارمة كالبروتستنتية بديلا يعوضهم عن الأساطير المعزية وملطفات الأعياد التى أتاحتها لهم عقيدتهم القديمة . أما البرولتاريا ، الصغيرة عددا الكبيرة بروح الثورة ، فقد نددت برؤسائها واستمعت فى تعاطف إلى صوت « الاصلاح » لأنه يعد ببعض التغيير ، وكما حدث فى إنجلترة اللولارد والبيورتان، وألمانية حرب الفلاحين ، كذلك أصبح الإنجيل هنا كتاب الثورة[٩] . كذلك استمعت الطبقات الوسطى إلى الوعاظ الأجرياء الذين دربتهم جنيف وبعثتهم إلى فرنسا . وأما رجال الأعمال الذين التقوا فى الأسواق الكبيرة بالأثرياء من الألمان والانجليز والسويسريين فقد لاحظوا الحلف الناجح بين هؤلاء التجار وبين الحكام البروتستنت والأفكار البروتستنتية . لقد طالما كابدوا الأهانات تحت سلطان الأساقفة والبارونات الذين احتقروا التجارة وارتبطوا بعادات الاقطاع . وسرهم وأثار حسدهم ما علموه من عطف كالفن على دنيا المال والأعمال ، ومن اشراكه العلمانيين فى رقابة الأخلاق والاشراف على الكنيسة . وقد كرهوا ثراء الكنيسة وعشورها ، وغاظتهم المكوس الاقطاعية المفروضة على التجارة . ولم يستطيعوا أن يغتفروا للملكية اخضاعها الكومونات البلدية للحكومة المركزية بعد أن ظلت قرونا حكرا سياسيا لهم[١٠] . وحتى أصحاب المصارف رضوا عن الهيجونوت الذين لم يحتقروا تقاضى الفائدة على المال ، وهو الأمر الذى استنكرته الكنيسة منذ زمن سحيق ، وان أغضت عنه مؤخرا بعين لاهوتية وقور .

وكان كثيرون من النبلاء يعتنقون قضية الثوار ، لأنهم هم أيضا لم يرتضوا

مركزة السلطة فى دولة موحدة . ولا بد أنهم سمعوا بأمراء الأقاليم الألمان الذين استطاعوا بتحالفهم مع البروتستنتية أن يتحدوا الأباطره والبابوات ، والذين أثروا من غنائم الكنيسة ، إذن فما الذى يحول دون استخدام هؤلاء الهيجونوت البواسل أداة جاء أوانها لتهذيب الملك واخضاعه ؟ لقد كان النبلاء يهيمنون على حقول فرنسا ومحاصيلها وفلاحيها ، وينظمون فرقها العسكرية ويقودونها ، ويسيطرون على حصونها ، ويحكمون أقاليمها ، فلو أن حركة الاصلاح كسبت طبقة النبلاء لدعمت ظهرها بقوة منتشرة فى الأمة كلها . وقد نبه كردينال اللورين هنرى الثانى عام ١٥٥٣ إلى أن النبلاء ينحازون إلى صف الهيجونوت . فلم يحل عام ١٥٥٩ حتى كان النبلاء فى نورمانديا ، وبريتنى ، وبواتو ، وأنجو ، ومين ، وسانتونج ، يتزعمون ثورة الهيجونوت علانية .

لم تغتفر أسر البوربون المعتزة بنفسها لأسرة فالوا الحاكمة أنها دفعت شارل دوق بوربون إلى الخيانة والموت قبل الأوان (١٥٢٧) ، ولا استطابوا إقصاءهم عن الحكم على يد آل جيز المتعصبين لقومهم ، والذين اعتبروهم أغرابا أصلهم من اللورين الذى كان ألمانيا أكثر منه فرنسيا . لقـــد كان لويس الأول البوربونى ، أمير كونديه ، سليلا للملك لويس التاسع ، يجرى فى عروقه الدم الملكى ، وتسمو مرتبته فوق مرتبة الأخوين جيز ، وقد انضم إلى الهيجونوت ، ومات فى محاولته الوصول إلى السلطة على جناح عقيدتهم . أما أخوه انطوان البوربونى ، ملك نافار لقبا — والذى لا يحكم فعلا غير إقليم بيارن فى جنوب فرنسا الغربى — فقد انحاز حينا إلى صف الهيجونوت ، متأثرا إلى حد كبير برأى زوجته جان دالبير . وكانت جان الابنة المناضلة لأم رقيقة هى مارجريت النافارية ، التى احتفظت فى الظاهر بكثلكتها احتراما لأخيها فرنسيس الأول ، ولكنها بسطت حمايتها على كثيرين من المهرطقين والهيجونوت . . وكما أن الأم مثلت النهضة فى حبها للحياة والشعر ، فكذلك مثلت جان دور النساء فى الاصلاح البروتستنتى الفرنسى

وخلقهن — غيورات فى دينهن إلى حد التعصب ، يربين أطفالهن ويكرسنهن ليواصلوا الحرب المقدسة حتى الموت أو النصر . وقد نشأت ولدها الشهير الذى عرف فيما بعد بهنرى الرابع ، على كل فضيلة إسبرطية وبيوريتانية ، ولم يفسح لها فى الأجل حتى تراه يرتد إلى مرح النهضة المنحل . ولا بد أنها أعجبت أشد الاعجاب بجاسبار دكولينى ، فقد جمع فى شخصه كل مثلها الأعلى : إنسان شريف لقبا وخلقا ، وزعيم حصيف وفى لقضية الهيجونوت ، وجندى ورجل دولة صارم أخزت مناقبه خيانات البلاط المتوارية خلف طلاء زائف .

كان كالفن قد حذر أتباعه الهيجونوت من المقاومة العنيفة للحكومة(١١) . ولكن صبرهم عيل تحت وطأة الاضطهاد . ذلك أن هنرى الثانى كان قد أمر جميع القضاة بأن يحكموا بالاعدام على كل البروتستنت المتشبثين بعقيدتهم (يونيو ١٥٥٩) . ثم جدد فرنسيس الثانى هذا الأمر بتحريض من الأخوين جيز ، وأضاف إليه أمرا بهدم جميع المبانى التى تعقد فيها اجتماعات دعاة الاصلاح البروتستنتى ، وأمرا باعدام الأشخاص ، وحتى الأقرباء : الذين يؤوون مهرطقا محكوما عليه ، أو يقصرون فى ابلاغ الحكام عنه . وفى الشهور الخمسة الأخيرة من عام ١٥٥٩ أحرق ثمانية عشر شخصا أحياء لتماديهم فى الهرطقة ، أو لرفضهم حضور القداس أو تناول القربان الكاثوليكى . وفر مئات من الهيجونوت الفرنسيين إلى جنيف حيث آواهم كالفن . أما الذين بقوا فى فرنسا فقد بدأوا ينظمون أنفسهم لخوض الحرب الأهلية .

وفى ٢٣ ديسمبر ١٥٥٩ أحرقت آن دبور لأنها اجترأت فى « برلمان » باريس على إدانة الاضطهاد بسبب الهرطقة . وبعد هذا بقليل خنق جاسبار دهو فى قصر فانسين الريفى بأمر الأخوين جيز . وتآمر زوج أخته ، جودفروا دبارى ، سيد إقليم رنودى ، مع الأشراف وغيرهم على اعتقال الأخوين جيز وعزلهما بهجوم مباغت يقومون به فى أمبواز . واكتشف

كردينال اللورين المؤامرة ، فجرد جنده وقهر المتآمرين وقبض عليهم ، ثم شنق بعضا ، وقطع رءوس بعض ، ووضع بعضا فى زكائب وقذف بهم فى اللوار . جاء فى سجل أخبار معاصر « لا شىء غير شنق الناس أو إغراقهم طوال شهر بأكمله ، حتى غطت الجثث نهر اللوار » (مارس ١٥٦٠)[١٢] . ودعى كونديه للمثول أمام المحكمة الملكية ليجيب عن تهم الاشتراك فى المؤامرة ، فذهب ، وأنكر التهم ، وتحدى كل من يتهمه بالاحتكام إلى السيف . ولم يقدم أى دليل ضده ، فأخلى سبيله .

وازعجت كاترين « فتنة أمبواز » هـذه ، وعلو مكانة المتآمرين ، ووحشية قمع الحركة ، وحمى الثأر التى أججت سخط الهيجونوت والنبلاء ، فاقنعت الملك الضعيف والأخوين جيز ، الكارهين لرأيها هذا ، باتاحة الفرصة لتجربة التسامح . ودعت ميشيل دلوبيتال ليتقلد منصب المستشار (مايو ١٥٦٠) وطلبت إليه أن يهدئ من هياج فرنسا . وكان ميشليه قد تعلم خلال طلبه العلم فى إيطاليا أن يكون إنسانيا لا دجماطيا ، وقد عامل الكاثوليك والبروتستنت خلال توليه القضاء الإقليمى فى فرنسا معاملة المساواة فى الشفقة والاعتبار . لذلك اقترح الآن على البرلمان نفس الآراء التى أفضت إلى حرق دى بور : « كل إنسان صنع دينا لنفسه ، ولكن بعض الناس ... يودون أن يقبل دينهم هم ويطارد دين غيرهم ... فعلينا أن نترفق بعضنا ببعض ، وأن نخترع طريقة للعيش معا[١٣] » وعملا بنصحيته دعت كاترين مجلسا للأعيان يتألف من الكاثوليك والبروتستنت ، انعقد فى فونتنبلو فى ٢١ أغسطس ١٥٦٠ . وقدم كولينى فى المجلس التماسا للملك مرفوعا من الهيجونوت أكدوا فيه ولاءهم له ، ولكنهم طلبوا حرية العبادة كاملة ودعا بعض الأساقفة إلى الاعتدال من الطرفين ، وحضوا الاكليروس على أن يصلحوا من أخلاقهم . وقرر المجلس أن المشاكل التى ينطوى عليها بحثه تقتضى دعوة مندوبين من كل الطوائف والطبقات فى فرنسا : فأمر الملك بعقد مجلس الطبقات هذا فى ١٠ ديسمبر ، وحظر أثناء ذلك أى

محاكمات على تهمة الهرطقة حتى يفصل المجلس الجديد فى أسباب الخلاف الأساسية التى تحدث الانقسام والفرقة فى البلاد .

أما البوربون الهيجونوت فقد رفضوا حضور مجلس الأعيان مخافة أن يقبض عليهم ، وإذ تشكك أمير كونديه وانطوان دبوربون فى إمكان التوفيق ، فانهما تآمرا لجمع جيش وإقامة دولة مستقلة تتخذ ليون عاصمة لها . ولكن الحكومة اعترضت طريق أحد سعاة كونديه ، وفضحت أوراقه المؤامرة ، فقبض على كونديه ، وحوكم ، وحكم عليه بالاعدام فى ١٠ ديسمبر . واستعاد الأخوان جيز سلطتهما الدكتاتورية .

وإذا الموقف يتغير فجأة بموت فرنسيس الثانى (٥ ديسمبر .) وهو بعد فى السادسة عشرة . فخلفه أخوه شارل التاسع فى تقلد سلطته رسميا ، ولكن لما كان لا يتجاوز العاشرة ، فقد قبل وصاية أمه ، التى انضمت الآن إلى البرابيث ملكة إنجلترة ، وفليب الثانى ملك أسبانيا ، فى توجيه الفوضى الأوربية نحو تحقيق مآربهم المتضاربة .

كاترين دى مديتشى

ما زالت هذه المرأة لغزا برغم انقضاء أربعة قرون من التفسيرات المتعارضة . كانت سليلة لورنزو الفاخر ، وحفيدة البابا ليو العاشر ، فهى إذن المديتشية النموذجية ، فى ميراثها الحكم ، وفى دمها الدهاء . ولدت فى فلورنسة (١٥١٩) لأبوين ماتا بالزهرى قبل أن تم الشهر ، فظلت قطعة شطرنج عاجزة تحركها دبلوماسية أقربائها المتحفزين للعراك ، حتى زوجها عمها البابا كليمنت السابع وهى بعد فى الرابعة عشرة لهنرى الثانى ملك فرنسا المقبل . وظلت عشر سنوات عاقرا بينما كرس زوجها المكتئب نفسه لخليلته ديان دبواتييه . ثم انبعث الأطفال من بطنها كل سنة تقريبا حتى بلغوا العشرة عدا . وكانت تؤمل وتخطط لتنال لهم العروش . ومات ثلاثة منهم أطفالا ، وارتقى ثلاثة عرش فرنسا ، وأصبحت اثنتان منهم ملكات . وذاقوا كلهم تقريبا مرارة المأساة ، ولكنها كانت أكثرهم

فجيعة ، لأنها عمرت بعد موت زوجها وثلاثة من أبنائها الملوك واحدا بعد الآخر . وسواء كانت ملكة أو ملكة أما ؛ فقد احتملت صروف عهود ملكية أربعة ؛ وسلختها بفضل ما أوتيت من حصافة وضبط للنفس ونفاق لا يتقيد بمادئ الشرف .

وصفها معاصر بأنها « امرأة جميلة حين يتوارى وجهها خلف القناع[١٤]» أى أن لها قواما جميلا ، ويؤكد لنا برانتوم أن صدرها « أبيض ممتلئ » وأن « فخذها غاية فى الجمال » وأن يديها وأناملها بديعة[١٥]. ولكن قسماتها كانت خشنة ، وعينيها أكبر وشفتيها أغلظ وفمها أوسع ممـــا ينبغى . فإذا كانت قد آغوت الرجال فإنما عن طريق غيرها من النساء . وقد أرجفت الشائعات بأنها احتفظت من حولها بـ « سرب طائر » من الحسان اللاتى يغرين الرجال بتحقيق مآربها[١٦] ، ولكن يبدو أن هذه التهمة باطلة[١٧] . فقد جرح كرامتها تسلط ديان فى السياسة والحب جميعا ، ومن ثم وجدت بعد موت هنرى ثأرها بأن جعلت نفسها القوة الكامنة وراء العرش مدى ثلاثين عاما . وكان لزاما أن يعوض دهاؤها عن عجز أبنائها ؛ لقد كرهوا تدخلها ، ولكن اخفاقهم فى الملك فرض هذا التدخل . وإذ ألقيت فى دوامة الثورة الدينية ، وأحاط بها الأشراف المغامرون واكتنفتها الدهماطيات المتعصبة ، فقد حاربت بالأسلحة الوحيدة التى تملكها — وهى المال المديتشى والفطنة الإيطالية ، والدبلوماسية المكيافللية . لقــد أهدى مكيافللى كتابه « الأمير » لأبيها من قبل ، ولم تكن كاترين فى حاجة لتعليمه ، لأنها رأت مبادئه مطبقة فى كل مكان من إيطاليا وفرنسا . وقد بزت جميع رجال الدولة الملتفين حولها كما فعلت اليزابث ملكة إنجلترة ، وفاقتهم فى الكذب ، و « كان لديها من الخدع أكثر مما لدى جميع مستشارى الملك[١٨] » . وقد صرفت شئون الدولة بهمة وكفاية . قال مراقب إيطالى « لم يكن ليتم شىء دون علمها ، وقل أن وجدت متسعا لتناول طعامها[١٩] » — مع أنها بطريقة ما أصبحت بدينة . أما أخلاقياتها الشخصية فقد سمت فوق جيلها ، إذ

يبدو أنها كانت مخلصة لزوجها غير المخلص ، وفيـة لذكراه ، لبست الحداد عليه حتى نهاية حياتها . وقد ترفق فى الحكم عليها أعظم خلفائها هنرى الرابع فقال : —

« أسألكم ماذا كان فى استطاعة امرأة أن تفعل بعد أن تركها موت زوجها بخمسة أطفال صغار على ذراعيها ، وأسرتين فى فرنسا تفكران فى انتزاع التاج — أسرتنا (البوربون) وأسرة جيز ؟ ألم تكن مكرهة على أن تلعب أدوارا غريبة ، لتخدع الواحد أولا ثم تثنى بالآخر ، حتى تحمى أبناءها كما حمتهم ، وتيسر لهم أن يملكوا الواحد بعد الآخر بفضل السياسة الحكيمة التى اتبعتها هذه الأم الداهية ؟ انه ليدهشنى أنها لم تتصرف قط على نحو أسوأ مما فعلت[٢٠] » .

ولعلنا نرتضى هذا الحكم تقديرا منصفا لمسلك كاترين قبل عام ١٥٧٠ . فقد ضربت هذه الأسر والقوى المنافسة التى أحاطت بها بعضها ببعض . وكتبت تقول : « اننى بمشيئة الله لن أسمح لنفسى بأن يتحكم فيها هـذا الفريق أو ذاك ، لأننى أيقنت للأسف أنهم جميعا يحبون الله ، والملك ، واياى ، أقل مما يحبون مكاسبهم . . . وإشباع أطماعهم[٢١] » . كان فيها من خلق إيطاليى النهضـة ما زهدها فى صرامة الهيجونوت الجبرية ؛ ثم إنها كانت تطلب قرضا من الكنيسة لتحول دون افلاس الدولة[٢٢] ، ومع ذلك ففى سبيل فرنسا كانت على استعداد لتزوج ابنتها مارجريت لهنرى نافار الهيجونوتى ، وابنها هنرى لاليزابث المحرومة من الكنيسة . ونظرت إلى الموقف فى صورته الأسرية والسياسية لا الدينية أو الاقتصادية . وكان عليها أن تحمى وطنها المقسم من تحالف أسبانيا والنمسا الهابسبورجى . وكانت معاهدة كاتو — كامبريزى قد تركت القوة الأسبانية متفوقة فى فلاندر ، ومتعدية تعديا خطيرا على شمال فرنسا الشرقى . وقد تشتعل الحرب القديمة بين أسرتى فالوا وهابسبورج من جديد فى أية لحظة ، وعندها تحتاج فرنسا

إلى دماء وسلاح الهيجونوت والكاثوليك على السواء — فالخطر من الخارج يتطلب السلام فى الداخل .

بهذا المزاج استعدت هى ومستشارها لوبيتال للاجتماع بمجلس طبقات الأمة فى أورليان . ولم تكن « أقاليم » بل كانت « طبقات » : النبلاء ، والاكليروس ، وبقية فرنسا ممثلة فى الطبقة الثالثة —وهى أساسا البورجوازية أوالطبقات الوسطى ساكنة المدن الكبيرة والصغيرة ، ولكنها تضم أيضا فى تمثيل متواضع الفلاحين والبرولتاريا الناشئة . ولم يكن للمندوبين نظريا أى سلطة تشريعية لأنهم انتخبوا بالقوى المحلية والطبقية لا بأى اقتراع واسع ، وكل ما كان لهم من حقوق هو حق إسداء النصيحة للملك ، على أن حاجته للمال عززت هذه النصيحة بعض التعزيز .

وافتتح لوبيتال الدورة (١٣ ديسمبر ١٥٦٠) بدعوة مثالية للتسامح من الفريقين . وقال مناشدا المجلس إن وظيفة الحكومة هى حفظ السلام والنظام والعدالة بين جميع المواطنين دون تحيز ودون نظر لآرائهم الدينية ، ومن المرغوب فيه أن يكون الفرنسيون جميعا على دين واحد ، لأن هـــذا من شأنه أن يعين على الوحدة والقوة القوميتين ، ولكن إذا لم يكن فى الاستطاعة بلوغ هذا الاتفاق العام بالوسائل السلمية ، فالتسامح إذن خير وأبقى . فمنـــذا الذى يعرف ما الهرطقه وما الحق ؟ « أنت تقول إن دينك أفضل الدينين ، وأنا أقول كذلك عن دينى ، فهل اعتناق رأيك معقول أكثر من اعتناقك رأيى ؟ . . . فلننه إذن هذه الأسماء الشيطانيه ، وهـــذه البطاقات الحزبيه والشيع والتحريضات على الفتنه — اللوثريين ، والهيجونوت ، والكاثوليك ؛ دعونا نغير أسماءنا إلى مسيحيين[٢٣] ! »

ولكن الاستجابه لم تكن حارة . وطالب فقيه من لاهوتيى السوربون — وهى يومئذ كليه اللاهوت فى جامعه باريس—بالموت جزاء لكل المهرطقين ، ونصح مندوب البابا كاترين بأن تبدأ بحرق جميع المندوبين الهيجونوت ، ثم تثنى بجميع الهيجونوت فى أورليان[٢٤] . أما المندوبون الهيجونوت

فاقترحوا على الملكة الأم شتى الاصلاحات : أن يختار الشعب جميع رعاته الدينيين ؛ وأن يختار الرعاة وأشراف الأسقفيات أساقفتهم ؛ وأن يخصص ثلث الايرادات الكنسية لاعانة الفقراء ، وثلث آخر لبنـــاء الكنائس والمستشفيات والمدارس ؛ وأن تقتصر تعاليم الكنيسة على الأسفار المقدسة(٢٥). وكان فى هذا من التقدمية أكثر قليلا مما تطيقه كاترين ، مع حاجتها الماسة لأموال الكنيسة . فهدأت من ثائرة الهيجونوت بالافراج عن كونديه السجين وحض البابا بيوس الرابع على السماح بإزالة الصور والتماثيل الدينية من الكنائس ومناولة الأسرار المقدسة بالخمر كما تناول بالخبز(٢٦) . وفى ٢٨ يناير ١٥٦١ أفرجت عن جميع الأشخاص الذين اعتقلوا لـ « جرائم » دينية ، وأمرت بانهاء كل الاضطهادات بسبب الدين حتى إخطار آخر . وفى الحادى والثلاثين من يناير أجلت اجتماع مجلس الطبقات إلى مايو حين ينعقد ويسد حاجاتها للمال .

واغتبط الهيجونوت وتمددوا فى دفء هذه القرارات . ففى ٢ مارس عقدوا فى بواتييه مجمعهم القومى الثانى . وراح القساوسة البروتستنت يعظون دون تحرج فى مساكن كونديه وكولينى ببلاط فونتنبلو . وفى كاستر بجنوبى فرنسا خصت الانتخابات البلدية (١ يناير ١٥٦١) البروتستنت بجميع الوظائف ، وما لبث أن صـــدر الأمر لجميع المواطنين بحضور الخدمات الدينية البروتستنتية(٢٧) ، وحظرت الخدمات الكاثوليكية ، وحكم على الصور والتماثيل الدينية رسميا بالاتلاف والتحطيم(٢٨) . وفى آجن ومونتوبن استولى الهيجونوت على الكنائس الكاثوليكية غير المستعملة . فشكل حاكم القلعة الهرم آن دمونمورنسى هو ودوق جيز ومارشال دسانت أندريه « حكومة ثلاثية » لحماية المصالح الكاثوليكية (٦ أبريل ١٥٦١) . وتفجر الشغب فى باريس ، وروان ، وبوفيه ، وغيرها . وأصدرت الملكة « مرسوم يوليو » (١٥٦١) الذى حظر العنف وخدمات الهيجونوت الدينية العلنية وتجاهل الهيجونوت المرسوم ، وهاجموا المواكب الكاثوليكية فى

مختلف المدن ، ودخلوا الكنائس الكاثوليكية وأحرقوا الآثار والرفات المقدسة وحطموا التماثيل(٢٩) . وفى مونبلييه ، فى خريف عام ١٥٦١ ، نهبت الكنائس والديورة الستون كلها ، وقتل كثير من القساوسة ، وفى مونتوبن أحرق دير « كلير الفقيرة » وشتت الراهبات ونصحن بأن يجدن لأنفسهن أزواجا(٣٠) . وفى نيم طرد الهيجونوت جميع القساوسة ، واستولوا على كل الكنائس الكاثوليكية أو دمروها ، وأحرقوا الكاتدرائية ، وداسوا القربان المكرس بأقدامهم (فبراير ١٥٦٢) (٣٢) . أما فى لانجدوك وجيين فكان الهيجونوت عادة إذا ملكوا زمام الأمر يستولون على الكنائس والأملاك الكاثوليكية ويطردون الكهنة الكاثوليك . ولم يكن القساوسة الهيجونوت أقل تعصبا من نظرائهم الكاثوليك وان امتازوا عنهم فى فضائلهم الشخصية(٣٤) ، فقد حرموا الهيجونوت الذين عقدوا زواجهم على يد القساوسة الكاثوليك أو سمحوا لأبنائهم بالزواج من الكاثوليك(٣٥) . وهكذا لم ير أحد الطرفين أى معنى للتسامح .

واستأنف مجلس الطبقات جلساته فى أول أغسطس ١٥٦١ متخـــذا بونتواز مقرا له هذه المرة . وقدم المال للحكومة مشترطا ضرورة موافقته بعد ذلك على أى فرض للضرائب الجديدة أو إعلان للحرب . أما الطبقة الثالثة ، التى أصبحت الآن المورد الأكبر للمال ، فقد أضافت طلبا جريئا — هو تأميم جميع أملاك الكنيسة الكاثوليكية فى فرنسا ، وأن تدفع الدولة رواتب الاكليروس ، وأن تخصص ٠٠٠ر٠٠٠ر٤٢ جنيه من الفائض الحاصل بهذه الطريقة وقدره ٠٠٠ر٠٠٠ر٧٢ جنيه لاستهلاك الدين الأهلى . وسارع رجال الدين الكاثوليك المروعين إلى مصالحة كاترين بأن عرضوا عليها ٠٠٠ر٦٠٠ر١٦ جنيه تدفع لها فى حذر على عشرة أقساط سنويا . فقبلت ، وحل مجلس الطبقات .

فى هذه الأثناء كان لوبيتال — بموافقة كاترين وبرغم احتجاج البابا — قد دعا رجال الدين الكاثوليك والبروتستنت للاجتماع وإيجاد صيغة لتهدئة

الخواطر . واجتمع فى بواسى ، على أحد عشر ميلا غربى باريس ، ستة كرادلة ، وأربعون أسقفا ، واثنا عشر لاهوتيا من السوربون ، واثنا عشر من كهنة الكاتدرائيات ، وعشرة قساوسة بروتستنت من فرنسا ، وواحد من إنجلترة ، وتيودور دبيز من جنيف ، وعشرون علمانيا بروتستنتيا ، فى « ندوة بواسى » المشهورة (٩ سبتمبر ١٥٦١) . وحضر الندوة الملك ، والملكة الأم ، وامراء البيت المالك ، ومجلس الدولة ، بكل مظاهر الجلال والكرامة . واستقبل بيز ، ممثل كالفن الشيخ ، بحفاوة تقرب من حفاوة الملوك ، وقام بخدمة دينية بروتستنتية ووعظ فى قصر كاترين . بدأ عظته معتدلا ، وسحر السامعين جميعا بفرنسيته الرائعة ، ولكنه حين قال إن « جسد المسيح فى القربان بعيد عن الخبز المكرس بعد السماء عن الأرض » ، صاح المندوبون الكاثوليك احتجاجا ، وتلا ذلك هياج كبير ، وألح الأساقفة فى نفى كل الوعاظ الذين يتشككون فى « الوجود الحقيقى »(٣٦) ، وارفضت الندوة والصراع على العقائد أشد مرارة وأبعد ما يكون عن الهدوء .

كان الهيجونوت يطربون حين يعقدون اجتماعاتهم فى ميدان عام مواجه لكنيسة كاثوليكية ويشوشون على القداس بترتيل صاخب لمزاميرهم ، أما الكاثوليك فكانوا يدقون جرس الكنيسة ليغرقوا صوت الترتيل . وفى باريس استحال استمرار اجتماع بروتستنتى تجاه كنيسة سان ميدار بسبب قرع عنيف صادر من برج الأجراس ، وقتل بروتستنتى داخل الكنيسة للاحتجاج ، فثارت ثائرة البروتستنت ونهبوا المبنى وحطموا التماثيل والصليب . وجرح ثمانون من المصلين فى المعركة التى تلت ذلك (٢٧ ديسمبر ١٥٦١) .

ورأت كاترين أن تهدئ خواطر الكاثوليك باصدار « مرسوم يناير » (١٥٦٢) ، الذى ألزم الهيجونوت بتسليم جميع المبانى الكنسية لأصحابها السابقين ويعقد اجتماعاتهم خارج أسوار المدن فقط . ووافق زعماء الكاثوليك

بيد على أن هذا مرسوم تسامح فى حقيقته ، اعترف بالبروتستنتية دينا شرعيا فى فرنسا ؛ وقال زعماء البرلمان لكاترين صراحة إنهم يؤثرون الموت على تسجيل هذا المرسوم . فلما أدان مونمورنسى وسانت أندريه سياستها ، طردتهما من البلاط ؛ ولما انفجر غضب الكردينال دتورنون عليها ألزمته عقر أسقفية . ورماها الوعاظ الكاثوليك بالفسق (مثل ايزابل امرأة آخاب) — وهو نفس النعت الذى كان يستعمله نوكس البرتستنتى تنديداً بملكة اسكتلنده الكاثوليكية .

وفى يوم الأحد أول مارس ١٥٦٢ ، بينما كان فرنسيس دوق جيز ماراً بقرية فاسى التى تقع نحو أربعين ميلا شمال غربى ديجون ، ومعه فرقة من مائتى تابع مسلحين ، وقف بكنيسة هناك ليستمع إلى القداس . ولكن الصلاة شوش عليها ترتيل الهيجونوت لمزاميرهم فى اجتماع لهم بجرن قريب . فأرسل إليهم رسولا يطلب إليهم ارجاء تراتيلهم خمس عشرة دقيقة حتى ينتهى القداس . ولكنهم وجدوا فى هذا الطلب مضايقة شديدة . وبينما كان جيز يواصل صلاته تراشق بعض أتباعه بعبارات التحية المتعصبة مع الهيجونوت ، وجرد الأتباع سيوفهم ، وقذفهم الهيجونوت بالحجارة ؛ وأصاب حجر منها جيز وهو خارج من الكنيسة فأسال دمه النبيل ، وما هى إلا أن اندفع أتباعه هاجمين على اجتماع الهيجونوت الذى ضم خمسمائة بين رجل وامرأة وطفل — فقتلوا منهم ثلاثة وعشرين ، وجرحوا مائة(٣٧) . وأثارت « مذبحة فاسى » هذه حمى القتال فى البروتستنت الفرنسيين ؛ أما الكاثوليك ، لا سيما فى باريس ، فرحبوا بها أداة تهذيب جاءت فى أوانها لتؤدب هذه الأقلية المكدرة لصفو البلاد . وأمرت كاترين جيز بأن يحضر إليها فى فونتنبلو ، فرفض ومضى إلى باريس ، وانضم إليه مورنمورنسى وسانت أندريه فى الطريق ومعهم ألفا رجل . وأمر كونديه قواته البروتستنت بأن تتجمع بسلاحها فى مو . وزحف الثلاثى الكاثوليكى بالجند على فونتنبلو ، فاعتقلوا الملكة الأم والأسرة المالكة ، وأكرهوهم على البقاء فى ميلون على سبعة

وعشرين ميلا من باريس ، ثم شكلوا « مجلسا خاصا » جديدا ألف أكثر أعضائه من رجال جيز ، وأقصى عنه لوبيتال . أما كونديه فقاد محاربيه البالغين ١٫٦٠٠ إلى أورليان وناشد كل الجماعات البروتستنتية أن تمده بالجنود . وهكذا بدأت أولى « الحروب الدينية » (أبريل ١٥٦٢) .

٣ — حكم الدم : ١٥٦٢ — ٧٠

طلب الفريقان المعونة من الخارج وحصلا عليها ، الكاثوليك من أسبانيا ، والبروتستنت من إنجلتره وألمانيا ، فأرسلت اليزابث ٦٫٠٠٠ رجل إذ أغراها وعد البروتستنت بإعطائها كالية ، واستولى ٢٫٠٠٠ منهم على روان ، ولكن جيز انتزع المدينة ونهبها (٢٦ أكتوبر ١٥٦٢) ، ونهب جنده المتعطشون للغنيمة السكان الكاثوليك والبروتستنت وذبحوهم دون تحيز لأى فريق ؛ وفى هذه الاشتباكات جرح أنطوان دبوربون جرحا مميتا ، وكان قد اعتنق المذهب الكاثوليكى وانضم إلى القوات الكاثوليكية . وسيطر الهيجونوت على معظم المدن جنوبى فرنسا ، ناهبين الكنائس محطمين التماثيل بحماسة دينيـة . وزحفت أهم قواتهم وعدتها ١٧٫٠٠٠ رجل يقودهم كونديه وكولينى على نورمانديا لينضموا إلى التعزيزات الإنجليزية . فقطع عليهم الزحف عند درو جيش كاثوليكى قوامه ١٧٫٠٠٠ يقوده الحلف الثلاثى ؛ وفى ١٩ ديسمبر خاض الفريقان معركة حامية خلفت ٦٫٠٠٠ صرعى فى الميدان ، وقتل سانت أندريه ، وجرح مونمورنسى وأسره الهيجونوت ، وجرح كونديه وأسره الكاثوليك . وتغلبت روح المجاملة الفرنسية حينا ، فعومل مونمورنسى معاملة الأبطال ، وهو الذى دأب على القتال جنبا إلى جنب مع جنوده وجرح فى سبع معارك مع أنه القائد الأعلى لجيوش الملك ، أما الدوق دجيز فقد احتفى بكونديه ضيفا مكرما ، وتناول معه الطعام ، وشاركه الفراش الوحيد الموجود فى المعسكر(٣٨) . وعقد النصر غير الحاسم للكاثوليك ، ولكن باريس والأسرة المالكة اعتقدا حينا أن الهيجونوت هم الغالبون . واستقبلت كاترين النبأ فى هدوء قائلة : « حسنا إذن ، سنصلى لله بالفرنسية »(٣٩) .

أما جيز فقد لقى منيته عقب الانتصار . فبينما كان ينشر قواته لحصار أورليان رماه فتى هيجونوتى فى التاسعة عشرة يدعى جان بولترو دميريه (١٨ فبراير ١٥٦٣) بطلق نارى من كمين . ومات الدوق بعد ستة أيام من الألم ، وأكد بولترو حين أحضر أمام كاترين أن كوليني استأجره على على قتل جيز بمبلغ كبير من المال ، وأن بيز وعده بالجنة ان وفق . وكتبت كاترين لكوليني تطلب جوابه عن التهمة ، فأنكر أى مشاركة فى خطة الاغتيال ، وقال إنه طالما حذر الدوق من القتلة ، واعترف بأنه سمع بولترو يجهر بنيته ، وأنه لم يفعل شيئا لمنعه ، وأنه نفحه بمائة كراون ، ولكن لأغراض أخرى ، وهو على أى حال غير آسف لنجاح المؤامرة ، « لأنه ليس فى استطاعة » القدر أن يضرب ضربة خيرا من هذه لصالح المملكة وكنيسة الله ، لا سيما وأنها لصالحى وصالح بيتى(٤٠) . » ومزقت الخيل أوصال بولترو فى ١٨ مارس ؛ وقد أعاد اتهامه لكوليني وهو يعانى سكرات الموت(٤١) . وأقسم هنرى أن يثأر لموت أبيه ، بعد أن أصبح الآن ثالث أدواق جيز .

وواصلت كاترين سعيها للسلام ، وقد وضح لها أنه لو أتيح النصر الحاسم لأحد الفريقين لنحاها وربما عزل ولدها . فأعادت لوبيتال لمنصبه مستشارا لها ، ورتبت لقاء بين مونمورنسى وكونديه ، وأقنعتهما بتوقيع مرسوم أمبواز الذى أنهى الحرب الدينية الأولى (١٩ مارس ١٥٦٣) . أما الشروط فكانت نصرا للنبلاء الهيجونوت وحدهم : فقد منحت حرية الضمير وممارسة الدين « المسمى مصلحا » « لجميع البارونات والسادة الاقطاعيين رؤساء القضاء فى بيوتهم ، هم وعائلاتهم وأتباعهم » و « للأشراف المالكين لاقطاعات بدون أتباع والعائشين على أراضى الملك ، ولكن لهم ولأسرهم شخصيا » . أما عبادة الهيجونوت فيسمح بها حيث مارسوها قبل ٨ مارس ١٥٦٣ ، وإلا تقصر على أطراف مدينة واحدة فى أى وكالة اقطاعية أو منطقة نفوذ الشريف . أما فى باريس فهى محظورة

اطلاقا . واتهم كوليني كونديه بأنه ضحى بجماهير الهيجونوت ليحمى طبقته .

وفى ١٥ سبتمبر أعلن بلوغ شارل التاسع رشده وهو لم يبلغ الرابعة عشرة ؛ ونزلت كاترين عن وصايتها ، ولكنها لم تتنزل عن قيادتها . ففى مارس ١٥٦٤ قادت الملك وحاشيته فى رحلة تخترق فرنسا ، من جهة لترى الأمة مليكها الجديد ، ومن جهة أخرى لتدعم السلام الهش . وأصدرت فى روستون مرسوما بالتسامح الجزئى ، داعية كلا من الفريقين إلى احترام حرية الآخر . وبعد أربعة عشر شهرا من الرحلة الملكية وصلت الجماعة إلى بايون (٣ يونيو ١٥٦٥) ، حيث رحبت كاترين فى ابتهاج بابنتها اليزابث التى أصبحت ملكة على أسبانيا ، واجتمعت مع الدوق ألفا فى مفاوضات سرية أزعجت الهيجونوت . فقد خامرتهم الظنون — بحق — فى أن ألفا أشار باتخاذ الإجراءات العنيفة ضدهم ، ولكن خطاباته المتخلفة لفليب تبين أن كاترين رفضت اقتراحاته ، وأبت أن تطرد لوبيتال ، وتشبثت بسياستها السلمية[٤٢] . وعقب عودتها إلى باريس (ديسمبر ١٥٦٥) استخدمت كل نفوذها لتصالح بين كوليني ، ومورنمورنسى ، وكونديه ، ودوق جيز .

وفى عام ١٥٦٤ دخل اليسوعيون فرنسا ، وأثارت عظاتهم حماسة الكاثوليك ، وحولوا فى باريس خاصة نفرا من الهيجونوت لمذهبهم . أما فى الأقاليم فقد ألغى رد الفعل الكاثوليكى كثيرا من المكاسب البروتستنتية . وانتهكت مراسيم التسامح المرة بعد المرة ، وأفرخت الهمجية فى ظل المذهبين . ولم يكن من غير المألوف أن يشنق حكام الأقاليم المواطنين لا لجريمة سوى أنهم هيجونوت[٤٣] . وفى نيم ذبح البروتستنت ثمانين كاثوليكيا (١٥٦٧)[٤٤] . وبين عامى ١٥٦١ و ١٥٧٢ اقترفت ثمانى عشرة مذبحة للبروتستنت ، وخمس للكاثوليك ، وأكثر من ثلاثين اغتيالا[٤٥] . واستقدمت كاترين الجنود المرتزقة من سويسرة ولم تعط كونديه جوابا

شافيا حين سألها عن قصدها من استقدامهم ، واعتقد كونديه وكوليني أن حياتهما في خطر ، فحاولا مع أتباعهما المسلحين أن يقتلوا الملك والملكة الأم في مو (سبتمبر ١٥٦٧) ، ولكن مونمورنسي أحبط المحاولة . وأصبحت كاترين تخشى كوليني خشيتها جيز من قبل .

وأحس كوليني وكونديه أن الحاجة ماسة لحرب ثانية ترد للهيجونوت ولو حقوقهم المحدودة . فاستقدما هما أيضا المرتزقة لا سيما من ألمانيا تعزيزا لقواتهما المستنزفة ، واستوليا على أورليان ولاروشل وزحفا على باريس وطلبت كاترين التعزيزات من ألفا ، فوافاها بها فورا ، وفي سان دنيس ، خارج العاصمة مباشرة ، قاد مونمورنسي ستة عشر ألف رجل ضد جيش كونديه في معركة من أبشع معارك هذه الحروب وأقلها حسما . ومات مونمورنسي من جراحه . وراحت فرنسا مرة أخرى تتساءل أي دين هذا الذي يدفع الناس إلى مذابح كهذه ، واغتنم لوبيتال الفرصة ليرتب صلح لونجومو (٢٣ مارس ١٥٦٨) ، الذي رد التسامح المتواضع الذي منحه مرسوم أمبواز .

وندد الكاثوليك بالمعاهدة ورفضوا تنفيذ شروطها . واحتج كوليني لدى كاترين ، فدافعت عن نفسها بضعفها . وفي مايو ١٤٦٨ أبلغ خوان دى ثونيجال ، سفير أسبانيا في روما ، أنه سمع من البابا بيوس الخامس أن الحكومة الفرنسية تنظر في اغتيال كوليني وكونديه(٤٦) . ولعل مثل هذا النبأ قد نمى إلى الزعيمين البروتستنتيين ، فهربا إلى لاروشيل ، حيث انضمت إليهما جان دالبير وابنها ، الذي بلغ الآن خمسة عشر عاما وكان يتحرق للعمل . وتكون جيش هيجونوتي جديد ، وحشد أسطول ، وعززت الأسوار ، وصدت كل محاولات بذلتها قوات الحكومة لدخول المدينة . وقبلت المراكب الخاصة الإنجليزية تفويض كونديه ، ورفعت رايته ، وانقضت على كل ثروة كاثوليكية تقع في يدها(٤٧) . وأصبح كونديه السيد المتصرف جنوبي اللوار .

أما كاترين فقد اعتبرت هذه الحرب الدينية الثالثة ثورة ، ومحاولة لقسم فرنسا إلى أمتين واحدة كاثوليكية والأخرى بروتستنتية . ولامت لوبيتال على فشل سياسات التوفيق التى أخذ بها ، فاستقال ، وأحلت مكانه فى منصب المستشار مشايعا متعصبا لآل جيز . وفى ٢٨ سبتمبر ١٥٦٨ ألغت الحكومة مراسيم التسامح وحظرت البروتستنتية فى فرنسا .

وأخذت القوات المتنافسة تتجهز لحرب فاصلة طوال ذلك الشتاء . وفى ٣ مارس ١٥٦٩ ، التحمت فى جارناك قرب أنجوليم . فهزم الهيجونوت ، واستسلم كونديه بعد أن أعيته إصاباته ، ولكنه ضرب بالنار من المؤخرة ومات . فتسلم كولينى القيادة وأعاد تنظيم الجيش لتقهقر منظم . وفى موكونتور هزم الهيجونوت ثانية ، ولكن كولينى استعاد ببراعة التخطيط ما خسره فى المعركة ، وزحف الهيجونوت الذين لا تفل لهم عزيمة ، برغم افتقارهم إلى الانتصارات ، وبلا طعام تقريبا ، حتى لم يبق بينهم وبين باريس غير مسيرة ساعات (١٥٧٠) . وعلى الرغم من الاعانات المالية التى أرسلتها روما وأسبانيا ، وجدت الحكومة مشقة فى تمويل جيوشها وحمل النبلاء الكاثوليك على البقاء فى ساحة القتال أكثر من شهر أو شهرين كل مرة . واجتاحت جحافل المرتزقة خلال ذلك البلاد تنهب الكاثوليك والبروتستنت على السواء وتقتل كل من يجرؤ على المقاومة .

وعرضت كاترين على كولينى تجديد معاهدة لونجومو ، فرفضها لأنها لا تفى بالغرض ، وواصل زحفه . هنا أكد الملك الفتى شارل التاسع سلطته فجأة وأبرم فى سان جرمان (٨ أغسطس ١٥٧٠) صلحا أعطى الهيجونوت الذين هربوا مرارا من قبل أكثر مما كسبوا فى أى وقت مضى ، أعطاهم حرية العبادة إلا فى باريس أو على مقربة من البلاط ، وحقهم الكامل فى تقلد المناصب العامة ، وحق الاحتفاظ بأربع مدن تحت حكمهم لمستقل مدى عامين ضمانا لاحترام تنفيذ هذه الشروط . واستشاط الكاثوليك غضبا وتساءلوا ، فيم الاستسلام بعد كل هذه الانتصارات ؟ واحتج

فليب والبابا » وصرفتهما كاترين بتأكيدها هما أنها إنما تترقب الفرصة المواتية *) .

ومع ذلك راحت تدعم الصلح الجديد بعرضها تزويج ابنتها مارجريت فالوا من هنرى ملك نافار ، الذى أصبح بعد موت كونديه الزعيم الرسمى للهيجونوت . وكانت هذه آخر ضرباتها وأجرأها . لا يهم كونها هى وجان دالبير خصمين لدودين ، ولا أن هنرى قتل فى الحروب من قتل من الكاثوليك . إنما المهم أنه صغير السن مطواع ، فلربما استطاع سحر أميرة جميلة مرحة أن يجتذبه بعيدا عن هرطقاته . إذن ستشهد باريس زفافا باهرا ، وسيدعى إليه الرجال والنساء من المذهبين ؛ وستبعث من جديد روح النهضة المرحة وسط مرارة الاصلاح البروتستنتى ؛ وسيكون هناك تعطيل لنشاط اللاهوت ، والحرب ، والقتل .

٤ — المذبحة

ولكن ، أترضى بذلك أم هنرى ؟ لقد كانت جان دالبير هيجونوتية دما ولحما . وحين جاءت إلى البلاط عام ١٥٦١ أعلنت أنها « لن تحضر القداس ولو قتلوها قتلا ، وأنها تؤثر أن تلقى بابنها وملكه فى البحر عن أن تستسلم[٤٨] » ، بل انها دعت قسيسها الهيجونوتى ليعظها والأبواب مفتوحة على مصاريعها ، وتجاهلت فى تحد الاتهامات التى رمتها بها الجماهير الباريسية . وحين اعتنق زوجها الكاثوليكية تركته هو والبلاط (١٥٦٢) وعادت إلى بيارن وجمعت المال والجند لكونديه . وبعد موت زوجها فرضت البروتستنتية على إقليم بيارن (وكان يضم مدن بو ، ونيراك ، وتارب ، وأورتيه ، ولورد) ؛ وطردت الكهنة الكاثوليك وأحلت محلهم القساوسة الهيجونوت[٤٩] . ولم يسمع بعدها قداس فى بيارن طوال

(*) دافع اللورد أكتون ، المؤرخ الكاثوليكى ، بكفاية فى كتابة « تاريخ الحرية » (لندن ١٩٠٧) ص ١٠١ — ٤٩ ، عن الرأى القائل بأنها ظلت عامين قبل ذلك تنظر فى إمكان التخلص من زعماء الهيجونوت باغتيالهم .

حسين غاما(٥٠) . وحرمها البابا بيوس الرابع وأراد أن يعزلها ، ولكن كاترين ثنته(٥١) ، ولعل جان ذكرت هذا حين قبلت عرضها بربط أسرتى فالوا وبوربون برباط الزواج ، وذكرت كفاح كاترين الطويل فى سبيل السلام . ثم ان أبناء كاترين معلولون . أفليس من المحتمل أن يموتوا كلهم ويتركوا عرش فرنسا لهنرى نافار ؟ أو لم يتنبأ العراف نوسترا داموسى بأن أسرة فالوا ستنقرض عما قليل ؟

أما أكثر أبناء كاترين سقاما ، وهو شارل التاسع ، فربما كان فتى محببا لولا نوبات طارئة من القسوة والغضب تشتعل أحيانا فتستحيل سورة تشرف على الجنون . وفيما بين هذه الغضبات كان قصبة تحركها الريح ، وإمعة لا رأى له . ولعله أضعف نفسه بالانهماك فى اللذات . كان زوجا لاليزابيث ابنة الامبراطور مكسمليان الثانى ، ولكن حبه الحرام الثابت كان لخليلته الهيجونوتية مارى توشيه . وكان حساسا للفن والشعر والموسيقى ، يحب أن يتلو غنائيات رونزار ، وقد كتب فى تكريم رونزار أبياتا جميلة جمال شعر رونزار :

كلانا يلبس تاجا ،
أما أنا فتلقيته ملكا ، وأما أنت فتهبه شاعرا ،
ان قيثارتك التى تسحر بأنغامها الحلوة ،
تخضع لك الأرواح ، التى لا أملك غير أجسادها ،
انها ترقق القلوب ، وتسترق الجمال ،
فى قدرتى أن أعطى الموت ؛ أما أنت فتعطى الخلود .

فلما انضم كولينى إلى البلاط فى بلوا (سبتمبر ١٥٧١) رحب به شارل كما يرحب الضعف بالقوة . هنا رجل مختلف كل الاختلاف عن الكثيرين الذين يتراقصون حول العرش : جنتلمان ، وارستقراطى ، ولكنه هادئ رزين ، يحمل نصف فرنسا فى قوة كلمته . وكان الملك الشاب يخاطب القائد المكتهل بـ « أبى » ، وعينه قائدا للأسطول ، ومنحه من جيب

الملك الخاص ١٠٠,٠٠٠ جنيه تعويضا عن خسائره فى الحروب . وانضم كولينى إلى مجلس الملك ورأسه فى غيابه[٥٢] . وكان شارل دائم الغيرة والخوف من فليب الثانى ، كارهاً تبعية فرنسا الكاثوليكية لأسبانيا . و قترح عليه كولينى الرأى فى حرب مع أسبانيا تعطى فرنسا قضية توحد صفوف الفرنسيين ، وتصحح ذلك الحد الشمالى الشرقى الذى تتعدى عليه أسبانيا ، ولقد آن أوانها لأن وليم أورنج يقود ثورة قامت بها الأراضى المنخفضة على سيدها الأسبانى ، فما هى إلا دفعة قوية حتى تصبح فلاندر فرنسية . واستمع إليه شارل فى تعاطف . وفى ٢٧ أبريل كتب إلى الكونت لوى ناسو الذى تزعم التمرد البروتستنتى فى إينو يقول « إنه مصمم . . . على استخدام القوى التى أودعها الله فى يده لتخليص الأراضى المنخفضة من الظلم الذى ترزح تحتـــه[٥٣] » . وعرض لوى وأخوه وليم أورنج تسليم فلاندو وأرتوا لفرنسا لقاء تقديمها المعونة الحاسمة ضد أسبانيا[٥٤] . وفى خريف تلك السنة تفاوض شارل مع أوغسطس ناخب سكسونيا لتأليف حلف دفاعى بين فرنسا وألمانيا البروتستنتية[٥٥] .

أما كاترين فقد حكمت على اقتراحات كولينى بأنها غير عملية إلى حد الحماقة . فمن الخرق أن تعود بهذه السرعة إلى اطلاق شياطين الحرب بعد أن ظفرت بالسلام الذى تفتقر إليه فرنسا أشد افتقار . صحيح أن أسبانيا مفلسة افلاس فرنسا ، ولكنها ما زالت أقوى دولة فى العالم المسيحى ، ولقد كللت نفسها مؤخرا بالغـــار حين هزمت الترك فى ليبانتو ، وإذن فستكسب تأييد كل أوربا الكاثوليكية ، ومعظم فرنسا الكاثوليكية — لو دخلت فرنسا حلفا بروتستنتيا . وفى حرب كهذه سيكون كولينى القائد الأعلى ، وبفضل نفوذه على شارل الطيع سيكون هو الملك الفعلى ، وستنحى كاترين إلى شينونسو إن لم يكن إلى إيطاليا . وعلم هـنرى جيز وهنرى أنجو — أخو الملك — فى فزع أن شارل سمح لكولينى بتجريد جيش للانضمام إلى لوى ناسو ، وقهر ألفا هذا الجيش بعد أن نبهه إليـــه أصدقاؤه فى البلاط الفرنسى (١٠ يوليو ١٥٧٢) . واستمع اجتماع كامل

لمجلس الملك إلى كوليني يدفع عن مقترحاته للحرب مع أسبانيا (٦ – ٩ أغسطس ١٥٧٢)، ورفضت كلها بالاجماع؛ ولكن كوليني أصر عليها قائلا « لقد وعدت على مسئوليتى بمساعدة أمير أورنج، فأرجو ألا يسوء الملك أن أوفى بوعدى عن طريق أصدقائى، وربما بشخصى. » ثم قال للملكة « سيدتى، إن الملك يتجنب اليوم حربا تعده بمنافع عظيمة، وقانا الله نشوب حرب أخرى لا يقوى على تجنبها[٥٦] ». وانفض المجلس فى غيظ شديد لما بدا كأنه تهديد بحرب أهلية ثانية. وقال المارشال دتافان « لتحذر الملكة من مشورات ابنها الملك وخططه وأحاديثه السرية؛ ان الهيجونوت ظافرون به إن لم تأخذ حذرها[٥٧] ». وأخذت كاترين شارل جانبا ولامته على أنه أسلم عقله لكوليني، فان أصر على شن الحرب على أسبانيا فستستأذنه فى الانسحاب مع ابنها الآخر إلى فلورنسة. وطلب إليها الصفح ووعدها بطاعة الابن لأمه، ولكنه ظل الصديق الوفى لكوليني.

فى هذا الجو قدمت جان دالبير إلى بلوا لعقد الزواج الذى كان مزمعا أن يوحد فرنسا الكاثوليكية والبروتستنتية. وأصرت على أن يقوم الكردينال دبوربون بالمراسيم لا بصفة الكاهن بل الأمير، لا داخل كنيسة بل خارجها، وألا يصحب هنرى زوجته إلى الكنيسة ليستمع إلى القداس. ووافقت كاترين، وان أفضى هذا إلى مزيد من النزاع مع البابا، الذى رفض الحل لمارجريت بالزواج من الابن البروتستنتى لبروتستنتى محروم. ثم ذهبت جان إلى باريس تتسوق، فمرضت بذات الجنب، وماتت (٩ يونيو ١٥٧٢). وخامرت الهيجونوت الظنون بأنها ماتت مسمومة، ولكن هذا الفوض لم يعد له محل[٥٨]، وحضر هنرى نافار إلى باريس من بلوا فى أغسطس على الرغم من شكوكه وحزنه، مصحوبا بكوليني وثمانمائة من الهيجونوت؛ ولحق بهم أربعة آلاف هيجونوتى فى العاصمة[٥٩]، من جهة ليشهدوا الاحتفالات، ومن جهة أخرى ليحموا ملكهم الشاب. وأثار هذا السيل المتدفق وما رافقه من عشرات العظات

الثارية حفيظة باريس الكاثوليكية(٦٠) ، فنددت بالزواج لأنه استسلام من الحكومة للقوة البروتستنتية . ومع دلك تم الاحتفال (١٨ أغسطس) دون حل من البابا ، واتخذت كاترين تدابيرها لتمنع البريد من الاتيان بحظر البابا . وقاد هنرى زوجته حتى باب نوتردام ، ولكنه لم يدخل معها . ان باريس لم تكن فى نظره تستأهل بعد أن يحضر قداسا من أجلها . ونزل مع مارجريت قصر اللوفر مؤقتا .

لم تجش باريس بمثل هـذا الانفعال من قبل إلا فيما ندر . واعتقد الناس أن كوليني يتأهب للذهاب إلى جبهة القتال لأنه ما زال مصرا على المعونة العلنية تبذلها فرنسا للأراضى المنخفضة الثائرة . وأنذر بعض الكاثوليك كاترين بأن الهيجونوت يخططون مرة أخرى لمحاولة خطفها هى والملك(٦١) . وكشف طرق السندانات فى أرجاء المدينة عن صنع السلاح على عجل . فى هذه الفترة الحاسمة وافقت كاترين ، فيما زعم ابنها هنرى ، على قتل الأميرال(٦٢) .

ففى ٢٢ أغسطس ، بينما كان كوليني يسير من اللوفر إلى بيته ، قطع عياران أطلقا من نافذة سبابة يسراه ومزق ذراعه حتى الكوع . واندفع رفاقه إلى المبنى ، ولكنهم لم يجدوا سوى قربينة مدخنة ، فقد هرب المعتدى من الخلف . وحمل كوليني إلى مسكنه . وحين نمى الخبر إلى الملك صاح غاضبا « ألا يتاح لى الهدوء أبدا ؟ » وأرسل طبيبه الخاص ، أمبرواز باريه الهيجونوتى ، ليعالج جراح كوليني ، وعين حراسا ملكيين على بيته ، وأمر الكاثوليك بأن يخلوا المساكن المجاورة وسمح للهيجونوت بشغلها(٦٣) . وحضرت الملكة والملك وأخوه هنرى لمواساة الجريح ، وأقسم شارل بـ « أغلظ الأيمان » لينتقمن لكوليني من هذا العدوان . وعاود كوليني حث شارل على دخول الحرب للحصول على فلاندر(٦٤) . وانتحى به جانبا وأسر إليه شيئا . وبينما الأسرة المالكة فى طريقها إلى اللوفر ، أصرت كاترين على أن يبوح الملك بالسر . فأجاب « حسنا إذن ، قسما بموت

الإله ، ما دمت تصرين على أن تعرفى ، فهاك ما قاله لى الأميرال : أن السلطة كلها تحطمت فى يديك ، وأن النهاية ستكون وبالا علىّ » . وفى سورة غضبه حبس الملك نفسه فى غرفته الخاصة . وراحت كاترين تجتر همومها فى غيظ وخوف(٦٥) .

وذهب هنرى نافار إلى كولينى وناقش معه إجراءات الدفاع : وأراد بعض حاشية الأميرال أن يمضوا لتوهم ويغتالوا الزعماء من آل جيز ، ولكنه نهاهم . وقال الهيجونوت « إذا لم تجر العدالة مجراها كاملا فهم لا بد مجروها بأنفسهم(٦٦) » . وراح الهيجونوت يحومون حول اللوفر طوال ذلك اليوم ، وقال أحدهم للملكة إنهم سيقتصون من الجانى بأيديهم إن لم يأخذ العدل مجراها سريعا(٦٧) . ومرت عصابات من الهيجونوت المسلحين المرة بعد المرة بأوتيل اللورين الذى يقيم فيه آل جيز وصاحت تهـدد بالموت(٦٨) . ولجأ آل جيز إلى الملك طالبين الحماية وتحصنوا فى بيتهم . أما شارل فقد اشتبه فى أنهم استأجروا القاتل وقبض على نفر من خدمهم وهدد دوق جيز . واستأذن هنرى جيز وأخوه دوق أومال فى أن يغادروا باريس ، فأذن لهما ، ومضيا حتى بوابة سانت انطوان ، ثم انقلبا عائدين واتخذا طريقهما خفية إلى أوتيل اللورين .

وفى ٢٣ أغسطس اجتمع مجلس الملك للتحقيق فى الجريمة. وتبين للمجلس أن البيت الذى أطلق منه العياران تملكه (وان لم تشغله) دوقة جيز الأرملة ، التى أقسمت من قبل على أن تثأر لمقتل زوجها فرنسيس ؛ وأن القاتل هرب ممتطيا جوادا من مرابط أسرة جيز ، وأن السلاح كان ملكا لأحد حرس الدوق أنجو . ولم يقبض على القاتل قط . وفى رواية لأنجو بعد ذلك أنه هو وهنرى جيز قررا الآن أنه لا بد من قتل كولينى وبعض الهيجونوت الآخرين . وبينما كانت كاترين وبعض أعضاء المجلس مجتمعين فى التويلرى ، اندفع إلى الاجتماع عميل لأنجو يسمى بوشافان معلنا أن أن الهيجونوت فى بيت كولينى يخططون لفتنة عنيفة يقومون بها على الأرجح

فى المساء التالى(٦٩) . وأضيف الآن عامل جديد إلى كراهية كاترين للأميرال ، وغضبها مما لاح لها أنه أغواء منه للملك ليحرمه من إرشادها ، واقتناعها بأن سياسة الحرب مع أسبانيا ستكون وبالا على فرنسا وعلى أسرتها — ذلك هو الخوف على حياتها من خطر داهم ، وخشيتها أن تنتقل كل السلطة سريعا إلى أيدى كولينى وأصحابه . فوافقت على قتل زعماء الهيجونوت(٧٠).

ولكن موافقة الملك كانت أمرا مرغوبا فيه، ان لم يكن ضروريا ؛ وكان لا يزال يطالب بمحاكمة جميع من لهم علاقة بالهجوم على كولينى . وحوالى الساعة العاشرة من مساء ذلك اليوم (٢٣ أغسطس) أرسلت الملكة الأم الكونت رتز ليحذر شارل من الفتنة المزعومة ، وسرعان ما أحاطت كاترين ومستشاروها بالحاكم الشاب الذى شارف الآن على الجنون لفرط انفعاله : وأكدت له كاترين أن ثلاثين ألفا من الهيجونوت يخططون لاعتقاله فى الغد وخطفه إلى قلعة بروتستنتية حيث يظل أسيرا لا حول له ولا قوة ؛ أو لم يحاولوا من قبل أن يضربوا هذه الضربة مرتين ؟ فإذا تم لهم النصر قتلوها للشبهة فى اصدارها الأمر بالاعتداء على الأميرال أو السماح بهذا الاعتداء . وقيل للفتى ذى الثلاثة والعشرين ربيعا أن يختار بين حياة أمه أو حياة ستة من الهيجونوت . فلو أنه رفض الموافقة وتغلبت باريس الكاثوليكية على الثورة ، لنحى جانبا لأنه جبان أحمق . ولكنه قاوم هذه الحجج ؛ وسأل ، لم لا يكفى أن يقبض على زعماء الهيجونوت ويحاكموا قانونيا ، وأجاب المستشارون ان الوقت فات لتفادى الثورة بمثل هذا الإجراء . وهددته كاترين بأنها ستنسحب إلى إيطاليا وتتركه لمصيره . وأخيرا ، بعد أن قارب الليل أن ينتصف ، وفى نوبة من الانهيار العصبى والغضب ، صاح شارل ، « قسما بموت الإله ، ما دمتم تريدون قتل الأميرال ، فأنا موافق ، ولكن يجب أن تقتلوا جميع الهيجونوت فى فرنسا ، حتى لا يبقى منهم أحد ليلومنى . . . اقتلوهم جميعا ! اقتلوهم جميعا ! » وبعد أن لعن وجدف ، هرب من مستشاريه وحبس نفسه فى حجرته .

وإذا كان المتآمرون قد دبروا قتل نفر من الهيجونوت ، فإنهم اغتنموا الآن فرصة هــذا الأمر المجنون الذى نطق به الملك ليستأصلوا شأفة الهيجونوت ما أمكنهم ذلك . وأصرت كاترين على حماية هنرى نافار ، واستثنى أمير كونديه الشاب — هنرى الأول — وآل مونمورنسى لأنهم أنبل أصلا من أن يسمح بقتلهم ، وأنقذ الملك الجراح أمبرواز باريه ؛ ولكن الأمر أبلغ لقواد أحياء باريس بأن يسلحوا رجالهم ويستعدوا للعمل بمجرد سماعهم أجراس الكنائس تدق فى الثالثة من صباح ٢٤ أغسطس ، وهو عيد القديس بارتولوميو . وأعطى دوقا جيز تفويضا مطلقا بانفاذ ثأرهما من الأميرال بعد أن طال إرجاؤه . وأرسل هنرى جيز كلمة إلى ضباط المليشيا بأن على رجالهم حالما يسمعون ناقوس الخطر يقرع أن يذبحوا كل هيجونوتى يعثرون عليه ؛ أما أبواب المدينة فتقفل لتمنع الهاربين من الهروب .

وبينما كان الظلام لا يزال مخيما قاد جيز نفسه ثلاثمائة جندى إلى المبنى الذى ينام فيه كولينى . وكان على مقربة منه باريه طبيبه ، وميرلان سكرتيره ، ونيقولا خادمه . وأيقظهم وقع أقدام جند مقبلين ، ثم سمعوا طلقات وصيحات — كان حرس كولينى يقتلون . واندفع صديق إلى الحجرة وهو يصيح « لقد قضى علينا ! » وأجاب الأميرال ، « إننى أعددت نفسى للموت منذ زمن طويل . فأنقذوا أنفسكم . لا أريد أن يلومنى أحباؤكم على موتكم . أستودع روحى لرحمة الله » . وهربوا . واقتحم جند جيز الباب فوجدوا كولينى راكعا يصلى . وطعنه جندى بسيفه وشق وجهه ؛ وطعنه آخرون ؛ ثم قذف من النافذة وهو حى بعد فسقط على الرصيف أسفلها عند قدمى جيز . وبعد أن تأكد الدوق من موت كولينى أمر رجاله بأن ينتشروا فى باريس ويذيعوا هذه العبارة « اقتلوا ! اقتلوا ! هذا أمر الملك . » وفصل رأس الأميرال عن جسده وأرسل إلى اللوفر — وقيل إلى روما(٧١) ، أما الجسد فسلم للجماهير التى مثلت به تمثيلا وحشيا ،

فقطعت الأيدى والأعضاء التناسلية لتعرضها للبيع ، وعلقت بقيته من عرقوبيه[٧٢] .

وأرسلت الملكة خلال ذلك الأوامر لدوق جيز بوقف المذبحة لشعورها بشىء من الندم أو الخوف . وكان الجواب أن الأوان فات ؛ أما وقد مات كولينى ، فلا بد من قتل الهيجوت وإلا فهم لا محالة ثائرون . وخضعت كاترين وأمرت بقرع ناقوس الخطر . وتلت ذلك مذبحة ندر أن عرفتها المدن حتى فى جنون الحرب ، واغتبطت الجماهير باطلاق دوافعها المكبوتة لتضرب وتوجع وتقتل . فاقتنصت وذبحت من الهيجونوت وغيرهم عددا يتفاوت بين الألفين وخمسة الآلاف ؛ واستطاع من بيتوا نية القتل من قبل أن يقتلوا الآن خصومهم وهم آمنون من العقاب ؛ واغتنم الأزواج المعذبون أو الطامعون والزوجات الفرصة ليتخلصوا من زوجاتهم وأزواجهن غير المرغوب فيهم ، وذبح التجار منافسيهم ، ودل الورثة المنتظرون على أقربائهم الذين طال ترقبهم لموتهم واتهموهم بأنهم هيجونوت[٧٣] . وقتل راموس الفيلسوف بتحريض أستاذ حسود . واقتحم كل بيت اشتبه فى إيوائه الهيجونوت وفتش . وجر الهيجونوت وأبناؤهم إلى الشوارع وذبحوا ذبح الأنعام وانتزعت الأجنة من بطون أمهاتهم القتيلات وهشموا[٧٤] . وما لبثت الجثث أن تناثرت على أرصفة الشوارع ، وأخذ الصبية يلعبون ألعابهم فوقها . ودخل حرس الملك السويسريون المعمعة وراحوا يذبحون فى غير تمييز للذة الذبح الخالصة . وقتل رجال مقنعون الدوق دلاروشفوكو الذى لعب التنس مع الملك بالأمس ، وقد حسبهم جاءوا يدعونه إلى حفلة ملكية . ودعى النبلاء والضباط الهيجونوت الذين انزلوا قصر اللوفر باعتبارهم حاشية ملك نافار إلى الفناء وضربوا بالنار واحدا بعد الآخر عند وصولهم . أما هنرى فكان قد خرج ليلعب التنس بعد أن استيقظ فى الفجر . وأرسل شارل فى طلبه هو وكونديه وخيرهما بين « القداس أو الموت » واختار كونديه الموت ، ولكن الملكة أنقذته . أما نافار فوعد بالامتثال فأبقى عليه . وأما عروسه

مارجريت النائمة نوما مضطربا فقد أيقظها هيجوتوتى جريح اندفع إلى حجرتها وفراشها ، فأقنعت مطارديه بألا يقتلوه . ذكر السفير الأسبانى فى تقريره « إنهم يقتلونهم جميعا وأنا أكتب هذا ، انهم يعرونهم . . ولا يعفون أحداً حتى الأطفال . تبارك الله ! (٧٥) » أما وقد أصبح القانون ذاته خارجا على القانون ، فقد انطلق السلب والنهب فى غير قيد ، وأبلغ الملك أن بعض حاشيته شاركوا فى نهب العاصمة . والتمس منه بعض المواطنين المروعين عند ما اقتربت الظهيرة أن يأمر بوقف المذبحة ، وعرضت جماعة من شرطة المدينة أن تعاون على استتباب الأمن . فأصدر الأوامر بوقف المذبحة ، وأمر الشرطة بأن يحبسوا البروتستنت حماية لهم ؛ ثم أنقذ بعض هؤلاء ، وأغرق غيرهم بأمره فى السين . وهدأت المذبحة هنيهة . ولكن حدث فى يوم الاثنين الخامس والعشرين من الشهر ، ان شجيرات الشوك البرى أزهرت فى غير أوانها فى مقبرة الأطفال ؛ وهلل الكهنة للأمر حاسبينه معجزة ، وقرعت أجراس الكنائس فى باريس احتفالا به ، وظنت الجماهير أن هذا القرع دعوة إلى تجديد المذبحة ، فاستؤنف القتل من جديد .

وفى اليوم السادس والعشرين ذهب الملك فى موكب رسمى هو وحاشيته إلى قصر العدالة مخترقا الشوارع التى ما زالت الجثث مبعثرة فيها ، وشهد لبرلمان باريس فى فخر بأنه أمر بالمذبحة . وأجاب رئيس البرلمان بخطاب تهنئة طويل . وقرر البرلمان بأن ورثة كولينى يجب حرمانهم من حماية القانون ، وأن بيته فى شاتيون يجب أن يهدم ، وأن ما بقى من أملاكه يجب أن يصادره الدوق أنجو . وفى اليوم الثامن والعشرين زار الملك والملكة الأم والحاشية عدة كنائس فى احتفال دينى للشكر على تخليص فرنسا من الهرطقة ونجاة الأسرة المالكة من الموت .

وحذت الأقاليم حذو باريس بأسلوب الهواة ، فارتكبت المذابح الجنونية بوحى الأنباء الواردة من العاصمة فى ليون ، وديجون ، وأورليان ، وبلوا ، وتور ، وتروا ، ومو ، وبورج ، وأنجيه ، وروان ، وتولوز

(٢٤ — ٢٦ أغسطس) . وحسب حاك دتو ٨٠٠ ضحية فى ليون ، و١٫٠٠٠ ضحية فى أورليان . أما الملك فقد شجع هذه الإبادة ، ثم نهى عنها ، ففى السادس والعشرين من الشهر أرسل تعليمات شفوية لحكام الأقاليم بأن يقتلوا كل زعماء الهيجونوت[٧٦] ، وفى السابع والعشرين أرسل إليهم أوامر مكتوبة بأن يحموا البروتستنت المسالمين الممتثلين للقانون . وفى الوقت ذاته كتب لممثله فى بروكسل أن يلتمس تعاون الدوق الفا :

« إن فى يد الدوق كثيرا من رعاياى المتمردين ، وفى قدرته أن يستولى على مونز ويعاقب (المحاصرين) فيها . فإن أجابك بأن المفهوم من هذا ضمنا قتل هؤلاء السجناء وتقطيع المحاصرين فى مونز ، فقل أن هذا ما يجب أن يفعله[٧٧] » .

ورفض ألفا الدعوة . ولما استولى على مونز سمح للحامية الفرنسية أن تغادرها دون أن يصيبها أذى . وكان بينه وبين نفسه يحتقر مذبحة القديس بارتلوميو لأنها وسيلة خسيسة للحرب ، ولكنه أمام الناس أمر بالاحتفال بالمذبحة انتصارا للدين المسيحى الحق دون غيره[٧٨] .

واستطاع بعض حكام الأقاليم أن يفرضوا على جماهيرهم ضبطا جديرا بالمتحضرين . فلم يكن هناك مذابح فى شمبانيا ؛ ولا فى بيكاردى ، ولا فى بريتنى ، وكان قليل منها فى أوفرن ، ولانجدوك، وبرجنديا، ودوفينى . وفى ليون ندد كثير من الكاثوليك بالمذبحة ، وأبى الجنود أن يشاركوا فيها ، وفى فيين بسط الأسقف حمايته على البروتستنت ، وخبأت الأسر الكاثوليكية الهيجونوت المهددين بالخطر[٧٩] . أما فى تروا وأورليان فقد أرخى الأساقفة العنان للمذبحة[٨٠] ، وفى بوردو أعلن يسوعى أن الملاك ميخائيل قد أمر بالمذبحة ، وندد ببطء الحكام فى اصدار أوامر القتل . وأغلب الظن أن الأقاليم ساهمت بخمسة آلاف ضحية ، وباريس بنحو ألفين ، ولكن بعضهم يقدر جملة الضحايا بعدد يتفاوت من خمسة آلاف[٨١] إلى ثلاثين ألفا[٨٢] .

وأغضى الكاثوليك عموما عن المذبحة باعتبارها انفجارا للغيظ والثأر بعد سنين من اضطهاد الهيجونوت للكاثوليك[٨٣] . أما فليب الثانى فقد ضحك على غير عبوسه وجهامته المألوفة حين سمع النبأ، وحسب أنه لن يكون هناك خطر من تدخل فرنسا فى الأراضى المنخفضة . أما الممثل البابوى في باريس فكتب إلى روما يقول : « أهنئ قداسة البابا من أعماق قلبى على أن الله جل جلاله شاء فى مستهل بابويته أن يوجه شئون هذه المملكة توجيها غاية فى التوفيق والنبل ، وأن يبسط حمايته على الملك والملكة الأم حتى يستأصلا شأفة هذا الوباء بكثير من الحكمة ، وفي اللحظة المناسبة حين كان كل المتمردين محبوسين فى القفص[٨٤] » . وحين وصل النبأ إلى روما نفح كردينال اللورين حامله بألف كراون وهو يهتز طربا . وسرعان ما أضيئت روما كلها ، وأطلقت المدفعية من قلعة سانت انجلو ، وقرعت الأجراس فى ابتهاج ، وحضر جريجورى الثالث عشر وكرادلته قداسا مهيبا لشكر الله على « هذا الرضى الرائع الذى أبداه للشعب المسيحى » ، والذي أنقذ فرنسا والكرسى البابوى المقدس من خطر عظيم . وأمر البابا بضرب مدالية خاصة تذكارا لهزيمة الهيجونوت أو ذبحهم[٨٥] — وعهد إلى فازارى بأن يرسم فى الصالة الملكية بالفاتيكان صورة للمذبحة تحمل هذه العبارة — « البابا يوافق على قتل كولينى »*[٨٦] .

أما أوربا البروتستنتية فقد دمغت المذبحة بأنها همجية كلها جبن ونذالة . وأخبر وليم أورنج المبعوث الفرنسى أن شارل التاسع لن يستطيع أبدا أن يغسل يديه من دم الجريمة . وفى إنجلتره أحدق المطالبون بالثأر بالبزابيث ،

(*) حاول المؤرخ الكاثوليكى باستور — برغم عدم اعتذاره عن المذبحة — أن يعلل فرحة البابا بأنها شعور الارتياح بعد الخوف من أن يقضى انتصار كولينى على الكاثوليكية فى فرنسا ، وأن يؤدى إلى اتحاد فرنسا مع انجلترا وهولندة واسكندناوه وشمال ألمانيا — وكلها بلاد بروتستنتية — فى حرب لإبادة الكاثوليكية فى كل مكان (كتلك التى دعا إليها لوثر[٨٧]) .

ونصحها الأساقفة بأن السبيل الوحيد لتهدئة غضب الشعب أن تعدم على الفور كل الكاثوليك الذين أودعوا السجون لرفضهم حلف يمين الولاء ؛ أو على الأقل يجب إعدام ملكة اسكتلندة فوراً (٨٨) . على أن اليزابث احتفظت بهدوئها . وارتدت ثياب الحداد الثقيل لتستقبل السفير الفرنسي ، وقابلت توكيداته بأن المذبحة فرضتها مؤامرة الهيجونوت الوشيكه بعدم التصديق الواضح . ولكنها واصلت ضرب أسبانيا بفرنسا ، ومماطلة ألنسون في الاستجابة لطلب يدها ، وفي نوفمبر وافقت على أن تكون عرابة لابنة شارل التاسع .

أما كاترين فقد خرجت من المقتلة مبتهجة منتعشة ؛ لقد خضع لها الملك الآن من جديد ، وبدا أن مشكلة الهيجونوت حلت . ولكنها أخطأت التقدير ، إذ تبين أن ارتداد الكثيرين من البروتستنت الفرنسيين الذين ارتضوا اعتناق الكاثوليكية بديلا عن الموت لم يكن غير ارتداد مؤقت . فما مضى شهران على المذبحة حتى افتتح الهيجونوت الحرب الدينية الرابعة . وأغلقت لاروشيل وعدة مدن أخرى أبوابها في وجه جيش الملك وأفلحت في مقاومة الحصار . وفي ٦ يوليو ١٥٧٣ وقع شارل صلح لاروشيل الذي منح الهيجونوت حريتهم الدينية . إذن فالمذبحة لم تحقق من الناحية السياسية شيئاً .

وانصرف الآن رجال الفكر من الهيجونوت عن شارل التاسع في اشمئزاز شديد ، وهم الذين أعلنوا من قبل ولاءهم له ، وراحوا يشككون لا في حق الملوك الإلهي فحسب ، بل في نظام الملكية ذاته . ونشر فقيه هيجونوتي يدعى فرانسوا أوتمان بعد سنة من فراره إلى سويسرة عقب المذبحة كتابا فيه هجوم عنيف على شارل سماه « الضجة الغالية » ، وقال فيه إن جرائم ذلك الملك أحلت شعبه من يمين الولاء له ، وأنه مجرم لا بد

من عزله . وقبل أن ينصرم العام أصدر أوتمان من جنيف كتابه « غالة الفرنسية » وهو أول محاولة حديثة فى كتابة التاريخ الدستورى ، وحجته أن الملكية الغاليّة — الفرنسية قامت على الانتخاب ، فالملك — إلى عهد لويس الحادى عشر — كان خاضعا لمجلس شعبي من نوع ما ، والبقايا الهزيلة التى تخلفت عن هذه السلطة الانتخابية هى هذه « البرلمانات » الذليلة ، ومجلس الطبقات الذى طال إغفاله ؛ وهذه السلطة منحت لتلك الهيئات بتفويض من الشعب . « فالشعب وحده صاحب الحق فى انتخاب الملوك وعزلهم[٨٩] » . ثم طالب باجتماع مجلس الطبقات دوريا ، فهذه الهيئة دون سواها هى التى يجب أن يكون لها سلطة إصدار القوانين ، وتقرير الحرب أو السلم ، والتعيين فى المناصب الكبرى ، وتنظيم ولاية العرش ، وعزل الملوك الفاسدين . فها هنا بداية هزيم الرعود التى انطلقت عام ١٧٨٩ .

على أن الحياة ذاتها هى التى أنزلت شارل التاسع عن عرشه بعد قليل . ذلك أن الخير والشر قد اصطرعا داخله حتى تحطم جسده السقيم بفطرته تحت وطأة الصراع . كان حينا يشعر بالارتياح الخبيث لجرأة جريمته وعنفها ، وحينا ينحى على نفسه باللوم لأنه وافق على المذبحة ؛ وظلت صرخات القتلى من الهيجونوت ترن أذنيه وتطرد النوم عن اجفانه . وبدأ يؤنب أمه ويقول لها « من غيرك تسبب فى هذا كله ؟ قسما بدم الإله إنك أنت السبب فى كل ما حدث » . أما هى فكانت تشكو من أن ولدها مجنون[٩٠] . ورانت عليه الكآبة والحزن ، وبات نحيل الجسد شاحب الوجه . وكان فيه استعداد قديم للسل ، فلما ضعفت مقاومته هدّه المرض ، وما أقبل عام ١٥٧٤ حتى كان يبصق الدم . وفى الربيع اشتد نزيفه وعاودته رؤى ضحاياه ، وصاح بممرضته « أى سفك للدماء ، أى قتل ! يا لها من مشورة شريرة تلك التى اتبعتها ! غفرانك ربى ! . . .

إننى هالك ! (٩١) » . وأرســـل يوم وفاته — ٣٠ مايو ١٥٧٤ — فى طلب هنرى نافار . فعانقه فى حب وقال له « يا أخى ، انك فاقد صديقا وفيا . فلو أننى استمعت إلى كل ما قيل لى لمــا كنت الآن على قيد الحيـــاة . ولكننى أحببتك دائمــا ... وفيك وحدك أضع ثقتى بأن ترعى زوجتى وابنتى . صل إلى الله من أجلى . وداعا ». ثم مات بعدها بقليل قبل أن يبلغ الرابعة والعشرين .

الفصل الرابع عشر

هنرى الرابع

١٥٥٣ — ١٦١٠

١ — الحب والزواج

كانت أم هنرى فى العماد مارجريت أنجوليم ، أميرة فالوا ونافار ، والأخت التقية الحساسة ، المحبوبة، لفرانسيس الأول ، الجرىء ، الأنيق ، عاشق النساء . أما أمه فجان دالبر المهرطقة ، العنيدة ، المتمردة ، وأما أبوه انطوان بوربون حفيد القديس لويس فكان وسيما ، شجاعا ، كيسا ، مغرورا ، ميالا إلى التذبذب من مذهب إلى مذهب . ولا بد أن هنرى حمل بين جنبيه — وهو يخرج إلى النور (١٤ ديسمبر ١٥٥٣) فى مدينة بو باقليم بيارن — كل صفات اسلافه إلا التقوى . وقد أقنع جده السعيد أمه جان وهى فى المخاض بأن ترتل للعذراء ترتيلة ، لثقته بأنها ستكون فألا حسنا ، ثم دعك شفتى الوليد بالثوم وسقاه النبيذ على سبيل العماد فى بيارن . أما البطل فقد استنفد لبن ثمانى مرضعات .

لم يستطب التعليم ، فقد كره الكتابة ، وهرب من النحو ، ولكنه تعلم كيف يكتب بأسلوب ساحر . وقرأ بلوتارخ كأنه إنجيل البطولة . وربى أكثر وقته فى الخلاء ، وبرز فى الجرى والوثب والمصارعة والركوب والملاكمة ، وأكل الخبز الأسود والجبن والبصل ، واستمتع بالصيف والشتاء بلذة سخرت من التشاؤم . نشئ هيجونوتيا ، ولكنه لم يسمح قط للدين بأن يعطل الحياة . وحين دعى فى التاسعة للعيش فى البلاط وتعلم آدابه وأخلاقه ، اعتنق الكثوليكية فى غير تردد ، ولما عاد إلى بيارن فى الثالثة عشرة استأنف العقيدة الهيجونوتية كأنه يغير ملابسه وفقا لتغير المناخ.

وكان يتنقل بيسر أعظم من غرام إلى غرام — فأحب تجنوتفبيل الصغيرة ، والآنسة مونتاجو ، وأرنودين ، ولاجارس (البغى) ، وكاترين دلوك ، وآن دكامبفور . لقد كان يطرح العقائد والخليلات دون أن يعذب ضميره أو يغير هدفه .

فأما هدفه فهو أن يتربع على عرش فرنسا . فلما ناهز التاسعة عشرة ، أصبح ملكا على نافار بعد أن مات أبوه ؛ ولكن هذا لم يكن سوى لقمة أثارت شهيته للملكية دون أن تشبعها ، وذهب إلى باريس ليزف إلى مارجريت فالوا ، فاستقبل استقبال وريث للعرش لايسبقه فى خط الوراثة غير دوق أنجو ودوق ألنسون . وعندما وقعت المذبحة عقب زواجه ، تمالك جأشه وأنقذ رأسه بالارتداد المؤقت عن مذهبه .

وأما عروسه « مارجو » فكانت أعظم نساء فرنسا فتنـــة وألينهن عريكة . فجمالها لا يرقى إليه شك ، وقد تغنى به رونسار ، ورتل برونتوم قصائد الغزل المشبوب فى بشرتها الطرية الناعمة ، وشعرها المتموج أو باروكاتها المتنوعة ، وعينيها اللتين ترشقان المرح أو الغضب أو الشيطنة ، وقوامها الممشوق كقوام محظية من محظيات القصور ، المهيب كقوام ملكة ، وقدميها الرشيقتين تقودان رقصات البلاط ، وفيض حيويتها فى جيل كله صراع وكآبة ، كل هذه المفاتن اجتذبت العدد الوفير من العشاق إلى مخدعها ، واتهمتها الشائعات بالاستسلام اللبق للغرام بل ولعشق المحارم[١].
ولم يكن فى وسع هنرى أن يشكو وهو ذو العين الزائغة بين الحسان ، ولكن حين استأنفت مارجو ذبذباتها — وكانت تزوجته على غير ارادتها — بعد انحناءة قصيرة منه لزواج المرأة الواحدة ، بدأ يتساءل من ترى سيكون أبا لأطفاله . واتخذ له خليلة ، ثم مرض ، فلم تدخر جهدا فى تمريضه ، وإن عزت علته إلى « افراطه مع النساء » . ولكن سرعان ما باعدت بينهما الشكوك المتبادلة حتى لقد كتبت تقول « لم نعد ننام معا ، ولا يكلم أحدنا الآخر[٢] » .

وظل فى البلاط ثلاث سنوات على كره منه . وذات ليلة (١٥٧٥) بينما كان يصيد ، رمح بجواده خارج الحدود ؛ ثم هرب متنكرا عبر فرنسا ، وشق طريقه وسط الاخطار إلى نيراك ، وحكم بيارن وجين حكما تميز بالعدل والذكاء . وهجر الكثلكة ، ورد للبروتستنت سلطانهم فى بيارن ، وحماهم فى جين . وبعد ثلاث سنوات لحقت به مارجو ، وأعانها الملك الشاب — فى أوقات فراغه من الصيد أو قتال الكاثوليك — على جعل مباهج بلاطها الصغير تغطى على خياناتهما . وفى عام ١٥٨٢ ، وبعد أن تعبت من تقديم العون لخليلاته فى مخاضهن ، عادت إلى باريس ، ولكن مغامراتها هناك كانت صارخة بحيث أمرها هنرى الثالث بأن تعجل بالعودة إلى زوجها . وبعد أن قضت عامين آخرين فى بيارن اعتكفت فى آجن . ووافق الملكان — « الهنريان » الآن — على أن تعيش أشبه بالحبيسة فى قصر أوسون الريفى ، وقررا لها معاشا طيبا (١٥٨٧ — ١٦٠٥) . وحولت سجنها صالونا ، واستقبلت فيه الشعراء والفنانين والعلماء والعشاق ، وألفت مذكراتها الحافلة بالقيل والقال . وقد أطرى ريشليو أسلوبها ، وأهداها مونتيني بعض مقالاته ، وأثنى الوعاظ على برها بالفقراء . وبعد اغراءات لا يستهان بها وافقت على فسخ زواجها ، وسمح لها بالعودة إلى باريس والبلاط (١٦٠١) . فاستأنفت هناك غرامياتها وصالونها ، ثم غدت بدينة ، وتابت ، واتخذت فانسان دبول قسيسا لها ، وبنت ديرا ، ثم ماتت فى سلام وتقوى (١٦١٥) بالغة من العمر اثنين وستين عاما . وهكذا اختتمت حياتها ، كما قال معاصر لها ، « مرجريت ، البقية الباقية من سلالة فالوا ، أميرة كلها . . . نيات طيبة . . . لم تؤذ أحدا إلا نفسها[٣] » .

٢ — هنرى الثالث : ١٥٧٤ — ٨٩

بعد أن تربع الدوق أنجو فترة قصيرة على عرش بولندة عاد فى الرابعة والعشرين ليعتلى عرش فرنسا باسم هنرى الثالث ، آخر ملوك فالو الفرنسيين . وهو يطالعنا فى صورة له باللوفر لا يعرف مصورها ، فتى

طويلا، نحيلا ،شاحبا،حزينا — رجلا ذا نية طيبة، شوشت عليه حياته الوراثة السيئة . كان ضعيف البنية ، قلق العاطفة، سريع الأعياء ، وكان عليه أن يجتنب الركوب والصيد ، ويلزم فراشه أياما إثر دقائق من الغرام النشيط . وقد شكا حكة فى جلده لا سبيل إلى برئها ، وصداعا فى رأسه ووجعا فى معدته ونزفا فى أذنه . أبيض شعره وسقطت أسنانه قبل أن يبلغ السادسة والثلاثين . أما غطرسته البادية فلم تكن فى حقيقتها سوى جبن ، وأما قسوته فخوف ، فإذا أرسل نفسه على سجيتها كان لطيفا حذرا . ولكنه لسوء الحظ كان شديد الولع بارتداء ثياب النساء . ظهر فى حفلة رقص مرتديا ثوبا انخفضت فتحة عنقه وأحاط برقبته عقد من اللآلئ ، وكان يلبس الجواهر فى أذنيه والأساور فى ذراعيه . وجمع من حوله اثنى عشر « غندورا » ، شباب جعدوا شعورهم الطويلة وصبغوا وجوههم ، وازدانوا بالثياب البهية ، وضمخوا أنفسهم بالعطور التى نشرت أريجها حولهم . ومع أشباه الرجال هؤلاء ألف أحيانا — وهو متنكر فى ثوب امرأة — أن يعربد فى الشوارع ليلا ويلعب ألاعيبه على المواطنين . وقد أفرغ خزانة بلده المشرف على الافلاس والفوضى على أحبائه الذكور ، فأنفق أحد عشر مليونا من الفرنكات على زفاف أحدهم ، وضاعف ثمن المناصب القضائية ليشترى هدية زواج لآخر . على أنه أنفق بعض مال شعبه فى أغراض نافعة — فبنى البون نوف وحسّن اللوفر ، وانتشل بعض أجزاء باريس من قذارتها إلى حسن العمارة والنظافة . وأعان الأدب والمسرح . وبذل جهودا متقطعة للنهوض بالادارة . وتكفيرا عن كل سيئاته حج مرات راجلا إلى شارتر وكليرى ، وفى باريس مشى من كنيسة إلى كنيسة — وهو يعبث بمسبحات كبيرة ، وجمع فى حماسة الكثير من الصلوات الربانية والسلامات المريمية ، وسار فى مواكب « التائبين الزرق » الليلية الرهيبة وجسده فى غرارة بها ثقوب لقدميه وعينيه . ولم يعقب . أما أمه التى حملت إليه بذور الانحلال من أبوين مريضين فكانت تتطلع فى أسى إلى تدهور سلالتها وانقراضها الوشيك .

كان فى الموقف السياسى من الاضطراب مالا يرقى إليه ادراك هنرى ؛ فهو لم يخلق الحرب ، وكانت كاترين تتوق إلى السلام وقد تقدم بها العمر ؛ ولكن الهيجونوت ما زالوا ثائرين ، فهم يائسون ولكنهم لم يذلوا . وكان أخوه الدوق ألينسون يتودد إلى ملكة بروتستنتية تجلس على عرش إنجلترة ، وإلى ثوار بروتستنت فى الأراضى المنخفضة ، وإلى هنرى نافار فى بيارن . كانت أقلية من زعماء الكاثوليك ، سماهم نقادهم بـ « السياسيين » ، ... أفكار لوبيتال (الذى مات حزينا عام ١٥٧٣) ، فاقترحوا التسامح المتبادل بين المقتتلين ، ودافعوا عن فكرة مكروهة فى المعسكرين ، وهى أن ... استطاعة الأمة أن تحيا دون وحدة فى العقيدة الدينية . وقالوا إن على فرنسا ... حظر البابوات مثل هــذا التوفيق بين الفريقين أن تقطع روابطها الدينية مع روما . فلما خاف هنرى التعاون بين هؤلاء السياسيين والهيجونوت ، وخشى غارات الجنود الألمان القادمين لتعزيز قوة البروتستنتية ، أنهى عام ١٥٧٦ الحرب الدينية الخامسة بتوقيعه « صلح الموسيو » فى يوليو ، واصداره مرسوم تهدئة — هو مرسوم يوليو — الذى منح الهيجونوت حرية العبادة فى كل مكان بفرنسا ، وحق اختيارهم لجميع المناصب ، وسمح لهم بثمانى مدن يكون لهم فيها كامل السلطة السياسية والعسكرية .

وصدمت هذه التنازلات الممنوحة لفريق ظن الناس أنه تحطم وانتهى معظم الكاثوليك الفرنسيين ، لا سيما جماهير باريس الشديدة التمسك بعقيدتها . وكان كردينال اللورين قد اقترح عام ١٥٦٢ « حلفا مقدسا » يقسم أعضاؤه على الدفاع عن الكنيسة بكل وسيلة أيا كانت ، وبأى ثمن كائنا ما كان . ونظم هنرى جيز مثل هذا الحلف فى شمبانيا عام ١٥٦٨ . ومن ثم ألفت الآن جماعات كهذه فى كثير من الأقاليم . وفى عام ١٥٧٦ أعلن الدوق جهارا تأليف « الحلف المقدس » واستعد لنزال يسحق به الهيجونوت سحقا .

ولا حاجة بنا لتتبع سير الحروب الدينية السادسة والسابعة والثامنة إلا

فى تأثيرها على مجرى الأفكار فى فرنسا . هنا دخلت الفلسفة ساحة الوغى مرة أخرى . ففى عام ١٥٧٩ أصدر مؤلف غير معروف الاسم — ربما كان فليب دوبليسى — مورنيه ، أحد مستشارى نافار — من بازل بيانا مثيرا سماه « دفاع (عن حقوق الشعب) ضد الطغاة » . كتبه باللاتينية ، ولكن سرعان ما ترجم إلى اللغات القومية . وقد دام أثره قرنا كاملا : واستخدمه الهيجونوت فى فرنسا ، والهولنديون ضد فليب ، والبيورتان ضد تشارلز الأول ، والوجز تبريرا لعزلهم جيمس الثانى . واتخذت النظرية القديمة ، نظرية « العقد الاجتماعى » الضمنى المبرم بين الشعب وحاكمه ، شكلا محددا فى هذا الكتاب ، وسنشهدها مرة أخرى فى هوبز ، ولوك ، وروسو . فالحكومة أولا هى ميثاق بين الله ، والشعب ، والملك ، لدعم « الدين الحق » والامتثال له — وهو البروتستنتية فى هذه الحالة ؛ وأى ملك يقصر فى هذا يحل عزله — والحكومة ثانيا هى ميثاق بين الملك والشعب ، الأول ليحكم بالعدل ، والثانى ليطيع مسالما . والملك والشعب على السواء خاضعان للقانون الطبيعى . أى قانون العقل والعدالة الطبيعية ، الذى يمتثل القانون الأدبى الإلهى ، ويعلو على كل قانون « وضعى » (أى من صنع الإنسان) . أما وظيفة الملك فصيانة القانون الوضعى والطبيعى والإلهى ، فهو أداة القانون لا سيده . « والرعايا .... بوصفهم هيئة ، يجب اعتبارهم سادة المملكة وأصحابها المطلقين . » ولكن من الذى يقرر أن الملك طاغيـــة ؟ لا الشعب فى جمهوره ، « ذلك الوحش الكثير الرءوس » ، بل ليقرر ذلك القضاة ، أو مجلس كمجلس الطبقات الفرنسى مثلا . ولا يصح أن يتبع كل فرد خاص ضميره ؛ فقد يحسب شهواته ضميره ، وهنا تأتى الفوضى ؛ ولكن إذا دعاه القاضى للعصيان المسلح فعليه أن يلبى الدعوة . على أنه يحل قتل الطاغية بيـــد أى إنسان إذا كان مغتصبا(٤) .

واشتد صراع القوى والأفكار بعد أن مات دوق ألينسون (١٥٨٤) ،

واعترف هنرى الثالث بهنرى نافار وريثاافتراضياًللعرش . وكف الهيجونوت بين عشية وضحاهاعن حديث الطغيان والعزل،وأصبحوا المؤيدين المتحمسين للشرعية لما توقعوا من قرب انهيار ملك فالوا المتهافت وتسليمه فرنسا لرجلهم البروتستنتى البوربونى . وإذا القوم يعرضون عن كتاب « الدفاع » الذى كان بالأمس القريب بيانا هيجونوتيا ، بل إن أوتمان ذاته صرح بأن مقاومة هنرى نافار خطيئة (٥) . ولكن أكثر فرنسا كان يقشعر فرقا من فكرة ملك هيجونوتى يتربع على عرشها . فكيف يمكن أن تمسح الكنيسه بالزيت المقدس بروتستنتيا فى مدينة رامس ؟ وهل يستطيع أحد بغير هذه المسحة أن يكون ملكا شرعيا لفرنسا ؟ أما رجال الاكليروس السنيون ، يتزعمهم اليسوعيون المتحمسون ، فقد نددوا بالوراثة وأهابوا بجميع الكاثوليك أن ينضموا إلى الحلف . وانضم إليه هنرى الثالث بعد أن جرفه هذا التيار ،وأمر جميع الهيجونوت بأن يعتنقوا الكثلكة أويرحلوا عن فرنسا . وناشد هنرى نافار أوربا أن تعترف بعدالة قضيته ، ولكن البابا سيكستوس الخامس حرمه ، وصرح بأنه لا يمكن أن يرث العرش لأنه زنديق سادر فى زندقته . وهنا أعلن شارل ، كردينال بوربون ، نفسه وريثا افتراضيا للعرش . وعاودت كاترين محاولتها فى سبيل السلام ، فعرضت أن تؤيد نافار إذا تخلى عن بروتستنتيته ، ولكنه أبى ، وامتشق الحسام على رأس جيش بعضه كاثوليكى ، واستولى على ست مدن فى ستة شهور ، وهزم جيشا للحلف يبلغ ضعف جيشه عند كوترا (١٥٨٧) .

وسيطر الهيجونوت الآن وهم لا يتجاوزون جزءا على اثنى عشر من السكان(٦)على نصف مدن فرنسا الكبرى(٧). ولكن باريس كانت قلب فرنسا وهى مع الحلف قلبا وقالبا . ولم يرض الحلف بالتأيد الفاتر الذى لقيه من هنرى الثالث ، فأقام فى العاصمة حكومة ثورية تتألف من ممثلين للأحياء الستة عشر ؛ وتفاوضت حكومة « الستة عشر » مع أسبانيا لتغزو انجلترة وفرنسا ، وبيتت اعتقال الملك . وأرسل هنرى فى طلب حرس سويسرى ،

ودعت حكومة الستة عشر دوق جيز إلى تقلد السلطة فى باريس ، فمنعه الملك ، ولكن الدوق وصل ، وهتفت له الجماهير زعيما لقضية الكثلكة فى فرنسا . وفر هنرى الثالث إلى شارتر وقد شعر بالهوان وتوعد بالانتقام . ثم فقد أعصابه مرة أخرى ؛ فتبرأ من هنرى نافار ، وعين هنرى جيز قائدا أعلى للجيوش الملكية ، ودعا مجلس الطبقات للاجتماع فى بلوا .

فلما اجتمع المندوبون لاحظ الملك فى سخط مظاهر التكريم التى حظى بها جيز والتى تقرب مما يحظى به الملوك . وفى يوم تصميمٍ مسعور أقنع بعض أعوانه بقتل الدوق . ودعاه إلى لقاء خاص ، وبينما النبيل الشاب يقترب من حجرة الملك طعنه تسعة من المهاجمين طعنات أودت بحياته ، وفتح الملك الباب وتطلع فى رضى يشوبه الانفعال إلى هدفه الذى تحقق (٢٤ ديسمبر ١٥٨٨) . ثم أمر بسجن زعماء الحلف وقتل الكردينال جيز أخي الدوق . وفى فخر ورعب أنهى إلى أمه بطولاته التى ناب فيها عنه غيره ، فعصرت يديها فى يأس وقالت له « إنك خربت المملكة » .

ولم يمض اثنا عشر يوما حتى ماتت فى التاسعة والستين وقد أضنتها المسئوليات والهموم والدسائس ، وربما تبكيت الضمير أيضا . ولم يكد أحد من الناس يتوقف ليحزن على موتها . ودفنت فى مقبرة عامة ببلوا ، لأن حكومة الستة عشر أعلنت أنها ستلقى جثتها فى السين إذا جيء بها إلى باريس . واتهم نصف فرنسا هنرى الثالث بالقتل ، وجاب الطلاب الشوارع مطالبين بعزله ، أما لاهوتيو السوربون يؤيدهم البابا فقد أحلوا الشعب من ولائه للملك ، ودعا القساوسة إلى المقاومة المسلحة له فى كل مكان . وقبض على مؤيدى الملك ؛ واحتشد الرجال والنساء داخل الكنائس مخافة أن يحسبوا من أنصار الملك . واعتنق مؤلفو كراريس الحلف الايديولوجية السياسية للهيجونوت ، فاعلنوا أن الشعب صاحب السيادة ، وله الحق فى خلع الطاغية عن طريق البرلمان أو القضاة ، وأى ملك فى المستقبل ينبغى

أن يخضع للقيود الدستورية ، وأن يكون واجبه الأول فرض الدين الحق — وهو الكاثوليكية فى هذه الحالة [٨] .

أما هنرى الثالث ، الموجود الآن فى تور مع بعض النبلاء والجنود ، فقد وجد نفسه بين نارين . فجيش الحلف يزحف عليه من الشمال بقيادة دوق ماين ، وجيش نافار يزحف من الجنوب فاتحا المدينة تلو المدينة ، إذن فاحدى القوتين قابضة عليه لا محالة . واغتنم هنرى الهيجونوتى فرصته ، فأوفد دوبليس — مورنى ليعرض على الملك محالفته وحمايته وتأييده . والتقى الهنريان عند بليسى — لى — تور وتعاهدا بوفاء كل منهما لصاحبه (٣٠ أبريل ١٥٨٩) . وهزم جيشاهما المتضافران ماين وزحفا على باريس .

وفى العاصمة المسعورة استمع راهب دومنيكى يدعى جاك كليمان فى حماسة إلى ما تردد من اتهام لهنرى الثالث بالاغتيال . وقد أكدوا له أن القيام بعمل عظيم فى سبيل قضية مقدسة سيمحو كل تبعة عن أوزاره ، وأثار ثائرته حزن كاترين دوقه مونبنسييه ، شقيقة الأخوين القتيلين جيز ، وحركة جمالها . فاشترى خنجراً ، وتسلل إلى معسكر الملك ، وطعنه فى بطنه ، فقتله الحراس ، ومات واثقاً من ثواب الجنة . أما هنرى فالوا فقد مات غداة طعنه (٢ أغسطس ١٥٨٩) وهو يتوسل إلى اتباعه أن يلزموا هنرى نافار . وانتشرت الفوضى فى جيش المحاصرين ، وتبدد أكثره ، وأجل الهجوم المقترح على باريس . أما فى داخل المدينة فقد بلغت فرحة الحلف وتابعيه حد الهذيان . ووضعت بعض الكنائس صورة الراهب فوق مذبحها [٩] ، وهلل الأتقياء لاغتيال الملك باعتباره أنبل عمل فى سبيل الله تم منذ تجسد المسيح [١٠] . واستدعيت أم كليمان من الريف ، فوعظت فى الكنائس ، واحتفل القوم بها بترتيل ترنيمة مقدسة : « طوبى للبطن الذى حملك ، وللثدى التى أرضعتك » [١١] .

٣ — الطريق إلى باريس (١٥٨٩ — ٩٤)

بلغ هنرى نافار الآن نقطة الحسم فى حياته . لقد وجد نفسه فجأة ،

بحكم القانون والتقليد ، ملك فرنسا ، ولكن نصف جنده تركوه بمثل هذه السرعة الفجائية تقريباً . أما النبلاء الموالون لهنرى الثالث فقد انطلقوا إلى ضياعهم ؛ واختفى معظم الكاثوليك الذين كانوا يحاربون فى جيشه . ورفض ثلثا فرنسا فكرة الملك البروتستنتى رفضاً باتاً . أما جماعة « السياسيين » فقد أسكتهم الاغتيالان برهة ؛ واعترف برلمان باريس بالكردينال بوربون ملكاً على فرنسا ؛ ووعد فليب ملك أسبانيا الحلف بذهب الأمريكتين ليحتفظ بفرنسا فى حظيرة الكاثوليكة . وكان التفسخ الذى أصاب إنتاج فرنسا وتجارتها قد جلب على البلاد من الدمار ما لم يبق لها معه إلا نشوة الحقد والكراهية القاتلة . وهو أمر لم يحزن فليب كثيراً .

كان محالا على نافار أن يهاجم مدينة كباريس تكن له العداء الشديد ، بجيش انفرط عقده وتقلص عدده . ومن ثم فقد عمد فى كفاية قيادية ، عطلتها خليلاته أكثر مما عطلها العدو ، إلى سحب قواته إلى الشمال ليتلقى المعونة من انجلترة ، وتبعه ماين بما أتاحت له بدانته من سرعة . والتقى الجيشان عند آرك جنوبى دييب مباشرة ، وعدة جيش هنرى ٧,٠٠٠ ، وجيش ماين ٢٣,٠٠٠ (٢١ سبتمبر ١٥٨٩) . ونستطيع أن نفهم نتيجة المعركة من رسالة هنرى إلى رفيقه فى السلاح كريون ، « اشنق نفسك أيها الشجاع كريون ، لقد خضنا المعركة عند آرك ، ولم تكن أنت هناك » وشدد الانتصار من عزيمة أعوان هنرى السريين فى كل مكان . ففتحت عدة مدن أبوابها له مغتبطة ، واعترفت به جمهورية البندقية ملكاً ، أما الزابث ، التواقة كالبندقية إلى الحيلولة دون سيطرة أسبانيا على فرنسا ، فقد أرسلت له ٤٠٠٠ جندى ، و ٢٢,٠٠٠ جنيه ذهبى ، و ٧٠,٠٠٠ رطل من البارود ، وشحنات من الأحذية ، والطعام ، والنبيذ ، والجعة . ورد فليب على هذا بارساله تجريدة من فلاندر إلى ماين . والتقى الجيشان المعززان عند إفرى على نهر أور فى ١٤ مارس ١٥٩٠ . ورشق هنرى فى خوذته ريشة شرف كبيرة بيضاء — لا يكاد المرء يسميها ريشة طائر

بيضاء — وقال لجنده « إذا فرقكم وطيس المعركة لحظة فتجمعوا تحت أشجار الكمثرى تلك التي ترونها على يميني ، وإذا فقدتم أعلامكم فلا تغفلوا عن ريشتي البيضاء — ستجدونها دائماً في طريق الشرف ، وفي طريق النصر أيضاً كما أرجو » . وقاتل في المقدمة كما كان شأنه دائماً . وورم ذراعه الأيمن وتشوه سيفه من كثرة مقارعة العدو . وقد خدمه اشتهاره بالرأفة ، إذ استسلم له الآلاف من الجنود السويسريين الذين كانوا في جيش مايين والذين لم تدفع لهم رواتبهم . وخلف انتصار هنري الحلف بغير جيش ، فزحف على باريس دون مقاومة تقريباً ليحاصرها .

ومن مايو إلى سبتمبر ١٥٩٠ عسكر جنده الجائعون المفلسون حول العاصمة وهم يتحرقون شوقاً لمهاجمتها ونهبها ، ولكن صدهم عن هذا رفض هنري الموافقة على مذبحة ربما كانت شراً من مذبحة القديس برتلميو ؟ وبعد شهر من الحصار كان الباريسيون يأكلون لحم الخيل والقطط والكلاب ، ويغتذون بالعشب . ورق لهم قلب هنري فسمح للأقوات بأن تدخل المدينة . وجاء دوق بارما ، والي فليب على الأراضي المنخفضة ، لنجدة باريس بجيش حسن التجهيز من صناديد الاسبان ، وتقهقر هنري إلى روان بعد أن غلبته مناورات العدو ، وتبعه بارما في صراع الاستراتيجية . ولكن المرض أعجز الدوق ، وعاد جيش هنري يحاصر العاصمة من جديد .

وواجه الآن هذا السؤال الفاصل : أيستطيع ، وهو البروتستنتي ، أن يظفر بعرش بلد ٩٠ ٪ منه كاثوليك ، وأن يحتفظ بهذا العرش ؟ لقد كان الكاثوليك كثرة غالبة حتى في جيشه . ولا ريب في أنه لم يكن من همومه الصغيرة تناقص موارده المالية وعجزه عن دفع رواتب جنده بعد ذلك . ومن ثم دعا معاونيه واعترف لهم بأنه يفكر في اعتناق الكاثوليكية ، فوافق بعضهم على الخطة لأنها السبيل الوحيد إلى السلام ، وندد آخرون بها باعتبارها تخلياً قاسياً شائناً عن الهيجونوت الذين أعطوه الدم والمال

أملا فى أن يكون لهم ملك بروتستنتى . هؤلاء أجابهم هنرى بقوله : « لو اتبعت نصيحتكم لما بقى فى فرنسا بعد قليل ملك ولا مملكة . أريد أن أمنح السلام لرعاياى والراحة لنفسى . فتشاوروا فيما بينكم ماذا تريدون ضماناً لأمنكم . وأنا على الدوام مستعد لإرضائكم (١٢) » . ثم قال « ربما لم تكن شقة الخلاف بين المذهبين واسعة إلا لما بين المبشرين بهما من حقد وعداء . وسأعمل يوماً باستعمال سلطتى على أن يستقيم هذا الأمر كله ».(١٣) ثم حدد صلب عقيدته بقوله « إن الذين يتبعون ضميرهم دون عوج هم على دينى ، وأنا على دين كل إنسان شجاع طيب(١٤) » . وهجر دوبليسى — مورنيه ، وأجريبا دوبنيه ، وكثير من زعماء البروتستنت الآخرين الملك ، ولكن الدوق صلى ، أصدق مستشارى هنرى ، الذى ظل بروتستنتيا وفياً ، وافق على قرار مولاه « أن باريس تستأهل قداسا (١٥) »(*) .

ففى ١٨ مايو ١٥٩٣ أرسل هنرى إلى البابا واكليروس باريس يبدى رغبته فى أن يدرس العقيدة الكاثوليكية . وكان جريجورى الرابع عشر قد جدد حرمه . ولكن الاكليروس الفرنسى الذى لم يذل أبداً لروما تأهب لإعداد التائب الجديد لأن يكون ملكا تقيا . على أنه لم يكن بالتلميذ السهل القياد . فهو يرفض أى تعهد بأن يشن حربا على الهرطقة ، وهو يأبى أن يوقع أو يؤمن بـ « هراء هو واثق كل الثقة من أن أغلبهم لا يؤمنون به (١٦) » ، ولكنه وافق فى سماحة على عقيدة المطهر لأنها « أعظم مصادر دخلكم (١٧) » . وفى ٢٥ يوليو كتب لخليلته آنذاك « سأقفز القفزة الخطرة » ثم ذهب إلى كنيسة دير سان دنيس ، واعترف ، ونال الغفران ، واستمع إلى القداس .

ورماه الالآف فى المعسكرين بالنفاق . وأنكر اليسوعيون كثلكته وواصل زعماء الحلف مقاومتهم . ولكن موت دوق بارما والكردينال بوربون كان قد أوهن قوة الحلف ، وفقدت حكومة الستة عشر منزلتها فى أعين الوطنيين الفرنسيين لتأييدها خطة فليب الرامية إلى جعل ابنته ملكة

(*) Paris vaut bien une messe

على فرنسا . ومال كثير من النبلاء إلى هنرى بوصفه القائد الحربى الكفيل بكبح جماح فليب ، والحاكم الرحيم الذى يستطيع أن يرد العافية إلى وطن استشرت فيه الفوضى حتى كادت تمزق أوصاله . وأعربت مجلة ذكية تدعى « ساتير منيبيه » (١٥٩٣ — ٩٤) عن عواطف جماعة « السياسيين » والبورجوازيين ، وسخرت فى ظرف وتهكم باليسوعيين والحلف ، وأعلنت أنه « ما من سلام بلغ من الظلم ما يجعله لا يرجح أكثر الحروب عدلا[٨] » . وطلب الجميع السلام فى شوق ، حتى باريس المتعصبة . واستمرت الاشتباكات الصغيرة ثمانية شهور أخرى ، ولكن فى ٢٢ مارس ١٥٩٤ ، زحف هنرى إلى باريس ودخلها ولم يكد أحد يعترضه ، وعظم ترحيب الجماهير به حتى أنه حين أراد أن يدخل نوتردام لم يكن بد من رفعه فوق الرءوس . وثبت ملكاً فى ذلك اللوفر ذاته ، الذى كان فيه قبل اثنين وعشرين عاماً سجيناً قاب قوسين من الموت ، واستسلم للبهجة والفرح ، فأصدر بطريقته المرحة ، عفواً عاماً شمل حتى آل جيز وحكومة الستة عشر . واكتسب بعض أعدائه بالغفران عنهم دون تردد وبالمجاملة السمحة الكيسة ورشا البعض بمال اقترضه .

على أنه لم يكسب الجميع إلى صفه . ففى ليون اشترى بيير باريير مدية وشحذها ثم شد رحاله إلى باريس معلنا نية اغتيال الملك . فقبض عليه فى ميلون وشنق دون إبطاء . وقال هنرى « وا أسفاه ، لو علمت بالأمر لعفوت عنه . » وأرسل البابا كلمنت الثامن للملك حل الكنيسة ، ولكن اليسوعيين واصلوا مهاجمته فى مواعظهم . وفى ٢٧ ديسمبر هجم فتى فى التاسعة عشرة يدعى جان شاتيل على الملك بخنجر ولكن لم يصبه بأسوأ من قطع فى شفته وكسر فى سنه . ومرة أخرى رأى هنرى العفو عن هذا المتعصب ، ولكن رجال السلطة أوقعوا بشاتيل كل أنواع التعذيب التى نص عليها القانون ضد قتلة الملوك . وقد اعترف الرجل فى كبرياء برغبته فى قتل الملك لأنه زنديق خطر ، وأعلن استعداده لبذل محاولة أخرى فى

سبيل خلاص نفسه . وقال فى اعترافه إنه تلميذ لليسوعيين ، ولكنه أبى أن يورطهم بأكثر من هذا فى مغامرته . وقد رويت عن اليسوعى الأسبانى خوان دماريانا (الذى سنلتقى به ثانية) عبارات وأفق فيها على اغتيال الملوك الفاسدين ، لا سيما هنرى الثالث ، وتبين أن اليسوعى الفرنسى جان جينار كتب يقول إنه كان من الواجب قتل هنرى الرابع فى مذبحة القديس برتلميو ، وإذ يجب التخلص منه الآن « بأى ثمن وبأية طريقة[١٩] » . وفى بواكير عام ١٥٩٥ أمر برلمان باريس اليسوعيين بالرحيل عن فرنسا بناء على التماس من الاكليروس العلمانى فى السوربون .

٤ — الملك الخلاق : ١٥٩٤ — ١٦١٠

تبين هنرى أن مهمة التعمير أشق من قهر القوة المسلحة . ذلك أن اثنين وثلاثين عاما من « الحروب » الدينية ، خلفت فى فرنسا من الخراب والفوضى ما خلفته حرب المائة عام فى القرن السابق . فبحرية فرنسا التجارية كادت تختفى من البحار ، وقد بلغ عدد البيوت التى دمرت ثلثمائة ألف ، وأعلن الحقد تعطيله للفضيلة ، وسمم فرنسا بشهوة الانتقام . وأغار الجنود المسرحون على الطرق والقرى سرقة وتقتيلا وتآمر النبلاء ليفرضوا استرداد سيادتهم الاقطاعية ثمنا لولائهم للملك ، وكانت الأقاليم التى طال تركها معتمدة على مواردها تقسم فرنسا إلى دويلات مستقلة ذاتيا ، وكان الهيجونوت يطالبون بالاستقلال السياسى والحرية الدينية ، والحلف لا يزال يحتفظ بجيش فى الميدان ؛ واشترى هنرى قائده ماين بالمال فارتضى الهدنة ثم الصلح فى النهاية (يناير ١٥٩٦). وبعد أن وقعت الشروط ، اصطحب هنرى الدوق البدين فى مسيرة طويلة جعلته يلهث إعياء ، ثم أكد له أن هذا هو انتقامه الوحيد منه[٢٠] . ولما تزعم أحد قواده المدعو شارل جونتو ، دوق بيرون ، مؤامرة ضده ، عرض عليه هنرى العفو إذا اعترف ، ولكنه أبى ، فأمر بمحاكمته ، وأدين بالجريمة وقطع رأسه

(١٦.٢) . وأدركت فرنسا الآن أن نافار ملك . وسمح له شعب فرنسا الذى أرهقته الفوضى — بل توسلت إليه طبقات رجال الأعمال — أن يجعل ملكية البوربون الجديدة مطلقة السلطان . لقد كانت الاستبدادية الملكية نتيجة للحرب الأهلية فى فرنسا بينما كانت فى إنجلترا سببا لها .

وجبى هنرى الضرائب لأن حاجة الحكومة الأولى كانت للمال . أما مجلس المالية الموجود فقد انبعث منه من نتن الرشوة والفساد قدر أكثر من المألوف . وولى هنرى صلى الجرىء رياسة المالية ، وأطلق يده فى تنقية الهواء واخلاء الطريق بين ما يدفعه الشعب من الضرائب وما يصل منها إلى الخزانة . كان مكسمليان بتون ، بارون روزنى ، دوق صلى ، صديق هنرى الوفى مدى ربع قرن ، قد قاتل جنبا إلى جنب مع هنرى خلال أربعة عشر عاما ؛ وهاجم الآن — وهو بعدُ فى السابعة والثلاثين — الموظفين المختلسين عديمى الكفاية بهمة لا تعرف الكلل ، حتى أصبح أعظم أعضاء مجلس الملك قيمة وأقلهم شعبية . وصورته التى رسمها له دمونستيية معروضة فى اللوفر ، يطالعنا فيها رأس كبير وجبين عريض وعينان مرتابتان حادتان . ها هنا العبقرية العملية التى لا غنى عنها لكبح الروح الرومانسية لملك شغله لعب دور كازانوفا عن لعب دور شارلمان كاملا . وجعل صلى من نفسه الحارس الرقيب على الإدارة الحكومية . وإذ كان مديرا للمالية والطرق والمواصلات والمبانى العامة والتحصينات والمدفعية ، ومأمورا للباستيل ، ومشرفا عاما على باريس ، فقد وجد فى كل مكان ، واشرف على كل شىء ، وأصر على الكفاية والاقتصاد والنزاهة ، وقد عكف على العمل خلال كل ساعات يقظته . وعاش عيشة التقشف فى حجرة بسيطة على جدرانها صور لوثر وكالفن . ثم رعى مصالح إخوانه الهيجونوت ، وثبت العملة ، وأعاد تنظيم البيرقراطية وهذبها ، وأكره لصوص الموظفين على أن يتقيأوا ما سرقوا . وقد استرد للدولة كل الأملاك والموارد التى تملكها الأفراد خلال الحروب . وألزم ٤٠,٠٠٠ من المتهربين من الضرائب بدفع

ضرائبهم . وجد خزانة الدولة مدينة بمبلغ ٢٩٦٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه ، فسدد هذه الديون ، ووازن الميزانية ، وجمع فائضا بلغ ١٣٠٠٠٫٠٠٠ جنيه . وحمى وشجع كل نواحي الحياة الاقتصادية ، وبنى الطرق والكبارى ، وخطط للقنوات الكبرى التي أزمعت أن تربط الأطلنطي بالبحر المتوسط ، والسين باللوار[٢١] . وأعلن أن جميع الأنهار الصالحة للملاحة جزء من الأملاك الملكية ، وحظر وجود العوائق فيها ، وأعاد من جديد تدفق السلع داخل البلاد .

واستطاع هنرى أن يخلق فرنسا من جديد بمعونة وزراء أحسن اختيارهم كوزيره صلى . فرد للمحاكم و « البرلمانات » وظائفها وسلطتها الشرعية ، وإذا كان قد سمح للموظفين البيرقراطيين بتوريث مناصبهم لأبنائهم لقاء ثمن يؤدونه ، فإن الدافع له لم يكن مجرد جمع المال ، بل كفالة استقرار الإدارة والنهوض بالطبقات الوسطى — ولا سيما رجال القضاء « نبالة الرداء » — ليكونوا مقابلا وموازنا للارستقراطية المعادية . وقد درس هذا الملك ، الذى كان فيه من الحرص على الحياة والعمل ما لا يسمح له بقراءة كتاب أوليفييه دسير المسمى «مسارح الزراعة» (١٦٠٠) — درس هذا الكتاب بعناية ، وفيه اقتراحات لأساليب زراعية أكثر علمية ، وأرسى هذه التحسينات فى أراضى التاج لتكون نماذج وحوافز للفلاحين الخاملين . وكان يقول إنه يتوق لرؤية « دجاجة فى كل قدر يوم الأحد » [٢٢] . وحظر على النبلاء أن يركبوا خيلهم فوق الكروم أو حقول الغلال وهم منطلقون إلى صيدهم ، ومنع غارات الجند على أراضى الفلاحين . وألغى عشرين مليون جنيه من متأخرات الضرائب المستحقة على الفلاحين (ربما لأنه عرف أنه لن يستطيع جمعها أبداً) ، وخفض فرضة الرءوس من عشرين إلى أربعة عشر مليونا من الجنيهات . وسبق كولبير بحمايته الصناعات الموجودة بالرسوم الجمركية ، وإدخال الصناعات الجديدة كصناعة الخزف المصقول والزجاج وتربية دودة القز ، وزرع أشجار التوت فى حدائق التويلرى وفونتنبلو ، وأمر بأن

يزرع منها عشرة آلاف فى كل أسقفية ، وأعان ووسع مصانــع السجاد المرسوم التى يملكها آل جوبلان . ورغبة فى تفادى السياسات المقيدة التى فرضها معلمو الحرف على نقاباتهم ، أعاد تنظيم الصناعة الفرنسية على أساس تعاونى — فأصحاب العمل والعمال متحدون فى كل حرفة ، خاضعون للتنظيم الذى تفرضه الدولة . ولكن الفقر لم يبرح مخيما على البلاد ، من جهة بسبب الحرب والطاعون والضرائب ومن جهة لأن عدم التكافؤ الطبيعى فى القدرات ، وسط تساوى الجميع فى الجشع ، كفيل فى كل جيل بأن تستوعب قلة من الناس أكثر السلع . أما الملك فتوخى القصد فى عيشه ، إلا أن يسرف مع خليلاته . ورغبة فى شغل المتعطلين وتنقيــة الريف من قدامى المحاربين العاطلين النهمين ، مول عددا كبيرا من الاشغال العامة المختلفة : فوسعت الشوارع ورصفت ، وشقت القنوات ، وغرست الأشجار على الطرق العامة ، وفتحت المتنزهات والميادين — كالبلاس رويال (وهو اليوم بلاس دى فوج) والبلاس دوفين — لتتيح لباريس متنفسا . وأنشأ الملك مستشفى المبرة للعجزة . ولم يكتمل نضج هذه الاصلاحات كلها قبل موته المفاجىء ، ولكن حينما ختم حكمه كانت البلاد تتمتع برخاء لم تشهده منــذ أيام فرنسيس الأول .

وأهم من ذلك كله أن هنرى أنهى الحروب الدينية ، وعلم الكاثوليك والبروتستنت أن يعيشوا فى سلام . لافى مودة وصداقة ، لأن أحدا من غلاة الكاثوليك لم يكن ليسلم بحق هيجونوتى فى الوجود ، ولا كان أى هيجونوتى حار الإيمان لينظر إلى العبادة الكاثوليكيــة إلا على أنها عبادة أصنام . وقد وضع هنرى حياته على كفه وأصدر (١٣ ابريل ١٥٩٨) مرسوم نانت التاريخى ، الذى أباح الممارسة الكاملة للعقيدة البروتستنتية ، ومنح الصحافة البروتستنتية حريتها ، فى جميع مدن فرنسا الثمانمائة إلا سبع عشرة مدينة كانت فيها الكاثوليكية المذهب الغالب (كما فى باريس) . وثبت مبدأ صلاحية الهيجونوت للمناصب العامة ، وكان منهم فى مجلس الدولة

اثنان فعلا ، وتقرر تعيين تورين الهيجونوتي مارشالا لفرنسا . كذلك تقرر أن تدفع الحكومة رواتب القساوسة البروتستنت ونظار المدارس البروتستنتية وأن يقبل الأطفال البروتستنت في جميع المدارس والكليات والجامعات والمستشفيات كالأطفال الكاثوليك سواء بسواء . أما المدن التي كان يسيطر عليها الهيجونوت مثل لاروشيل ، ومونبلييه ، ومونتوبان — فتظل على حالها وتنفق الدولة على جامعاتها وحصونها . على أن الحرية الدينية التي منحت على هذا النحو كانت لا تزال ناقصة ، فهي لم تشمل غير الكاثوليك والبروتستنت ، ولكنها كانت أكثر ألوان التسامح الديني تقدما في أوربا . لقد اقتضى تحويل « جلالة الملك المسيحي جداً » ، إلى مسيحي حقا ، رجلا ذا عقيدة مشكوك في سلامتها .

وتصايح الكاثوليك في طول فرنسا وعرضها بالسخط على المرسوم زاعمين أن فيه حنثا بما تعهد به هنري من تأييد لعقيدتهم . ونديد به البابا كلمنت الثامن «كألعن ما يمكن تصوره ، منحت به حرية الضمير للجميع ، وهذا أسوأ شيء في الوجود (٢٣) . » وأعلن الكتاب الكاثوليك من جديد بأنه يحل خلع الملك الزنديق أو قتله ، أما المؤلفون البروتستنت أمثال أوتمان ، الذين دافعوا عن سيادة الشعب إبان حكم هنري الثالث ، فقد أطروا فضائل الاستبدادية — في ملك بروتستنتي (٢٤) . وأبى برلمان باريس طويلا أن يختم المرسوم بخاتم التسجيل الرسمي الذي اقتضاه العرف حتى يصبح أي مرسوم ملكي قانونا مقبولا . ودعا هنري الأعضاء ، وبين لهم أن ما فعله لم يكن عنه غنى للسلام ولتعمير فرنسا . فأذعن البرلمان ، وقبل ستة من الهيجونوت بين أعضائه .

وسمح هنري لليسوعيين بأن يعودوا إلى فرنسا (١٦٠٣) ربما ليسكت المعارضة الكاثوليكية ويسترضي البابا . وعارض صلي بقوة هذه الخطوة ، وقال إن اليسوعيين « رجال نابغون ، ولكنهم شديدو الخبث والدهاء » ، وإنهم ملتزمون بقضية الهابسبورج ، ومن ثم بقضية خصمي فرنسا — أي

أسبانيا والنمسا ، وأنهم متعهدون بالطاعة العمياء للبابا وميالون إليها ، وهو ليس إلا سجينا جغرافيا للهابسبورج وتابعا ماليا لهم ، فهم لا محالة مملون على هنرى سياساته إن عاجلا أو آجلا ،فإن اخفقوا فسيقنعون أحد المتعصبين « بأن يقضى عليك بالسم أو بغيره . » وأجاب هنرى بأن مساندة اليسوعيين ستكون له عونا كبيرا على توحيد فرنسا ، وأن استمرار نفيهم وعدائهم أشد خطرا على حياته وسياساته من عودتهم إلي فرنسا(*) .وقبل اليسوعى بيير كوتون كاهن اعتراف له ، ووجده انسانا لطيفا وفيا ، ثم فرغ بعد ذلك لحكم فرنسا ولزعازع الحب العاتية .

٥ — زير النساء

فى متحف كونديه بشانتيي لوحه شائقة رسمها فرانس بوربى الابن ، يبدو فيها هنرى فى عنفوان قوته وعزته . رشيق البنية ، بسيط الملبس فى سراويل منفوخة وصدرة وجوارب سوداء ، ذراعه اليسرى على خاصرته ، وتحت لحيته الشيبـــاء طوق مكشكش ، ثم أنف أشم ، وفم حازم ، وعينان فيهما تيقظ وتشكك ورحمة . ولقد خلعت عليه سنو الحملات الطوال مشية الجندى وخلقه وريحه : فهو قوى نشيط لا يكل ، له من شواغله ما يمنعه من الاسراف فى النظافة أو من تغيير ملابسه حين يجب تغييرها ؛ قال صديق إنه كان أحيانا «تفوح من جسده رائحة خبيثة كأنه الجيفة (٢٥)» ؛ كان بعد يوم من السير أو القتال يفاجئ معاونيه بتنظيم رحلة صيد . إنه مضرب المثل فى بسالته ، ولكن أمعاءه تجنح إلى الاسهال إذا دنت المعركة (٢٦)، وقد عانى فى السنين السبع الأخيرة من حياته من الدوسنتاريا وعسر البول والنقرس . أما ذهنه ففى نشاط جسده ومرونته . وهو سريع فى تبين الزيف والهراء ، يلتقط لب الأمور للتو والســاعة ، ويكتب الرسائل التى لا تزال تنبض بالحياة ، ويشرح بظرفه صدر فرنسا

(*) مذكرات صلى ، ١٠ — ١١ . ولا سبيل الى التحقق من صحة رواية هــذا الحديث الخاص .

والتاريخ . حين عين لافيوفيل فى أحد المناصب قال الرجل متمثلا بعبارة وردت فى الإنجيل « مولاى ، لست مستحقا » أجاب هنرى « أعلم ذلك جيدا ، ولكن ابن أخى طلب إلى أن أعينك »[٢٧] . وذات يوم اعترضه صاحب حاجة وهو فى طريقه إلى الغداء وبدأ يقول فى لغة طنانة « مولاى الملك ، ان أجيسيلا ، ملك لاكيدمون — » وقال هنرى وهو يئن « ويحك ! لقد بلغنى نبؤه ، ولكنه كان قد تغدى ، أما أنا فلم أفعل »[٢٨] . يقول مؤرخ فرنسى « لقد كان أذكى ملك أنجبته فرنسا » .

ثم كان أحبهم إلى الناس . لم يكن بعد أكثرهم شعبية ، لأن نصف فرنسا ما زال يقبله على مضض ، ولكن الذين عرفوه معرفة حميمة كانوا لا يترددون فى أن يساقوا إلى الموت حرقا من أجله ، وبعضهم يفعل وهو آخذ كل شىء فى اعتباره ، فهو أقرب الحكام منالا ، لا ادعاء فيه ولا غرور ، يرسل نفسه على سجيتها ، طيب القلب ، بطىء الغضب ، سريع العفو دائما . شكت حاشيته من كرهه للظهور فى أبهة الملوك . وسمح للشعراء وكتاب المسرحيات بالسخرية منه ، وان أعجبه أكثر أن يمثله ماليرب ربا للفضيلة والحسن . وكان يذهب للتفرج على الهزليات التى تهجوه ، ويوهن من شرتها بضحكه . ولم ينتقم ممن عارضوه بالقول أو الفعل « لو اننى شنقت كل من كتبوا أو وعظوا ضدى لما وجدت فى كل غابات مملكتى ما يكفيهم من المشانق[٣٠] » . كان له حساسية الشاعر ، فهو يحس فقر الشعب برهافة إحساسه بجمال النساء . لم يكن رواقيا ، فالتحكم فى عواطفه ليس من شيمه ؛ كانت له عيوبه الكثيرة ، فقد يكون وقحا دون قصد ، أو جلفا فى مرح وابتهاج . وكانت تسكنه روح رابليه ، فهو يستمتع بالقصص المكشوفة ويرويها بطريقة لا تبارى . يسرف فى لعب الورق ، ويخسر المبالغ الكبيرة ، ويغش أحيانا كثيرة ، ولكن يرد مكاسبه الحرام دائما[٣١] . وكان يهمل مطاردة عدو متقهقر ليطارد امرأة متقهقرة .

ولا حاجة بنا لأن نعدد غراميانه كلها . على أن ثلاث نساء على الاخص كن معالم طريقه إلى العرش . إنه يكتب الرسائل الغرامية الملتهبة إلى « كوريساند الجميلة » ويقول فى احداها « إنى ألثم يديك . . . وأقبل قدميك مليون مرة . . . انها لبقعة مقفرة حقاً تلك التى تحل فيها وجودنا معا(٣٢) » . ولكن لم يأت عام ١٥٨٩ حتى كان قد ملها ، واكتشف استر امبير دبوالامبير . وبعد عام ، حين كان فى السابعة والثلاثين ، ودون أن يعوقه مرض السيلان(٣٣) ، وقع فى غرام جابرييل دستريه ، وكانت يومها فتاه فى السابعة عشرة ، خلع عليها أحد الشعراء « الشعر الذهبى ، وعيون النجوم ، ونحر الزنبق ، وأصابع اللؤلؤ ، وثدى المرمر(٣٤) » . وصف حبيبها بلجارد فى لحظة طيش مفاتنها للملك فعدا هنرى بفرسه اثنى عشر ميلا وهو متنكر يشق أرض العــدو ليراها . وضحكت على أنفه الطويل ، ووقع عند قدميها ، وانسحب بلجارد . واستسلمت هى لسحر المال والملك ، وولدت لهنرى ثلاثة أطفال . وكان يأخذها لبلاطه وفى رحلات صيده ، ويعانقها علنا ، ويفكر فى الزواج منها إذا ارتضت مارجو طلاقه . وتضافر الوعاظ الهيجونوت والكاثوليك فى التنديد به زانيا ضالا ، ووبخه صلى الشجاع على تبديده أموال الدولة على محظياته . فطلب المغفرة معتذرا بأنه وقد جاهد هذا الجهاد فى الحرب والحكم ، وأخفق هــذا الاخفاق فى الزواج ، فإن له ما لكل جندى من الحق فى شىء من الترفيه(٣٥) . وأقام على حب جابرييل ثمانى سنين بكل الافتتان الذى فى طاقة روح شديدة التقلب والتنقل . ولكن جابرييل غدت بدينة حريصة على الاقتناء . وراحت تدس لصلى ، وتدعوه « التابع » ، وقال لها هنرى فى غيظه إن وزيرا مثله أثمن فى نظره من عشر محظيات مثلها ، ثم لان وعاد إلى حديث الزواج منها ، ولكنها ماتت فى ١٠ أبريل ١٥٩٩ وهى تلد طفلا ميتا . وبكاها بكاء مرا وكتب يقول : « لقد ماتت نبتة الحب التى فى باطنى(٣٦) » .

ولكن النبوءة انتعشت بعد شهرين حين التقى بهنرييت دنتراج ، ابنـــة ماري توشيه ذاتها التي كانت خليلة شارل التاسع . ونبها أبوها وأمها وأخوها لأبيها أن تستسلم إلا لخاتم الزواج ، فكتب لها هنري تعهـــدا بالزواج مشروطا بأن تنجب له ولدا ، ولكن صلى مزقه أمامه ، فكتب هنري تعهدا آخر وسلمه لها مع عشرين ألف كراون . وبرئ ضمير السيدة وأصبحت محظية الملك . ورأى بعض دبلوماسييه أنه قد آن له أن يستقر . فأقنعوا مارجو بقبول الطلاق شريطة ألا يتزوج هنري من خليلته . ووافق البابا كليمان الثامن على منح الطلاق بنفس الشروط ، واقترح ماريا مديتشي ابنة دوق توسكانيا الكبير عروسا لهنري ؛ واقترح المصرفيون والفلورنسيون إلغاء دين فرنسا الضخم لهم إذا جعل هنري ماريا مليكته[٣٧]. واحتفل بالزواج غيابيا في فلورنسة (٥ أكتوبر ١٦٠٠) . وانتزع هنري نفسه من ساحة قتال ليذهب إلى ليون ليحيي زوجته ، ووجدها طويلة بدينة متعجرفة ، وبذل لها كل مجاملة ملكية ، وأنجب منها لويس الثالث عشر ثم عاد إلى الآنسة دنتراج على أنه كان يقوم بواجباته الزوجية بين الحين والحين . وأنجبت له ماري دمديسي (كما كانت تسميها فرنسا) سبعة أطفال في عشر سنين . ورباهم هنري ، مع أبنائه من جابرييل وهنرييت ، في سان — جرمان — أن — لي .

وقدمت هنرييت إلى الملكة ، واسكنت قصرا بقرب اللوفر ، ولكنها بعد أن ولدت للملك ولدا أصرت على أنها هي ، لا ماري ، الملكة الشرعية . وتآمر أبوها وأخوها لأبيها ليخطفاها هي وابنها إلى أسبانيا ويجعلا فليب الثالث يعترف بالغلام « الدوفين » الشرعي لفرنسا (١٦٠٤) . واكتشفت المؤامرة وقبض على الأخ ، وأفرج عن الأب حين رد تعهد هنري بالزواج . وواصل هنري مطاردته لهنرييت كأنه الزير الجائع . وكانت تقابل ملاطفاته بالاشمئزاز والكراهية ، وتقبل الرشا من فليب الثالث ثمنا لتجسسها لحساب أسبانيا[٣٨] .

٦ — مصرعه

وسط هذه السخافات التى لا تصدق خطط الملك لكسر الحصار الذى طوق آل هابسبورج فرنسا به — ذلك النطاق الحديدى المؤلف من الأراضى المنخفضة ، ولكسمبورج ، واللورين ، وفرانش كونتيه ، والنمسا ، والممرات الفالتيليه ، وسافوى ، وإيطاليا ، وأسبانيا . وزعم صلى فى مذكراته أنه اقترح على هنرى وجيمس الأول ملك إنجلترة « خطة عظمى » تتحد بمقتضاها فرنسا ، وإنجلتره ، واسكتلنده ، والدنمرك ، والسويد ، والأقاليم المتحدة (هولنده) ، وألمانيا البروتستنتية ، وسويسرة ، والبندقية ، ضد الهابسبورج ، وتنتزع أمريكا من أسبانيا ، وتحرر ألمانيا من ربقة الامبراطور ، وتطرد الأسبان من الأراضى المنخفضة ، ثم يقسم المنتصرون كل أوربا — فيما عدا الروسيا وتركيا وإيطاليا وأسبانيا — إلى « جمهورية مسيحية » فدرالية من خمس عشر دولة مستقلة ذاتيا ، يتجر بعضها مع البعض دون رسوم جمركية ، وترفع سياساتها الخارجية إلى مجلس فدرالى مسلح بقوة عسكرية عليا(٣٩) . أما هنرى فيبدو أن الفكرة الفخمة لم تخطر بباله قط ؛ ولعل قصارى ما حلم به أن يمد فرنسا إلى « حدود طبيعية » عند الرين ، وجبال الألب ، والبرانس ، والبحر ، وأن يحررها من الخوف من أسبانيا والنمسا . وفى سبيل هذه الأهداف كان يلجأ إلى أى وسيلة متاحة له : فسعى إلى عقد الأحلاف مع الدول البروتستنتية ، وساعد الهولنديين فى ثورتهم على أسبانيا ، ودبر تأييد ثورة يقوم بها المسلمون فى بلنسيه ، وشجع الترك على مهاجمة النمسا(٤٠) .

وأتاح نزاع تافه إشعال شرارة هذا العداء البوربونى — الهابسبورجى ليصبح حربا أوربية . ذلك أن الدوق جون وليم ، حاكم إمارة يليش — كليفس — بيرج الثلاثية الصغيرة القريبة من كولونيا ، مات فى ٢٥ مارس ١٦٠٩ دون أن يعقب . وادعى الامبراطور رودلف ، بوصفه السيد الاقطاعى الأعلى للامارة ، أن له الحق فى تعيين كاثوليكى لهذا العرش

الصغير . واحتج هنرى بأن المزيد من اخضاع الدوقية للهابسبورج سيعرض حدود فرنسا الشرقية للخطر . وانضم إلى براندنبورج والبالاتينات والأقاليم المتحدة فى تصميمها على تعيين خلف بزوتستنتى لجون وليم ، فلما احتل الأرشيدوق ليوبولد النمسوى يبليش بالجيوش الامبراطورية اتخذ هنرى أهبته للحرب .

وتوافق غرامه الأخير توافقا مثيرا مع الدعوة إلى هذه المعركة الفاصلة الكبرى . ذلك أنه برغم بلوغه السادسة والخمسين وما بدا عليه من اكتهال أحس تدريجا فى ١٦٠٩ بحنين طاغ لشارلوت مونمورنسى ذات الستة عشر ربيعا . وتأبت عليه ، ولكنها قبلت أمره بأن تتزوج أمير كونديه الجديد . وروى أن خليلته هنرييت وبخته ساخرة بقولها « ألست شريراً جدا لأنك تريد أن تضاجع زوجة ابنك ؟ فأنت عليم بأنك أخبرتنى بأنه (أى الأمير) ولدك . » وهرب كونديه بعروسه إلى بروكسل ، وتحرق هنرى شوقا إلى مطاردتها ، ونظم ماليرب هذا التحرق شعرا . والتمس فيلروا وزير خارجية هنرى من الأرشيدوق البرت حاكم الأراضى المنخفضة أن يعيد الأميرة إلى باريس ، ولكن الأرشيدوق رفض بتشجيع من فليب الثالث ملك أسبانيا . وهدد فيلروا بحرب « قد تشعل نارا فى أربع أركان العالم المسيحى[٤٢] » . وبدا لهنرى أن من توفيق العناية أن تقع بروكسل فى الطريق إلى يبليش : فهو إذن قاهر هذه السيدة — والأراضى المنخفضة الأسبانية — تمهيدا لتحطيم الامبراطورية واذلال أسبانيا . واستأجر المرتزقة السويسريين واستعد لجمع جيش عدته ثلاثون ألف مقاتل . ووعده جيمس الأول ملك إنجلترة بأربعة آلاف آخرين .

وروعت فرنسا الكاثوليكية ، فقد أسرفت فى تصديق الشائعات التى تواترت بأن مفاتن الأميرة هى سبب الحرب الحقيقى ، وأفزعها أن يكون حلفاء الملك وقواده أكثرهم من البروتستنت ، وتساءلت ماذا عساه يكون مصير الكاثوليكية والبابوية فى أوربا إذا انهزم جنوبها الكاثوليكى

على يد شمالها البروتستنتى ، وعلى يد ذلك الملك الذى كان بالأمس القريب هيجونوتيا . وهبطت الضرائب المفروضة لتمويل هـــذه الحرب المرهوبة بشعبية هنرى ، وهى أبدا قلقة لا ثبات لها ؛ وحتى بلاطه تحول عنه لأنه رأى فيه رجلا أعماه الحمق عن أن يدرك أنه لم يعد فى طاقته أن يجمع بين لوثاريو والاسكندر فى شخصه . وأرجفت التنبؤات بأنه مقتول عما قريب — وربما كانت تحريضات مشجعة لمن يتأثرون بها .

وسمع فرانسوا رافاياك بهذه التنبؤات ، وكان موطنه انجوليم . وقد أطال التأمل فى سجنه الذى أودعه لجريمة لم يقترفها ، ورأى الرؤى ، ودرس اللاهوت ، وقرأ الكتيبات التى تدافع عن قتل الطغاة . وإذ كان قوى الذراع ، ضعيف العقل ، فقد راح يداعب هذه الفكرة ، وهى أن الله اختاره لتحقيق التنبؤات ولانقاذ فرنسا من مصيرها البروتستنتى . فلما أفرج عنه انطلق إلى باريس (١٦٠٩) ، ونزل عند مدام دسكومان ، وهى صديقة لهنرييت دنتراج ، واعترف لها بأنه يفكر فى قتل الملك . وأرسل تحذير لهنرى ، ولكنه كان قد ألف مثل هـــذه الأنذارات إلفا جعله لا يعبأ بالتحذير . وبينما كان يخترق الشوارع حاول رافاياك أن يقترب منه ، وأوقفه الجند ، فقال إنه يريد أن يسأل الملك أصحيح أنه يدبر الحرب على البابا ، وأن الهيجونوت يستعدون لذبح الكاثوليك . ثم حاول أن يدخل ديرا وينضم إلى اليسوعيين ، ولكن طلبه رفض . فعاد إلى أنجوليم ليقوم بواجبه فى الفصح ، وتناول القربان ، وتسلم من أحد الرهبان حقيبة صغيرة قيل له إنها تحتوى على شظية من الصليب الذى مات عليه المسيح . واشترى مدية ، ثم عاد إلى باريس . وأرسلت مدام دسكومان تحذيرا إلى صلى فابلغ الملك به .

وكان هنرى يتأهب للحاق بجيشه فى شالون . ففى ١٣ مايو ١٦١٠ عين الملكة وصية خلال غيابه . وفى اليوم الرابع عشر رجاه ابنه غير الشرعى ، دوق فاندوم ، ألا يبرح بيته لأن التنبوءات بمقتله حددت هذه

اليوم نهاية لحياته . وفى العصر قرر أن يخرج فى نزهة بعربته ، وأن يزور صلى المريض ، ويستمتع بـ « نسمة هواء . » وتفاديا لانتباه الناس صرف حرسه ، ولكن كان يرافقه سبعة من الحاشية . واقتفى رافاياك أثر العربة وكان يراقب اللوفر . وعند نقطة فى شارع فيرونيرى وقفت العربة لتشابك فى المرور . وهنا قفز رافاياك على سلمها وطعن الملك طعنة نجلاء بلغ من عنفها أن السلاح اخترق قلبه ، فمات هنرى للتو تقريبا .

وتحمل رافياك وزر جريمته كاملا حين عذب ، وأنكر أن له محرضين أو شركاء ، وأسف على عنف فعلته ، ولكنه صرح بثقته بأن الله غافرها كما يغفر للمذنبين فى سبيل قضية مقدسة . ومرقت أربعة جياد أوصاله ، وأحرق جذعه فى ميدان عام . واتهم الكثير من اليسوعيين بأنهم ألهبوا عقل القاتل ، وقيل إن كتاب ماريانا عن الملكية « دى ريجى » الذى يبرر قتل الطغاة كان يباع علناً فى حوانيت باريس . ورد اليسوعيون بأن هذا الكتاب شجبه صراحة مجمع لليسوعيين عقد بباريس عام ١٦٠٦ . وحكمت السوربون على اليسوعيين بأنهم مسئولون عن التعاليم الخطرة وأحرقت كتاب ماريانا رسمياً (٤٢) . أما مارى مديسى فقد حمت اليسوعيين من الأذى بصفتها وصية ، وقبلت ارشادهم فى الإيمان والسياسة .

وأصاب فرنسا الاضطراب والفرقة لمشروع هنرى الأخير وموته المفاجئ . وارتضت قلة هذا الاغتيال على أنه عمل إلهى فى سبيل الدفاع عن الكنيسة . ولكن الكثرة العظمى ، من الكاثوليك والبرتستنت على السواء ، ناحت على ملك رجحت جهوده من أجل شعبه أخطاءه وحماقته وذنوبه رجحاناً كبيراً . ولم يكن قد غاب عن ذاكرة الفرنسيين كل ما ورثه مع العرش من فقر وخراب ، ومن اضطراب دينى ، ومن فساد وعجز حكوميين ؛ لقد رأوا الآن أمة نظيفة منظمة ، غنية برغم الضرائب المرتفعة ، لها من القوة ما يتيح لها أن تتحدى السيادة الأسبانية الطويلة . وذكروا فى حنين ما طبع عليه هنرى من بساطة فى الملبس والمسلك والحديث ،

وذكروا روحه المرحة وطبيعته الرقيقة ، وبسالته المبتهجة فى الحرب ، وكياسته فى الصداقة والدبلوماسية ، وأغضى تراخيهم الخلقى عن تلك المغامرات الغرامية التى لم يبد فيها إلا رجلا على هواهم . لقد وصف نفسه بحق بأنه « ملك وفى ، أمين ، صادق[٤٤] » ، ولكنه كان إلى ذلك أعظم ملوك فرنسا إنسانية ورحمة ، ثم إنه كان منقذ فرنسا . ربما بدت خطته فى الوصول بفرنسا إلى حدودها الطبيعية أمراً غير عملى ، ولكن ريشليو اتبعها بعد عشرين عاماً ، ثم حققها لويس الرابع عشر بعد ذلك . ولم يمض طويل زمن على موته حتى أجمعت أوربا على تلقيبه بهنرى الأكبر . وفى الثورة الفرنسية أدين جميع الملوك الفرنسيين من خلفائه ، إلا هنرى الرابع ، فقد ظل يتربع المكان الأول فى قلب الشعب .

الفصل الخامس عشر

ريشليــــو

١٥٨٥ — ١٦٤٢

١ — بين ملكين : ١٦١٠ — ٢٤

خلف موت هنرى الرابع المفاجئ فرنسا فى فوضى متجددة ، تأصلت جذورها الكثيرة فى صراع النبلاء مع الملكية ، والطبقات الوسطى مع الاستقراطية ، والكاثوليك مع الهيجونوت ، والاكليروس مع الدولة ، والملك الصغير لويس الثالث عشر مع أمه ، وفرنسا مع النمسا وأسبانيا . أما ذلك العبقرى الساحر ، الجبار ، الذى أحال كل هذه الفوضى نظاما ، وهزم الرجعية الاقطاعية ، وهدأ ثورة الهيجونوت ، وأخضع الكنيسة للدولة ، وأنقذ ألمانيا البروتستنتية من الانهيار ، وكسر شوكة الهابسبورج المحدقين بفرنسا ، ورفع الملكية الفرنسية إلى سلطانها المطلق فى الداخل وإلى أسمى مقام فى أوربا — هذا الرجل كان قسيسا كاثوليكيا ، وكان أعظم السياسيين فى تاريخ فرنسا ، وأشدهم دهاء ، وأقساهم قلبا .

إن بعض مأساة هنرى أن وريثه لويس الثالث عشر كان عند موته غلاما فى الثامنة لا حول له ولا قوة . وأن الأرملة التى ترك لها الوصاية عليه كانت امرأة فاقت شجاعتها ذكاءها ، على استعداد لتسليم الحكم لمحاسيبها الايطاليين ما دامت تستمتع بلذائذ الحياة فى وفرة عارمة . تخلت عن خطة هنرى فى حرب تشن على الهابسبورج حتى الموت ، بل إنها على العكس ألفت بين فرنسا وأسبانيا بتزويج أبنائها من أبناء فليب الثالث — فزوجت ابنها لويس لآن النمسوية ، وابنتها اليزابيث للفتى الذى أصبح فيما بعد فليب الرابع . على أن إرادة ريشليو ستكون أقوى من هذا الدم المخلط .

ترك هنرى وصلى ٠٠٠ ر ٣٤٥ ر ٤١ جنيــه فى خزانة الدولة — والتف كونشينو كونشينى ، وزوجته ليونورا جاليجاى ، ودوق ابيرنون ، وغيرهم من أفراد الحاشية المتعطشين للمال، التفوا حول هذا الكنز واستعدوا للاجهاز عليه . وعارض صلى ولكنه غلب على أمره ، فاستمان ساخطا ، واعتكف فى ضياعه يكتب المذكرات عن مليكه المحبوب .

ورأى النبلاء فى عجز الحــكومة المركزية وفسادها الفرصة لاسترداد سيادتهم الاقطاعية القديمة . فطالبوا بدعوة مجلس الطبقات ظنا بأنه سيكون كما كان من قبل صوتهم وسلاحهم ضد الملكية ، وأجيب الطلب . ولكن حين التام شمل المجلس بباريس فى أكتوبر ١٦١٤ ، أقلقتهم قوة الطبقة الثالثة ومقترحاتها — هذه الكتلة الشعبية المجردة من النبالة والكهانة ، الممثلة يومها كما هى ممثلة اليوم فى المحامين ، والمعبرة عن قوة الطبقة الوسطى ورغباتها . أما النبلاء والاكليروس الذين وضعوا عراقة الأصل ومسحة الــكهانة فوق الثروة والقانون، فقد تحدوا نظام توريث المناصب القضائية الحديث ، وهو نظام آذن بخلق نبالة قضائية منافسة . وردت الطبقة الثالثة بطلب التحقيق فى المنح والمعاشات العريضة التى تلقاها النبلاء مؤخرا من الحكومة ، وطالبت باصلاح ما فسد فى الكنيسة ، وعارضت فى أن تطبق فى فرنسا الأوامر الصارمة التى أصدرها مجمع ترنت ، وطالبت بأن يخضع رجال الدين للقوانين والمحاكم التى يخضع لها العلمانيون ، وبأن تفرض القيود على اقتناء الكنيسة المعفاة من الضرائب مزيدا من العقارات ، وبألا يتقاضى القساوسة أجراً على قيامهم بشعائر العماد والزواج والدفن ، وأخيرا دافعت عن سلطة الملك وحقه الإلهى ضد دعاوى النبلاء فى حق الهيمنة عليــه والبابوات فى حق خلعه . كانت تلك ثورة غير متوقعة . فهدئ المندوبون المشاغبون بالوعود وحل المجلس (مارس ١٦١٥) . ثم نسى أكثر هذه الوعود ، واستؤنف الاختلاس وسوء الادارة . ولم يدع مجلس الطبقات مرة أخرى إلا حين انهارت الملكية وطبقتا النبلاء والاكليروس على السواء عام ١٧٨٩ .

على أن الاكليروس الكاثوليكي الفرنسي اكتسب شرفا باصلاح ذاته اصلاحا مخلصا فعالا . ولم يكن المسئول دائما عن المفاسد التي أشاعت الفوضى في الكنيسة ، لأن كثيرا من المفاسد نجم عن أن الأساقفة ورؤساء الديورة كان يعينهم الملاك أو النبلاء الذين يحيون حياة أشبه بحياة الوثنيين ، وأحيانا تساورهم شكوك العقيدة [١] . مثال ذلك أن هنرى الرابع منح صلى الهيجونوتي أربعة ديورة ليرتزق من دخلها ، وعين خليلته « كوريزاند » رئيسة لدير شاتيون — سير — سين . وخلع السادة النبلاء الأسقفيات ورياسات ديورة الرهبان والرهبات على أبنائهم الصغار ، وأبنائهم غير الشرعيين ، وجنودهم البواسل ، ونسائهم الاثيرات . وإذا كانت قرارات الاصلاح الصادرة من مجمع ترنت لم تقبل بعد في فرنسا ، فإن عدد الكليات اللاهوتية التي تعد القساوسة كان قليلا ؛ فكل شاب منذور يقرأ نص القداس اللاتيني ويتعلم مبادئ الطقوس يصلح لاختياره للكهانة ، وكثير من الأساقفة الذين كانوا رجال دنيا يعيشون على هواهم قبل أن يكافأوا بمنصب الأسقفية عينوا لرعاية الشعب رجالا حظهم من التعليم قليل ومن التقوى أقل . قال قسيس « لقد أصبح اسم القسيس مرادفا للجهل والفجور [٢] » . وقال سان فانسان دبول « ان أعدى أعداء الكنيسة هم كهنتها غير الجديرين بالكهانة » [٣] .

وقد حاول الأب بوردواز علاج الجانب الخلقي للمشكلة بانشائه « مجتمع القساوسة » (١٦١٠) وهو نظام تطلب من جميع قساوسة الأبرشية أن يعيشوا معا عيشة البساطة والوفاء بنذورهم . وفي عام ١٦١١ أسس الأب برول « جماعة المصلى » على غرار مؤسسة شبيهة أقامها القديس فليب نيري في إيطاليا ، وقد أصبحت مدرسة لاهوتية لتدريب شباب القساوسة على تعليم وتكريس أفضل وفي عام ١٦٤١ نظم الأب جان جاك أوليبه الطريقة السلبيسية لاعداد الرجال للكهانة ، وفي عام ١٦٤٦ افتتح مدرسة القديس سلبيس اللاهوتية وكنيستها في باريس وفي عام ١٦٤٣ ألف الأب جان (القديس يوحنا) أود « جماعة يسوع ومريم » لتأهيل الرجال

للكهانة والبعثات التبشيرية . وهكذا أعد أعلام من رجال الأجيال التالية كبوســويه ، وبوردالو ، ومالبرانش ، وأرسى أساس قوة الكنيسه وبهائها فى عصر لويس الرابع عشر .

وكشفت طوائف دينية جديدة عن تقوى الشعب ونفخت فيها حياة جديدة . فدخلت الراهبات الأورسوليات فرنسا حوالى عام ١٦٠٠ واضطلعن بتعليم البنات ، ولم ينقض قرن على دخولهن حتى كان لهن ٠٠٠ ر ١ بيت و ٣٥٠ جمهورا من العابدين . ورحبت مارى مديسى بدخول طائفــة « أخوة الرحمة » إلى فرنسا ، وهى التى أسسها (١٥٤٠) القديس يوحنا الإلهى فى أسبانيا ، وسرعان ما أعدت ثلاثين مستشفى . وفى عام ١٦١٠ أنشأت بارونة شانتال (القديسة شانتال) ، بمساعدة فرانسوا سال ، « طائفة السيدة العذراء للافتقاد » لرعاية المرضى والفقراء ، وما وافت سنة ١٦٤٠ حتى كان لها مائة دير ، وفى عام ١٧٠٠ كان لفرع واحد منها أربعمائة دير للنساء . وبلغت جملة الراهبات فى فرنسا عام ١٦٠٠ حوالى ثمانين ألفا (٤) .

وهناك رجلان يحتلان مكانا بارزا فى هذا الإحياء الكاثوليكى الذى حدث فى القرن السابع عشر . وأولهما فرانسوا سال الذى اتخذ جزءاً من اسمه من مسقط رأسه القريب من آنسى فى سافوا . درس القانون فى بادوا وأصبح موظفا فى مجلس شيوخ سافوا . ولكن الدين كان يجرى فى عروقه فرسم قسيسا ، واضطلع (١٥٩٤) بمهمة شاقة ، هى أن يرد إلى حظيرة الكاثوليكية إقليم شابليه الواقع جنوبى بحيرة جنيف ، وكان قد اتبع مذهب كلفن منذ عام ١٥٣٥ . ولم تمض خمس سنوات حتى تمت المهمة ، وساعد على ذلك نفى من لم يهتدوا ، ولكن أكثر الفضل فى اتمامها كان لمــا أوتى فرانسوا من تقوى وصبر وكياسة مقنعة . فلما رقى أسقفا كرس نفسه لتعليم الأطفال والكبار . وحين زار باريس أحبته نساء الطبقة العليا محبــة

الأكبار والتبجيل ، وأصبحت التنوى هى الزى الفاشى فى المجتمع حينا من الزمن .

أما حياة ثانى الرجلين ، وهو فانسان دبول ، فقد سلكت مسالك أقيل اتباعا للتقاليد . ذلك أنه بدأ راعى خنازير ، ولكنه بطريقة ما وجد سبيله إلى كلية فرانسيسكانية بفسقونيا ؛ وإذ كان أبوه – ككل أب كاثوليكى – تواقاً للظفر بثواب الآخرة لأسرته بتكريس أحد أبنائه للكنيسة ، فقد باع زوجا من الثيران ليرسل ولده إلى جامعة تولوز ليدرس اللاهوت ؛ وهناك رسم فانسان قسا (١٦٠٠) . وفى رحلة على البحر المتوسط أسره القراصنة وباعوه عبدا فى تونس . ولكنه هرب ، وذهب إلى باريس ، وأصبح قسيسا خاصا لمارجو طليقة هنرى الرابع ، ثم أصبح المرشد الروحى لمدام جوندى . وبفضل المال الذى أعانته به هذه السيدة نظم البعثات التبشيرية بين الفلاحين ، وبعد كل بعثة تقريبا أسس « مبرة » لأغاثة فقراء الناحية ، ورغبة فى استمرار هذه المؤسسات نظم « جماعة قساوسة البعثة » – ويطلق عليهم أحيانا كثيرة اسم « اللعازريين » نسبة إلى دير القديس لعازر الذى استخدموه مقرا رئيسيا لهم فى باريس . ولما كان المسيو جوندى قومندانا لسفن تشغيل المجرمين الفرنسية فقد اضطلع فانسان بالتبشير للمحكوم عليهم بالأشغال الشاقة فى هذه السفن . وإذ روعته شدائدهم وأمراضهم ، فتح لهم المستشفيات فى باريس ومرسيليا ، وأيقظ ضمير فرنسا لتعامل المسجونين معاملة أفضل . ثم اقنع النساء الميسورات بأن يقمن بالخدمة فى المستشفيات بين الحين والحين ، وجمع المبالغ الطائلة لتوزيعها على شئون البر ؛ ورغبة فى التصرف فى هذه الأموال ، وفى إعانة جماعة « سيدات البر » التى نشأها ، نظم عام ١٦٣٣ جماعة « أخوات البر » (وكان يفضل أن يدعوهن بنات البر) – اللائى يخدمن الآن الانسانية وكنيستهن فى أصقاع كثيرة من العالم .

وقد كسب « مسيو فانسان » قلوب كل من عرفوه تقريبا برغم ما افتقر إليه من جاذبية الجسد ، ومالرتداه من رث الثياب ، وما فى طلعته من شبه بمعلم ناموس يهودى ملتح مغضن الوجه ، وذلك بفضل جهاده فى سبيل الفقراء والمرضى والمجرمين . وقد جمع الأموال الكثيرة ، وأنشأ المستشفيات ، والملاجىء ، والمدارس اللاهوتية ، وبيوت الشيوخ ، ومعتكفات العلمانيين والقساوسة ؛ وقد تضخم حجم الحسابات التى تسجل خيراته . وخلال حرب الفروند التى نشبت بين عامى ١٦٤٨و١٦٥٣ ، وأثناء حصار باريس ، أشرف على إطعام خمسة عشر ألفاً من المعدمين ؛ على أن التشبث بالعقيدة هنا غلب نوازع الخير ، فقد تطلب اعتراف الشخص بالعقيدة الكاثوليكية شرطا لنيله الطعام (٥) . وانضم إلى الحملة على بور — رويال ، ولكنه حاول التخفيف من اضطهاد راهباتها (٦) . فلما مات ناح عليه نصف باريس ، وكان شعور الارتياح شاملا حين سلكته الكنيسة فى عداد قديسيها (١٧٣٧) .

وبفضل هذا الرجل ، وبفضل فرانسوا سال ، وبفضل اليسوعيين الذين لا يتطرق اليأس إلى نفوسهم ، وبفضل الخدمة الصادقة التى قدمتها نساء لا حصر لهن ، ولدت الكاثوليكية الفرنسية فى عهد لويس الرابع عشر ميلادا جديدا يتميز بالقوة والورع . فعادت الطرق الديرية إلى نظمها ، وأصلحت أديار الراهبات نفسها ؛ وبدأ الآن بور — رويال وقديسوه الجانسنيون . ووجد التصوف نفراً جديداً من الداعين والممارسين للاستغراق فى التأمل المباشر لله . أما الملك الشاب الذى انتقلت إليه حماسة العصر فقد وضع فرنسا فى إجلال تحت حماية مريم العذراء ، « حتى يكون الفردوس ثواب جميع رعاياه المخلصين . . . . لأن هذه مشيئته الطيبة ومسرة نفسه (٧) » على حد قول المرسوم الملكى . واستمر الحراس يوقظون الباريسيين كل صباح كما ألفت فرنسا أيام العصور الوسطى بنداء للصلاة من أجل الموتى الراحلين :

« استيقظوا أيها النائمـــون
وصلوا لله من أجل الراحلين[٨] »

ولكن صراع العقائد واصل طريقه فى مرارة . والتزمت مارى مديسى بمرسوم نانت بأمانة على الرغم من تمسكها بعقيدتها ، ولكن لا الكاثوليك ولا الهيجونوت كانوا يميلون للتسامح . وندد البابا وسفيره والاكليروس الكاثوليكى بالحكومة لتساهلها مع الهرطقة . وحيث كانت الغلبة للكاثوليك راحوا يشوشون على الخدمات البروتستنتية ويدمرون كنائس البروتستنت وبيوتهم وأحيانا حياتهم[٩] ، وأخذوا الأطفال عنوة من آبائهم الهيجونوت بحجة أنهم يحولون بينهم وبين تحقيق رغبتهم فى اعتناق الكاثوليكية[١٠] . وحيث كان البروتستنت أصحاب الكلمة العليا ردوا على هـــذا بمثله . فحظروا ترتيل القداس فى نحو ٢٥٠ مدينة خاضعة لهم[١١] ، وطالبوا بأن تحرم الحكومة المواكب الكاثوليكية فى البلاد البروتستنتية ، وكانوا يسخرون من هذه المواكب ويشوشون عليها وأحيانا يهاجمونها ، ومنعوا البروتستنت من حضور شعائر العماد أو الزواج أو المآتم الكاثوليكية ، وأعلن رعاتهم أنهم سيمنعون الآباء الذين يتزوج أبناؤهم من الكاثوليك من تناول القربان[١٢] . قال مفكر حر مشهور « بينما كان الكاثوليك نظريا أكثر تعصبا من البروتستنت ، أصـــبح البروتستنت أكثر تعصبا من الكاثوليك[١٣] » ، ونافس الوعاظ البروتستنت الكهنة الكاثوليك فى قمع الهرطقة وتكميم النقد ؛ فحرموا جريمى فيربيه (ولكنهم لم يحرقوه) و « أسلموه للشيطان » لأنه هزأ بالمجتمعات الكنسية ، وهاجمت كتاباتهم المذهب الكاثوليكى فى « كتب قل أن يكون لها نظير فى مرارة الشعور ، ويستحيل بالتأكيد أن تبزها كتب أخرى[١٤]. » وخشى الهيجونوت إلغاء مرسوم نانت ، وساءهم الحلف بين فرنسا وأسبانيا فناضلوا لكى يجعلوا نصيبهم من فرنسا مستقلا سياسيا ، آمنا حربيا ، له جيشه وقوانينه الخاصة .

وحين زار لويس الثالث عشر بو (١٦٢٠) صدمه ألا يجد كنيسة كاثوليكية واحدة يصلي فيها (١٥) . ونظر الملك الشاب في استياء وفزع إلى مذهب لم يهدد بأن يقسم روح فرنسا فحسب بل جسدها أيضا . وفتش في لهفة بين حاشيته عن رجل في دمه من الحديد ما يكفل تحويل هذه الفوضى — فوضى العقائد والقوى المفرقة — إلى أمة ميحدة .

٢ — لويس الثالث عشر

لقد أيقن أنه هو ذاته يفتقر إلى صحة البدن وقوة الذهن التي تتطلبها هذه التحديات . ولد في السنة الثامنة والأربعين لأب ربما أوهن من قواه الافراط الجنسي ، لذلك كان يشكو السل ، والتهاب الأمعاء ، وتعثرا مربكا في منطقه . وكان في فترات طويلة أضعف من أن يمارس الرياضة ، إنه يعزف الموسيقى ويؤلفها ، ويزرع البازلاء للسوق ، ويسيج أرض الصيد ، ويساعد في المطبخ . لم تبق له الوراثة والمرض على أي جمال في القوام أو الوجه ، فهو نحيل نحولا خطرا ، ضخم الرأس والأنف ، تركت شفته السفلى المتدلية فمه مفتوحا دائما بعض الانفتاح ؛ ينسجم وجهه الطويل الشاحب مع ردائه الكابي عن عمد . ولم تكن معاناته من الطبيعة بأشد من معاناته من أطبائه ، فقد فصدوه في سنة واحدة سبعا وأربعين مرة ، واعطوه ٢١٥ حقنة شرجية ، وألقموه ٢١٢ دواء (١٦) . على أنه احتفظ بالحياة بفضل ممارسته الرياضة حين يستطيع ، والصيد ، والانضمام إلى جيشه ، والنوم في الهواء الطلق ، وتناول طعام الجنود البسيط .

كان مدرسوه يضربونه مرارا ، لذلك اشتد بغضه للتعليم ، ويلوح أنه لم يقرأ قط كتابا ألا للصلاة . واعتاد أن يتلو صلوات العبادة السبع كل يوم ، وقبل في غير تشكك ذلك الايمان الذي لقنه في صباه ، وكان ينضم دائما إلى أي موكب يحمل القربان المقدس ويصاحبه إلى النهاية . وقد أفسدت مزاجه الرقيق بطبعه نزعة مريضة إلى القسوة تنتابه بين الحين والحين .

كان خجولا ، كتمة ، مكتئبا ، لا يستشعر الحب الشديد لحياة لم تحبه . واعتبرته أمه إنسانا ضعيف العقل ، فأهملته ، وفضلت عليه فى صراحة أخاه الأصغر جاستون ، واستجاب لذلك بكرهه إياها وعبادة ذكرى أبيه . ثم اكتسب تدريجا بغض النساء ، وبعد أن تأمل على استحياء جمال الآنسة أو تفور منح الشبان حبه . تزوج من آن النمسوية زواجا سياسيا ، فكان يساق إلى فراشها سوقا . وحين أسقطت جنينها لم يمسها ثلاثة عشر عاما . ونصحته بطانته بأن يتخذ له محظية ، ولكن كان له ميول أخرى . ثم حاول ثانية وهو فى السابعة والثلاثين . مذعنا لمطالبة فرنسا كلها بولى للعهد ، وأعطت آن الشاكرة العالم لويس الرابع عشر (١٦٣٨) . وبعد عامين ولدت فليب أورليان الأول . الذى واصل تقدير أبيه لمفاتن الذكور .

على أن لويس كان له بعض شيم الملوك . من ذلك أنه وهو بعد غلام فى السادسة عشرة ، وقد سئم وقاحة كونشيني واختلاساته المالية ، أصدر فجأة أوامره السرية باغتياله (١٦١٧) ، وحين احتجت الملكة الأم على هذا الختام لحياة محسوبها نفاها إلى بلوا واختار شارل دالبير وزيرا أول له ، وكان هو الذى اقترح عليه هذه الضربة ، ورقى الآن دوقا على لون . وتحت إلحاح الدوق والبابا بولس الخامس ، أمر لويس الهيجونوت برد كل الأملاك التى أخذوها من الكنيسة . فلما تجاهل إقليم بيارن المرسوم زحف عليه وفرض عليه الطاعة ووضع بيارن ونافار — مملكة أبيه الشخصية فيما مضى — تحت حكم الملك المباشر . ولم يقاوم الهيجونوت من فورهم ، ولكن جمعيتهم العامة المجتمعة فى لاروشيل أقوى منهم ، طالبت برد الأملاك المستعادة لأنها ملك للشعب لا للكنيسة ؛ ثم قسمت فرنسا ثمانى « دوائر » وعينت لكل منها مديرا عاما ومجلسا لجمع الضرائب والجند . وأعلن لويس أن فرنسا لا يمكن أن تسمح بدولة داخل الدولة . وفى أبريل ١٦٢١ قاد جيشا ، وزحف قواده الآخرون بثلاثة جيوش ، وجهت كلها ضد القلاع البروتستنتية ، فسقط عدد منها ، ولكن مونتوبان التى دافع عنها

هنرى دوق روهان ثبتت للهجوم . وترك القواد غير الأكفاء الحرب تتعثر عاما ونصفا . ومنعت معاهدة الصلح المعقودة فى ٩ أكتوبر ١٦٢٢ التجمعات البروتستنتية ، ولكنها تركت مونتوبان ولاروشيل فى أيدى الهيجونوت وفى خلال هذه الحملات مات لون (١٦٢١) ، وارتقى ريشليو إلى مركز القوة .

٣ — الكردينال والهيجونوت

كيف يشق إنسان طريقه إلى القمة ؟ فى تلك الأيام كانت تعينه على ذلك عراقة أصله . وكانت أم أرمان جان دبليس دريشليو ابنة محام فى برلمان باريس ، أما أبوه فهو السنيور دريشليو ، المدبر الأكبر لبيت الملك فى عهد هنرى الرابع وورثت أسرة بواتو العريقة الحق فى أن توصى الملك باختيار من ترشح لاسقفية لوسون . وقد عين هنرى أرمان بهذه الطريقة (١٦٠٦) وكان يومها فى الحادية والعشرين . وإذ كان أصغر من السن المشترطة للأسقفية بسنتين ، فإنه سارع إلى روما ، وكذب فى أمر سنه ، وألقى أمام بولس الخامس خطابا لاتينيا جميلا حمل البابا على أن يسلم له الأسقفية أما وقد تحقق له « الأمر الواقع » ، فقد اعترف ريشليو بكذبته ، وطلب المغفرة . وامتثل البابا وهو يقول « إن هذا الفتى سيكون محتالا كبيرا » [١٧] .

وصف الأسقف الشاب أسقفيته بأنها « أفقر وأقذر » الأسقفيات فى فرنسا ، ولكن كانت الأسرة تملك بعض المال ، فما لبث أن امتلك المركبة والآنية الفضية ولم يتخذ وظيفته منصبا شرفيا عاطلا ، بل فرغ لأداء واجباته فى اجتهاد ومثابرة ، ولكنه وجد الوقت لتملق كل صاحب نفوذ ويسخر كل صاحب قوة . فلما اختار كهنة بواتو مندوبا لمجلس الطبقات (١٦١٤) كان أرمان رجلهم . وأعجب كل من كان بالمجلس، لا سيما مارى مديسى ، بوجهه الرزين ، وقوامه الفارع الممشوق ، وقدرته القانونية

تقريبا على تفهم الموضوعات تفهما واضحا وعرضها عرضا مقنعا . وعين سكرتيرا للدولة بنفوذها ونفوذ كونشيني (١٦-١) . وبعد عام قتل كونشيني وفقد ريشليو وظيفته . وبعد أن خدم الملكة الأم المنفية في بلوا فترة قصيرة عاد إلى اوسون . وبيتت ماري الهروب ؛ واشتبه في اشتراك ريشليو في المؤامرة ، فنفى إلى أفنيون (١٦١٨) ، وبدا أن مجرى حياته السياسية قد انتهى . ولكن الجميع — حتى خصومه — اعترفوا بقدراته ، ولما تدلت ماري ليلا من إحدى نوافذ قلعتها في بلوا وانضمت إلى قوة من النبلاء المتمردين ، استدعى لوي الأسقف الشاب وعهد إليه أن يرد الملكة إلى رشدها ويصلح بينها وبين الملك . فأفلح في مهمته ، وحصل له لويس على قلنسوة الكردينالية ، وعينه في مجلس الدولة . وسرعان ما وضح للعيان تفوق ريشليو عقلا وارادة ، فأصبح رئيسا للوزراء في أغسطس ١٦٢٤ وهو في التاسعة والثلاثين .

وقد وجد الملك فيه بالضبط تلك الصفات التي افتقدها في نفسه : الذكاء الموضوعي ، والهدف الواضح ، وصلابة الغايات ، ومرونة الوسائط ؛ وكان للويس من الحصافة ما جعله يتقبل ارشاد الكردينال في المهمة الثلاثية — مهمة اخضاع الهيجونوت ، والنبلاء ، وأسبانيا . قال ريشليو في مذكراته مقدرا له هذه الخلة « إن قدرة الملك العظيم على أن يسمح بأن يخدم (أي بأن يفوض غيره بالسلطة) ليست من أقل صفات الملك العظيم شأنا(١٨) » . لم يكن لويس متفقا مع وزيره في جميع الحالات ، وكان أحيانا يوبخه ، وكان دائما يغار منه ، وقد فكر بين الحين والحين في طرده . ولكن أنى له أن يرفض رجلا يجعله مطلق السلطة في فرنسا وصاحب الكلمة العليا في أوربا ، ويحصل له من الضرائب أكثر حتى مما كان صلى بجمعه ؟ :

وتجلت روح الكردينال أول ما تجلت في موقفه من الدين . فلقد قبل في غير نقاش عقائد الكنيسة ، وأضاف إليها بعض الخرافات التي يعجب المرء لأن عقلا أوتي مثل هذه القوة آمن بها . ولكنه رفض ما ذهب

إليه حزب « مؤيدى سيادة البابا المطلقة » من أن للبابوات كامل السيادة على الملوك ، وحافظ على « الحريات الغاليَّة » للكنيسة الفرنسية ضد روما ، واخضع الكنيسة للدولة فى الأمور الزمنية بنفس المضاء الذى اخضعها به أى إنجليزى ، ونفى الأب كوسان ، الذى تدخل فى السياسة بوصفه كاهن الاعتراف الملكى ؛ ففى رأيه أن أى دين من الأديان يجب ألا يختلط بشئون الدولة . أما التحالفات التى أدخل فيها فرنسا فكانت مع الدول البروتستنتية والكاثوليكية على السواء .

وقد طبق مبادئه فى حزم على الهيجونوت المشتغلين بالسياسة : ذلك أنهم برغم صلح ١٦٢٢ جعلوا لاروشيل مدينة صاحبة سيادة من الناحية الفعلية ، يشرف عليها تجارها ووزراؤها وقوادها . ومن هذا الميناء الاستراتيجى أرسل التجار تجارتهم مع العالم ، وأقلع القراصنة ليقتنصوا أية غنيمة أو مركب ، حتى المراكب الفرنسية ؛ وكان فى استطاعة أى عدو لفرنسا أن يدخل البلاد من هذا الميناء إذا أذن له الهيجونوت . كذلك انتهك لويس ذاته المعاهدة ، فقد وعد بهدم « حصن لويس » الذى كان خطرا دائما على المدينة ، ولكنه بدلا من أن يهدمه زاده تحصينا ، وحشد أسطولا صغيرا فى ثغر لابلافيه القريب . فاسر بنيامين روهان (أخو هنرى) ، سيد سوبيز ، الذى قاد أسطولا هيجونوتيا ، هذا الأسطول الملكى وقطره ظافرا إلى لاروشيل (١٦٢٥) لذلك بنى ريشليو أسطولا آخر ، ونظم جيشا ، ورافق الملك فى حصاره للقلعة الهيجونوتية .

وأقنع سوبيز دوق بكنجهام بأن يرسل أسطولا ضخما قوامه ١٢٠ سفينة لحماية المدينة . فحضر الأسطول ، ولكنه عانى الويل من مدفعية الحصون الملكية القائمة على جزيرة رى . فاضطر إلى التسلل عودا إلى إنجلتره وهو يجرر أذيال الخزى والعار (١٦٢٧) . وكان ريشليو خلال ذلك قد استولى على جميع الطرق البرية المؤدية إلى لاروشيل (بوصفه قائدا للملكه المريض) . ولم يبق إلا حصارها من البحر . فأمر مهندسيه

وجنده أن يقيموا تلا من الحجر طوله ١٧٠٠ ياردة بعرض مدخل الميناء ، تاركين فتحة لحركة المد والجزر . وقد بلغ عنف هذه الحركة ، التى ارتفعت فيها المياه وهبطت اثنى عشر قدما ، مبلغا جعل تنفيذ المشروع يبدو مستحيلا ، ففى كل يوم كان الماء يكتسح نصف الأحجار المبنية يومها . ومل الملك هذه الحرب التى لم تسفك فيها دماء وانطلق إلى باريس ، وتوقع كثير من رجال الحاشية أنه طارد ريشليو لعجزه عن أخذ المدينة عنوة . ولكن التل اكتمل بناؤه أخيرا وبدأ مهمته المرسومة . ومات نصف سكان لاروشيل جوعا . ولم يستطع الحصول على القليل من اللحم غير أغنياء القوم ، فكانوا يدفعون خمسة وأربعين جنيها ثمنا للقط ، وألفى جنيه ثمنا للبقرة . أما جان جيتون عمدة المدينة فقد توعد كل من يجرى على لسانه حديث الاستسلام بالقتل بخنجره . ولكن المدينة استسلمت فى يأسها بعد ثلاثة عشر شهرا من المجاعة والمرض (٣٠ أكتوبر ١٦٢٨) . ودخلها ريشليو ممتطيا جواده ومن خلفه الجند يوزعون الخبز رحمة بالناس .

وتصايح نصف فرنسا مطالبا باستئصال شأفة الهيجونوت . ولم يكن فى وسعهم — بعد أن أضنتهم الحرب — إلا أن يتوسلوا . ولكن ريشليو فاجأهم بشروط صلح رأى فيها الكاثوليك تساهلا شائنا . صحيح أن لاروشيل فقدت استقلال بلديتها ، وحصونها ، وأسوارها ، ولكن أشخاص سكانها وأملاكهم لم تمس ، وسمح لمن بقى من الجنود الهيجونوت بالرحيل بأسلحتهم ، ومنحت حرية العبادة فى المدينة للبروتستنت والكاثوليك على السواء وتلقت مدن هيجونوتية أخرى مثل هذه الشروط بعد استسلامها . ووجب رد الأملاك الكاثوليكية التى انتزعها البروتستنت ، ولكن القساوسة الهيجونوت الذين فقدوا مأواهم مؤقتا عوضوا باعانة من الدولة بلغت ٢٠٠,٠٠٠ جنيه ، وأعفوا من ضريبة الرءوس (التاى) شأن الاكليروس الكاثوليك[١٩] . ومنح عفو عام لجميع من شاركوا فى التمرد . وثبت مرسوم نانت الذى أصـــدره هنرى الرابع فى كل نصوصه الجوهرية ،

بمرسوم ريشليو المسمى « مرسوم العفو » (٢٨ يونيو ١٦٢٩) وفتحت وظائف الجيش والبحرية والحكومة أمام الجميع دون نظر للعقيدة . وأذهل أوربا أن ترى الكاثوليك الفرنسيين يتبعون ويبجلون قوادا من البروتستنت كتورين وشومبير وهنرى روهان . قال ريشليو « منذ ذلك الحين لم تمنعني قط خلافات الدين عن أداء كل أنواع الخدمات للهيجونوت[٢٠] » . وقد تبين الكردينال العظيم ، فى حكمة افتقدها لويس الرابع عشر فيما بعد افتقادا مؤسفا ، قيمة الهيجونوت الاقتصادية الهائلة لفرنسا — كما سيتبينها كولبير . ومن ثم فقد أقلعوا عن الثورة ، وانصرفوا فى هدوء إلى التجارة والصناعة ، وأصابوا من التوفيق والفلاح ما لم يصيبوه فى أى وقت مضى .

٤ — الكردينال والأشراف

بمثل هذا المضاء ، وبتساهل أقل ، تناول ريشليو النبلاء الذين ما زالوا يرون فى فرنسا التعدد لا الوحدة . لم تكن الاقطاعية قد ماتت قط ، فلقد حاربت من قبل فى الحروب الدينية لتهيمن على الحكومة المركزية . وكان كبار النبلاء يحتفظون بقلاعهم المنيعة ، وقواتهم المسلحة ، وحروبهم الخاصة ، وبطاناتهم ، وموظفيهم القانونيين ، وبفلاحيهم تحت رحمتهم ، ويتقاضون الرسوم المعوقة على التجارة التى تخترق أملاكهم . ان فرنسا لم تكن بعد أمة لأن الاقطاع والدين قطعا أوصالها ، بل كانت مجموعة مضطربة قلقة من البارونات المغرورين ، أشباه المستقلين ، القادرين فى أية لحظة على تكدير السلام وتمزيق اقتصاد الدولة . وكان أكثر الأقاليم يحكمه الادواق أو الكونتات الذين يدعون لأنفسهم حق حكمها مدى الحياة ويورثونها أبناءهم .

ولاح لريشليو أن البديل العملى الوحيد لهذه الفوضى المضعفة هو تركيز النفوذ والسلطة فى الملك . ويخيل إلينا أنه ربما أمكنه أن يجاهد ليوازن هذا التركيز برد قسط من الاستقلال للبلديات . ولكنه لم يستطع رد كومون العصر الوسيط الذى اعتمد على نقابات التجار والصناع والاقتصاد المحلى

المحمى ؛ ذلك أن الانتقال من سوق المدينة إلى سوق الأمة قوض هـذه النقابات والكومونات ، وتطلب التشريع المركزى لا المحلى (*) . ولعل العقول التى تجمدت فى الأوضاع الحاضرة لا ترى فى السلطة الملكية المطلقة التى نشرها ريشليو غير استبدادية رجعية ؛ أما فى رأى التاريخ ، وفى رأى الكثرة الغالبة من الفرنسيين فى القرن السابع عشر ، فإنها كانت تقدما حرر البلاد من الطغيان الاقطاعى إلى الحكم الموحد . لم تكن فرنسا قد نضجت بعد للديمقراطية ، فأكثر سكانها مفتقرون إلى الغذاء الطيب والكساء الجيد ، أميون ، رانت على عقولهم الخرافة وتوحشت نفوسهم بفعل التعصب للعقيدة . وكانت المدن يهيمن عليها رجال الأعمال الذين لا يستطيعون التفكير إلا فى كسبهم أو خسارتهم ، ولم يكن هؤلاء الرجال ، الذين عرقلت الامتيازات الاقطاعية كل خطوة من خطواتهم ، ميالين إلى الاتحاد مع صغار النبلاء كما حدث فى انجلترة لإقامة برلمان يقف فى وجه السلطة الملكية . ولم تكن « البرلمانات » الفرنسية برلمانات تمثيلية تشريعية ، إنما كانت محاكم عليا غذتها السوابق ورسختها ، ولم تكن منتخبة من الشعب ، وقد غدت قلاعا للمحافظة . وحبذت الطبقات الوسطى ، ومهرة الصناع ، والفلاحون ، سلطة الملك المطلقة بوصفها الحماية الوحيدة التى يرونها ضد سلطة النبلاء المطلقة .

فى عام ١٦٢٦ أصدر ريشليو باسم الملك مرسوما طعن الاقطاع فى الصميم ، فقد أمر بهدم جميع القلاع إلا ما كان منها على الحدود ، وحظر تحصين المساكن الخاصة فى المستقبل . وفى نفس العام (بعد أن مات أخوه الأكبر منه سنا فى مبارزة) اعتبر المبارزة جريمة كبرى ، فلما تبارز مونمورنسى بوتفيل والكونت دى شابيل برغم هـذا الأمر أعدمهما . وقد اعترف بأنه « يحس كدرا شديدا فى روحه » لهذا الاجراء ، ولكنه قال لمولاه ،

(*) مثل هذا التطور أضعف « حقوق الولايات » فى الولايات المتحدة الأمريكية فى القرن العشرين .

« إن الأمر خيار بين القضاء على المبارزات أو على أوامر جلالتكم [٢١]. »
وأقسم النبلاء أن ينتقموا من الوزير ، وراحوا يتآمرون على إسقاطه .

وقد وجدوا فى الملكة الأم حليفا مشوقا إلى الانتقام منه . فهذه الأم التى كانت يوما ما حامية ريشليو باتت تبغضه حين رأته يعارض سياستها ، ولما مرض لويس مرضا خطيرا (يوليو ١٦٣٠) مرضته هى والملكة حتى استعاد بعض صحته ، ثم طلبا إليه رأس الكردينال مكافأة لهما . وكررت مارى مديسى المطلب بالحاح شديد وهى فى قصرها — قصر اللكسمبورج — ظانة أن ريشليو بعيد جدا ، ثم اقترحت ميشيل د مارياك ، حامل الأختام ، بديلا راغبا فى الحلول محله . ولكن ريشليو الذى أتى بطريق ممر سرى ، دخل الحجرة فى غير إذن وواجه الملكة الأم ، واعترفت بأنها أخبرت الملك بأن عليه أن يختار بين أن تذهب هى أو هو — أى ريشليو . وانسحب الملك المرهق ، وانطلق راكبا إلى كوخ صيده فى فرساى . وتقاطرت الحاشية حول مارى فى اغتباط بفوزها المنتظر . ولكن لويس أرسل فى طلب ريشليو ، وثبته رئيسا للوزارة ، وأكد له مساندة الملك له ، ووقع أمرا بالقبض على مارياك . وأشاع « يوم المغفلين » هذا (١٠ نوفمبر ١٦٣٠) الفوضى والحنق فى صفوف النبلاء المتآمرين . وسمح لمارياك بالبقاء حيا ، ولكن أخاه الذى كان مرشالا لفرنسا اتهم بعد ذلك بالاختلاس وأعدم فى شىء من العجلة (١٦٣٢) . وأمر لويس أمه أن تعتكف فى قصرها الريفى بمولان وأن تنفض يدها من السياسة . ولكنها هربت إلى فلاندر بدلا من ذلك (١٦٣١) ، وجمعت لها حاشية فى منفاها ببروكسل ، وراحت تعمل لإسقاط ريشليو . ولم تقع عيناها قط على الملك بعد ذلك .

أما ولدها الثانى ، « مسيو » جاستون ، دوق أورليان ، فقد حشد جيشا فى اللورين وقاده فى تمرد صريح على أخيه (١٦٣٢) . وانضم إليه عدة نبلاء ، ومنهم أرفع شريف فى فرنسا — هنرى ، دوق مونمورنسى ،

وحاكم لانجدوك . وانضوى الالآف من الطبقة الارستقراطية تحت لواء الثورة . وعلى مقربة من كاستلنودارى (أول سبتمبر) اشتبك مونمورنسى ، البالغ من العمر سبعة وثلاثين ربيعا ، مع القوات التى جردها عليه ريشليو . وقاتل حتى أسقطه سبعة عشر جرحا ، وتحطم جيشه هو وجاستون تحت وطأة الهجوم ، وكان جيشاغنيا فى الألقاب فقيرا فى النظام ، وأسر مونمورنسى . واستسلم جاستون ، ودل على شركائه ثمنا للعفو عنه . وأمر لويس برلمان تولوز بأن يحاكم مونمورنسى بتهمة الخيانة ; وكان الحكم هو الاعدام . وهكذا مات آخر أدواق مونمورنسى دون خوف أو تذمر وهو يقول « أننى أعد هذا الأمر الذى أصدره قضاء الملك أمرا أصدرته رحمة الله (٢٢) » . وأدان معظم فرنسا الكردينال والملك لهذه الصرامة المجردة من الشعور ، وأجاب لويس « ما أنا بملك لو كان لى شعور الأشخاص العاديين » . أما ريشليو فدافع عن الاعدام بأنه انذار ضرورى للنبلاء بأنهم هم أيضا خاضعون للقوانين قائلا « لا شىء يدعم القوانين كعقاب الأشخاص الذين تعظم رتبتهم عظم جريمتهم » (٢٣) .

بقيت عقبتان أخريان فى طريق سياسة ريشليو ، ولاة الأقاليم والبرلمانات . لقد ساء الكردينال فقدان إيراد الأقاليم بسبب ما شاب سلوك الولاة النبلاء والقضاة من البورجوازيين أو صغار النبلاء عن فساد ونقص فى الكفاية ، لذلك أوفد الكردينال لكل قسم «محافظين» للاشراف على إدارة المالية والقضاء وتنفيذ القوانين . واتخذ هؤلاء الموظفون الملكيون مكانا أعلى من الموظفين المحليين كائنة ما كانت رتبتهم ، واضمحل استقلال الأقاليم الذاتى ، وانتعشت الكفاية وزادت حصيلة الضرائب . ونظام المحافظين هذا الذى استبق هنرى رابع إليه بقدر ما ، والذى عطله النبلاء فى الفروند ، والذى دعمه لويس الرابع عشر ، ثم اقتبسه نابليون — هذا النظام أصبح من الملامح البارزة للبيرقراطية المحكومة مركزيا والتى أدارت منذ الآن قوانين فرنسا .

أما برلمان باريس فقد خيل إليه أن الفرصة فى ظل ملكية ضعيفة مواتية لتوسيع وظائفه من تسجيل القوانين وتفسيرها إلى دور المجلس الاستشارى للملك . ولكن ريشليو ما كان ليطيق مثل هذه المنافسة لمجلس دولته ، فدعا لويس زعماء البرلمان ، على الأرجح بتحريض منه ، مستعملا عباراته الحادة ، وقال لهم « لقد عينتم لا لشىء إلا لتقضوا بين زيد وعمرو من الناس ، فإذا تماديتم فيما أنتم فيه فانى مقلم أظافركم تقليما حادا تأسفون له(٢٤) » . وأذعن برلمان باريس ، وحذت برلمانات الأقاليم حذوه . واختزلت وظائفهم حتى التقليدى منها ، فأقام ريشليو « لجانا فوق العادة » لتنظر فى الدعاوى الخاصة . وأصبحت فرنسا دولة بوليسية ، وانتشر جواسيس الكردينال فى كل مكان حتى فى الصالونات ، وغدت « الأوامر المختومة » أداة مألوفة فى الحكم . وهكذا أصبح ريشليو الآن فى حقيقة الأمر وواقعه ملك فرنسا .

٥ — الكردينال صاحب الكلمة العليا

أما وقد ملكت يداه هذه السلطة المركزة ، فقد فعل كل شىء من أجل فرنسا ، ولم يفعل إلا القليل من أجل الشعب . كان يرى فرنسا دولة لا مجموعة من الأفراد الأحياء ؛ انه لم ينظر إلى الرجل العادى نظرة مثالية ، ولعله رأى « العذوبة واللياقة » فى أن يموت أمثال هؤلاء الرجال فى سبيل وطنهم ، فهو راغب فى التضحية بهم ليؤمن وطنه المستقبل من تطويق الهابسورج له . وكان يشقى ساعات الليل الطويلة فى تصريف شئون الدولة ، ولكن همه كان أكثر الوقت سياستها الخارجية . لم يكن لديه متسع من الوقت لتحسين الاقتصاد ، إلا أن يكون لتصيد المتهربين من الضرائب وجلب الدخل و « الأنباء » لباريس بقدر أقل من التسرب وهى فى الطريق . وفى عام ١٦٢٧ نظم البريد العام .

وكانت الضرائب ما زال يجمعها رجال المال الذين « أقطعوا » هذه الضرائب ، وكانوا يقتضون المثلين ، وأحيانا ثلاثة أمثال المبلغ الذى يؤدونه

للحكومة . وقد أعفى النبلاء ورجال الدين من الضرائب الهامة ؛ ووجد مهرة رجال الأعمال وثروات الموظفين المختزنة السبل للتهرب من الجباة أو سترضائهم ، أما المدن فكانت تدفع مبلغا صغيرا لتنجو من فرضة الر-وس؛ ووقعت وطأة الضرائب على طبقة الفلاحين التى قصدها ريشلو حتى الفاقة ليجعل من فرنسا أقوى دولة فى العالم المسيحى . وكان كهنرى الرابع يؤثر أن يقهر أعداءه بالمال لا بالدم ، وكثير من المعاهدات التى خاض بها الحرب تضمن إعانات مالية للحلفاء ورشا للاعداء المحتملين . وكان أحيانا يقرض الخزانة من جيبه الخاص إذ أعوزه تدبير المال ، ومرة استأجر أحد المشتغلين بالكيمياء القديمة ليصنع له الذهب[٢٥] . وتضافر نظام الضرائب ، والسخرة الحكومية على الطرق ، مع الجفاف والمجاعة والطاعون وغارات الجنود ، لتدفع الفلاحين إلى حال من اليأس تقرب من الانتحار ، حتى لقد قتل عدد منهم أسرهم وأنفسهم ، وقتلت الأمهات الجائعات أطفالهن وأكلنهم (١٦٣٩)[٢٦] . وفى عام ١٦٣٤ ، فى رواية ربما بولغ فيها ، كان ربع سكان باريس يتسولون[٢٧] . وكان الفقراء ينتفضون فى فترات دورية وأوقات متفرقة انتفاضات قمعت فى غير رحمة .

واستخدم ريشليو الضرائب لبناء الجيوش والأسطول ؛ ذلك أن الحق فى رأيه لا يجد أذنا صاغية إلا إذا تكلم بالمدفع . ولما اشترى منصب الأميرال لأكبر ، قام بواجباته بعزيمة ماضية . فأصلح الموانئ وحصنها ، وأنشأ الترسانات ومخازن الذخيرة فى الثغور ، وبنى خمسا وثمانين سفينة ، وأسس مدارس لمرشدى السفن . ودرب أفواج الجنود البحريين . وجند مائة فوج من المشاة ، وثلاثمائة جندى من الخيالة ؛ ورد النظام إلى الجيش . ولم يخفق إلا فى جهوده لاقصاء مومسات الجيش . وبفضل هذه القوات الحربية التى بث فيها الحياة من جديد تصدى لفوضى العلاقات الخارجية التى خلفتها وصاية مارى مديسى ، وعاد إلى سياسة هنرى الرابع ، ووجه كل قواته لهدف واحد — هو تحرير فرنسا من نطاق القوة الهابسبورجية

فى الأراضى المنخفضة والنمسا وإيطاليــا وأسبانيا .

كانت مارى قد ألفت بين فرنسا وأسبانيا — أى أنها فى رأى ريشليو خضعت للعدو ، وأقصت أولئك الذين اعتمد هنرى الرابع على صداقتهم وهم الانجليز ، والهولنديون ، وبروتستنت ألمانيا . ورأى ريشليو بعين القائد الاستراتيجية اللماحة أن الممرات الفاتيلية التى تربط النمسا بإيطــاليا الأسبانية هى المفتاح لقوة أسبانيا والامبراطورية الموحدة فى تبادل المؤن والجنود . وكافح اثنى عشر عاما للظفر بهذه الممرات ، وقد صرفته عن هذا الهدف وهزمته حروبه مع الهيجونوت والنبلاء ، ولكنه استرد بالدبلوماسية أكثر كثيرا مما خسر فى الحرب . ذلك أنه اكتسب « فرانسوا اوكليرك دوترمبليه » خادما أمينا ، وكان قد اتخذ اسم جوزف حين أصبح راهبا كبوشيا . وأوفد « الأب جوزف » فى كل مكان فى بعثات دبلوماسية شائكة فأداها بمهارة ، وبدأت فرنسا تزاوج بين الراهب الرمادى العباءة الذى لقبته « صاحب القداسة الرمادى » ، وبين ريشليو ذى العباءة الحمراء الذى لقبته « صاحب القداسة الأحمر » . أما وقد ظفر الكردينال بهذا المعين ، فإنه أقسم أنه « مثبت للعالم أن عصر أسبانيا فى سبيل الزوال ، وأن عصر فرنسا قد أقبل [٢٨] » .

فى عام ١٦٢٩ بدا أن الصراع الطويل فى ألمانيا أوشك أن ينتهى بنصر الامبراطور الهابسبورجى الكاثوليكى نصرا مؤزرا على الأمراء البروتستنت . ولكن ريشليو قلب الأوضاع قلبا كاملا بالمال . ذلك أنه أبرم مع جوستاف أدولف (١٦٣١) معاهدة نصت على أن يغزو ملك السويد المغوار ألمانيا وينقذ الدويلات البروتستنتية ، يعينه على ذلك مليون من الجنيهات تدفعها له فرنسا كل عام . وندد أنصار السلطة البابوية المطلقة فى فرنسا بالوزير خائنا لدينه ، أما هو فكان رده أن الحياد خيانة لفرنسا . فلما مات جوستاف وهو ظافر فى لتزن (١٦٣٢) واستسلم معظم الأمراء الألمــان

للامبراطور ، دخل ريشليو الحرب فعلا . وزاد الجيوش الفرنسية من ٠٠٠ر ١٢ فى عام ١٦٢١ إلى ٠٠٠ ر ١٥٠ فى عام ١٦٣٨ . وأعان الثورة التى قام بها القتلونيون فى أسبانيا ، وبفضل دبلوماسيته سيطر على كوبلنتز ، وكولمار ، ومانهايم ؛ وبازل ؛ واستولى جنوده على اللورين وشقوا طريقهم عنوة مخترقين سافوا إلى ميلان قلب القوة الأسبانية فى شمال إيطاليا .

ثم دار الحظ دورته وبدا أن كل هذه الانتصارات لا معنى لها . ففى يوليو وأغسطس ١٦٣٦ عبرت قوة كبيرة من الجيوش الأسبانية والامبراطورية الأراضى المنخفة ودخلت فرنسا ، واستولت على اكس — لا — شابل (آخن) وكوربى ، وزحفت على أميان ، واجتاحت أودية السوم والواز الخضراء . وكانت جيوش ريشليو بعيدة جدا ، وأصبح الطريق إلى باريس مفتوحا عديم الدفاع أمام العدو . واغتبطت الملكة الأم فى بروكسل ، والملكة فى سان جرمان ، وحزبها الموالى لأسبانيا فى فرنسا ، وراحوا يعدون الأيام لسقوط الكردينال المنتظر . وازدحمت الجماهير الغاضبة فى باريس فى الشوارع منادية بموته — ولكن حين طلع عليهم بادى الهدوء فوق جواده المهيب ، لم يجرؤ أحد منهم على أن يمسه ، وابتهل الكثيرون لله أن يمنحه القوة لانقاذ فرنسا . وهنا لم تتضح شجاعته فحسب ، بل بعد نظره واجتهاده ؛ ذلك أنه كان قد نظم منذ أمد بعيد مواطنى باريس فى ميليشيا احتياطية ، واختزن السلاح والمؤونة لهم ، ومن ثم فقد نفخ الآن فيهم روح الحماسة فاستجابوا لندائه ، وأقر برلمان باريس والمجالس البلدية والنقابات الحرفية المال اللازم ، ولم تمض أيام حتى كان جيش جديد فى طريقه إلى القتال ، فحاصر كوربى . وتلكأ جاستون أورليان المتولى قيادة الجيش ، فحضر ريشليو ، وتولى القيادة ، وأمر بالهجوم . وفى ١٤ نوفمبر سقطت كوربى ، وتقهقرت الجيوش الهابسبورجية إلى الأراضى المنخفضة .

وفى عام ١٦٣٨ استولى برنارد ، أمير ساكسى — فيمار الذى قاد جيشا ألمانيا يموله ريشليو ، على ألزاس ، فلما مات بعد سنة أوصى بهـــا

لفرنسا ، وأصبحت الرأس ولوثرينجن الالزاس واللورين ، وبدأت تتحول فرنسية . وفى عام ١٦٤٠ سقطت أراس . وفى عام ١٦٤٢ استولت قوة يقودها الملك والكردينال على بربنيان ، واقتطع إقليم زوسيون المحيط بها من أسبانيا . وهكذا بدا ريشليو الآن فى كل مكان المنظم للنصر .

على أن النبلاء الذين ظلوا على خصومتهم ، والحزب الأسبانى فى البلاط ، والنساء النبيلات المغرقات فى الدس ، كل أولئك بذلوا آخر محاولة لأسقاط الوزير عن كرسيه . ففى سنة ١٦٣٢ مات المركيز إفيا بعد أن خدم الكردينال طويلا فى الدبلوماسية والحرب تاركا أرملة وغلاما وسيما فى الثانية عشرة من عمره يدعى هنرى كوافييه درووريه ، مركيز سانك — مارس . وبسط ريشليو حمايته على الصبى وقدمه للملك ، ولعله رأى بهذه اللعبة أن يصرف لويس عن الآنسة أوتفور التى كانت واحدة من « الدساسات » . وهذا ما حدث . فقد افتتن الملك بحسن الغلام وظرفه ووقاحته ، وعينه مشرفا على خيول الملك ورجاه أن يشارك الملك فى فراشه (٢٩) . ولكن سانك — مارس ، الذى نضج الآن إذ بلغ الحادية والعشرين ، آثر المحظية الحسناء ماريون ديلورم ، ومارى دجونزاج المتعاليه ، ملكة بولندة المستقبلة ، التى كانت الآن من أجمل خصوم الكردينال . ولعل الشاب ألح على لويس أن يدخله عضوا فى مجلس الملك ويجعله قائدا فى الجيش بإيعازمنها وإثارة من خلواتها الاستراتيجية. فلما لم يرض ريشليو عن هذه المقترحات التمس سانك — مارس من الملك أن يطرد وزيره . ورفض الملك ، فانضم الفتى إلى جاستون أورليان ودوق بويون وغيرهما فى مؤامرة لتسليم سيدان إلى الجيش الأسبانى ، واتفق على أن يدخل المتآمرون باريس وهذا الجيش من خلفهم ويعتقلوا الملك ، وتعهد جاستون بان يدبر اغتيال الكردينال فى طريقه إلى بربنيان . والتمس جاك أوجست دتو ، صديق سانك — مارس ، تعاون الملكة . ولكن آن النمسوية التى توقعت موت لويس القريب ووصولها إلى السلطة بوصفها

وصية أرسلت إلى ريشليو إشارة خفية بالمؤامرة : وتظاهر هذا بأن لديه نسخة من الاتفاق مع أسبانيا ، فصدقه جاستون واعترف ، ثم دل على شركائه كما هى العادة . وقبض على سانك — مارس، ودتو ، وبويون . وأيد بويون اعتراف جاستون ثمنا للعفو عنه . وحوكم الشابان أمام محكمة فى ليون ، فدينا بالاجماع ، وشرفا خيانتهما بموت رابط الجأش . وهرع الملك إلى باريس ليحمى قوته . أما ريشيليو ، المريض مرضا مميتا ، فقد حمل على محفة مخترقا بلدا يموت من الانتصارات ويصرخ طلبا للسلام .

٦ — رثاء

أى رجل كان هذا الكردينال الذى لم يكد يكون مسيحيا ، هذا الرجل العظيم الذى شعر أنه ليس فى وسعه أن يكون إنسانا طيبا ؟ لقد أسلمه فليب دشامبان إلى الأجيال التالية فى لوحة من أشهر اللوحات فى اللوفر . قوام فارع تنقذه أثوابه من مظهر السخف ، تخلع عليه السلطة عباءة وقبعة حمراوين ، يقف كأنه فى مرافعة قانونيه ، يعلن عن نبالته بقسماته الواضحة المحددة ويديه الرقيقتين ،ويتحدى أعداءه بعينيه الحادتين ،ولكنه شاحب بفعل السنين المضنية ، محزون بوعيه بالزمن الذى لا يرحم . هنا دنيوية السلطان يعارضها نسك التكريس .

كان عليه أن يكون قويا ليمنع عيوبه من أن تهزم مراميه . بدأ سيرته فى البلاط يتواضع متملق ، انتقم له بعد حين بكبرياء لا تعترف بغير سيد واحد دون غيره . فبينما كانت الملكة تزوره ذات مرة ظل جالسا — وهو خروج على الأدب لا يؤذن به إلا للملك . كان (كأكثرنا) مغرورا بمظهره ، شرها للألقاب ، كارها للنقد ، تواقا إلى الشعبية . كان يغار من كورنيى ، فاشتهى أن يشتهر

هو أيضا كاتبا مسرحيا وشاعرا ، وقد كتب فعلا النثر الرائع كما تشهد بذلك مذكراته . وقد وفق فى غير تردد — كما وفق ولزى — بين اتباع المسيح ، والاهتمام الحذر بشيطان المال . رفض الرشا ولم يتقاض راتبا ، ولكنه استولى على دخل الكثير من الرتب الكنسية ، زاعما أنه فى حاجة إلى تمويل سياساته . وشيد لنفسه كما فعل ولزى قصرا بلغ من فخامته أنه رأى من الحكمة قبل موته أن يهديه إلى ولى العهد ؛ وهكذا أصبح الباليه كردينال الباليه رويال ؛ ولنا أن نفترض أنه مبنى للموظفين الإداريين وللمظهر الدبلوماسى أكثر من الترف الشخصى . لم يكن بخيلا ، وقد أثرى أقرباءه ، وكان فى وسعه أن يسخو بمال الدولة . وأوصى بنصف ثروته للملك ، ونصحه بأن يستعمله « فى الظروف التى لا تحتمل بطء الإجراءات المالية[٣٠] » .

أما ما يبدو لنا قسوة شديدة فيه فكان فى رأيه ضرورة من ضرورات الحكم ، فمن القضايا المسلمة عنده أن الناس — والدول بالتأكيد — لا يمكن أن يساسوا باللطف ، بل لا بد من تخويفهم بالصرامة . إنه أحب فرنسا ، ولكن الفرنسيين لم يبعثوا فيه حرارة الحب . وقد وافق كوزيمو دى مديتشى على أن الدولة لا يمكن حكمها بالصلوات الربانية ، ووافق مكيافللى على أن أخلاقيات المسيح لا يمكن اتباعها بأمان فى حكم الأمة أو صيانتها . كتب يقول « ان المسيح لا يسعه الإبطاء فى العفو عن الإساءة ، ولكن الحاكم لا يسعه الإبطاء فى عقابها إذا كانت جريمة ضد الدولة . . . . ولا بقاء للدول بغير هذه الفضيلة (فضيلة الصرامة) التى تصبح شفقة بقدر ما يمنع عقاب مجرم واحد ألف مجرم من نسيانه[٣١] » . وريشليو هو الذى روج عبارة « مبرر الدولة » ، أى أن القانون الأخلاقى يجب أن يخضع لمبررات الدولة[٣٢] . ويبدو أنه لم يخامره قط شك فى أن سياساته هى واحتياجات فرنسا شىء واحد ، ومن ثم اضطهد أعداءه الشخصيين بنفس الحزم الذى عاقب به أعداء الملك .

على أنه كان داخل قلعته وجبهته الدبلوماسية إنسانا ، يهفو إلى الصداقة ،

ويحس عزلة العظماء ووحشتهم . ويريدنا كتاب تالمان « أقاصيص » المملوء بالقيل والقال أن نصدق أن ريشليو حاول أن يجعل من مارى مديسى خليلة له ، وكانت تكبره بعشرين عاما(٢٣) ؛ ولكن هذا بعيد الاحتمال . وهناك أساطير أخرى عن علاقات الكردينال الغرامية السريه ، حتى مع نينون دلانكلو ؛ وما كان لينتهك عرف العصر أن يعزى رجل السياسة المرهق نفسه ببعض الانحرافات . بيد أن كل ما نعرفه عن عواطفه معرفة واضحة هو أنه كان شديد التعلق بابنة أخته مارى — مادلين دكومباليه. فقد أرادت أن تدخل ديرا بعد أن ترملت عقب زواجها ، ولكن ريشليو أقنع البابا بمنع هذا ؛ وأبقاها قريبة منه لتدير بيته ، واستجابت بالاخلاص له اخلاصا أشد حرارة من أكثر العلاقات الغرامية . وكانت تلبس لباس الراهبة وتخفى شعرها . وسلك ريشليو منها مسلك اللياقة الواجبة كله ، ولكن الملكتين رفضتا تبرئتها لفقدان الأدلة الكافية على إدانتها ، وسبقتا غيرهما إلى حديث الشائعات الذى أضاف وخزة لديدة لقصة الكردينال . إنه لم يحب « رجلا ، ولا امرأة أيضاً » وقد ثأر كلاهما منه .

أما ما كان يملكه فوق كل شيء فهو الارادة . وقليل من الناس فى التاريخ كله من اجتمعت لهم هذه الوحدة فى الهدف ، وهذا المضاء والثبات فى السعى إليه ؛ وما كان لقوانين الحركة أن تكون أكثر ثباتا . ولا بد أن نعجب بإخلاصة لواجباته ، وإفنائه نفسه فيها طول سنين من الجهد وليالى حرم فيها النوم . وقد كرس هــذه الجهود لأولئك الذين يسر لهم النوم دون مخاوف مستظلين برعايته الساهرة . ولا بد أن نعترف له بالشجاعة الفائقة التى تصدت للنبلاء الأقوياء والنساء الدساسات ، وقاومتهم وصدتهم ، وقضت عليهم فى غير خوف ولا رهبة وسط المؤامرات المتكررة على حياته . وقد غامر برأسه المرة بعد المرة بسبب نتائج سياساته .

وقلما كان يشعر بالعافية . فقد عرضته الحمى التى ابتلته بها مستنقعات بيواتو لصداع متكرر كان أحيانا يلازمه أياما بطولها . ولعل جهازه العصبى

كان ضعيفا بالوراثة . أو مضرورا بالخلقة ، فقد كانت إحدى شقيقاته ضعيفة العقل ، وأحد إخوته مجنونا بعض الوقت ، وأرجفت شائعات القصر أن الكردينال ذاته تعتريه نوبات من الصرع وهلوسات جنونية[٣٤] . وكان يعانى من البواسير ، والبثور ، ومرض المثانة ؛ وكانت أزماته السياسية تزداد تعقدا أحيانا بحصر البول كما كان الشأن مع نابليون[٣٥] . وقد حملته علته على التفكير غير مرة فى الاعتزال ، ولكنه وهو حبيس إرادته كان يأخذ الزمام ثانية ويواصل النضال .

ولسنا نستطيع أن ننصفه إلا إذا نظرنا إليه فى مجموعه ، بما فيه من ملامح تتخذ شكلها ونحن ماضون فى الرؤية . لقد كان رائدا للتسامح الدينى ، رجلا واسع الثقافة حساسها ، ذواقة للموسيقى ، وجماعا خبيرا للفنون ، وعاشقا للدراما والشعر ، وصديقا معينا لرجال الأدب ، ومؤسسا للأكاديمية الفرنسية . ولكن التاريخ يذكر فيه بحق أولا وقبل كل شىء الرجل الذى حرر فرنسا من تلك السيطرة الأسبانية التى نجمت عن الحروب الدينية والتى جعلت من فرنسا ، بمقتضى الحلف ، دولة تتلقى من أسبانيا معاشا ، بل تكاد تكون تابعة لها . انه حقق ما كان فرنسيس الأول وهنرى الرابع يصبوان طويلا إليه وما أخفقا فى تحقيقه ، فقد كسر « النطاق الخانق » الذى طوقت به دولتا الهابسبورج فرنسا . ولا بد أن تفصل الصفحات التالية تلك الاستراتيجية البعيدة النظر التى حسم بها حرب الثلاثين سنة ، وأنقذ البروتستنتية الألمانية باعتبارها حليف فرنسا الكاثوليكية ، ويسر لمازران أن يصوغ صلح وستفاليا البناء . أما لفرنسا ذاتها فقد خلق وحدة وقوة على حساب دكتاتورية واستبدادية ملكية ولدت الثورة حين حان وقتها . وإذا كان أول واجبات رجل الدولة أن يجعل شعبه سعيدا حرا ، فإن ريشليو كان شديد القصور فى تحقيق هذا الهدف . وقد أدانه الكردينال ريتز — وهو قاض ذكى ولكنه لم يتجرد من التحامل — لأنه « أرسى أشنع وأخطر طغيان استرق دولة ربما فى التاريخ كله[٣٦] » . ولو

سئل ريشليو فى هذا لربما أجاب بأن على رجل الدولة أن يأخذ فى الاعتبار سعادة وحرية الأجيال القادمة لا جيله فحسب ، وأن عليه أن يقوى وطنه ليحميه من الغزو أو السيطرة الأجنبية ، وأن له فى سبيل هذا الهدف أن يضحى بحق جيلا حاضرا من أجل أمن الأجيال التالية . وبهذا المعنى رأى فيه أوليفاريس ، غريم ريشليو الأسبانى ، « أقدر وزير فى العالم المسيحى فى الألف السنة الأخيرة (٢٧) » . ورأى فيه تشسترفيلد « أكفأ رجل دولة فى عصره وربما فى أى عصر آخر (٢٨) » .

وكانت عودته من نصره النهائى فى روسيون موكب الجنازة لرجل ما زال على قيد الحياة . استقل زروقاً من تاراسكون إلى ليون على الرون ، ومكث فى ليون حتى حوكم سانك — مارس ودتو وأعدما ، ثم اضطر لضعفه من ألم تسبب عن ناسور شرجى أن يذهب إلى باريس على محفة حملها أربعة وعشرون من حراسه ، واتسعت لسرير الرجل المحتضر ، ومائدة ، وكرسى ، وسكرتير يملى عليه أوامر للجيش ورسائل دبلوماسية . واستغرقت مسيرة الموت هذه ستة أسابيع ، وعلى طول الطريق احتشد الناس ليلقوا نظرة خاطفة على الرجل الذى لم يكن فى قدرتهم أن يعطوه الحب ، بل الخوف ، والاحترام ، والتبجيل ، بوصفه التجسيد المهيب للكنيسة والدولة جميعاً ، ونائب الله والملك . فلما بلغ باريس نقل إلى قصره دون أن يبرح محفته . وأرسل استقالته لمولاه الذى رفض قبولها . وحضر لويس إلى فراشه ، ومرضه ، وأطعمه ، وتساءل ماذا عساه يفعل إذا توقفت هذه الإرادة المتجسدة عن الحياة . أما كاهن اعتراف الكردينال فقد سأله بعد أن ناوله القربان الأخير هل غفر لأعدائه ، فأجاب بأنه لم يكن له قط أعداء إلا أعداء فرنسا . وبعد يوم من الغيبوبة مات فى ٤ ديسمبر ١٦٤٢ ، وهو فى السابعة والخمسين . وأمر الملك بأسبوع كامل من مراسم الحداد ، وموت صفوف المشاهدين بجثمانه طوال يوم ونصف . ولكن الناس فى كثير من الأقاليم أشعلوا نيران الفرح شكراً لله على موت الكردينال الحديدى (٢٩)

واستمر يحكم فرنسا حينا . وذلك أنه أوصى بجوليو مازاريني خلفا له في الوزارة ، ووافق لويس . وقد ترك عشرة مجلدات من المذكرات ، مسجلا فيها أعمال الدولة كأنها ليست أعماله بل أعمـــال الملك . وكان في سنواته الأخيرة قد أهدى لويس « ميثاقاً سياسياً » « يصلح بعد موتي لإدارة مملكتك وسياستها . » هنا ، وسط بعض الملاحظات التافهة نجد قواعد دقيقة بليغة للحكم ، صيغت في أسلوب يضارع أي أسلوب في زمانه . إنه ينصح الملك بأن يجتنب الحرب ، باعتبارها شيئاً لا يصلح له جلالته بطبعه. « إن مصالحة عشرة أعداء أجدى وأدعى للفخر من القضاء على عـــدو واحد(٤٠) » ثم أسر إليه أن الفرنسيين قوم لم يخلقوا للحرب ، ففي بدايتها يكونون الشجاعة كلها والحماسة كلها ، ولكن يعوزهم الصـــبر ورباطة الجأش انتظاراً للحظة المواتية ، وبمضي الوقت « يفقدون الاهتمام ، ويغدون أضعف حتى من النساء(٤١) » . ويجب أن يكون للملك ، كالقائد ، شجاعة الرجال القادرة على مقاومة الميول العاطفية ، وعليه ألا يعطي النساء كلمة في الحكومة ، لأنهن يتبعن نزواتهن وأهواءهن أكثر مما يستمعن لصوت العقل(٤٢) . على أن « الفكر » في المرأة لا يناسبها « لأني لم أر في حياتي امرأة عالمة لم يفسدها علمها (٤٣) » . والنساء لا يستطعن كتمان السر ، « والكتمان روح السياسة (٤٤) » ، ورجل الدولة الحصيف قليل الكلام كثير الإصغاء(٤٥) » . وهو يحذر أن يسيء بكلمة غافلة ؛ وهو لا يتكلم بشر عن أحد إلا إذا اقتضى ذلك صالح الدولة (٤٦) . ومن واجب الملك أن يكون لديه معلومات عامة عن تاريخ جميع الدول ونظامها ، لا سيا دولته(٤٧) . » ثم يرجو المؤلف شيئاً من التفهم لوزارته وخلقه « إن عظماء الرجال الذين يعينون لحكم الدول أشبه بالمحكوم عليهم بالتعذيب ، مع فارق واحد ، هو أن هؤلاء يتلقون العقاب على سيئاتهم ، أما أولئك فعلى حسناتهم(٤٨) » .

وعاش الملك خمسة أشهر بعد موته . وقد ذكر الناس حـــكم لويس

القصير شاكرين ، لأنه أطلق السجناء السياسيين ، وسمح بعودة المنفيين ، وأتاح لفرنسا أن تتنفس . وكان يشكو من أن الكردينال لم يدعه يتصرف كما يشاء . كانت أمة قد ماتت قبل ريشليو ببضعة شهور ، فأمر بجلب جثمانها من كولونيا واحتفل بدفنها رسمياً ، وفى لحظاته الأخيرة توسل أن يغفر الله والناس له الخشونة التى عاملها بها .

ورأى نفسه يتهاوى ، ولكنه اغتبط بما كان عليه ولده البالغ من العمر أربعة سنين من عافية ووسامة . سأله معابثا « ما اسمك ؟ » فأجاب الصبى « لويس الرابع عشر » فقال الملك مبتسماً « ليس بعد يا بنى ، ليس بعد » . وأمر بطانته بقبول وصاية الملكة حتى يبلغ ابنه سن الرشد . ولما أخبروه أن قد حانت منيته قال « إذن فأنا راض من كل قلبى يا إلهى (٤٩) » ومات فى ١٤ مايو ١٦٤٣ وقد بلغ الحادية والأربعين . قال تالمان « ذهب الناس إلى مأتمه كأنهم يذهبون إلى حفل زفاف ، وظهروا أمام الملكة كأنهم فى مباراة رياضية (٥٠) » . وكان الكردينال الرهيب قد أعد كل شىء لمجىء « الملك العظيم » و « القرن العظيم » .

الفصل السادس عشر

فرنسا إبان الحروب

١٥٥٩ — ١٦٤٣

١ — الأخلاق

بدأ الدين ، الذى اتخذت ألوانه ذرائع كاذبة لحروب كثيرة ، يعانى من تسخيره فى السياسة ؛ وازداد المتشككون فى قداسة عقائد تحاج بالمباراة فى سفك الدماء ؛ وبدأت فى الطبقات العليا الشكوك حول الآداب المسيحية تختلط بالتشكك فى العقيدة . وكان من علامات الزمن أن يبين قسيس تقى مثل بيير شارون جدارة الغريزة الجنسية وجهازها المضحك بالاحترام[1].

أما الفلاحون فقد احتفظوا بإيمانهم ، وقدسوا الناموس المسيحى حتى وهم ينتهكونه ؛ لقد يقتلون بعضهم بعضاً فى غضبة عابرة ، وقد ينحرفون عن سنة الزواج بواحدة إذا واتتهم الفرصة ونامت أعين الرقباء ، ولكنهم فيما عدا ذلك يحيون حياة مهذبة إلى حد محتمل ، ويستمعون إلى القداس بانتظام ، ويتناولون جسد المسيح ودمه مرة فى العام على الأقل . وأما الطبقات الوسطى — سواء من الكاثوليك أو الهيجونوت — فقد ضربت خير مثال للفضيلة المسيحية . كان أفرادها يحتشمون فى لباسهم ، ولا يتزوجون غير مرة واحدة ، ويهتمون بأعمالهم وأطفالهم ، ويختلفون إلى الكنيسة ، ويعطون الدولة كهنتها وأطباءها ومحاميها وقضاتها واستقرارها . وكان هناك نساء مثاليات حتى فى الطبقة الارستقراطية ، وقد وصف شارل التاسع امرأته اليزابيث النمسوية بأنها أكثر نساء العالم فضيلة ؛ ولكن يمكن القول عموماً إن العلاقات الغرامية فى الطبقات ذات الفراغ فى العاصمة ، وفى الصناع المهرة فى المدن ، أخذ زمامها يفلت . كان عصر حوافز

جسدية لاخفاء فيها . وقد بقى أثر من الحب الأفلاطونى ، الذى تسلى به بيمبو وكاستليونى فى إيطاليا ، ومرجريت نافار فى فرنسا ، فى ندوة مدام درامبوييه (وهى ذاتها إيطالية) ، ولكنه كان فى أكثره حيلة نسائية ، ومقاومة فى العمق لإضفاء المجد على القلعة .

كانت كاترين مديسى — على قدر علمنا — زوجة مخلصة وأما شديدة الاهتمام بأبنائها ، ولكن الشائعات اتهمتها بتدريب النساء الجميلات على إغراء أعدائها حتى يخضعوا[٢] ، وقد وصفت جان دالبر (وفيها بعض خلق المتحشمات) بلاط كاترين بأنه « أفسد المجتمعات قاطبة وألعنها[٣] » . وكان برانتوم مروجا للفضائح ، ولكن شهادته يجب أن تدخل الصورة : « أما نساؤنا الفرنسيات الجميلات . . . . فقد تعلمن فى السنين الخمسين الأخيرة قدراً كبيراً من اللطف والرقة ، وكثيراً من الجاذبية والفتنة فى ملبسهن ، وفى نظراتهن الجميلة وأساليبهن الفاجرة . . . بحيث لا يستطيع أحد الآن أن ينكر تفوقهن على جميع النساء من كل وجه . . . ثم إن لغة الحب اللعوب هى فى فرنسا أشد خلاعة وأكثر إثارة وأحلى منطقاً مما هى فى اللغات الأخرى . وفوق هذا كله ، فإن هذه الحرية المباركة التى أتيحت لنا فى فرنسا . . . تجعل نساءنا مرغوبات ، ساحرات ، لينات ، طيعات أكثر من جميع النساء ، يضاف إلى هذا أن الزنى لا يلقى عموماً من العقاب ما يلقاه فى أقطار أخرى . . . وباختصار فإن ممارسة العشق فى فرنسا شىء لطيف[٤] » .

وقد ضرب الملوك المثل فى الخلق الفاشى فى المجتمع . فقد مات فرنسيس الثانى قبل أوانه بسبب شهواته . وكان لشارل التاسع محظيته مارى توشيه . وانتقل هنرى الثالث من الغانيات إلى المرد . أما هنرى الرابع فثبت على عشق المرأة . ويبدو أنه لا هو ولا خليلته جابرييل دستريه اعترضا على تصويرها عارية حتى خصرها[٥] . ولما تزوجت ابنته هنريتا ماريا الفرنسية البالغة سبعة عشر ربيعاً ، من تشارلز الأول ، بلغت اتصالاتها الغرامية من

الكثرة مبلغاً حمل كاهن اعترافها على أن ينصحها بأن تتخذ المجدلية مثالا لها ، والجلترة كفارة عن ذنوبها [٦] .

ولكن حتى مع هذه الأوضاع كان لطف النساء ولين جانبهن متخلفاً عن نهم الرجال ، وجهدت المومسات لإشباع الطلب المتزايد عليهن . وقد عرفت باريس منهن ثلاثة أنواع : « العنزة المصففة الشعر » للبلاط ، و « الطير الصداح » للبورجوازية ، و « الحجرية » التي تسد مطلب الفقراء وتسكن بدروسا من الحجر . وكان هناك غانيات متعلمات لرجال الطبقة الارستقراطية ، مثل ماريون ديلورم ، التي اعترفت عشر مرات وهي تحتضر ، لأنها بعد كل حل ذكرت نفسها بخطايا لا حصر لها [٧] . وقد أصدر شارل التاسع وهنرى الثالث مراسيم بحظر المواخير ، ونص أمر أصدره لويس الثالث عشر (١٦٣٥) على أن كل بغى تضبط يجب أن « تضرب بالسوط ويجز شعرها وتنفى » وأن كل الرجال المشتركين في هذه التجارة يجب أن يرسلوا إلى سفن تشغيل المجرمين مدى الحياة [٨] . واحتج عدة رجال ، ومنهم مونتيني وقسيس هيجونوتى ، على مثل هذه الإجراءات وطالبوا بإجازة المواخير صيانة للأخلاق العامة [٩] . وظلت هذه القوانين فى السجلات القانونية حتى أواخر القرن الثامن عشر ، ولكنها لم تكن تطبق إلا نادراً . وحاولت قوانين أخرى عبثاً أن تقضى على انحرافات الطبيعة ونزواتها ويروى مونتينى قصة فتاة تحولت رجلا فى الثانية والعشرين .[١٠] ووجد الأدب الفاحش سوقاً رائجة ، وعرضت نوافذ حوانيت المطابع صوراً فاجرة دون أن تلقى أى تدخل مما نعرفه اليوم .

وعانت الفضيلة الاجتماعية والسياسية من الحروب . وتوسع فى بيع الوظائف العامة حتى أوشك أن يكون رشوة شاملة . وكانت الإدارة المالية قبل أن يطهرها صلى فاسدة إلى حد الفوضى [١١] . ولم تكن الحرب تدمر تدميراً أعمى كما أصبحت بعد قليل فى عهد لويس الرابع عشر ، ومع ذلك نسمع بجيوش ، من الهيجونوت والكاثوليك على السواء ، تشتبك فى جرائم بالجملة من قتل ونهب واغتصاب وتعليق للمواطنين من أباهمهم أو اشعال

للنار تحت أقدامهم لانتزاع الذهب الذى يخمنونه . وزاد انتشار المبارزة فى القرن السادس عشر ، ربما لأن السيف أصبح جزءا مألوفا من ملبس الرجال . وقد حرمها شارل التاسع بحض ميشيل لوبيتال ، ولكنها كادت تصبح وباء متفشيا فى عهد هنرى الثالث ، وكان ينتظر أن يشتبك الشاهدان كما يشتبك الخصمان الرئيسيان ؛ يقول مونتينى إن المبارزات غدت الآن معارك . واختلف مرسوم ريشليو الذى حرم المبارزة عما سبقه فى أنه نفذ تنفيذا صارما لا تحيز فيه . ولكن العادة انتعشت بعد موته .

وكانت الجريمة مألوفة . وكان أكثر باريس لا يضاء ليلا ؛ وأفرخت السرقة والقتل ، وأشاعت المشاجرات العنيفة الفوضى فى الشوارع ، وكان السفر فى الريف خطرا يهدد الحياة والأوصال . أما العقوبات فوحشية ، ولسنا على ثقة من أنها كانت معوقات ناجعة للجريمة ، ولكن لعل الجريمة كانت بدونها تستشرى . وأما السجن فكان لطيفا للسادة ، ففى استطاعة النبلاء نزلاء الباستيل أن يدفعوا ثمنا لمساكن مريحة تفرش بأثاثهم وتنزلها نساؤهم . أما عامة المجرمين فقد يزج بهم فى زنزانات خانقة أو يرحلون إلى المستعمرات أو يحكم بتشغيلهم فى سفن العبيد والمجرمين . وترجع آثار هذه العقوبة إلى عام ١٥٣٢ ، ولكن أول تشريع لها فى القانون الفرنسى يرجع إلى عام ١٥٦١ . وكان يحكم على نزلاء هذه السفن عادة بعشر سنين ، وتدمغ ظهورهم بالحروف الثلاثة الأولى لمجرمى السفن « جال » . وكانوا فى الشتاء يمكثون فى سفنهم حبيسين أو يحشرون كالأنعام فى السجون لا سيما فى طولون أو مارسيليا . وفى أثناء الحروب الدينية حكم على كثير من الهيجونوت الأسرى بالسجن فى هذه السفن ، وهناك يلقون من المعاملة الوحشية ما يحلو أمامه الموت . وتفجرت أوبئة الانتحار فى تلك السنين المرة ، وعلى الأخص بين نساء ليون ومارسيليا .

٢ — آداب السلوك

تحسنت آداب السلوك بينما انحطت الأخلاق . فقد جلبت كاترين دى

مديتشى معها الأدب الإيطالى ، واحساسا بالجمال ، وولعابالأناقة ،ورهافة فى الأثاث والملبس . وكان من رأى برانتوم أن بلاطها أروع بلاط وجد ، « فردوس أرضى حقيقى » يتألق « بثلاثمائة سيدة وآنسة على الأقل » (١٢) مرتديات أغلى الثياب وأفخرها . وأزاحت مراسم البلاط الفرنسى التى أرساها فرنسيس الأول المراسم الإيطالية من مكان الصدارة والقدوة لأوربا . وأنشأ هنرى الثالث منصب المدير الأكبر للمراسم الفرنسية ، وأصدر مرسوما يفصل مراسم السلوك فى البلاط وبروتوكوله ، ويحدد الأشخاص الذين يسمح بمثولهم بين يدى الملك ، وطريقة مخاطبته ، وخدمته فى يقظته وزينته ، وطعامه ، ونومه ، ومن يرافقه فى نزهته أو صيده ، ومن يحضر مراقص البلاط . وقد أصر هنرى الثالث ، الخجول النيّق ، على هذه القواعد ، وانتهكها هنرى الرابع فى غير تحرج ، وتجاهلها لويس الثالث عشر ، وتوسع فيها لويس الرابع عشر حتى أصبحت طقوسا تنافس القداس المطول .

أما ملابس القصر فقد ازدادت غلاء وزخرفا . فقد ارتدى المرشال باسومبيير سترة قماشها من الذهب أثقلها لآلىء تزن خمسين رطلا وثمنها أربعة عشر ألف إيكو (١٣) . ولبست مارى مديسى فى حفل عماد ولدها عباءة مرصعة بثلاثة آلاف ماسة واثنين وثلاثين ألف حجر كريم آخر (١٤) . وكان الرجل من رجال البلاط يعد نفسه فقيرا ما لم يملك خمسا وعشرين سترة من مختلف الطرز . وتعددت القوانين المقيدة للانفاق على الطعام والكساء ولكنها سرعان ما كانت تهمل . فحظر قانون منها أصدره هنرى الرابع « على جميع سكان هذه المملكة أن يلبسوا الذهب أو الفضة على ثيابهم ، إلا البغايا واللصوص (١٥) » . ولكن حتى هذا الربط الذكى كان عديم الجدوى . وشكا الوعاظ من المجازفة المبيته التى أقدمت عليها السيدات حين لم يسترن ما استدار من أعضائهن إلا بمقدار . ويزعم مونتينى ، الذى لم يكن كثير الوقوع فى خطيئة خداع النفس بالأوهام ، « أن سيداتنا

(وإن كن أنيقات رقيقات) يرين مرارا مكشوفات الصدر حتى السرة[١٦] » .
ورغبة فى تأكيد بياض البشرة أو حمرة الخدود ، بدأت النساء فى القرن السابع عشر تزيينها ببقع أو رقع سماها أصحاب الأمزجة غير الشعرية « الموش » أو الذباب . وقسين مشداتهن بعظم الحوت وفردن تنانيرهن المطوقة بالسلك . ورفعن شعورهن فى العديد من الأشكال المغرية أما الرجال فأطلقوا شعورهم المجعدة طويلة مرسلة ، وتوجوا رءوسهم بقبعات عريضة يزينها ريش مرح . وأفشى لويس الثالث عشر بدعة الشعر المستعار لما أصابه من صلع مبكر . وهكذا تبارى الجنسان فى غرور المظهر وخيلائه .

ولم تمنعهم آدابهم من تناول الطعام بأصابعهم . ولم تحل الشوك محل الأصابع ، حتى بين النبلاء ، إلا عام ١٦٠٠ ، وليس قبل عام ١٧٠٠ تقريبا فى غيرهم من الطبقات . وقد حقق مطعم عصرى يدعو لاتور دراجن الشهرة بتقديمه الشوك لزبائنه ، وكان هنرى الثالث يتغدى فيه وهو عائد من صيده ، وكان الفرنسيون يأكلون الضفادع والقواقع فى القرن السابع عشر . أما شرابهم المفضل فهو النبيذ . وقد بدأوا يستعملون القهوة ولكنها لم تكن بعد شرابا لا غنى عنه . وكان الكاكاو قد دخل فرنسا من المكسيك بطريق أسبانيا ، وذمه بعض الأطباء زاعمين أنه ملين فى وقت غير مناسب ، ووصفه غيرهم دواء للأمراض التناسلية ، وروت مدام دسيفينى أن سيدة حاملا أسرفت فى شربه إسرافا جعلها تلد « ولدا صغيرا أسود كالشيطان »[١٧] .

وانعكس التحسن فى آداب السلوك على وسائل الانتقال والترفيه . فشاع الآن استخدام المركبات العامة فى غرب أوربا ، وبدأ الميسورون من الفرنسيين يسافرون فى عربات فخمة مجهزة بالستائر والزجاج . وفشت لعبة التنس ، وأولعت كل الطبقات بالرقص . ودخلت رقصة البافان من أسبانيا ، وقد اشتقت اسمها من كلمة « بافو » الأسبانية ومعناها الطاووس ،

وأضفت عليها حركاتها الرشيقة المتعالية نزعة ارستقراطية ، وأعان التقبيل الذى كان جزءا منها على إثارة الدم فى العروق ، وفى عهد كاترين مديتشى أصبح الباليه قمة أسباب الترفيه فى البلاط ، إذ جمع بين الموسيقى والرقص ليقص قصة بالشعر أو الإيماء (البانتوميم) ، وشاركت فيه أجمل نسائها ، فى ملابس ومشاهد صممت تصميما فنيا ، وقد أقيم حفل من حفلات الباليه هذه فى التويلرى غداة مذبحة القديس برتلميو .

وكان الموسيقيون أبطال الساعة العابرة . افتتن بهم الفرنسيون فتنة كبرى ، حتى أن رجلا من الحاشية كان يحضر حفلة موسيقية عام ١٥٨١ ضرب سيفه بيده وأقسم أنه متحد أول رجل يقابله للمبارزة ، وهنا قاد قائد الفرقة فرقته فى لحن رقيق هدأ من هياجه[١٨] . وظل العود الآلة المفضلة ، ولكن حدث فى عام ١٥٥٥ أن بلتازار دبوجوايبو ، أول عازف كمان شهير فى التاريخ ، جلب فرقة من عازفى الكمان إلى بلاط كاترين وأشاع موسيقى الكمان . وفى عام ١٦٠٠ تبع أوتافيو رينوتشينى مارى مديسى إلى فرنسا ، وأدخل فيها فكرة الأوبرا . وكان الغناء لا يزال الموسيقى المفضلة ، وقد رأى الأب مرسين بحق أنه ليس فى الطبيعة صوت يضارع جمال صوت المرأة[١٩] .

واجتمعت الآن الموسيقى ، والأدب ، والسلوك المهذب ، والحديث المثقف — لتؤلف كلها إضافة من أهم الاضافات التى أغنت بها فرنسا الحضارة — وهى الصالون . وكانت إيطاليا ، الأم الراعية للفنون الحديثة ، قد مهدت له باللقاءات المهذبة ، كتلك المنسوبة لأوربينو فى كتاب كاستليونى « رجل البلاط » ، ومن إيطاليا انتقل الصالون إلى فرنسا — كما انتقل إليها الكمان ، والقصر الريفى (الشاتو) ، والباليه ، والأوبرا ، والزهرى . وقد ولدت مؤسسة الصالون بفرنسا فى روما (١٥٨٨) لجان دفيفون . السفير الفرنسى لدى البابا ، وجوليا سافيللى إحدى وريثات أورسينى . وتلقت كاترين دفيفون تعليما لم تألفه الفتيات فى القرن السادس

عشر . وحين بلغت الثانيه عشرة تزوجت من شارل دانجين ، وكان يشغل في عهـــد هنري الرابع ولويس الثالث عشر منصبا كبيرا بلقب المركيز رامبوييه . وشكت المركيزة الشابة من قصور لغة الحديث وآداب السلوك في فرنسا عنها في إيطاليا سلامة وتهذيبا ، ولاحظت في استنكار ذلك الفصل بين الطبقات المفكرة —من شعراءوأدباء وعلماء—وبين النبلاء .وفي عام ١٦١٨ صممت لأسرتها « الأوتيل درامبوييه » في شارع سان — توما — دلوفر بباريس . وفي غرفة منه علقت لوحات من المخمل الأزرق حواشيها من الفضة والذهب . في هذا « الصالون الأزرق » الفسيح استقبلت المركيزة ضيوفها في ما أصبح أشهر صالون في التاريخ . وقد حرصت على أن تدعو إليه رجالا ونساء ذوي آداب متجانسة وميول متنوعة : نبلاء مثـــل كوندبه الكبير ولاروشفوكو ، وكنسيين مثل ريشليو وأوبه ، وقواداً مثل مونتوسييه وباسومبير ، وسيدات من ذوي النسب العريق كالأميرة كونتي ودوقي لونجفيل وروهان ، وأديبات مثل مدام دلافاييت ومدام دسفني والآنسة دسكوديري ، وشـــعراء مثل ماليرب وشابلان وجي دبالزاك ، وعلماء مثل كونرار وفوجلا ، وظرفاء مثل فواتور وسكارون . هنا وعظ بوسويه عظة وهو في الثانية عشرة ، وقرأ كورنيي تمثيلياته . هنا تعلم النبلاء أن يهتموا باللغة والعلم والدرس والشعر والموسيقى والفن ؛ وتعلم الرجال من النساء آداب المجاملة ، وتعلم المؤلفون أن يخفوا غرورهم ، والفقهاء أن يهذبوا فقههم ، والتقى الظرفاء بذوي النسب ، وناقش القوم الكلام الصحيح واكتسبوه ، وأصبح الحديث فنا من الفنون .

وتناولت المركيزة هذه الأسد والنمر بلباقة قلمت مخالبها دون أن توجعها . ومع أنها ولدت سبعة أطفال ، إلا أنها احتفظت بجمالها فترة كفت لإلهام فولتير وماليرب العاطفة المشبوبة ، فكان الشاعران يلتهبان لكل ابتسامة، ولكنها برغم هذه النيران كانت محـــل احترام الجميع لوفائها لزوجها الخامل ؛ وبرغم ضعف صحتها ضربت لضيوفها المثل في البشاشة والذكاء المفعم بالحيوية ؛ وبرغم فقدانها ولدين اختطفهما الموت وثلاث بنات

اختطفهن الذين اسكتت حزنها حتى كتبت قبريتها . وفى جو من الإباحية الجنسية والحديث الحامح أشاعت من حولها جوا من الأدب واللياقة . وأصبحت « سلامة الذوق » جواز الدخول لصالونها . وكان القواد والشعراء يتركون سيوفهم ورماحهم فى البهو ، وخفف الأدب من حدة الخلافات ؛ وازدهر النقاش وأقصى الجدل العنيف .

وأخيرا أسرف القوم فى هذا التهذيب . لقد رسمت المركيزة قانونا يتوخى الدقة فى القول والفعل ، ولكن الذين طبقوه فى تزمت سموا « المتحذلقين » و « المتحذلقات » ، وفى عام ١٠٥٩ حين كانت المركيزة قد اعتزلت وأصبحت وحيدة ، انقض فولتير على هذه الرواسب الغريبة المتخلفة من فنها وقضى عليها بسخريته القضاء المبرم . ولكن حتى الاسراف كان له نفعه ، فهؤلاء « المتحذلقات » ساعدن على جلاء معنى الألفاظ والعبارات ومدلولها . وتنقية اللغة من الإقليمية ، والنحو الرديء ،والتقعر ؛ هنا بذرة الأكاديمية الفرنسية . وفى الأوتيل درامبوييه طور ماليرب وكونرار وفوجلا قواعد الذوق الأدبى التى أفضت إلى بوالو والعصر الكلاسيكى . وقد ساهمت « المتحذلقات » فى ذلك التحليل للعواطف الذى أطال الروايات الغرامية ،وفتن به ديكارت وسبينوزا ، وساعدن على توشية علاقات الجنسين باستراتيجية الانسحاب والتمنع ،وما يتبعهامن تصور الكنز الرواغ تصورا مثاليا،مما أفضى إلى الحب الرومانسى . وبفضل هذا الصالون وما جاء بعده من صالونات أصبح التاريخ الفرنسى أكثر منه فى أى وقت مضى ثنائى الجنس . وارتفع مقام النساء ، وازداد أثرهن فى الأدب واللغة والسياسة والفن . وعظم احترام المعرفة والفكر ، وانتشر الاحساس بالجمال .

ولكن أكانت الصالونات والأكاديمية جاعلة رابليه مستحيلا ؟ أكانت موصدة العقل الفرنسى أمام فسيولوجية مونتينى المرحة ، وأخلاقياته السمحة ، وحذلقته المتزايدة ؟ أم كانت موجهه هذين العبقريين قسرا ورافعة إياهما إلى فن أكثر رهافة وعلوا ؟ .

ولكننا سرنا شوطا أبعد مما يجب . فحين فتحت مدام درامبوييه صالونها كان قد مضى على موت مونتيني ست وعشرون عاما . فلنرجع فى مسيرتنا ونستمع ساعة إلى أعظم كاتب ومفكر فرنسى فى هذا الجيل .

٣ — ميشيل دمونتيى ١٥٣٣ — ٩٢

ا — تعليمه

وصف جوزف سكاليجر والد مونتيني بأنه بائع رنجة . ولكن هذا العالم الكبير قفز . لا ؛ ذلك أن الجد ، واسمه جريمون إيكيم ، هو الذى كان يصدر الأنبذة والأسماك المجففة من بوردو . وقد ورث هذه التجارة من جد ميشيل الأكبر ريمون إيكيم ، الذى جمع المال للأسرة بهذه الطريقة ، ثم اشترى (١٤٤٧) القصر والضيعة المعروفين باسم مونتيني على تل خارج المدينة . ووسع جريمون ميراثه بزواج حكيم . أما ابنه بيير إيكيم فقد فصل الحرب على الرنجة ، وانخرط فى الجيش الفرنسى ، وقاتل فى إيطاليا مع فرنسيس الأول ، وعاد بندوب وبآثار من النهضة ، وارتقى إلى منصب عمدة بوردو . وفى عام ١٥٢٨ تزوج أنطوانيت ، ابنة تاجر غنى من تولوز يهودى المولد ، مسيحى العماد ، أسبانى الثقافة . وولد ميشيل إيكيم ، الذى أصبح السيد الإقطاعى على مونتيني ، لبيير وانطوانيت ، وقد اختلط فى رأسه الدم الغسقونى واليهودى . ثم زاد أفقه اتساعاً أن أباه كان كاثوليكياً تقياً ، وأمه على الأرجح بروتستنتية ، وأخته وأخاه كالفنيين .

وكان لبيير آراء فى التعليم . يقول عنه ميشيل « إن هذا الأب الطيب أرسلنى حتى وأنا بعد فى المهد لأنشأ فى قرية فقيرة يمتلكها ، وأبقانى فيها طوال الرضاع وبعده بقليل ، لأتربى أفقر وأبسط تربية شائعة[٢٠] » . وبينما كان الصبى فى الحضانة عين له تابع ألمانى لم يكلمه بغير اللاتينية . « ناهزت السادسة وأنا لا أفهم من الفرنسية أكثر مما أفهم من العربية[٢١] »

فلما دخل كلية جيين كان أساتذته (فيما عدا جورج بوكانان) يكرهون التحدث إليه باللاتينية ، لأنه يتكلمها بطلاقة . وقد برز فيها إلى هذا الحد «دون كتب ، أو قواعد ، أو نحو ، أو ضرب بالسياط ، أو أنين ونواح » .

ولعل الأب كان قد قرأ ما قاله رابليه فى التعليم . فحاول أن ينشئ ولده على المبادئ التحررية ، مؤثرا الحب على القسر . واستطاب مونتينى هذا النظام وأوصى به فى خطاب طويل عن التعليم(٢٢) ، صرح أنه كتبه إلى الليدى ديان دفوا ، ولكنه أنكره فى مقال متأخر وأوصى بالعصا معينا مقنعا للمنطق(٢٣) . كذلك لم يحذ حذو أبيه فى تفضيله اللاتينية أو الدراسات الكلاسيكية ومع أن ذاكرته كانت فياضة بالشواهد والمثل الكلاسيكية . إلا أنه استنكر الاقتصار على التعليم الكلاسيكى ، واحتقر التعليم من الكتب والمكبين على الكتب ، وآثر على هذا كله الاهتمام بتدريب الجسد لنيل الحكمة والفضيلة . « لسنا فى حاجة إلا لقليل من التعليم لكى تكون لنا عقول سليمة(٢٤) » ، وقد نتعلم من مباراة فى التنس أكثر مما نتعلم من خطاب لاذع ضد كاتلين . وينبغى أن يربى البدن على أن يكون جلدا شجاعا ، قادرا على تحمل الحر والبرد دون تذمر ، وعلى إساءة مخاطر الحياة التى لا مفر منها . كان مونتينى يستشهد بالكتاب الأثينيين ، ولكنه آثر طرق الأسبرطيين فى العيش ؛ مثله الأعلى فضيلة رجولية ، تقريبا بالمعنى الرومانى الذى جعل هذه العبارة نافلة — وأضاف إليه المثل الأعلى الإغريقى « لا إفراط » — الاعتدال فى كل شىء ، حتى فى الاعتدال ، فعلى المرء أن يشرب الخمر فى اعتدال ، على أن يكون قادرا إن دعته المناسبة على الشرب الكثير دون أن يغيب عن وعيه .

وقد يكون السفر جزءاً هاماً من التعليم إذا تركنا أهواءنا وراءنا . « قيل لسقراط إن فلاناً لم يفده السفر مثقال ذرة ، فأجاب : أجل ، لأنه حمل نفسه معه فى سفره »(٢٥) . فإذا استطعنا أن نفتح عقولنا وعيوننا وجدنا الدنيا خير كتاب نقرؤه ، لأن « الكثير جداً من الأمزجة الغريبة »

والملل المتعددة . . . . والآراء المتنوعة ، والقوانين المختلفة ، والعادات الطريفة ، تعلمنا أن نصدر الحكم السليم على نظائرها عندنا [٢٦] » . ثم بعد السفر يأتى التاريخ أفضل معلم لنا ، وهو ليس إلا سفراً يمتد إلى الماضى . فالطالب مستعيناً بكتب التاريخ يحيط بأفضل العقول فى خير العصور . . . فأى فائدة لا تجنيها . . . بقراءة « تراجم » بلوتارخ ؟ [٢٧] » وأخيراً يجدر بالطالب أن يتلقى بعض الفلسفة — لا « جدليات المنطق الشائكة » بل الفلسفة التى تعلمنا كيف نعيش . . . وما يجب معرفته وما لا يجب ، وما الشجاعه ، والاعتدال ، والعدل ؛ وأى فرق بين الطموح والجشع ، والرق والحرية ، وما العلامات التى يتبين الرجل بها القناعة الصادقة الكاملة ؛ وإلى أى حد يجب أن يخاف . . . الموت أو الألم أو العار . . . إن الطفل القادم من الحضانة أقدر على تلقى (هذه الدروس) من تعلم القراءة والكتابة [٢٨] » .

وبعد أن أنفق مونتينى سبع سنين فى كلية جيين دخل الجامعة ليدرس القانون . وما من شىء كان أقل من هذه الدراسة تجانساً مع عقله المستطرد وحديثه الواضح . فهو لا يمل من اطراء العادة وذم القانون . وقد لاحظ فى ابتهاج أن فرديناند الثانى ملك أسبانيا لم يبعث محامين إلى أمريكا الأسبانية مخافة أن يضاعفوا أسباب النزاع بين الهنود ، وتمنى لو أنه منع الأطباء أيضاً مخافة أن يخلقوا بعقاقيرهم أمراضاً جديدة [٢٩] . وعنـــده أن شر البلاد ما استكثر من القوانين ، وقدر أن بفرنسا منها « أكثر مما لدى بقية العالم » . ولم ير أى تقدم فى نزعة القانون الإنسانية ، وتساءل هل بين الهمج وحشية كتلك التى يمارسها القضاة ذوو العباءات ، ورجال الكنيسة الحليقو الرءوس ، فى غرف التعذيب بالدول الأوربية [٣٠] . وافتخر بأنه « حتى اليوم (١٥٧٨؟) أنا برىء من جميع الدعاوى القانونية [٣١] » .

ب — صداقته وزواجه

ومع ذلك نجده عام ١٥٥٧ مستشاراً فى محكمة الاعانات فى بيريجو ، وعام ١٥٦١ عضواً فى برلمان بوردو — وهو المحكمة البلدية . وهناك لقى

وأحب إتيين دلابويتى . وقد رأينا فى موضع آخر من هذا الكتاب أن هذا الاستقراطي الشاب كتب وهو بعـــد فى الثامنة عشرة مقالا مشبوب العاطفة ولكنه لم ينشره ، واسمه « مقال عن الرق الاختيارى » ، وقد اشتهر باسم « كونتران » — أى ضد حكم الرجل الواحد . وقد دعا الشعب فيه بكل البلاغة التى أوتيها دانتون فيما بعد ، إلى الثورة على الحكم المطلق . ولعل مونتينى نفسه شعر ببعض الحماسة الجمهورية فى شبابه . على أى حال جذبه هذا المتمرد النبيل ، الذى بدا له — وكان يكبره بثلاث سنوات — آية فى الحكمة والنزاهة :

« لقد فتش الواحد منا عن صاحبه قبل أن يراه ، ومن الأخبار التى سمعها عنه . . . أظن أننا بأمر سرى من السماوات تعانقنا باسمينا . وعند أول لقاء لنا ، وكان بالصدفة فى وليمة كبيرة واجتماع مهيب لمدينة بأسرها ، وجدنا نفسينا مندهشين ، متعارفين ، . . . مرتبطين ، بحيث أن شيئاً من الأشياء لم يقترب منا بعد ذلك اقتراب كل منا من صاحبه (٣٢) » .

ما السر فى هذه الصداقة العميقة ؟ يجيب مونتينى « لأنه كان هو ، ولأننى كنت أنا(٣٣) » — لأنهما كانا مختلفين اختلافاً جعلهما يكمل الواحد منهما صاحبه . ذلك أن لابويتى كان المثالية كلها ، والاخلاص الحار ، والرقة والحنان ؛ أما مونتينى فكان فيه من الثقافة والحصافة وعدم التحيز ما يمنعه من التفانى إلى هذا الحد ، وقد وصفه هذا الصديق ذاته بأنه « يميل إلى الرذائل والفضائل البارزة على السواء (٣٤) » . وربما كانت أعمـــق تجربة مر بها مونتينى فى حياته هى مشاهدته صديقه يحتضر . ففى عام ١٥٦٣ ، وخلال طاعون تفشى فى بوردو ، مرض لابويتى فجأة بالحمى والدوسنتاريا . وقد احتمل موته البطىء بجلد رواقى وصبر مسيحى لم يغب قط عن ذاكرة صديقه الذى ظل ملازماً لفراشه فى تلك الأيام الأخيرة . وورث مونتينى مخطوطة المقال الخطر وخبأها ثلاثة عشر عاماً ، ثم نشرت منه نسخة فى طبعة مسروقة (١٥٧٦) ، وهنا نشر الأصل ، وأوضح أنه تدريب فى البلاغة الصبى « فى السادسة عشرة » .

وجعلت هذه الصداقة كل علاقة إنسانية بعدها تبدو لمونتيني تافهة غثة . وقد كتب المرة بعد المرة أن نصفه مات مع لابويتى « لقد ألفت أن أكون دائماً أثنين ، ولم اعتد أن أكون وحدى قط ، حتى ليخيل إلى أننى لست إلا نصف نفسى[٣٥] » . وفى حرارة هذه الذكرى رفع الصداقة فوق الحب بين الوالد والولد ، والفتاة والفتى ، والزوج والزوجة . ويبدو أنه لم يكن يشعر بأى عاطفة رومانسية نحو أى امرأة . « فى شبابى عارضت الأفكار الشائعة عن الحب ، والتى أحسست أنها تغلبنى على أمرى ، وجاهدت لأقلل من متعتة مخافة أن . . . يسترقنى فى النهاية ويضعنى تحت رحمته[٣٦] » . ولا يعنى هذا أنه لم تكن له أويقات غرام ، فهو على العكس يعترف بعلاقات واسعة متعددة قبل زواجه[٣٧] . وقد وصف الحب الجنسى بأنه « ليس إلا لذة تدغدغ الجسم نتيجة إفراغ الأوعية المنوية ، أشبه باللذة التى تعطينا إياها الطبيعة فى إفراغ الأعضاء الأخرى ورى أنه من المضحك أن الطبيعة « خلطت لذاتنا وأوساخنا معاً[٣٨] » .

وقد وافق أكثر الفلاسفة على أن حافز الجماع ليس مبرراً للزواج . « لست أرى زيجات أسرع فشلا وأكثر كدراً من تلك التى تعقد من أجل الجمال ، أو تتم فى عجلة استجابة لرغبات الغرام[٣٩] » . فالزواج يجب أن يرتبه « طرف ثالث » ، وينبغى أن يرفض صحبة الحب (الجنسى) وشروطه « وأن يحاول » محاكاة شروط الصداقة » ؛ ويجب أن يصبح الزواج صداقة إن أريد له البقاء. وكان يميل إلى رأى المفكرين اليونان القائل بأن على الرجل ألا يتزوج قبل الثلاثين . وقد اجتنب هذا الرباط أطول ما استطاع . وإذ كان لا يزال أعزب وهو فى الثامنة والعشرين ، فإنه سافر إلى باريس ، وافتتن بها[٤٠] ، واستمتع بحياة البلاط حينا (١٥٦٢) ، ورأى الهنود الأمريكين فى روان ، وتردد بين مفاتن الحضارة والهمجية المتنافسة ، ثم عاد إلى بوردو ، وتزوج فرانسواز دشاسين (١٥٦٥) .

ويلوح أنه تزوج لأسباب منطقية تماما : هى أن يكون له بيت وأسرة ،

وأن يورث الأسرة ضيعته واسمه . وفى صفحاته الخمسمائة والألف لا يكاد يذكر شيئا عن زوجته — ولكن لعل هذا من قبيل حسن الأدب ، وهو يزعم أنه كان وفيا لها ، « مع أن الناس يذيعون عنى أننى إباحى ، إلا أننى (بنية صادقة) تقيدت بقوانين الزواج بدقة أكثر مما وعدت أو أملت [٤١] » . وكانت تغتفر استغراقات العبقرية فى ذاتها ، وتعنى بكفاية بالبيت والأرض وحتى بالحسابات ، لأنه لم يكن يميل إلى الأشغال التجارية . أما هو فقد أعطاها الاحترام كله ، وأمارة حب أو كلمته بين الحين والحين — كاستجابته الشاكرة لمساعدتها السريعة له بعد سقوطه من طهر جواده ، وكأهدائه إياها طبعته للترجمة التى قام بها لابويتى لخطاب بلوتارخ « خطاب عزاء » . وكان زواجا موفقا ، وعلينا ألا نأخذ مأخذ الجد الشديد تلك السخريات الموجهة ضد النساء فى « مقالات » مونتينى ، فقد كانت بدعة فاشية بين الفلاسفة . وولدت له فرانسواز ستة أطفال ، كلهم بنات ، متن جميعا فى طفولتهن إلا واحدة ، يتكلم عنها فى حنان [٤٢] . وحين بلغ الرابعة والخمسين تبنى فى أسرته فتاة فى العشرين اسمها مارى دجورنيه « أحببتها حبا صادقا يفوق حب الأب لابنته واعتبرتها جزءا من خير أجزاء كيانى ، وهبت لى فى بيتى وعزلتى [٤٣] » . إنه لم يكن فوق مشاعر الانسانية المشتركة بين البشر .

ج — مقالاته

فى عام ١٥٦٨ مات أبوه ، فورث ميشيل الضيعة بوصفه الابن الأكبر . وبعد ثلاث سنوات أو أربع استقال من برلمان بوردو ، واعتزل ضوضاء المدينة إلى ملل الريف . ولكن حتى فى الريف كان السلام قلقا ، لأن الحرب الدينية كانت تقسم فرنسا ومدنها وأسرها . فالجنود يغيرون على القرى ، ويدخلون البيوت ، ويسرقون ، وينتهكون الأعراض ، ويقتلون . « ذهبت إلى فراشى ألف مرة . . . وأنا اتخيل أنه قد يخوننى

من انتمنت أو قد أذبح فى فراشى (٤٤) » . ورغبة فى ثنى القوم عن العنف كان يترك أبوابه غير موصدة ويأمر بأن يستقبل المغيرون إن أتوا دون مقاومة . على أنهم لم يأتوا ، وترك مونتينى حرا ليعيش فى ركنه الفلسفى بين صراع العقائد وصليل السيوف ، وبينما كانت باريس وغيرها من الأقاليم تقتل البروتستنتية فى مذبحة القديس برتلميو ، كتب مونتينى أجل أثر فى النثر الفرنسى .

وكان أحب الخلوات إليه مكتبته الكائنة بالطابق الثالث من البرج الذى يرتفع فى واجهة قصره الريفى (دمرت النار القصر عام ١٨٨٥ ولكن البرج باق) . وقد أحب مكتبته كنفسه ، فكانت ذاته الثانية .

« شكلها مستدير ، وليس فيها جانب مستو إلا مايصلح لمكتبتى ومقعدى ، وهو وضع . . . يتيح لى بنظرة واحدة أن أشتمل ببصرى كل كتبى ... هناك كرسى ؛ هناك عرشى . وأنا أحاول أن اجعل حكمى فيها مطلقا ؛ وأن اختص بذلك المركز الوحيد دون صحبة زوجتى ، وأطفالى ، ومعارفى (٤٥)» .

وقل بين الرجال من استطاب مثله العزلة وهى أخوف ما نخاف :

« على المرء أن يفصل ويسترد نفسه من نفسه . . . علينا أن نحتفظ بمعين لأنفسنا . . . خاص بنا دون غيرنا ... نختزن فيه حريتنا ونرسيها . إن أعظم شىء للانسان فى العالم أن يعرف كيف يكون نفسه » (٤٦) .

فى مكتبته تلك كان لديه ألف كتاب ، أكثرها مجلد مزخرف . وكان يسميها « مواطن لذتى » ، فيها استطاع أن يختار صحبته ويعيش مع أحكمهم وأخيرهم . ففى بلوتارخ وحده « لأنه يتكلم الفرنسية » (فى ترجمة لآميو) استطاع أن يجد مائة عظيم يحضرون ويتحدثون إليه ،

وفى « رسائل » سنيكا استطاع أن يتذوق رواقية لطيفة صيغت فى عبارات رخيمة ؛ هذان (بما فيهما كتاب بلوتارخ « موراليا ») كانا أحب المؤلفين إليه ، «منهما أستقى مائى كما فعلت الدنايديات ، وأملأ دون توقف حالما يفرغ الماء (٤٧) ... والألفة التى نمت بينى وبينهما ، والعون الذى عدانى به فى شيخوختى ، وكتابى الذى لم أصغه إلا مما غنمت منهما ، كل أولئك يلزمنى صيانة شرفهما (٤٨)» .

وهو لا يستشهد بالكتاب المقدس أبدا (ربما لأنه مشهور جدا) ، وإن اقتبس مرارا من القديس أوغسطين . وهو فى الأغلب يؤثر القدامى على المحدثين ، والفلاسفة الوثنيين على الآباء المسيحيين . كان « انسانى » الفلسفة بقدر ما أحب آداب اليونان والرومان وتاريخهم ، ولكنه لم يكن عابدا أعمى للكلاسيكيات والمخطوطات ؛ ورأيه فى أرسطو أنه سطحى ، وفى شيشرون أنه ثرثار دعى . ولم يكن مطلعا كل الاطلاع على آثار اليونان ، ولكنه استشهد بالشعراء اللاتين فى تبحر طواف ألم حتى بواحد من أخص ابجرامات مارشال . وقد أعجب بفيرجل ، ولكنه فضل عليه لوكريتيوس . وقرأ « الأقوال المأثورة » لأرزم فى نهم . وكان فى مقالاته الأولى متحذلقاً ، يرصع كلامه بالعبارات الكلاسيكية المعادة . ومثل هذه الاقتباسات كانت تتفق وأسلوب العصر ، وقد استطاب القراء ممن لم تسعفهم قدراتهم على قراءة الأصول هذه النماذج باعتبارها نوافذ صغيرة يلمحون منها العالم القديم ، وشكا بعضهم من أنه لم يستكثر منها (٤٩) . ولكن من كل سرقاته الصغيرة خرج مونتينى هو هو على نحو فذ ، ضاحكاً من الحذاقة ، محدداً فكره وكلامه . فهو فى ظاهره أشبه بالمقص واللصوق ، ولكن مذاقه طيب كطعام الآلهة .

وهكذا ، على مهل ، صفحة فصفحة ، ويوما بعد يوم ، كتبه

« المقالات » بعد عام ١٥٧٠ (*) . ويلوح أنه اخترع الاسم (٥٠) Essais ، والنوع تقريباً ، ذلك أنه مع وجود « الأحاديث » discorsi و dsicours من قبل ، إلا أنها كانت شديدة الشكلية ، لا شبه بينها وبين أحاديث مونتينى الطبيعية ، الكثيرة التلافيف ، وقد نحا هذا الأسلوب المتمهل ، الذى يكره القارىء على الاستماع ، إلى طبع المقال بهـذا الطابع منذ موته ، فجعله نوعاً أدبياً تغلب عليه العصرية . يقول « إنى أتحدث إلى الورق كما أتحدث إلى أول شخص ألقاه (٥١) » . والأسلوب هو الرجل ، طبيعياً ، حميماً ، وثيقاً ، وإنها لراحة أن يتحدث إلينا أحد أئمة الفكر بهذه الألفة . افتح أى صفحة فى مقالاته ، تجده يمسك بذراعك ويسوقك معه دون أن تعرف ، وقلما يهمك ، إلى أين يمضى بك . كان يكتب جزءاً فجزءاً ، فى أى موضوع يخطر بباله أو يوافق مزاجه ؛ ويستطرد فى فوضى بعيداً عن الموضوع الأصلى أثناء تجواله ، فترى مقاله « عن المركبات » مثلا ينطلق مخترقاً روما القديمة وأمريكا الجديدة . وفى المجلدات الثلاثة ثلاثة تتألف من استطرادات . لقد كان مونتينى كسولا ، وما من شىء أشق من خلق النظام وحفظه فى الأفكار أو الرجال . وقد اعترف بأنه « متموج متنوع » ولم يقدس الثبات على الآراء ؛ فكان يغير آراءه كلما تقدم به العمر ، إنما الصورة المركبة النهائية هى مونتينى .

ووسط تدفق أفكاره المضطرب تجد أسلوباً واضحاً كأنه البساطة بعينها . ومع ذلك تراه يتألق باستعارات عجيبة كاستعارات شكسبير ، وبنوادر منيرة تحول المجرد فور الواقع . ويختطف فضوله الفاحص هذه الأمثلة أينما وجدها دون اكتراث لأى معوق خلقى . وهو يسلمنا فى عناية ملاحظة

(*) اشتملت الطبعة الأولى ، ١٥٨٠ ، على الكتابين الأول والثانى ، ووسعت الثانية الكتابين ، ١٥٨٨ ، وزادت كتاباً ثالثاً ، أما الطبعة الثالثة المحتوية على تنقيحه النهائى والتى نشرتها الآنسة دجورنيه فقد ظهرت عام ١٥٩٥ بعد موته ، وظهور تسع طبعات بين عامى ١٥٨٠ و ١٥١٨ شاهد على شعبيتها .

تلك المرأة التولوزية التى شكرت الله بعدأن غشيها عدة جنود «لأننى مرة فى حياتى ملأت بطنى دون أن آثم (٥٢)» .

د — الفيلسوف

إنه يزعم أن لديه موضوعاً واحداً — هو نفسه . « إنى أنظر داخل نفسى ، ليس لى شأن إلا مع نفسى ، فأنا لا أكف عن النظر فى أمر نفسى . . . . وتذوقها (٥٣) » . وهو يعمد إلى دراسة الطبيعة البشرية مباشرة ، عن طريق دوافعه ، وعاداته ، ومحابه ، ومكارهه ، وأسقامه ، ومشاعره ، وأهوائه ، ومخاوفه ، وأفكاره . انه لا يقدم لنا ترجمة ذاتية ، فهو لا يكاد يذكر فى المقالات شيئاً عن اشتغاله مستشاراً أو عمدة ، ولا عن أسفاره ، ر زياراته للبلاط ، وهو لا يكشف عن دينه أو مذهبه السياسى ، بل يعطينا شيئاً أثمن — ذلك التحليل الصريح النفاذ لجسمه وعقله وخلقه . وهو يبسط أخطاءه ورذائله فى لذة واسهاب . وتحقيقاً لهدفه يستأذن فى أن يتكلم بحرية ، فهو عامد إلى انتهاك أصول الذوق السليم ليعرض علينا إنساناً عارى الجسد والروح . تراه يتحدث فى صراحة صاخبة عن وظائفه الطبيعية ، ويستشهد بالقديس أوغسطين وفيف فى موضوع التطل الخفى (امتلاء البطن بالغازات) ، ويطيل التأمل فى الجماع :

« كل منا يجتنب رؤية إنسان يولد ، ولكن الجمع يهرعون لرؤيته يموت . فلهدمه نلتمس مكانا رحباً ونوراً قوياً ، ولكنا لبنائه نختبىء فى ركن مظلم ونعمل فى تكتم ما استطعنا (٥٤) » .

وحتى مع هذه الصراحة يزعم انه مارس شيئاً من التحفظ . « إنى أقول الحق ، لا كما أشتهى ، بل على قدر ما أجرؤ (٥٥) » .

وهو يقول لنا الكثير عن نفسه الجسدية ، ويرعى صحته من صفحة إلى صفحة . فالصحة هى الخير الأعظم « والشهرة أو المجد يشتريهما رجل فى مثل مزاجى بثمن غال ، باسم الله (٥٦) » ، وهو يسجل تقلبات أمعائه فى

تفصيل المحب لها . لقد بحث عن حجر الفلاسفة ووجده مستكناً فى مثانته . وكان يأمل أن ينزل هذا الحصى فى نشوة من الحب ، ولكنه بدلا من ذلك وجد أنه « يخونه إلى حد غريب (٥٧) » ويهدده بالعجز فى غير أوانه . وقد عزى نفسه بقدرة يفخر بها ، هى « أن أقبض مائى عشر ساعات كاملة (٥٨) » وأن يظل على سرجه ساعات طويلة دون أن يناله الاعياء الشديد . كان بدينا قوياً ، يأكل بنهم حتى كاد يعض أصابعه فى شرهه . وقد أحب نفسه فى لذة لا يعتريها الملل .

كان مغروراً بنسبه ، وبشعار نبالته (٥٩) ، وبثيابه الفاخرة ، وبما نال من تشريف حين أصبح أحد فرسان القديس ميخائيل — وكتب مقالا « فى الغرور ». وهو ينسب لنفسه أكثر الرذائل، ويؤكد لنا أنه ان كان فيه فضيلة فإنها تسللت إليه خلسة . ومع ذلك فإن لديه الكثير من هذه الفضائل : الأمانة ، والطيبة ، وروح الفكاهة ، والاتزان ، والرحمة ، والاعتدال ، والتسامح . كان يقذف بالأفكار المتفجرة فى الهواء ، ثم يلقفها ويطفئها قبل أن تسقط . وفى عصر المذابح العقائدية توسل إلى إخوانه فى الإنسانية أن يعتدلوا فى تعصبهم على هذا الجانب من المقتلة، وأعطى العالم العصرى مثالا من أول أمثلته فى العقل المتسامح . ونحن نغتفر له عيوبه لأننا نشاركه فيها ، ونجد تحليله لنفسه ساحراً لأننا نعلم أننا نحن الذين يروى هذه القصة عنهم .

ولكى يحسن فهم نفسه درس الفلاسفة . وقد أحبهم على الرغم من دعاواهم المغرورة بأنهم يحللون الكون ويرسمون مصير الإنسان وراء القبر . ونقل عن شيشرون قوله « ما من شىء سخيف قيل إلا سبق أن قاله أحد الفلاسفة (٦٠) » . وقد امتدح سقراط لأنه « أنزل الحكمة البشرية من السماء حيث طال ضياعها ، ليردها إلى الإنسان من جديد (٦١) » . وردد نصيحة سقراط بدرس أقل للعلوم الطبيعية ، وأكثر للسلوك الإنسانى . لم يكن له « مذهب » بعينه يدين به ، فلقد كانت أفكاره فى تطور دائم الحركة بحيث استحال على أى تسمية أن تقيد تحليقه الفلسفى .

فى بواكير تفكيره الجريئة اعتنق الرواقية . إن المسيحية التى تفرقت شيعاً يقتل فيها الناس إخوتهم ، ولطخت نفسها بدم الحرب والمذابح ، قد أخفقت بجلاء فى أن تعطى الإنسان قانوناً خلقياً قادراً على ضبط غرائزه ، لذلك اتجه مونتينى إلى الفلسفة ملتمساً مبدأ خلقياً طبيعياً ، وفضيلة لا ترتبط بقيام العقائد الدينية وسقوطها . وبدا له أن الرواقية قريبة من هذا المثل الأعلى ، فهى على الأقل شكلت بعضاً من أعظم الرجال فى العصور القديمة . وجعلها مونتينى مثله الأعلى حينا ، فهو مدرب إرادته على التحكم فى نفسه ، وهو صادف عن كل العواطف التى تكدر سلامة سلوكه أو هدوء عقله ، وهو مواجه صروف الدهر بجأش رابط ، متقبل الموت ذاته على أنه نهاية طبيعية مغتفرة .

وبقى فيه عرق رواقى إلى النهاية ، ولكن روحه الجياشة وجدت بعد قليل فلسفة أخرى تبرر ذاتها . لقد تمرد على رواقية تبشر باتباع « الطبيعة » وتحاول مع ذلك قمع الطبيعة فى الإنسان . وقد فسر « الطبيعة » من خلال طبيعته هو ، وقرر أن يتبع رغباته الطبيعية ما دامت لا تحدث أذى محسوساً . وسره أن يجد أبيقور مدافعا عاقلا عن المتع السليمة ، لا شهوانياً رخيصاً ، وأدهشه أن يكتشف قدراً كبيراً من الحكمة والعظة فى لوكريتيوس. فأعلن الآن فى حماسة شرعية اللذة . أما الخطيئة الوحيدة التى تبينها فهى الإفراط . « ان الإفراط هو الطاعون الذى يفتك باللذة ، والاعتدال ليس سوط اللذة ، بل الملطف لها [٦٢] » .

ومن تذبذب آرائه ، ومن انحطاط المسيحية المعاصرة فى فرنسا ، انتهى إلى الشكوكية التى اصطبغ بها أكثر فلسفته بعد ذلك . وكان أبوه قد تأثر بكتاب « اللاهوت الطبيعى » الذى ألفه اللاهوتى التولوزى ريمون سبوند (مات ١٤٣٧ ؟) والذى واصل جهد السكولستيين النبيل فى البرهنة على معقولية المسيحية . وطلب الأب إلى ابنه أن يترجم البحث ، ففعل ، ونشر الترجمة (١٥٦٩) . واستنار به السنيون الفرنسيون ، ولكن بعض

النقاد اعترضوا على حجج ريمون . وفى عام ١٥٨٠ أدخل مونتينى فى « الكتاب » الثانى من « مقالاته » فصلا مائتى صفحة فيه « دفاع عن ريمون سبوند » عمد فيه إلى الرد على الاعتراضات . ولكنه لم يفعل هذا إلا بالتخلى على هدف ريمون ، محتجاً بأن العقل أداة محدودة لا يوثق بها ، وانه خير لنا أن نرسى الدين على الإيمان بالكتب المقدسة وبالكنيسة الأم المقدسة ، وهكذا هدم مونتينى ريمون فى واقع الأمر حين يفهم منه ظاهريا أنه يؤيده . وقد رأى بعضهم ، مثل سانت بوف ، أن هذا « الدفاع » ليس إلا حجة ساخرة لتأيد عدم الإيمان (٦٣) . أيا كان الأمر ، فهو أشد ماكتبه مونتينى هدماً ، وربما كان أكمل عرض للشكوكية فى الأدب الحديث .

ويؤكد لنا مونتينى ، قبل لوك بزمن طويل ، أن « المعرفة كلها توجه إلينا بواسطة الحواس (٦٤) ». وأن العقل يعتمد على الحواس ولكن الحواس خداعة فى تقاريرها محدودة جدا فى رقعتها ، ومن ثم كان العقل لا يعتمد عليه . « أن باطن الانسان وظاهره مملوءان ضعفا وكذبا » (٦٥) . (هنا ، فى بداية عصر العقل ، وقبل بيكون وديكارت بجيل ، يسأل مونتينى ذلك السؤال الذى لا يقفان ليسألاه ، والذى سيسأله بسكال بعد ثمانين عاما ، والذى لا يتصدى له الفلاسفة حتى مجيء هيوم وكانط ، لم يجب أن نثق بالعقل ؟) بل إن الغريزة مرشد أسلم من العقل . فانظر كيف يحيا الحيوان بالغريزة حياة ناجحة — أحيانا على نحو أحكم من الانسان . « هناك فرق بين بشر وبشر أكثر كثيرا من الفرق بين البشر والحيوان (٦٦) » . وليس الانسان مركزا للحياة كما أن الأرض ليست مركزا للكون . ومن التبجح أن يظن الانسان أن الله يشبهه ، أو أن شئون البشر هى مركز اهتمام الله ، أو أن العالم وجد ليخدم الانسان . ومن السخف أن نظن أن فى استطاعة عقل الانسان أن يسبر طبيعة الله . « أيها الانسان الأحمق ، يا من تعجز عن خلق دودة ، ولكنك تريد أن تخلق أربابا بالعشرات ! » (٦٧) .

ويصل مونتيني إلى الشكوكية بطريق آخر — وهو التأمل فى تنوع وتذبذب الإيمان بالقوانين والأخلاق ، وبالعلم والفلسفة والدين ؛ فأى هذه الحقائق هو الحق ؟ وهو يفضل الفلك الكوبرنيقى على الفلك البطلمى ، ولكن « من يدرى ، فلعل رأيا ثالثا يأتى بعد ألف سنة قد يقلب هذين الرأيين » و « أليس أكثر احتمالا أن الجرم الضخم الذى نسميه الدنيا شىء آخر غير ما نحكم به عليه ؟ (٦٨) » و « ليس هناك علم » ، إنما هى فروض دعية لعقول مغرورة (٦٩). وخير الفلسفات قاطبة فلسفة پرو — وخلاصتها أننا لا نعرف شيئا. « أن أكبر مقدار فيما نعرفه هو أقل مقدار فيما نجهله (٧٠) » «وما من شىء يؤمن الناس به إيمانا أرسخ من إيمانهم بما يعرفونه أقل معرفة» و « ان الاقتناع باليقينية شاهد واضح على الحمق (٧١) » . وبعبارة موجزة ، ليس هناك وجود ثابت ، لا لكياننا ولا للأشياء . ونحن ، وحكمنا . وكل الأشياء الفانية الأخرى ، لا تكف عن الدوران ، والتحول ، ثم الزوال ، فلا شىء يمكن إثباته على التحقيق . وليس بيننا وبين الوجود اتصال (٧٢). إذن فشفاء لكل الجراح يختم مونتيني باعادة تأكيده لإيمانه المسيحى ، والإشادة بالإله الذى لا يمكن استكناهه (٧٣) .

بعدها طبق شكوكيته على كل شىء ، دائما مع انحناءة احترام للكنيسة. وأصبح شعاره « ماذا أعرف » ، محفورا على خاتمه ومكتوبا على سقف مكتبته . وزينت شعارات أخرى عوارض السقف المماثلة « الحجج المؤيدة والمعارضة كلاهما ممكن » ، « يجوز ولا يجوز » ؛ « لا أقرر شيئا ؛ لا أفهم الأشياء ؛ أعلق حكمى ؛ أمتحن (٧٤) . « وبعض هذا الموقف أخذه عن شعار سقراط « لا أعرف شيئا » ، وبعضه عن پرو ، وبعضه عن كورنيليوس أجريبا ، وكثير منه عن سيكستوس امبريكوس . قال ، منذ الآن « سأقيد نفسى بما أرى وأمسك به ، ولا أذهب بعيدا عن الشاطئ » (٧٥) .

ورأى الآن النسبية فى كل مكان ، والمطلقات فى غير مكان ، وأقلها

فى مقاييس الجمال ، ويجد فيلسوفنا الشهوانى متعة بالغة فى ملاحظة مختلف الآراء بين مختلف الشعوب عن مقومات الجمال فى ثديى المرأة(٧٦) . وهو يعتقد أن كثيرا من الحيوان يفوقنا جمالا ، ويرى أننا كنا حكماء حين اكتسينا بالثياب . وهو يدرك أن دين الانسان وأفكاره الخلقية تقررها بيئته عادة . « إن طعم الخير أو الشر يتوقف إلى حد كبير على رأينا فيهما » ، وهو ما سيقوله شكسبير ، و « ان الناس تعذبهم آراؤهم عن الأشياء لا الأشياء ذاتها » (٧٧) ، وقوانين الضمير لا تنبعث من الله بل من العادة . وما الضمير إلا القلق الذى نحسه حين ننتهك عرف قبيلتنا (٧٨) .

وكان لمونتيني من الفطنة ما منعه من الرأى بأن الأخلاق يصح إغفالها مادامت نسبية . فهو على العكس من ذلك آخر من يمس ثباتها واستقرارها . وهو يتكلم بجرأة عن الجنس ، ويطالب بكثير من الحرية — للرجال ، ولكنك إذا دققت النظر فيه وجدته فجأة ~~سنيا~~ فهو يوصى بالعفة للشباب ، وحجته أن الطاقة التى تبذل فى الجنس مصدرها مستودع القوة المشترك فى البدن ، وهو يلاحظ أن الرياضيين الذين كانوا يتدربون للألعاب الأولمبية «امسكوا عن جميع الأفعال الجنسية وامتنعوا عن ملامسة النساء»(٧٩)

وكان بعض مر . ن يمد شكوكيته إلى الحضارة ذاتها ، وأن يسبق فى ذلك روسو وشاتوبريان . أوحى إليه الهنود الذين رآهم فى روان بأن يقرأ تقارير الرحالة ؛ ومن هذه الروايات كتب مقاله «عن أكلة لحوم البشر» وعنده أن أكل الموتى أقل همجية من تعذيب الأحياء . « لست أجد فى هذه الأمة (أمريكا الهندية) شيئا همجيا ولا وحشيا ، إلا إذا سمى الناس ما لم يألفوه همجية » (٨٠) . وقد تخيل هؤلاء الوطنيين أصحاء لا يمرضون إلا نادرا ، سعداء دائما تقريبا ، عائشين فى سلام وطمأنينة دون قوانين(٨١) وامتدح فن الاراتكة وطرق الانكا . وأجرى على لسان هنود روان تنديدا بثراء أوربا وفقرها . « لقد ادركوا أن بيننا رجالا أتخموا بكل أنواع السلع فى حين يتضور غيرهم جوعا ، وعجبوا كيف تحمل الفقراء هذا

الظالم ولم يأخذوا بتلابيب الآخرين » [٨٢] . وقارن بين أخلاق الهنود وأخلاق فاتحى بلادهم، واتهم هؤلاء فقال إن المسيحيين المزعومين . . . جلبوا عدوى الرذيلة لنفوس بريئة تواقة للتعلم ، طيبة بطبيعتها [٨٣] » . ونسى مونتينى لطفه لحظة فتفجر فى غضبة مضرية للحق :

« ما أكثر المدن العامرة التى نهبت وسويت بالتراب ، وما أكثر الأمم التى دمرت أو أقفرت من أهلها . وكم من ملايين لا تحصى من الناس الأبرياء من الجنسين ، ومن جميع المراكز ، والأعمار ، قتلوا ونهبوا وأعمل فيهم السيف ؛ وأغنى بقاع الأرض وأجملها وأفضلها قلبت ظهرا على عقب وخربت وشوهت من أجل تجارة اللؤلؤ والفلفل ! إيه أيتها الانتصارات الآلية ، ويا أيها الغزو الوضيع ! [٨٤] » .

أكان احترامه للدين مخلصا ؟ واضح أن تنقيبه فى الكلاسيكيات قد فطمه منذ زمن طويل من تعاليم الكنيسة . لقد احتفظ بإيمان غامض بالله الذى تمثله آنا فى الطبيعة ، وآنا فى روح الكون ، ذلك العقل غير المفهوم للعالم . وهو أحيانا يحس إحساس لير فى مسرحية شكسبير ، « إن الآلهة تلعب بنا الكرة فتقذفنا علوا وسفلا [٨٥] » . ولكنه يتهكم بالإلحاد لأنه « شىء غير طبيعى وبشع [٨٦] » ، ويرفض اللاأدرية باعتبارها نوعا آخر من الدجماطية ، فأنى لنا أن نعرف أننا لن نعرف أبدا ؟ [٨٧] . وهو ينحى جانبا كل محاولات بذلت لتعريف النفس أو تفسير علاقتها بالجسد باعتبارها محاولات باطلة كلها غرور [٨٨] . وهو راغب فى قبول خلود النفس بالإيمان ، ولكنه لا يجد دليلا عليه فى التجربة أو العقل [٨٩] ؛ ثم ان فكرة الوجود الأبدى تروعه [٩٠] . « لولا الإيمان لما صدقت المعجزات [٩١] » ، وهو يسبق حجة هيوم المشهورة ؛ « كم أجده أكثر طبيعية واحتمالا أن يكذب رجلان ، عن أن تحمل الريح رجلا فى اثنتى عشرة ساعة من الشرق إلى الغرب [٩٢] » (ولعله كان باحثاً عن مثل آخر اليوم) . وهو يسبق فولتير إذ يحكى قصة الحاج الذى حكم بأن المسيحية لا بد دين

إلهى لأنها حافظت على نفسها هذا الزمن الطويل برغم فساد مديريها[٩٣] . وهو يلاحظ أنه مسيحى بمحض الصدفة الجغرافية ، ولولا ذلك « لآثرت أن أكون أحد عباد الشمس[٩٤] » . وهو لا يتكلم على المسيح غـــير مرة واحدة ، على قدر ما يذكر أحد قرانه[٩٥]. ولم تستهو تلك القصة الجميلة ، قصة أم المسيح ، روحه غير العاطفية إلا بمقدار ، ومع ذلك نراه يعبر إيطاليا ليضع أربعة تماثيل نذرية أمام مزارها فى لوريتو . وكان يفتقر إلى ملامح الروح الدينية — وهى التواضع ، والاحساس بالذنب وتبكيت الضمير والتكفير ، والشوق إلى الغفران الإلهى والنعمة الفادية . لقد كان رجلا حر الفكر ، فيه حساسية ضد الاستشهاد .

على أنه ظل كاثوليكيا بعد أن كف طويلا عن أن يكون مسيحيا[٩٦] . وكما كان أى مسيحى فطن من المسيحيين الأوائل ينحنى لأحد الأوثان انحناءة عابرة ، كذلك فإن مونتينى ، أكثر المسيحيين وثنية ، يتحول بين الحين والحين عن أثرائه اليونان والرومان ليقدم الاحترام لصليب المسيح أو حتى ليلثم قدم أحد البابوات . فهو لم ينتقل كما انتقل باسكال من الشك إلى الإيمان ، بل من الشك إلى الطاعة . ولم يكن هذا بدافع الحذر فحسب ؛ فلعله أدرك أن فلسفته التى شلت حركتها تردداته وتناقضاته وتشككه قد تصلح ترفا لعقول هيئت من قبل للحضارة (بالدين ؟) ، وأن فرنسا ، حتى وإن أغرقت عقائدها فى الدم ، إلا أنها لن ترضى بديلا عنها متاهة فكرية ليس فيها شىء يقينى غير الموت . ورأى أن الفلسفة الحكيمة تصالح الدين :

« إن أصحاب العقول البسيطة ، الأقل فضولا ، والأقل حظاً من التعليم ، يجعلون مسيحيين طيبين ، وهم بالتبجيل والطاعة يحتفظون بإيمانهم البسيط ويلتزمون بالقوانين . والعقول متوسطة القوة والكفاية هى التى يتولد فيها خطأ الآراء ... أما خير العقول وأكثرها استقرارا وأصفاها نظرا فتخلق نوعا آخر من خيـــار المؤمنين ، الذين ينفذون بالبحث الطويل والتمحيص الدينى إلى معنى أعمق وأعوص فى الأسفار المقدسة ويكتشفون

الأسرار الخفية الإلهية للنظام الكنسى . . ان الفلاحين البسطاء قوم أمناء ، وكذلك الفلاسفة[٩٧] » .

وهكذا ، بعد كل لدعاته للمسيحية ، ولأن جميع الأديان على السواء إنما هى أستار تغطى جهلنا المرتعد ، ينصحنا بأن نقبل دين زماننا ومكاننا . أما هو ، ففى وفاته لجغرافيته ، عاد إلى شعائر آبائه ، فأحب الدين الطقسى العطر الحسى ، لذلك فضل الكاثوليكية على البروتستنتية . ونفره من الكلفنية اصرارها على الجبرية[٩٨] ، وإذ كان إرزمى الأرومة فقد مال إلى كرادلة روما العالمين اللطفاء دون لويولا جنيف (كالفن) أو أسد فنبرج (لوثر) . وأشد ما أسف له أن العقائد الجديدة كانت تقلد القديمة فى تعصبها . ومع أنه سخر من المهرطقين لأنهم حمقى يثيرون ضجة حول ميثولوجيات متنافسة ، إلا أنه لم يرأى معنى لحرق هؤلاء الخوارج . « على أى حال إنه تقدير عال لآرائنا أن نشوى الناس أحياء بسببها[٩٩] » أو أن نسمح للناس بأن يشوونا .

كذلك نراه فى ميدان السياسة يختم مسيرته محافظا مطمئنا إذ لا جدوى من تغيير أشكال الحكومة ؛ فستكون الحكومة الجديدة سيئة كالقديمة لأنها ستدار بأيدى البشر . فالمجتمع « اطار شاسع جدا » ، وجهاز شديد التعقيد من الغريزة والعرف والأسطورة والقانون ، يتشكل فى بطء بحكمة الزمن الحاصلة من التجربة والخطأ ، بحيث يستحيل على أى عقل مفرد مهما أوتى من قوة وذكاء أن يفصصه ثم يعيد تركيبه دون فوضى وعذاب لا حصر لهما[١٠٠] . وخير للناس أن يخضعوا لحكامهم الحاليين مع ما فيهم من سوء ، إلا إذا حاولوا أن يغلوا الفكر ذاته ، عندها قد يستجمع مونتنيى شجاعته وينصح بالثورة ، لأن « عقلى لم يشكل لينحنى أو يذل ، أما ركبتاى فنعم[١٠١] » ، والعاقل من ابتعد عن المنصب وإن احترمه ، « أن أعظم وظيفة هى إنقاذ الدولة ونفع الكثيرين » ، « أما أنا فمنصرف عنها[١٠٢] » ، ومع ذلك فقد خدم الدولة فى فترتى منصبه .

وقد آحزنه أنه عاش نصف حياته خلال تدمير فرنسا[١٠٣] ، « فى جيل شديد الفساد وزمان مغرق فى الجهل . » « اقرأ كل القصص القديمة ، ما لم تكن من الفواجع ، فلن تجـد ما يعدل تلك التى نراها تمارس كل يوم[١٠٤] » . إنه لم يتخذ موقف الحياد فى الصراع الدائر حول فرنسا ، ولكن « ميلى لم ينسنى لا صفات خصومنا المحمودة ، ولا الصفات المعيبة التى وصمت من أؤيدهم[١٠٥] » . وهو يأبى أن يحمل بندقية ، ولكنه يجرد قلمه لمناصرة جماعة « السياسيين » ، هؤلاء الكاثوليك المؤثرين للسـلام والذين نادوا بقدر من التوفيق مع الهيجونوت . وقد امتدح ميشيل دلوبيتال لاعتداله الأنسانى البعيد النظر ، واغتبط حين تقدم صديقه هنرى نافار إلى النصر على مبادئ لوبيتال . لقد كان مونتينى أعظم الفرنسيين تحضرا فى ذلك العصر الهمجى .

هـ — الحجر الدوار

لقد ضايقه حصى المثانة أكثر من حروب فرنسا . ففى يونيو ١٥٨٠ ، عقب نشر أول طبعة من « مقالاته » ، خرج فى رحلة طويلة فى أوربا الغربية ، من جهة ليرى الدنيا ، ومن جهة ليزور ينابيع المياه الطبية أملا فى تلطيف « المغص » (كما سماه) الذى كان يعطله بالألم المرة بعد المرة . وترك زوجته لتعنى بشئون الضيعة ، ولكنه اصطحب معه أخا أصغر ، وزوج أخت يسمى البارون استيساك وسكرتيرا أملاه شطرا من يوميته فى الرحلة ؛ فإذا أضفنا بطانة من الخدم وسائقى البغال ، لم نعد نعجب لفقر هذه المذكرات الفـكرى . لقد قصد بها الذكرى أكثر مما قصد بها النشر ، فأخفاها مونتينى فى صندوق بعد رجوعه ، حيث اكتشفت بعد أن انقضى على موته ١٧٨ عاما .

وقصدت الجماعة أولا باريس ، حيث قدم المؤلف الفخور نسخة من مقالاته لهنرى الثالث ، ثم انطلقت على مراحل مريحة إلى بلومبيير حيث أخذ مونتينى نفسه بشرب نصف جالون من المياه الطبية كل يوم طوال

تسعة أيام، وأفلح فى التخلص من بعض الحصى الصغير بألم شديد[١٠٦] . ثم اتخذ سمته إلى سويسرة بطريق اللورين . جاء فى يوميته التى تحكى ذكرياته عن شخص غائب « لقد وجد لذة لا تعدلها لذة فى مشاهدة حرية هذه الأمة وحكومتها الصالحة[١٠٧] » . ثم استشفى بمياه بادن — بادن وواصل راحلته فى ألمانيا . وحضر الخدمات الدينية عند الكلفنيين واللوثريين كما حضرها عند الكاثوليك ، وناقش اللاهوت مع رجال الدين البروتستنت . وهو يروى حديث قسيس لوثرى أقسم أنه يؤثر أن يستمع إلى ألف قداس عن أن يشارك فى تناول القربان على مذهب كالفن[١٠٨] — لأن الكلفنيين أنكروا الوجود الجسدى للمسيح فى سر القربان . وفى التيرول شعر بجلال الألب قبل روسو بزمن طويل . ومن إنزبروك صعدت الجماعة إلى ممر برينر ، وتخلص مونتينى فى الطريق من « حصاة متوسطة الحجم » ، ثم من ترنت إلى فيرونا وفنشنزا وبادوا والبندقية ، حيث أضاف إلى القناة العظمى « حصاتين كبيرتين » . ورأى أن المدينة ليست بالروعة التى توقعها ولا مومساتها بالجمال الذى انتظره . ومضى إلى فيرارا ، حيث زار تاسو المختلط العقل (كما ذكرت المقالات لا اليومية) ، ثم إلى بولونيا وفلورنسة حيث تلقى نهر ارنو « حصاتين وكمية من الرمل[١٠٩] » ، ومن سيينا إلى روما حيث « أنزل حصاة كبيرة كبزرة الصنوبر[١١٠] » . ولعل هذه الإضافات المفرزة التى سجل أخبارها كانت فى مجموعها تبنى هرماً لا بأس بحجمه .

وفى روما زار مجمعاً يهودياً ، وشهد ختانا ، وناقش مع معلمى الناموس شعائر دينهم . وتبادل الفلسفات مع محظيات روما . ولم يكن (كما خيل لستندال) عديم الإحساس بالفن فى روما[١١١] . فقد راح يطوف اليوم تلو اليوم بين الآثار القديمة وعجبه لا ينتهى من بهائها . ولكن الحدث الكبير كان زيارته لجريجورى الثالث عشر . وكأى ابن للكنيسة ركع مونتينى ليلثم حذاء البابا ، فتعطف البابا برفع حذائه تيسيراً للمهمة[١١٢] . ووجد موظفو الجمرك خلال ذلك نسخة من « المقالات »

سلموها لمحكمة التفتيش : ودعى مونتيني إلى الهيئة المقدسة ونبه فى رفق إلى أن فقرات فى مقالاته تشم منها رائحة الهرطقة ، أفلا يرى تغييرها أو حذفها فى الطبعات المقبلة ؟ فوعد « خيل إلىّ أننى تركتهم راضين عنى كل الرضا » ، وهذا حق ، بل لقد دعوه للحضور إلى روما والعيش فيها (ولكنه لم يبال بالوفاء بوعده ، وفى عام ١٦٧٦ أدرج كتابه فى قائمة الكتب المحظورة من الكنيسة) . ثم سافر عبر إيطاليا قاصداً مزار العذراء فى لوريتو وأهداها لوحة نذرية ، ربما ليطمئنهم ويطمئن نفسه . ثم عاد إلى عبور الابنين للاستشفاء بمياه لوكا .

وهناك (فى ٧ سبتمبر ١٥٨١) تلقى رسالة تقول انه اختير عمدة على بوردو . فطلب إعفاءه ، ولكن هنرى الثالث أمره أن يقبل ، ولم يستطع أن يتجاهل تقليد خدمة الدولة الذى خلفه له أبوه . على أنه لم يتعجل العودة إلى فرنسا ، فلم ير قصره الريفى إلا فى ٣٠ نوفمبر ، بعد سبعة عشر شهرا من بدء جولته . وكانت واجبات العمدة خفيفة ، ومكافأته التشريف دون الاجر . وقد أدى واجبات وظيفته على وجه مرضى ، لأن انتخابه أعيد (أغسطس ١٥٨٣) عامين آخرين . وفى ديسمبر ١٥٨٤ زاره هنرى نافار ومعه خليلة وأربعون تابعاً ، ونام ملك فرنسا المقبل فى فراش الفيلسوف . وقرب ختام فترة عمديته الثانية تفشى الطاعون فى بوردو ، فغادر مونتيني المدينة إلى الريف كما غادرها كل موظفى الدولة تقريباً . وفى ٣٠ يوليو ١٥٨٥ حول شارات منصبه لخلفه واعتزل فى بيته .

لم يكن قد جاوز الثانية والخمسين ، ولكن الحصى كان يعجزه فى فترات دورية ، وأحياناً يحصر بوله أياماً (١١٣) . وفى أوائل عام ١٥٨٨ بقى فيه من القوة ما يكفى للقيام برحلة ثالثة إلى باريس . وهناك قبض عليه بأمر من الحلف الذى كان آنئذ يسيطر على العاصمة لاتهامه بالولاء لهنرى الثالث ، وأودع الباستيل (١٠ يوليو ١٥٨٨) ، ثم أفرج عنه فى الليلة ذاتها بشفاعة كاترين دى مديتشى . وفى اكتوبر حضر اجتماع مجلس الطبقات

فى بلوا ولكنه عاد إلى بوردو فى الوقت المناسب للنجاة من التورط فى تقلبات هنرى الثالث عقب اغتيال الدوق جيز .

وفى آخر مقالاته وأروعها « فى التجربة » أورد وصفاً لانحلال جسده . فاسنانه مثلا وصلت فيما يبدو إلى « النهاية الطبيعية لبقائها [١١٤] » . وهو يحتمل « انطلاقه » دون مرارة ، فلقــد عاش حياته كما رسمها ، واستطاع أن يكتب فى فخر : « راجع العالم القديم كله ، تجد مشقة فى اختيار اثنى عشر رجلا وجهوا حياتهم فى مجرى واحد . . . مستقر ، أكيد . وهو أجمل توجيهات الحكمة [١١٥] » . فلما أنبىء بقرب منيته ، جمع أهل بيته وورثته من حوله ، وأعطاهم بشخصه المبالغ أو الأشياء التى أوصى لهم بها فى وصيته. ثم تناول أسرار الكنيسة فى تقوى رجل لم يكتب قط كلمة شك أو ارتياب. ومات فى ١٣ سبتمبر ١٥٩٢ بالغاً من العمر تسعة وخمسين عاما .

وانتشر تأثيره طوال قرون ثلاثة وعمّ قارات أربعا . وقد قبل ريشليو فى ابتهاج إهداء الآنسة جورنيه إياه طبعه « المقالات » الأخيرة . وفى تاريخ مبكر (١٦٠٣) ، نسقها صديقه وتلميذه شارون فى فلسفة شكلية منتظمة وجعلها فلوريو من عيون الأدب الانجليزى (١٦٠٣) ، ولكنه غثى بساطة المؤلف وإيجازه بالاطناب المفرط فى التفقه . ولعل شكسبير رأى تلك الترجمة فأعانته على تشكيل شكوكية مآسيه الكبرى وصوغ عباراتها ، وقد سجلنا من قبل ديونا يدين بها لمونتينى . وربما كان بن جونسون يعنى شيكسبير حين اتهم الكتاب الانجليز بالسرقة من مونتينى [١١٦] . وقد شعر بيكون بذلك التأثير ، ولعل ديكارت وجد فى « المقالات » الحافز لشكه العام الأول . أما بسكال فقد أشرف على الجنون وهو يحاول انقاذ ايمانه من تشكيكات مونتينى . ومن مونتينى انبثق بيل . وفوفنارج ، وروسو ، وديدرو ، وفولتير — أما روســو فمن اعترافات مونتينى ومقالاته « فى التعليم » و « فى أكلة لحوم البشر » ، وأما فولتير فمن باقى أعماله كلها . لقد كان مونتينى جــدّ حركة التنوير كما كان بيل أباها . وقالت مدام

دو ديفان ، أقل نساء جيلها اللامع أوهاما ، ان بودها أن « تلقى فى النار جميع مؤلفات الفلاسفة الضخمة إلا مونتينى ، الذى هو أبوهم كلهم[١١٧] » . وبفضل مونتينى دخل تحليل العقل والخلق النفسى إلى الأدب الفرنسى ، من كورنيى وموليير ، ولاروشفوكو ولابروبير ، إلى أناطول فرانس . أما ثورو فقد نهل الكثير من هذا المورد ، كذلك استحم فيه إمرسون قبل أن يكتب « مقالاته » . ويمكن أن نقول فى مونتينى مالا يصدق إلا على قلة من المؤلفين قبل القرن الثامن عشر ، وهو انه مقروء اليوم كأنه كتب بالأمس .

وتبين العالم عيوبه واغتفرها له منذ زمن طويل . وقد اعترف بالكثير جداً منها حتى لقد استنفد أسلحة نقاده . كان عليما بأنه ثرثار مغرور ؛ وقد يصيبنا الأعياء حيناً بعد حين من شواهده الكلاسيكية ، ونقع لحظة فى ذلك الحكم الظالم الذى أصدره مالبرانش على « المقالات » إذ زعم أنها « ليست إلا نسيجاً من النوادر التاريخية ، والقصص الصغيرة ، والكلمات الطريفة ، والأشعار ، والأقوال المأثورة . . . . التى لا تدل على شيء[١١٨] » . وما من شك فى أن مونتينى يخلط بضاعته فى فوضى وكسل خلطا يقلل من تأثيرها ومغزاها ؛ وهو يناقض نفسه فى مائة موضوع ، فهو لا بد إذن مصيب ، لأنه يقول كل شيء ونقيضه . وفى الشكوكية الشاملة شيء يبتلى المرء بالشلل ، فهى تحفظنا من قتل الناس باللاهوت ، ولكنها تثبطنا بما تسبقنا إليه من حجة وتستنزف جلدنا . ونحن نتأثر بمحاولة بسكال اليائسة أن ينقذ ايمانه من مونتينى ، تأثرا أعمق من تأثرنا برغبة مونتينى فى ألا يكون له ايمان على الإطلاق .

بيد أننا لا نستطيع أن نضع قلوبنا فى نقد كهذا ؛ فهو لا يقطع إلا مؤقتاً تلك البهجة التى نجدها فى الثقافة الضاحكة ، والفكر المرح المنبعث من هذا الثرثار الذى لا يمكن إسكاته وفى تفكيره السريع . فأين نجد مرة أخرى مثل هذا المركب المفعم بالحياة ، مركب الحكمة والفكاهة ؟ ان بين هاتين

الصفتين شبها دقيقا ، فكلتاهما منبثقة من رؤية الأشياء فى أوضاعها الصحيحة ، وهما فى مونتينى تصنعان رجلا واحــداً . أما ثرثرته فتعوضها طرافته ووضوحه ؛ وليس هنا عبارات ناصلة اللون، ولا سخف طنان رنان . ثم إننا مللنا اللغة التى يستعملها أصحابها لاخفاء الفكر أو إخفاء انعدامه ، بحيث نستطيع أن نغتفر الأنانية فى هذه الكشوف عن النفس . ويدهشنا من هذا المحدث اللطيف معرفته الحميمة بقلوبنا ، ويسرى عنا أن نجد حكيما مثله يشاطرنا أخطاءنا ، ثم يغتفرها لنا فى غير تردد . ومن بواعث العزاء أن نرى انه هو أيضاً يتردد ولا يعلم علم اليقين ، ويبهجنا أن يقال لنا ان جهلنا — إذا أدركناه — يصبح فلسفة . ثم ياله من تفريج أن نصادف ، بعد مذبحة القديس برتلميو ، رجلا لم تبلغ به الثقة بالعقيدة حداً يكفى لحمــله على القتل !

وأخيراً ، وبرغم هجومه على العقل ، ندرك أن مونتينى يبدأ فى فرنسا عصر العقل كما بدأه بيكون فى إنجلترا . إن مونتينى ، ناقد العقل ، لم يكن شيئاً إن لم يكن هو العقل ذاته . وبرغم كل انحناءاته للكنيسة ، فإن هــذا اللاعقلانى كان عقلانياً . ولم يرتض الطاعة إلا بعد أن بذر بذور العقل فى فكر فرنسا . وإذا كان قد حاول كبيكون أن يفعل هذا دون أن يقلق ايمان الفقراء المعزى ، فيجب ألا نأخذ حيطته أو ترفقه حجة عليه . إنه لم يخلق ليحرق . فلقد علم أنه هو أيضاً قد يكون مخطئاً ، ولقد كان رسول الاعتدال كما كان رسول العقل ، وكان فيه من النبل الكثير ما منعه من أن يشعل النار فى بيت جاره قبل أن يوفر له ملجأ آخر . لقد كان أعمق من فولتير ، لأنه تعاطف مع ما هدم .

وفى تقدير جيبون أنه « فى أيام التعصب تلك لم يكن ســوى رجلين متحررين (يدينان بأفكار حرة سمحة) فى فرنسا : هــنرى الرابع ومونتينى[١١٦] » . أما سانت — بوف ، فبعد أن نظر إلى مونتينى نظرة غير

متعاطفة خلال عيني بسكال [١٢٠] ، ختم حديثه بأن حكم ، في نوبة نادرة من الحماسة ، بأنه « أحد من عاش من الفرنسيين قاطبة [١٢١] » .

٤ — خالدون يوما واحداً

بعد مونتيني اعتمد الأدب الفرنسي على مجذافيه جيلا بأكمله . لقد أفلح تقريباً في النجاة من الحروب الدينية، فأخفى نفسه في نفسه حتى جاوزته الحروب. ولكن في غير مونتيني ابتلى الأدب في فرنسا بالحمى الحربية اللاهوتية ، وبين مونتيني وكورنيي تخلفت فرنسا عن إنجلتره وأسبانيا في الأدب ، تماماً كما تخلفت إنجلتره عن فرنسا بعد الحرب الأهلية . وعبرت سماء الأدب سلسلة من الشهب الغازية التي لم تخلف وراءها نجوماً ثابتة . وقد حاول ريشليو أن يغذو النبوغ بالرواتب ، ولكنه عطله بالرقابة وأغراه بمديحه . فلما مات ألغى لويس الثالث عشر هذه الرواتب بجرة قلم ، « لن يزعجنا هذا الأمر بعد اليوم » ، وكان أكثر حفزاً للأدب تلك السهرات الأدبية في الاوتيل درامبوييه . وإنشاء ريشليو للأكاديمية الفرنسية .

بدأت الأكاديمية باجتماعات للادباء والمؤلفين في بيت خاص — هو بيت فالنتان كونرارا ، وكان سكرتيراً للملك (١٦٢٧) . وعرض ريشيلو ، وهو اليقظ للأدب يقظته للحرب ، الغيور من أكاديميات إيطاليا وأدب أسبانيا ، أن يؤسس الجماعة بوصفها هيئة عامة تعترف بها الدولة. وعارض بعض الأعضاء الخطة باعتبارها رشوة للسنية ، ولكن الشاعر شابلان (الذي كان يتمتع بمعاش من الكردينال) ذكرهم بأن « عليهم أن يتعاملوا مع رجل يمضي فيما يريد دون تردد[١٢٢] » . وانتصرت حيطة شابلان ، وقررت الجماعة بالاجماع أن « تستجيب لمسرة نيافته » ، وانشئت (١٦٣٥) باسم « الأكاديمية الفرنسية » وقد أعلنت قوانينها ما يأتي :

« يبدو نه لم يبق لاكتمال سعادة المملكة إلا أن تحذف هذه اللغة التي نتكلمها من قائمة اللغات الهمجية ... حتى ينسى لها ، وهي اليوم أكمل

من أى لغة حية، أن تخلف أخيرا اللاتينية كما خلفت اللاتينية اليونانية لو أتيح لها من العناية أكثر مما تلقى إلى اليوم ؛ وإن وظيفة أعضاء الأكادمية ينبغى أن تكون تنقية اللغة من الشوائب التى شابتها سواء فى أفواه الناس أو فى حشود المحاكم ... أو بفعل عادات رجال الحاشية الجهلة »(١٢٣) .

وعهد إلى أحد الأعضاء الثلاثين الأول ، ويدعى كلود فوجلا ، بتصنيف قاموس ؛ وكان لا بد أن ينقضى ستة وخمسون عاما قبل أن ينشر لأول مرة (١٦٩٤) . ورفعت الأكادمية أثناء ذلك مكانة الأدباء بشكل ملحوظ ، فأصبح انتماء انسان إلى « الخالدين » الأربعين (عددهم عام ١٦٣٧) شرفا يضارع شرف المناصب الحكومية العليا ؛ ولم تكرم أمة الأدب كما كرمته فرنسا . صحيح أن الأكادمية ،وأكثر أعضائها شيوخ، كثيرا ما كانت كابحا محافظا يعطل التطورات الأدبية أو النمو الدنيوى . وكانت بين الحين والحين توصد أبوابها فى وجه العبقرية (موليير وروسو)؛ ولكنها رفعت رأسها فوق الأحزاب ، وعلمت أعضاءها أن يتسامحوا بأدب مع مختلف الأفكار ؛ وقد كافأتها فرنسا باستقرار ثبت لصدمات التغير فى الوقت الذى تهاوى فيه الكثير .

بعد أن جمع ريشليو الشعراء والأدباء وسيج من حولهم ، نظر بعينه اليقظة إلى الصحفيين . ففى مايو ١٦٣١ بدأ تيوفراست رينودو ، بمعونة من الكردينال ، نشر أول صحيفة فرنسية سميت فيما بعد « غازيتة فرنسا » . وكانت تظهر أسبوعيا فى هيئة فرخ يطوى ثمانى صفحات ، وتنشر من الأنباء الرسمية ما يسمح به ريشليو أو يمدها به ، وأضافت بعض صفحات من « الأخبار العادية » . وكان لويس الثالث عشر من كتابها المألوفين . ورد فيها على ناقدى الحكومة ودافع عن نفيه أمه ، وكان أحيانا يأخذ الفقرات التى يكتبها بشخصه ليشرف على صف حروفها ، ولا عجب فالمرء — حتى إذا كان ملكا — يستهويه أن يجد كلامه مطبوعا . وكانت الصحافة الفرنسية منذ بدايتها أداة دعاية — وفى هذه الحالة وسيلة لشرح سياسات

الدولة للقلة القارئة . وسرعان ما فقد الناس ثقتهم فى الغازيتة وفضلوا أن يشتروا الوريقــات البذيئة التى يبيعهــا فى الطرق أجراء أعــداء الــكردينال .

أما أروج نتاج العصر الأدبى فقصة رومانسية . كانت روايات الفروسية آخذة فى الزوال ، لا لمجرد تهكم سرفانتيس وغيره من الكتاب عليها ، بل لأن الاقطاع الذى خضع الآن للملكية ، كان يفقد المزيد من امتيازاته ومكانته . وحل محل قصص الفروسية أيام ازدهارها روايات رومانسية أليمة عن الرغبة المعوقة . وهكذا قرأ كل من ألم بالقراءة وملك الفراغ فى عهد لويس الثالث عشر رواية « آستريه » (١٦١٠ — ١٩) التى ألفها أونوريه دورفيه . أما عبقرية المؤلف فانبعثت من جرح أصاب حبه . ذلك أن زوجته ، التى سميت ديانا بحق ، آثرت عشرة الصيد على عشرة الزواج ، فكانت تؤاكل كلابها على مائدتها وتشاركها فراشها . وكانت تجهض كل سنة (١٢٤) . واعتكف أونوريه فى ضيعته واخفى سيرته الحزينة وراء رواية رومانسية رعوية . وقد وجد دواء الكلام هذا ناجعا ، فزاد روايته إلى ٥٠٠ ر ٥ صفحة فى خمسة مجلدات صدرت على فترات من ١٦١٠ إلى ١٦٢٧ . وفى قصة غرام الراعى كيلادون بالراعية آستريه نسمع صدى لا نهاية له لقصة مونتمايور « ديانا العاشقة » وقصتى سانازارو وسدنى « أركاديا » ، ولكن الصدى كان هنا شجيا ، وكان للرعاة والراعيات كل جمال البلاط الفرنسى وزينته ، وحققت اللغة كل مطالب ندوة الأوتيل درامبوبيه ، ونافست تجارب العشق المتنوعة تجارب هنرى الرابع ، وابهجت عبادة المرأة ربات الصالونات اللائى جعلن الكتاب دستور سلوك للحب الأفلاطونى . هنا ذلك الينبوع الفوار الذى جرت منه الرومانسيات العاطفية التى كتبتها الآنسة سكودرى ، والأبيه بريفوست (انطوان بريفوست دجسيل) ، وصموئيل رتشاردسون ؛ وجان جاك روسو — الذى صرح بأنه كان يقرأ الكتاب مرة كل عام طوال أكثر حياته . وظل سادة القصور الفرنسية

والألمانية والبولندية وسيداتها ، قرابة قرن من الزمان ، يتخذون أسمــاء « لاستريه » ويلعبون أدوارها ، وكرس نصف النثر المكتوب فى فرنسا نفسه للرومانس .

أما النصف الآخر فاشتمل على بعض النثر الجدير بالذكر . فكانت « رسائل » جان لوى جى دبالزاك » (١٦١٤ وما بعدها) فى حقيقتها مقالات ، قصد بها أن تعجب « المتحذلقات » ، وشاركت فوجيلا ومالبرب فى تنقية اللغة ، وساعدت على إعطاء النثر الفرنسى شكل العصر الكلاسيكى ومنطقه ... أما بيير دبوردى دبرانتوم ، الذى عاش حياة مرحة فى الجيش والبلاط ، فقد ترك عند موته (١٦١٤) حزمة من المذكرات تفصل فى ذوق غراميات النساء الفرنسيات ، وفضائل كاترين مديتشى ، وجمال مارى ستيوارت ، وظرف مارجريت فالوا ؛ ومن المؤسف أن أروع قصصه لا يمكن التحقق من صحة نسبتها إليه . وكان يرى « أنه لا يحسن بالمرء أن يشيخ وهو فى ذات الخدر ، وما من إنسان شجاع فعل هذا قط ، وعلى المرء أن يغامر بجرأة فى جميع النواحى ، فى الحب كما فى الحرب » . وفى لحظة أكثر حكمة اعترف بأن « أعظم ما ينعم الله به علينا فى زواجنا هو الذرية الصالحة لا التسرى » ... وأما جاك أوجست دتو ، القاضى ومستشار الدولة أيام صديقه هنرى الرابع ، فقد ساعد فى صياغة مرسوم نانت والمفاوضة على إصداره ، وكرس نصف حياته لكتابة « تاريخ عصره » (١٦٠٤—٨) ، وهو كتاب يتميز بعمق الدرس ، وبالحياد والشجاعة فى دمغ مذبحة القديس برتلميو لأنها « تفجر للجنون لا نظير له فى تاريخ أى أمة » . . . وألف الدوق صلى ، فى شيخوخته وبمساعدة سكرتيريه ، كتابه المشهور « مذكرات عن الاقتصاديات الداخلية والسياسية والحربية ، الحكيمة ، الملكية ، لهنرى الأكبر ، الذى أهداه « إلى فرنسا ، إلى جميع الجنود الطيبين ، وإلى جميع الشعب الفرنسى » . وفى آخر سنى لويس الثالث عشر بدأت جماعة من اليسوعيين الفلمنكيين يتزعمهم جان دبولان نشر كتاب « اكتا سانكتورم »

(أعمال القديسين) الذى أورد فى نقد حذر سير القديسين حسب الترتيب الذى تخلدهم به الكنيسة الكاثوليكية . وتابعت الجماعة هذا الجهد فى حماسة على الرغم مما اعترى جمعية اليسوعيين من غير ، حتى بلغت مجلدات الكتاب خمسة وستين عام ١٩١٠. واحتج عليه بعض مروجى الأساطير ، ولكن الكتاب مفخرة لعلم أعظم الطوائف الدينية تفقها . وأخيراً يجب أن ندرج فى هذه القائمة للمرة الثانية ذلك الرجل المدهش كلى الوجود ، ريشـــليو ، الذى غمس قلمه فى كل ينبوع أدبى وترك لنا « مذكراته » — وفيها شىء من التحيز للكردينال ، ولكن مكانها رفيع فى ذلك الرتل الرائع من المذكرات الفرنسية التى لا ضريب لها فى أى لغة أخرى .

ولم يكثر صغار الشعراء مثل هذه الكثرة من قبل . فما زال الفرنسيون الأوفياء يقرءون ، ولو فى المدراس ، تيوفيل دفيو ، وفنسان فواتور ، وأونورا دبويل ، مركيز راكان . وقد جعلت غراميات تيوفيل الإباحية وشكوكه الفاضحة منه « فيون » عصره ، وقد حكم عليـــه بالحرق ثم خفف الحكم إلى النفى . أما ذكاء فواتور المرح فقد جعـــله أكبر ظرفاء الأوتيل درامبوييه (وقد أوشكنا أن نقول أكبر ساخريه) . وحين وعظ بوسويه وهو بعد فى الثانية عشرة من عمره فى ذلك الصالون فى منتصف الليل ، قال فواتور أنه لم يسمع فى حياته عظة تلقى مبكرة متأخرة كهذه .

وشرف هذه العهود الملكية شاعران كبيران . أما فرانسوا ماليرب فقد شرح المبدأ القائل بأن واجب كل عصر أن يرفض الماضى ويعكسه لكى يستمتع بنفسه . وكان رونزار العظيم لا يزال يغنى فى شباب ماليرب ، وكان هو وجماعة البلياد قد هذبوا الشـــعر الفرنسى بتوجيهه صوب المثل والموضوعات الكلاسيكية ، ولكن خلفاءهما كانوا الآن يهدهدون فرنسا وخليلاتهم بسونيتات حافلة بالألفاظ الأثرية ، والعبارات الخيالية ، والشطحات الإيطالية ، والتقديمات والتأخيرات السقيمة ، والتلميحات الغامضة ، والأساطير العويصة . واستقر رأى ماليرب على أن الشعر الفرنسى قد أتخم بهذا كله .

وقد درس هذا الشاعر ، الذى ولد فى كان (١٥٥٥) ، فى بازل وهايدلبرج، وأنفق سنوات ° ٢سفار ، وكان قد بلغ الخمسين حين وصل إلى البلاط الفرنسى . وقد شق طريقه إليه برغم وقاحاته وكفرياته ، وأصبح الشاعر الأثير لدى هنرى الأكبر ، ولكن هذا على أى حال أعطاه « من التحيات أكثر مما أعطاه من المال (١٢٥) » . وعاش يبيع شعره لمن يدفع فيه أغلى الأثمان ، وروج لبضاعته بالإطاحة بمن سبقوه . فقد أعلن الحرب — كما أعلنتها متحذلقات صالون رامبوييه — على الألفاظ التى تشتم منها الحلافة الريفية أو عمليات البدن الأقل شاعرية ؛ فحرم التقديمات والتأخيرات ، والألفاظ الغامضة ، والتعبيرات العامية ، والكلمات الريفية والفسقونية شتى هذا على الملك) والحشو ، وتنافر النغمات ، والحن ، والدخيل واللاتينى والفنى من الألفاظ ، والجواز الشعرى ، والقوافى الناقصة . وقال إنه يجب أن يكون منذ الآن جلال فى الأفكار ، وبساطة ووضوح فى التعبير ، وتوافق فى الايقاع ، واتساق فى الاستعارات ، وترتيب فى العرض، وسنطق فى العبارة . والكتابة الجيدة يجب أن تذشر عبيرها وأن ترتاح لها الأذن ، والتقاء الحرفين الصوتيين جريمة سمعية ، ومرض تنفسى . وكان ماليرب يجرب أشعاره على آذان خادمه (١٢٦) .

فلنستنشق عبير إحدى قصائده — وهى « تعزية » ، وجهها لصديق فجع بموت ابنته :

« ولكنها كانت ربيبة هذه الدنيا ، حيث تنتهى أجمل الأشياء أتعس نهاية . وردة عاشت كما تعيش الورود ، إشراقة صبح . . . ان للموت أحكاماً لا شبيه لها ، وعبثاً نتوسل إليه ، فهذا القاسى يصم أذنيه ويتركنا نصرخ . يخضع لناموسه الفقير فى كوخه الحقير ، ولا يقف الحارس الساهر على أبواب اللوفر سداً بينه وبين ملوكنا (١٢٧) » .

على أن تطبيق ماليرب كان أقل فاعلية من مبادئه ؛ وعانت أشعاره برودة الصقيع من قواعده ، ولم يرجى دبالزاك فى شعر ماليرب إلا نثرا

جيداً ، وكان يحاول فى ذلك الوقت إصلاح النثر . ولكن الأوتيل دارمبوبيه احتضنه ، واعتنقت الأكاديمية مبادئه ، وورثها بوالو أساساً للأسلوب الكلاسيكى ، وقد أصبحت مدى قرنين قميصاً مقدساً صارماً من شَعر وزرد يلبسه شعراء فرنسا الغنائيون . وانتفخ ماليرب فى شيخوخته حتى أصبح إماما حقيقياً للشعر ، وحجة يستفتى فى مسائل اللغة والأسلوب ؛ وحياه بعض المعجبين بوصفه « أبلغ إنسان فى جميع العصور » . وقد وافق على أن « ما يكتبه ماليرب سيخلد إلى الأبد (١٢٨) » . وحين كان على فراش الموت (١٦٢٨) أيقظ نفسه من غيبوبته الأخيرة ليوبخ ممرضته على استعمالها فرنسية غير سليمة (١٢٩) .

أما ماتوران رينييه فقد رأى فيه شاعراً مملا ، وتجاهل قواعده ، وأطلق الشعر كما أطلقه فيون بخارا مندفعاً من حر المواخير . هذا الرجل الذى نذر للقسوسية ضيع نفسه فى فينوسبرج حتى شاخ ، وشاب قرناه وهو بعد فى شرخ شبابه . فنى الحادية والثلاثين عجزه النقرس والزهرى . وكان لا يزال يجد « كل امرأة تروقنى » ، ولكنهن كن أكثر منه تأنقاً فى الاختيار . وقد كتب بعضاً من أقوى الشعر فى اللغة ، فيه حديث مستهتر عن الجنس، وهجو وحشى ، ومباراة مع هوراس فى الشكل ومع جوفينال فى المرارة ، وحركة تزخر بالأشخاص أو الأماكن بما يحس أو يرى . وقد هزأ بصفائية « المتحذلقات » اللغوية وصرامة ماليرب الكلاسيكية ، وبدا له أن الحرارة المشبوبة من شعلة باطنة أهم للشعر من التمسك بأصول النحو والبلاغة والعروض. هنا فى فجر العصر الكلاسيكى نشطت الرومانسية . وحتى العلم والفلسفة نالا منه ما يستحقان من قصاص وتوبيخ على تبجحاتهما :

« أيها الفلاسفة الحالمون ، تكلموا فى استعلاء ، وحلقوا فى النجوم وأنتم لا تتحركون من الأرض ، واجعلوا السماوات كلها ترقص على لحنكم ، وزنوا أحاديثكم فى ميزانها . . . واحملوا مصباحاً فى زوايا الطبيعة . . . واعرفوا من يعطى الزهور هذا اللون البديع . . . وحلوا ألغاز الأرض

والسماء ، إن عقلـكم يخدعكم كما تخدعكم عيونـكم (١٣٠) » .

وفى عام ١٦٠٩ أصبح شاعر البلاط لهنرى الرابع . وبعد أربع سنوات مات وقد أضناه فسقه المشجى ، بعد أن كتب قبريته . « لقد عشت دون ما تفكير ،تاركا نفسى أسير فى رفق ووفق قانون الطبيعة الطيب ، ولا أدرى لم يفكر الموت فىّ ، وأنا الذى لم أتنازل إلى التفكير فيه (١٣١) » .

٥ — بيير كورنى : ١٦٠٦ — ٨٤

كان بيير كورني نجم الأدب فى سماء ريشليو ، ففى صحبته أصبحت التمثيلية الفرنسية أدباً ، وأصبح الأدب الفرنسى قرناً من الزمان تمثيلية فى أكثره .

وقد مهدت له الطريق تجارب كثيرة . ففى عام ١٥٥٢ أخرج إتيين جوديل أول مأساة فرنسية . وتلتها تمثيليات مشابهة تقلد سنيكا ، وتقوم كلها على طريقته فى قصص العنف ، والدراسات النفسية ، وتدفقات البلاغة ، وقد جردت من الخورس الكلاسيكى ولكنها حشرت فى وحدات أرسطو المزعومة ، وحدة الحركة المعروضة على أنها تحدث فى مكان واحد وزمان يوم واحد . ولكن أرسطو (كما رأينا فى غضون نقاشنا للتمثيلية الاليزابيثية) كان قد اشترط وحدة الحركة أو الحبكة ، ولم يطلب وحدة المكان ، ولم يصر على وحدة الزمان . غير أن كتاب العالم جوليوس سيزار سكاليجر Poetices libriseptem « الكتب الشعرية السبعة » (١٥٦١) طالب جميع الكتاب المسرحيين باتباع القوالب اليونانية واللاتينية ، وكرر جان شابلان هذا الطلب عام ١٦٣٠ . هذه الحجج التى تهاوت فى انجلتره أمام عبقرية رجل علمه باللاتينية قليل وباليونانية أقل ، انتصرت انتصارا كاملا فى فرنسا وريثة اللغة والثقافة اللاتينيتين ، وبعد عام ١٦٤٠ سيطر القالب السنيكى ذو الوحدات الثلاث على مسرح المأساة الفرنسية خـلال كورنيي وراسين ، وخلال فولتير والقرن الثامن عشر ، وخلال الثورة ،

والإمبراطورية ، وعودة الملكية ، إلى أن كسبت الدراما الرومانتيكية في مسرحية هيجو « ايرناني » (١٨٣٠) نصرها التاريخي المتأخر .

لم يكن للمسرحية الفرنسية وطن ثابت في القرن السادس عشر ، فكان عليها أن تربي نفسها في الكليات وتطوف من بلاط إلى بلاط ، ومن صالة إلى صالة . وفي عام ١٥٩٨ أنشئ أول مسرح فرنسي دائم في الأوتيل دبورجون بشارع موكونسي . وفي عام ١٦٠٠ افتتح « التياتر دي ماريه » في ما هو اليوم شارع « التامبل » القديم . وفي المسرحين كان الشكل قاعة طويلة في الوسط ، حيث كانت الطبقات الأقل يسرا تقف ، وتاكل ، وتشرب ، وتقامر ، وتتشاجر ، وتشاهد التمثيل وتحرس جيوبها ، بينما صفت على الجدران صفان من الألواح يجلس فيها السادة الميسورون . وقبل عهد ريشليو لم يكن يحضر المسرحيات من النساء غير من لا يملكن شيئاً يخشين على فقده . أما المسرح الذي كان مرفوعاً عند أحد طرفي المستطيل فقد بعد عن نصف المشاهدين بعداً جعل تمثيل الفكر أو الشعور بتعبيرات الوجه أمراً عديم الجدوى تقريباً للممثلين ، لذلك شجعوا الخطابة التي تستطيع الوصول إلى أبعد الآذان . وكانت الحفلات تقام بعد الظهر ، من الخامسة إلى السابعة عادة ، واشترط القانون أن تنتهي قبل حلول الظلام ، لأن المسرحين كانا يقعان في أحياء خطرة من المدينة . أما الممثلون فكانوا قبل موليير يستقدمون عادة من إيطاليا وأسبانيا . وكان النساء يؤدين أدوار المرأة . وفرضت الحاجة إلى الدخل الاتكاء الجرىء على الجنس في التمثيليات الفكاهية . وحاولت الكنيسة والبرلمان عبثاً تنقية المسرح الفكاهي أو حظره . ونهض ريشليو بالمستوى الخلقي للدراما الفرنسية ببسط حمايته وإشرافه على بعض كتابها ، وبحضور الحفلات التمثيلية بشخصه ، وبالتعاون مع روترو ، وسكارون ، وغيرهما في تأليف التمثيليات . وهكذا ، وتحت بصره الشامل ، مهد أسلاف كورني — وهم جارنييه وآردي وروترو — الطريق للنجاح التاريخي الذي حققته مسرحية « السيد » .

لقى كورنيى ما يلقاه كل مكافح فى طريقه إلى التفوق من تقلبات . ولد فى روان (١٦٠٦) ؛ وعوقته نشأته فى عاصمة اقليمية بمنأى عن حوافز باريس وفرصها الأدبية ، ولكن أباه كان قاضياً نابها استطاع أن يوفر لابنه أفضل ما أتيح من تعليم فى كلية اليسوعيين المحلية . وقد استخدم هؤلاء المربون الغيورون المسرحية أداة للتعليم . وعلموا الطلاب أن يمثلوا باللاتينية مسرحيات كلاسيكية وغيرها ، وقد أثر هذا التقليد اليسوعى فى المسرحية الفرنسية موضوعا وتقنية وأسلوباً . وبالطبع لم يقصد أحد ببيير أن يكون كاتباً مسرحياً ، فقد نشئ فى القانون ومارسه فترة ، ولعل فن الفصاحة القانونية واعتيادة عليها شاركا فى صوغ البيان الذى يجلجل فى مآسيه .

وحين ناهز الحادية والعشرين وقع فى غرام المرأة والشعر فى وقت معاً تقريباً ، ولكن السيدة صدته ، فوجد ملاذه فى القوافى . وقد خلف الجرح فيه اكتئاباً وإحجاماً دائمين ، فثل بالمداد المسرحيات التى حرمت على دمه . وانقضت إحدى عشرة سنة قبل أن يجد له زوجة (١٦٤٠) — ولم يجدها إلا بمساعدة من ريشليو ، ولكنه خلال ذلك تصور العدد الكبير من مآسى أو مهازل فيها تودد المحبين أو شهامة الأبطال . وفى عام ١٦٢٩ حمل إلى باريس أولى تمثيلياته « مليت » ، فمثلت فى الأوتل دبورجون ، وكانت رباعية سخيفة من الحب والدسيسة ، ولكن حوارها المفعم بالحياة أعانها على النجاح ، واصطلى كورنيى فى دفء الشهرة . وكلفه ريشليو هو وأربعة غيره بكتابة تمثيليات فى موضوعات وبطرق اقترحها الكردينال . غير أن كورنيى أدخل على هذه الخطة الموضوعة له تعديلات فى استقلال كثير . وعبس « صاحب النيافة الأحمر » ، فانسحب كورنيى غاضباً إلى روان ، ولكنه ظل يتسلم من ريشليو معاشا قدره خمسمائة كراون فى العام .

وحركه وجرح كبرياءه نجاح مأساة « سوفونيسب » التى كتبها ميريه ، فهجر التمثيلية الفكاهية ، ودرس سنيكا ، وحمل إلى باريس عام ١٦٣٥

تمثيلية « ميديه » . هنا ظهرت صفاته الجوهرية لأول مرة — وهي قوة الفكر وسمو الحديث . وراح منذ الآن ، مع بعض الاستثناءات ، يملأ مسرحه برجال ونساء رفيعي المقام ، ويضفي عليهم العواطف الرفيعة التي يعرب عنها في لغة جزلة وحجة قوية . وحين استمع وولر ، الشاعر الإنجليزي المعاصر ، إلى « ميديه » نادى به إماما جديداً ، « فغيره ينظم الشعر . ولكن كورنيي هو الوحيد الذي يستطيع أن يفكر[١٣٢] » . — واسمى ضروب الفن ما أشرب بالفلسفة . ومن مسرحية الرومان واليونان الملحمية ، ومن معلميه اليسوعيين ، ومن تأملاته الحزينة الموحشة — هـذه الأبيات الجليلة ، السداسية التفاعيل ، تزحف زحف الجيش في أحلامه — بلغ كورنيي مستوى من الفكر والأسلوب لم يعهد قط في التمثيليات الفرنسية من قبل وندر أن عرف بعده .

يضاف إلى هذا أدب درامي آخر اجتذبه وشكله . إنه لم يستطع أن يستقي من المسرح الاليزابيثي غير القليل ، لأن هذا المسرح أغفل القواعد الكلاسيكية أغفالا لا يناسب قالبا كلاسيكيا . ولكن أسبانيا كانت في هذا العصر مجنونة بالمسرح ، تغدق التكريم على لوبي دي فيجا وتيرسو دي مولينا وكالديرون دي لاباركا كأنهم الورثة الأكفاء الوحيدون لسوفوكليس ويوربيديس ، وتيرينس وسينكا . وفي المسرحية الاسبانية وجد كورنيي موضوعا دراميا بطبيعته — قانون الشرف أو العرض ، الذي فرض الموت جزاء لكل إهانة أو إغواء . فتعلم الأسبانية ، وقرأ « مغامرات السيد » لجيين دي كاسترو (١٥٩٩ ؟) ، واستعار الحبكة دون اعتذار أكثر من اعتذارات شيكسبير ، وكتب أشهر تمثيلية في الأدب الفرنسي (*) .

(*) السيد . وهي كلمة « السيد » العربية كان اللقب الذي لقب به المسلمون السيد رودريجو دياز البطل شبه الأسطوري الذي اشترك (حوالي عام ١٠٨٥) في استرداد أسبانيا للمسيح .

ومثلت السيد عام ١٦٣٦ . وشعر النظارة أنه لم يظهر على خشبة المسرح الغالى بعد شىء بهذه القوة . قال معاصر « جميل جدا أنها ألهمت بالحب حتى أكثر السيدات برودا ، فتفجرت عاطفتهن أحيانا فى المسرح العام . وشوهد فى الألواج ناس قل آن بارحوا قاعاتهم المذهبة ومقاعدهم المكسوة بالزنبق شعار الملكية[١٣٢] » . ولم يعرف الكثيرون أن فكرة المسرحية مستعارة مع أن كورنيى اعترف بهذا صراحة ، وتعجب الجميع من لطافتها المتشابكة . فشيمين الفتاة العريقة المولد ، ورودريج النبيل ، عاشقان متيمان . ولكن أبا شيمين . وهو الدون جوميز ، يتشاجر مع والد رودريج ويسبه وهو شيخ عليل ؛ ويتحدى رودريج جوميز للمبارزة ويقتله . وتشعر شيمين ، وهى مبقية على حب رودريج ، بأن داعى الشرف يدعوها لرجاء الملك فرديناند أن يقطع رأسه أو ينفيه ؛ وهذا الصراع الذى يعتمل فيها بين « واجب الشرف » ودعاء الحب يضفى على القصة وعواطفها المتشابكة قوة وحدة فائقتين . أما رودريج فيقدم سيفه لشيمين ويدعوها لقتله ، ولكنها لا تستطيع الانتهاء إلى قرار . فينطلق إلى محاربة المسلمين ، ويعود إلى إشبيلية وفى موكبه الملوك الأسرى وهالات المجد ، وتتغنى باسمه إشبيلية كلها ، ولكن شيمين لا تزال تطالب بموته . وحين يرفض فرديناند ، تعد بأن تتزوج أى رجل يتحدى حبيبها ويقتله . ويضطلع سانشو بالمهمة . ويقترح رودريج أن يدع سانشو يقتله . ولكن شيمين تندم على انتقامها ، وتتوسل إليه أن يدافع عن نفسه . فيهزم سانشو ، ولكنه يبقى عليه ، وأخيرا يتم استرضاء قانون الشرف ، وتقبل شيمين حبيبها ، وينتهى كل شىء نهاية سعيدة .

واحتفلت باريس طوال نصف موسم بجمال شيمين وناقشت سلامة عقلها . وسمعت نغمات سياسية صاحبت النقاش . ذلك أن ريشليو حرم المبارزات ، ولكنها تبدو فى التمثيلية جزءا من القانون الأعلى . أما النبلاء الكارهون لريشليو فقد تهللوا لتمثيل أرستقراطية ما زالت تتولى العقاب

بنفسها . كذلك لم يسر الكردينال كثيرا لنجاح رجل توقف عن تلقي توجيهاته الأدبية، فطلب إلى أكاديميته الوليدة أن تصدر نقدا منصفا للتمثيلية ، ولم يكد يخفي أمله في أن يكون الحكم ضدها . وأطالت الأكاديمية مناقشاتها حتى تهدأ الأعصاب ؛ وأخيرا ، وبعد خمسة شهور ، نشرت رأيها ، وكان حكمها في جملته معتدلا منصفا . فقد اعترضت على الاشادة الواضحة بالحب الرومانسي ، ورأت أن حل عقدة التمثيلية لا يحتمل التصديق ، ووجدت في كلمات شيمين الأخيرة لرودريج وهو ماض إلى قتال سانشو بعض الحلافة والغرور السخيف « عد ظافرا من قتال جائزته شيمين » . على أن هذا النقد لطفته الفقرة الختامية في حكم الأكاديمية تلطيفا جميلا :

« يجب أن يغتفر الناس ، حتى العلماء منهم ، بعض الاغتفار شوائب عمل ما كان يحظى بإبهاج المجتمع إلى هذا الحد لولا ما فيه من مواطن جمال غير عادية . . . . وأن طبيعة عواطفه وعنفها ، وقوة الكثير من أفكاره ورقتها ، والسحر الفائق الوصف الذي يمتزج بكل عيوبه — كل أولئك قد كسب له مكانا عاليا بين القصائد الفرنسية التي من هذا النوع(١٣٤) » .

ولم تتخذ الأكاديمية صفة القاضي الأدبي بعد ذلك إطلاقا . أما كورني فقد لطف من الموقف باهدائه تمثيلية « السيد » عند نشرها إلى ابنة أخت الكردينال المحبوبة ، وورائعته التالية « أوراس » (١٦٤٠) للكردينال نفسه ، وكان ليفي قد روى هذه الأسطورة في « تاريخه » . ففي اليوم ذاته ولدت أختان توأمان ، في مدينتين مختلفتين ، كل منهما ثلاثة توائم ذكور — أبو الأولين هوراتيوس في روما ، وأبو الآخرين كورياتوس في ألبا لونجا . وبعد جيل ارتبطت الأسرتان برباط أوثق ، وذلك بزواج سابينا ابنة كورياتوس ، بأوراس وهو ابن هوراتيوس ، وبحب كاميللا ابنة هوراتيوس لأحد توائم كورياتوس . ولكن المدينتين تنزلقان إلى الحرب ، ويلتقي جيشاهما وجها لوجه . أما سابينا وكاميللا فترتعدان في المعسكر الروماني ، وتحدد سابينا الموضوع النسائي الذي تردده التمثيلية .

« انى وا أسفاه رومانية. ما دام أوراس رومانيا ؛ فقد اتخذت لقبه حين قبلت يده ، ولكن هذا الرباط سيسترقنى لو حجب عن ناظرى مسقط رأسى — ألبا ، حيث بدأت أتنفس الحياة ، ألبا ، وطنى العزيز وحبى الأول ؛ انى حين أرى الحرب تنشب بيننا وبينك أخاف النصر خوفى من الهزيمة . فإذا شكوت يا روما من أن هذا خيانة لك ، فاصنعى لنفسك أعداء أستطيع أن أكرههم . فانى لى وأنا أشهد من أسوارك جيشهم وجيشنا ، وأرى اشقائى الثلاثة فى جيش وزوجى فى الآخر ، أن أصوغ صلواتى وألح على السماء فى أن تسعدك دون أن يكون فى هذا خروج على الولاء(١٣٦) ؟ » .

وهكذا لا يعرض كورنيى موضوعا هو مجرد معركة سلاح ورجال ، إنما هو صراع الولاءات المشبوبة ، ومأساة الحق يصارع الحق ؛ فإذا تلقى قلمه هذا الإلهام . انطلقت منه عبارات محكمة القوة ؛ وأبيات تسير بخطى عسكرية وأنغام مجلجلة .

أما قائد ألبا فيذكر الرومان بأنهم هم وأهل ألبا أبناء دم واحد ووطن واحد (أكان فى ذهن كورنيى الكاثوليك والهيجونوت ؟) ، وأن من الاجرام تقطيع أوصال إيطاليا (فرنسا ؟) بالحرب الأهلية ، ويقترح انهاء الحرب بنزال ثلاثة من أهل ألبا مع ثلاثة من أهل روما . ويقبل الاقتراح ، وتتاح للنساء ساعة من السعادة المرتجفة . ولكن قائد ألبا يختار توائم كورياتوس الثلاثة ، ويختار القائد الرومانى توائم هوراتيوس . وتبكى النساء ، ويرق الأبطال لحظة لدموعهن ؛ ولكن هوراتيوس الأب يوبخهم وهو يعلن الفكرة الرجولية ، لأنهم يضيعون الوقت مع النساء بينما يدعوهم داعى الشرف :

« أدوا واجبكم ، واتركوا الباقى للآلهة(١٣٧) » .

ولكن الآلهة تخطئ . فيقتل توائم كورياتوس ، ولا يبقى عل قيد الحياة من توائم هوراتيوس سوى أوراس . وتعنفه شقيقته كاميللا لقتله

خطيبها ، وتندد بروما وبناموس شرفها وحربها . فيقتلها وهو بعد سكران بنشوة المعركة لأنها ليست جديرة بأن تكون رومانية . وتوبخه زوجته سابينا على قسوته ، وتبكى أشقاءها القتلى ، وتدعو أوراس ليقتلها هى أيضاً . أما هو فيحاول اقناعها بأن الوطنية أسمى من الحب .

وفكرة التمثيلية بالطبع لا تصدق ، ولكنها فى هذا لا تزيد عما فى شيكسبير . إن الدرامى بحكم تعريفه شاذ ؛ والمسرحية مقضى عليها إن هى وصفت الواقع فى غير تحيز . وهى ترتفع إلى مقام الفن إذا استطاعت بتجاهلها ما ليس متصلا بموضوعها واختيارها للمهم أن تزيدنا عمقاً بفهم أكمل للحياة . لقد ورث كورنيى تمجيد النهضة لروما القديمة ، وأيد المفهوم الصارم للواجب أمام انحلالات الحب التى سيطرت على المسرح الفرنسى قبله ، فصمم ألا يكون أبطاله عشاقاً أولا ، بل وطنيين أو قديسين .

وقد اختار من التقويم الكاثوليكى قديساً يسيطر على تمثيلية أقوى حتى من هذه . يقول سانت — بوف : « كل الناس يعرفون « بوليوكت » ، ويعرفونها عن ظهر قلب[١٣٨] » . والبناء فى هذه التمثيلية كلاسيكى على نحو صارم ، إذ يتقبل الوحدات كلها ، ولكنه يبنى داخلها مأساة معقدة ذات قوة مركزة . ولا يصلنا اليوم سوى فصاحة التمثيلية فى مكاتبنا ، ولكن يجب أن نسمعها منطلقة من أفواه الممثلين الفرنسيين يتحركون فى جلال على خشبة المسرح ، أو تحت النجوم فى فناء الانفاليد أو اللوفر ، وحتى مع توافر هـذه الشروط يجب أن نملك ناصية الفرنسية وتكون لنا أرواح فرنسية . ويجب أن نكسو أنفسنا من جديد بإيماننا الشاب . أما الحبكة فتدور حول تصميم بوليوكت ، الرومانى المثقف ، المعتز بنفسه ، حديث العهد باعتناق المسيحية ، على تحطيم مذبح الآلهة الوثنيه . اما زمن التمثيلية فهو الاضطهاد الديشى (٢٤٩ — ٢٥١ م) ، وأما مكانها فليتين ، وهى مخفر أمامى رومانى فى أرمينيا ، ومشهد الدراما كلها قصر فيلكس الوالى الرومانى . وقد دعى المسيحيون جميعاً ، منذرين بالموت عقابا للمخالفين ،

أن يشتركوا فى صلاة تنتظم الإمبراطورية بأسرها وقربان للآلهة القديمة طلبا لتأييدها للجيوش الرومانية ضد الهمج المغيرين المحدقين بها . ويشتعل بوليوكت بغيرة المؤمن المهتدى ، فيبغى بعمـــل مثير أن يشجع المسيحيين على مقاومة الأمر الإمبراطورى . ويعوقه عن هذا حبه لزوجته بولين ، ابنة الوالى ، ولكنه يضحى بالحب فى سبيل الواجب كما يفعل أبطال كورنى الصادقون . وفى حضرة فيلكس ذاته يقطع هو وصديق له الطقوس الوثنية، ثم يناشدان العابدين أن ينصرفوا عن جوبيتر الفاجر إلى إله المسيحيين ، « الملك الواحد القهار للأرض والسماء » ، ولكى يفضحا «المسوخ العاجزة» التى يتألف منها مجمع الآلهة الرومانى يرتقيان المذبح ويحطمان آنية الشعائر وتمثال جوبيتر . ويأمر فيلكس بالقبض على منتهكى هذه المقدسات . وتتوسل بولين إلى بوليوكت أن يتوب عن تدنيسه المعبد ، ولكنه يدعوها بدلا من ذلك إلى اعتناق دينه الجديد . وتناشد بولين أباها أن يعفو عنه فيأبى ، وتجهر هى باعتناقها المسيحية وتستعد لمرافقة زوجها إلى الموت . ويتأثر فيلكس تأثراً يحمله على اعتزال منصبه واعتناق المســيحية . ثم ينتهى الاضطهاد فجأة ، ويرد فيلكس إلى منصبه ، ولكن بوليوكت قاسى أثناء ذلك عذاب الاستشهاد .

وكل ما فى التمثيلية تحلية للتاريخ من قلم كورنى ، فيما عدا الاستشهاد وتدنيس المذبح ؛ كذلك هو خالق وقاحة القديس المتعالية وعنف الفعل ؛ وحين قرأ المؤلف التمثيلية فى الأوتيل درامبوييه ، أدان عدد من السامعين ، ومنهم أحد الأساقفة ، بوليوكت لخشونته وتطرفه فى غير ضرورة . وفكر كورنى حينا فى وقف التمثيلية ، ولكن نجاحها على المسرح رفعه إلى أوج حياته الأدبية (١٦٤٣) . وبقى له فى أجله آنذاك واحد وأربعون عاماً سنرى أنه أنفقها فى منافسة مع راسين ، ولكنه لم يؤت العلم بأنه قد كتب أعظم أعماله فى هذه المسرحيات الثلاث — بل يرى البعض أنها أفضـــل المسرحيات فى تاريخ المسرح الفرنسى كله . وهى تختلف عن الدراما

« الرومانسية » التي شاعت في انجلتره الاليزابيثية أو فرنسة القرن التاسع عشر اختلافاً يقتضينا إعانة التاريخ بالخيال لتعليل سلطانها على زمانها وعلى مسرح اليوم . إن في كورنيي روحاً رومانسية أيضاً بقدر ما في شيكسبير ، وعواطف مدروسة بأكثر من عناية ديكارت ورهافته ، ولكن اتباع مثل العصر الكلاسيكية اقتضى اخضاع العواطف — على ما فيها من تعبير قوى — « للعقل » — أو للحجة . والإسراف في الحجج هو ثقل الموازنة لهذه التمثيليات ، بحيث قل أن تحلق التحليقات التي تكثر جداً في راسين . أما الحركة فتبعد عن خشبة المسرح ، فليس عليها سوى السرد ، والحض ، والفصاحة ، وكل شخوص كورنيي محاجون بارعون . أما الفرنسيون فتتلاشى في نظرهم هذه العيوب في بهاء الأسلوب وجلال الموضوعات . فإذا عن لنا في أي عمل فني أن نلتمس السمو ، أو نبحث عن فكرة أو شعور يرفعنا فوق ذواتنا وزماننا ،وجدنا هذا مردداً في كورنيي . لقد كتب وكأنه يكتب للساسة والفلاسفة ، ونظم أبياته وكأنه يلحن موسيقى ، وتحت عبارات ما زالت ملازمة لذاكرة فرنسا . وامتزجت الآن الروح الكلاسيكية والاستقراطية — روح العقل يكبح العاطفة ، والشكل يسيطر على المضمون — بضبط النفس الرواقي ، وبالشرف الأسباني ، وبالذكاء الفرنسي ، ليخرج من هذا كله مسرح بعيد عن المسرح الاليزابيثي بعد السماء عن الأرض ، وهو مع ذلك ، بفضل راسين وموليير أيضاً ، يعدله قيمة وتألقاً في تراث البشرية .

٦ — العمـــارة

أكان انتصار المزاج الكلاسيكي ملحوظاً في الفن كما في الأدب ؟ إنه يطالعنا في كل واجهة بناء فرنسي تقريباً في ذلك العصر . لقد رممت بعض الكنائس القومية ترميما قوطياً ، مثل كاتدرائية أورليان ، ولكنا نجد في الأكثر كنائس قديمة — ككنائس سان جرفيز وسانت — إتيين — دومون —

زينت من جديد بواجهات من طراز النهضة . وقد نلحظ فى الكنائس الحديدة طرازا إيطاليا جديداً يعمها كلها ؛ وهكذا صمم جاك لومرسييه كنيسة السوربون على غرار كاتدرائية القديس بطرس — أعمدة ، وقواصر، وقبة . ففى العمارة ، كما فى الأخلاق ، والأدب ، والفلسفة ، أضفى الإحياء الوثنى على المسيحية وجهاً جديداً جريئاً .

وطوى تيار النهضة الكل حتى اليسوعيين ، وكانوا أسرع استجابة له لأنهم وهم طائفة دينية لم تقيدهم جذور من العصر الوسيط . فى أجيالهم الأولى حين تزعمهم لويولا ولينيز ، كانوا مبشرين صارمين لا يخشون أحداً ، ومنافحين مخلصين عن المعتقد السليم والبابوات ، ولكنهم استبقوا قدراً من النزعة الكلاسيكية فى مجمع ترنت ، وكما جعلوا الدراسات الكلاسيكية لب برامج التعليم فى كلياتهم ، كذلك اختاروا فى العمارة الواجهات الشبيهة بالكلاسيكية لأبهى معابدهم . ومن كنيستهم الرائعة فى روما ، « كنيسة يسوع » ، حملوا طراز الزخرف الفاخر عبر الألب وفوق البرانس . على أنهم لم يكونوا ملتزمين بدرجة متماثلة بالزخرفة الفياضة . من ذلك أن أشهر معمارييهم — الذى شيد واجهة جناح كاتدرائية أورليان — صمم كنائس وكليات متوخياً البساطة الشديدة التى تناسب خلقه وما تحت يده من مال . ولكن حين أثرت الطائفة بنت فى وفرة بهيجة . فى عام ١٦٢٧ بدأت بناء الكنيسة الجميلة التى تعرفها باريس عادة باسم « الجزويت » — وواجهتها رومانية ، وداخلها مزين زينة أنيقة بالتيجان والأقواس والكرانيش ، وأقبية الخورس تلتقى فى انسجام لتدعيم قبة مضيئة ؛ وقد وصف جول افلين الذى كان يجوب باريس عام ١٦٤٤ هذه الكنيسة بأنها « من أكمل قطع العمارة فى أوربا [١٣٩] » . إنها لم تكن باروكا على نحو منفر ، ولم تحتو على أى شىء مشوه أو غريب . فالباروك فى فرنسا رصنه الذوق الاستقراطى — تماماً كما هذب رونزار وماليرب قباحات رابليه .

وتخلفت العمارة الدينية خلال الحروب الدينية ، وفى فترات السلام التى تخللتها نمت العمارة المدنية . فارتفعت قاعات المدن فى لاروشيل، وليون، وتروا ، ورانس . وفى باريس أرادت كاترين دى مديتشى أن تخلى قصر اللوفر لشارل التاسع ومليكته، فاستأجرت فيليبير ديلورم ليبنى لها ولمساعديها قصر التويلرى (١٥٦٤) — الذى اشتق اسمه من مصانع القرميد (التويل) الفخارى القريبة . وارتفع القصر الجديد ، الذى قامت فى واجهته العمد الكورنثية وفق طراز النهضة ، غربى اللوفر عند ميدان كاروسل الحالى ، وامتد ٨٠٧ قدما بطول السين . وقد أحرق فى فتنة الكومون عام ١٨٧١ ، ولم يبق منه سوى الحدائق — حدائق التويلرى اللذيذة .

واستعادت العمارة المدنية نشاطها سريعا فى عهد هنرى الرابع . وأصبح البون نوف ، الذى افتتح للمرور عام ١٦٠٤ ، أحب الجسور التى تمتد فوق السين . أما الأوتيل دفيل الذى أنجز فى السنة التى مات فيها هنرى ، فقد ظل إلى عام ١٨٧١ مفخرة للشعب تنافس النوتردام واللوفر . وكما فعل فرنسيس الأول ولويس الرابع عشر ، أظل هنرى الفنانين برعايته ، وفهمهم ونسق عملهم . فوسعوا له اللوفر بإضافة البافيون دفلور ووصلوا بينه وبين التويلرى بالرواق الكبير . وفى فونتنبلو بنوا المصلى ، ورواق الوعول ، والفناء والصالون البيضى ، والبورت دوفين ، ورواق ديان . ولقد كانت فونتنبلو فى عهد هنرى الأكبر ذروة النهضة الفرنسية .

أما أرملته مارى دمديسى ، فقبل أن تصطدم بريشليو، كلفت سالومون دبروس أن يصمم لها قصر لكسمبورج ، فى شارع فوجيرار جنوبى السين (١٦١٣ — ٢٠) . ولما تحرر لويس الثالث عشر وريشليو من نفوذها عهدا إلى لومرسييه أن يوسع اللوفر مرة أخرى بوصفه مقر الحكومة ، فأنجز الآن البافيون دلورلوج ، ووسع الجناحان الكبيران ، واتخذ البناء الفخم شكله الحالى فى أساسه . ومن تصميمات لومرسييه بنى ريشيليو فى باريس « الباليه كردينال » الأنيق حيث جمع مجموعاته فى التصوير

والنحت وغيرهما من الفنون ، هنا كانت أعمال مانتينا ، ودافنشى ، وفيرونيزى ، و « عبيد » ميكلانجلو . وقد انتقل أكثر هذا الكنز إلى لويس الثالث عشر والرابع عشر ، ثم إلى اللوفر ، ثم إلينا .

أما فى عمارة البيوت فقد أعاد فرانسوا مانزار تشكيل أفق باريس بتطويره « سقف مانزار » — وهو سقف ذو منحدرين ، أسفلهما أحد من أعلاهما ، مما يتيح تصريف الثلج والمطر بسرعة ، ويفسح فراغا أكبر فى الطابق العلوى ؛ وكم من طالب أو فنان باريسى سكن هذا « المانزار » أو العلية . وصمم مانزار عدة كنائس فى باريس ، وعدة قصور ريفية فى فرنسا — وأنجحها فى حى يعرف اليوم بميزون لافيت ، وهو ضاحية من ضواحى العاصمة . وفى عام ١٦٣٥ عهد إليه « مسيو » جاستون دورليان أن يعيد بناء قصر الأسرة فى بلوا ؛ ولم ينجز مانزار سوى الجناح الشمالى الغربى ، وما زالت واجهته المبنية بطراز النهضة وسلمه الفاخر رائعة « أبرع معارى أنجبته فرنسا فى تاريخها » (١٤٠) .

٧ — فنون كثيرة

وبهذا المزاج نفسه ، مزاج التقاليد الكلاسيكية التى يرقق منها الصقل الشعور الفرنسيان ، زين النحاتون الكنائس ، والقصور ، والحدائق ، ومقابر العظماء . وقد ورث جرمان بيلون رشاقة النهضة التى اتسم بها تشللينى ، وبريماتيكيو ، وجان جوجون ، ولكنه لم ينس المزيج القوطى من الرقة والقوة . أما روائعه فثلاث مقابر ، إحداها — وهى المقامة فى كنيسة دير القديس دنى — جمعت فى الموت بين كاترين دى مديتشى وهنرى الثانى ، زوجها لفترة ما — وقد أضفى الفنان على الملكة جمالا مثاليا كان خليقا بأن يدفئ قلبها الموحش . والثانية ، الموجودة الآن فى اللوفر ، كرمت رينيه دبيراج ، مستشار فرنسيس الثانى وشارل التاسع — وهى صورة للكبرياء الخاضعة للتقوى ، ومعجزة من الثياب الطبيعية التقطها المثال فى البرونز . وإلى

جوارها مقبرة زوجة رينيه ، فالنتين بالبيانى : وفى أعلاها ترى السيدة فى شرخ شبابها وقد خلعت عليها الجلال أرواب تعلوها الوجوه ، وفى أسفلها هذا الجمال ذاته منحوتا بغير رحمة فى هيئة جثة لهـا وجه وأيد وأرجل عجاف وصدر متغضن وثديان فارغان غائران ؛ إنها صيحة غضب قوية على الدهر وانتهاكه الساخر للجمال . وهذه المقابر وحدها كانت تكفى لرفع بيلون إلى مقام أعلى من مقام أى نحات فى عصره ، ولـكنه أضاف إليها العدد الوفير من التماثيل ، وكلها ذات محاسن أخاذة ، وأكثرها جمع فى اللوفر ، خزانة فرنسا التى لا ينضب لها معين .

وهناك أيضا ، وعلى بضع خطوات ، نستطيع أن نرى أعمالا لخلفاء بيلون : تمثالا بالحجم الطبيعى لهنرى الرابع من صنع بارتلمى تريمبليه ، وعلى فمه ابتسامة غامضة كابتسامة مونا ليزا ، ومقبرة آن دمونمورنسى التى نحتها بارتلمى بريور ، وتمثـالا حيا يسمى « الشهرة » لبيربريار — هو امرأة عارية تنفخ أنفاسها من خدين منتفخين وتكتب فى الهواء كأنها تضيف تحسينا إلى كلمات كيتس « هنا يرقد إنسان كتب اسمه فى الريح » . وفى مصلى شانتيى أثر يذكر للكردينال دبيرول صنعه جاك سارازان . وقد درس بعض هؤلاء النحاتين فى روما وجلبوا معهم من برنينى ميلا باروكيا للزخرف والحركة والعاطفة المسرفة ، ولكن هذا الاسراف سرعان ما تلاشى تحت نظرات ريشليو الباردة وذوق لويس الرابع عشر الكلاسيكى . ويبدأ ظهور ذلك الكمال الناعم الذى طبع « القرن العظيم » فى ميداليات جان فاران ، الذى وفد من لييج ليعيش فى فرنسا ، والذى بلغ فنه فى الصور الصغيرة التى رسمها لريشليو ومارران وآن النمسوية براعة لم يبزه فيها أى رسام ميداليات جاء بعده .

ولو لم تخلف لنا فرنسا أى نحت أو عمارة أو تصوير لحق لها برغم هذا أن تحوز احترامنا وحبنا لما أنجزته فى ميدان الفنون الصغيرة . فحتى فى هذه الفترة المضطربة بين حكم فرنسيس الأول وحكم لويس الرابع عشر ، نافست فرنسا — بل فاقت فى رأى البعض — إنتاج معاصريها من فلاندر إلى إيطاليا ، سواء فى الرسوم ، أو المحفورات ، أو اشغال المينا ، أو الصياغة ، أو قطع الأحجار الكريمة ، أو مشغولات الحديد أو الخشب ، أو المنسوجات ، أو السجاد المرسوم ، أو تصميم الحدائق . فرسوم جاك كاللو للغجر ، والشحاذين ، والمتشردين ، تحمل معها ريح الحياة ذاته ؛ أما سلسلة كلشيهات « آلام الحرب » فقد سبقت جويا بقرنين . وحسبنا حكما على براعة أشغال الحديد فى ذلك العصر حاجز القضبان المؤدى إلى قاعة أبوللو فى اللوفر . أما السجاد المرسوم فكان صنعه فنا لا يقل أهمية عن النحت أو التصوير . كان جان جوبلان قد افتتح مصانع للصباغة بباريس فى القرن الخامس عشر ؛ وفى القرن السادس عشر أضافت المؤسسة مصنعا للسجاد المرسوم ، وأنشأ فرنسيس الأول مصنعا آخر فى فونتنبلو ، وهنرى الثانى مصنعا ثالثا فى العاصمة . وحين ذهبت كاترين دى مديتشى للقاء المبعوثين الأسبان فى بايون أخذت معها اثنتين وعشرين سجادة نسجت لفرنسيس الأول لتعرض ثراء فرنسا وفنها . ثم اضمحلت هذه الصناعة التى جمعت بين الحرفة والفن فى عهد هنرى الثانى ، ولكن هنرى الرابع أصلح من شأنها بجلب جيل جديد من الرسامين والصباغين والنساجين الفلمنكيين لمصنع جوبلان فى باريس . وهناك خمسة نماذج ممتازة ترجع إلى عهده — موضوعها صيد ديانا — تزين مكتبة مورجان بنيويورك .

وأحست الزخرفة الداخلية تأثير الباروك يتسرب إليها من إيطاليا . فنقشت الكراسى ، والموائد ، والصناديق ، والبوفيهات ، والدواليب ، ومناضد الزينة ، والسرر — ونقشت فى بذخ ، ورصعت فى كثير من الحالات بالأبنوس أو اللازورد أو اليشب أو العقيق ، أو زينت بالتماثيـــل

الصغيرة . وفى عهد لويس الثالث عشر نجد الكثير من المقاعد بالمخمل ، أو أشغال الابرة ، أو النسيج المرسوم . وقد تنقش الجدران والكرانيش والأسقف أو ترسم بمهرجان من صور النبات والحيوان . وفقدت المدافئ بعض صرامة العصر الوسيط ، وحليت أحيانا بنقوش عربية فى ألوان متعددة .

أما فى الخزف فكان العصر قمة فن رجلين عجوزين : ليونار ليموزان ، الذى استمر حتى عام ١٥٧٤ ينتج أشغال المينا التى أذاعت شهرته أيام فرنسيس الأول(*) ، ثم برنار باليسى الذى ولد عام ١٥١٠ وعمر حتى عام ١٥٨٩ . وكان باليسى مجنونا بالخزف ، فيه فضول قوى ينتظم ميادين الزراعة والكيمياء والدين ، وله ولع بكل شيء من تكون الأحجار إلى طبيعة الإله . درس كيمياء أنواع التربة المختلفة ليحصل على أفضل الطفل لقمينته ، وأجرى تجاربه سنين عديدة لينتج مينا بيضاء تتقبل الألوان الرقيقة وتحتفظ بها . وأحرق نصف متاعه وقودا لفرن حراراياته ، وقد روى القصة وكأنه يتحدى تشلليني . وكان يقوم بالعمل كله بنفسه لأن فقره أعجزه عن أن يستأجر من يساعده ، وكثيرا ما كانت يداه تمتلئان بالقطوع حتى قال « كنت أضطر لأكل حسائى ويداى مربوطتان بأسمال » . و«بعد أن مضيت فى مثل هذا عشر سنوات نحل جسمى حتى لم يبد على ذراعى وساقى أى عضلات ، وبلغ النحول بساقى مبلغا استحال معه على رباط جواربى أن يثبت فوقها ... فإذا مشيت سقطت جواربى على حذائى البالى(١٤١) » . واتهمه جيرانه بأنه يمارس السحر ويهمل أسرته . وأخيرا ، وحوالى عام ١٥٥٠ ، وجد المزيج الذى ينشده ، وصنع مينا من طلاء متقزح اللون ، واستعملها فى تشكيل الآنية والتماثيل الصغيرة المزينة تزيينا بديعا بالسمك ، والسلاحف ، والأفاعى ، والحشرات ، والطيور ، والأحجار — كل غنى الطبيعة الوافر . وأبهج كاترين دى مديتشى أن تضع هذه المتحفرات الصناعية فى حديقتها وأحواض أزهارها ، ووهبت الخزاف

(*) لاحظ النماذج البديعة المحفوظة فى مجموعة والاس بلندن ومجموعة فريك بنيويورك .

العجوز مصنعا فى التويلرى ، فأضاف فى بيئته الجديدة الحوريات المختلفة لزخارفه . ومع أنه كان هيجونوتيا غيورا ، إلا أنه أعفى من مذبحة القديس بارتلميو ، لأن كاترين وحاشيتها بهرتهم زهرياته وكئوسه وأطباقه وشمعداناته وأفكاره الطريفة . ولكن فى عام ١٥٨٨ أمر الحلف الكاثوليكى بمحاكمة البروتستنت من جديد ، فأودع باليسى سجن الباستيل . قال أحد كتاب اليوميات فى عام ١٥٩٠ :

« فى هذا العام (عام ١٥٨٩ فى واقع الأمر) مات فى حجرات سجن سجن الباستيل الأستاذ برنار باليسى ، السجين بسبب دينه ، بالغا من العمر ثمانين عاما ، وقد خرّ تحت وطأة الألم ، وسوء المعاملة ، والحاجة . وحين ذهبت عمة هذا الرجل الطيب لتسأل عنه . . . قال لها السجان انها إن أرادت رؤيته فستجده جثة مع الكلاب على الأسوار ، حيث أمر بإلقائه كما يلقى كلب مثله(١٤٢) » .

٨ — بوسان والمصورون

كان التصوير الفرنسى لا يزال أسيرا لفلاندر وإيطاليا . فسيطر رسامو السجاد الفلمنكيون على فنهم فى باريس ، وزكا المصورون الفلمنكيون فى باريس ، وليون ، وتولوز ، ومونبلييه ، وبوردو . وكانت أفضل لوحات هذه الفترة من صنع الفلمنكيين فى فرنسا ، كصورة إليزابث النمسوية البديعة (الموجودة باللوفر) بريشة فرانسوا كلويه ، وصورة هنرى الرابع المعتز بنفسه (فى شانتيى) بريشة فرانز بوربى الابن ، وأهم من ذلك كله صورة ريشليو التى رسمها فليب دشامبين .

ولكن التأثير المسيطر على التصوير الفرنسى فى هذه الحقبة كان إيطالياً . كان طلاب الفن يذهبون إلى روما ، على نفقة الحكومة الفرنسية أحيانا ، ويعودون مترددين بين مثالية فنانى القرن السادس عشر الفلورنسيين ، وواقعية فنانى القرن السابع عشر البولونيين والنابوليين القاتمة . وقد وفق أحد الفنانين الفرنسيين واسمه سيمون فوييه ، وهو بعد فى الرابعة عشرة

(١٦٠٤) ، إلى إذاعة اسمه بين المصورين، حتى تنافست عليه ثلاث دول . وحاول تشارلز الأول أن يحتفظ به فى لندن ، ولكن بارون سانسى أخذه فى بعثة إلى القسطنطينية ، حيث رسم سيمون صورة رائعة للسلطان أحمد الأول ، بعد أن درس ملامحه خفية خلال ساعة مثل فيها السفير بين يديه . وفى عودته مخترقا إيطاليا ، وقع فوييه فى حب البندقية وفيرونيزى ، ثم أحب كارافادجو فى روما ، حيث بسط عليه أدواقها وكرادلتها من الرعاية ما أغراه بالبقاء فى إيطاليا خمسة عشر عاما . وفى عام ١٦٢٧ دعاه لويس الثالث عشر ليكون مصور البلاط ، وكان يجرى عليه معاشا سنويا قدره أربعة آلاف جنيه ، ثم أعطاه سكنا فى اللوفر . وسرعان ما تهافتت فرنسا كلها عليه . فزين مصلى قصر ريشليو الريفى ، ورسم لوحة مذبح لكنيسة سانت أوستاش ، وصمم رسوما للسجاد الملكى ، وصور لوحات للحاشية . وإذ اغرقته هذه المهام كلها فقد جمع حوله معاونيه فى مدرسة نمت حتى أصبحت الأكاديمية الملكية للتصوير والنحت ، وهناك درب واستخدم لوسويور ، ومينار ، واموتر ، وبوردون ، ولوبرن . ولا تكاد أعماله الباقية تبرر هذه الشهرة ، ولكن له فى تاريخ فرنسا مكانا خطيرا هو مكان إعداد مصورى عصر القمة .

أما الأخوة الثلاثة ، أنطوان ، ولويس ، وماتيولونان ، فقد أدخلوا تنويعا على لوحات عصرهم بتصوير حياة الفلاحين تصويرا تشيع فيه الشفقة المعتمة ، إذ وجدوا فيهم ذلك الفقر الصامت والقوة الشرسة التى اتسمت بها فرنسا فى القرن السابع عشر . كذلك وهب جورج دلاتور فرشاته للمساكين (وقد نبش عنه مؤخرا تقريظ النقاد) ، وصورتاه المقابلتان « فلاح » و « فلاحة » أقرب إلى قمة التصوير فى العهود الملكية التى نحن بصددها ؛ ونستطيع أن نحكم على شهرته السائرة من مبلغ الـ ٥٠٠,٠٠٠ دولار أو أكثر التى دفعها متحف المتروبوليتان للفنون بنيويورك ثمنا لصورته « العرافة » (١٩٦٠) . وقريب من هذا التحول من القصر إلى الكوخ ،

ذلك الاتجاه الخاص الذى حققه التصوير الفرنسي فى هذا العصر — وهو تطوير المنظر الطبيعى بوصفه عنصرا كبيرا فى فن التصوير .

أما نيكولا بوسان فكان أبوه جنديا فى جيش هنرى الرابع . وبعد أن أسكن منزل نيكولا دليزمان عقب معركة إفرى ، تزوج ابنة نيكولا — وهى فلاحة لا تعرف كيف تكتب اسمها — وفلح مزرعة بقرب ليزانسدليس فى نورمانديا . وتعلم ابنهما حب الحقول والغابات ، واقتناص لحظات يسجلها فيها بالقلم الرصاص أو الحبر . ثم وفد كنتان فاران على ليزانسدليس ليزين كنيسة بها ، وراقبه الفتى نيكولا فى شغف وانتزع منــه بالملاطفة دروسا فى الرسم والتصوير . فلما رحل فاران ، هرب نيكولا إلى باريس ليدرس الفن (١٦١٢) وكان يومهاقى الثامنة عشرة . وهناك توجت الشهور التى كاد يتضور فيها جوعا بعثوره على محفورات ريموندى لأعمال رفائيل . هنا تكشف لنيكولا أمران أولهما أن الخط لا اللون أداة الفن ، وثانيهما أن روما عاصمة الفن . وظل ثمانية أعوام يكافح للوصول إلى تلك القلعة . ومرة وصل فى رحلته حتى فلورنسة ، ولكن الفقر واليأس والعلة ردته إلى باريس . ثم حاول ثانية ، ولكن دائنا عطله فى ليون ، فزحف راجعا ليدفع ديونه ويكسب قوته بأشغال تصوير صغيرة فى قصر اللكسمبورج . وفى عام ١٦٢٢ استخدمه الشاعر الإيطالى جوفانى باتيتستا مارينى ، الذى وفد وقتها على باريس ، ليرسم له رسوما لقصيدته « أدونى » ، وظفرت رسوم بوسان باستحسان مارينى وببعض التكليفات . ورسم نيكولا صورا للأشخاص على مضض واقتصد فرنكاته فى حرص ، وأخيرا اكتحلت عيناه برؤية روما فى عام ١٦٢٤ .

وأوصى به مارينى الكردينال فرانشسكو باربرينى : « ستجد هنا شابا فيه عنف شيطانى » — شاب « مجنون بالتصوير » (خلافا لتحليل ايروشيج لنفسه) . وكان مجنونا بإيطاليا أيضا ، غير أنه لم يجن بصور أئمة فنانى النهضة بقدر جنونه بكمال القطع المتخلفة فى الساحة الرومانية (الفورم) ، ولا جن

بالصور الجصية المتخلفة من العصور القديمة بقدر جنونه . بروما نفسها — بآفاقها ، وحقولها ، وأشجارها ، وتلالها ، وتربتها ذاتها . ولا بد أنه تساءل كما تساءل بعض المتحمسين لها ممن أتوا بعده . لِمَ لم يكتب الله له أن يولد فى إيطاليا ؟

وامتحنه الكردينال باربرينى بتكليفه برسم لوحة « موت جرمانيكوس » ، فسرته النتيجة ، وسرعان ما اشتد الطلب على فن بوسان حتى جاهد لكى يلبيه . كان رعاته — سواء العلمانيون أو الكنسيون — يتوقون للصور العارية ، فاسترضاهم فترة بعروض لجسم المرآة كتلك التى نجدها فى « انتصار ربة الزهر(*) » التى رسمها للكردينال أوموديو ، وفى « منظر باخوسى » لريشليو . واتخذ مقامه فى روما ، وتزوج فتاة فى السابعة عشرة وهو يناهز السادسة والثلاثين ، وأنفق عشر سنوات سعيدة معها ومع ألوانه . ثم دعاه ريشليو ولويس الثالث عشر إلى باريس (١٦٤٠) . فقال بوسان « سأذهب كإنسان حكم عليه بنشر جسده نصفين(١٤٣) » ، ولقى هناك التكريم العظيم وتلقى معاشا من ألف كراون ، ولكنه لم يرتح لمنافسة الفنانين الباريسين المفعمة بالحقد ، فأسرع بالعودة إلى إيطاليا (١٦٤٣) مضحيا بمستقبل عريض . واشترى بيتا على التل البنسى بجوار بيت كلود لوران ، وهناك عاش حتى مات ، هادئا ، مهتما بأسرته ، مستغرقا فى فنه ، قانعا بحظه .

كانت حياته كصوره مزيجاً كلاسيكياً ، نموذجاً للنظام ، والاعتدال ، وضبط النفس . ولم يكن له من أمارات الفنان غير القليل . اللهم إلا أدواته . فلا هو بالعاشق النهم كرفائيل ، ولا برجل الدنيا كتيشان ، ولا بالعبقرى الشيطانى كميكلانجلو (برغم رأى مارينى فيه) ، إنما هو رجل بورجوازى يعنى بأسرته ويدفع ديونه . وحين رأى الكردينال ماسيمو بيته المتواضع قال له « كم أرثى لك لأنه ليس لديك خادم ! » فأجاب بوسان « وكم أرثى

(*) جميع صور بوسان المذكورة هنا محفوظة باللوفر إلا إذا نص على غير ذلك .

تملك لأن لديك الكثير منهم ! (١٤٤) » . فى كل صباح يتمشى على تله ، ثم يرسم سحابة نهاره ، معتمداً على الجهد لا على الوحى . قال فى فترة لاحقة من حياته رداً على سائل سأله عن السرّ فى امتلاكه ناصية الفن « لم أهمل شيئاً (١٤٥) » .

وإذا أخذنا فى الاعتبار طرقه الكثيرة الجهد، التى لم يستعن فيها بأحد، وجدنا إنتاجه ضخماً . فلا بد أنه رسم أربعمائة صورة ، لأننا نعرف أن بعضها فقد ، وبقى منها ٣٤٢ ، أضف إلى هذا ألفاً وثلثمائة رسم تعتز قلعة وندزر بمائة منها لما تمتاز به من دقة ونقاء فى الخطوط . ولم يتفوق فى تنويع صوره . وكثيراً ما تكون صوره العارية تماثيل عديمة الحياة ، ولو كان فيها شهوانية أكثر لأسغناها . لقد كان نحاتاً يستعمل فرشاة ، ينحو إلى النظر للنساء على أنهن أشكال تصلح للنحت — ولو أنه أحياناً كان يرى فيهن الأصول الإلهية للفن . قال « إن الفتيات الجميلات اللائى نراهن فى شوارع نيم يبهجن عيوننا ونفوسنا بهجة لا تقل عن أعمدة « المزون كاريه » البديعة ، لأن هذه لبست إلا نسخاً قديمة من تلك (١٤٦) » . كذلك لم ينطلق على سجيته فى موضوعات الكتاب المقدس . وقد أجاد تصوير بعضها — مثل « الفلسطينى صريعاً عند الأبواب » و « عميان أريحا » ، وما أجمل النساء ، وأجلهن فى الوقت نفسه ، فى « اليعازر ورفقة » ! كان تفوقه يتجلى فى الأساطير الكلاسيكية، مصورة وسط الخرائب الكلاسيكية ومن خلفها منظر طبيعى ذو هدوء كلاسيكى . ولم يكن يرسم من نماذج حية ، بل من خيال أشرب بحب العالم القديم وتوهمه — العالم الذى كان فيه كل الرجال أقوياء ، وكل النساء جميلات. تأمل ذلك الكمال الذى نراه فى الأنثى الوحيدة فى لوحته « رعاة أركاديا » التى رسمها بوسان للويس الرابع عشر تلبية لطلب كولبير . ولاحظ فى مرورك الكتابة المنقوشة على قبر الراعى : « أنا أيضاً كنت مرة فى أركاديا » ، أهذا بوسان يحلم بأنه هو أيضاً عاش فى اليونان القديمة مع أورفيوس والأرباب ؟

و « مأتم فوكيون » أقوى لوحات بوسان الأسطورية ، ولكن « أورفيوس ويوريديسى » أشدها وقعاً فى النفس ، ربما لأننا نتذكر ألحان جلوك اليائسة . ومما يزعج الروح الرومانسية أن تجد القصة تائهة فى المنظر الطبيعى على هذا النحو . فالحقيقة أن بوسان لم يحب الرجل ، ولا حتى المرأة ، بل المشهد المهذب للنفس ، مشهد الحقول والغابات والسماء المنبسطة — كل ذلك المنظر العريض المحيط باللوحة ، حيث يكون التغيير متمهلا ، أو خجلا أمام الدوام والاستمرار ، وحيث تذوب أوصال البشر فى منظورات المكان والزمان . لذلك كانت أعظم صوره هى مشاهد الطبيعة ، التى يكون الانسان فيها عرضا ضئيلا ، شأنه فى التصوير الصينى أو البيولوجيا الحديثة .

هذه المشاهد جليلة ، ولكنها رتيبة . ولولا أن بوسان أضاف هنا وهناك أشكالا مميزة أو عنوانا خطه فى إهمال لشق علينا أن نفرق بين الواحد منها والآخر . لقد أحب الخط فى حكمة ولكنه أسرف فى حبه ، وأهمل سلم اللون ، مستغلا اللون البنى فوق ما ينبغى ؛ لا عجب أن ثار الفنانون الذين أتوا بعده على هذه « الصلصلة البنية » المتساقطة من أشجاره . ومع ذلك فإن هذه الآفاق الخافتة الأضواء ، الخافتة الألوان ، التى لم يرض عنها رجل مثل رسكن افتتن بوهج تيرنر ، هى تفريج لنا بعد ما أصاب التصوير فى أيامنا من اهتياج وقلق أيديولوجى ، فهنا المفهوم الكلاسيكى للجمال بوصفه اتساق الأجزاء فى كل ، لا الفكرة الحديثة عن الفن بوصفه «تعبيرا» — قد يكون صورة طفل لم يتقن رسمها أو صيحة بائع متجول . وفى وسط اللازمية والباروك ، وفى معارضة لقوة التصوير الإيطالى فى القرن السابع عشر وعاطفيته ، تشبث بوسان بالمثل الكلاسيكى الأعلى ، الذى لا يغالى فى شىء ؛ فلا ألوان صارخة ، ولا دموع ، ولا إغرامات ، ولا مقابلات مسرحية بين الضوء والظل ، بل فن ذكورى أشبه بكورنيى منه براسين ، وبباخ منه ببيتهوفن .

والصورة التي رسمها لنفسه عام ١٦٥٠ تطالعنا منها عينان فيهما كلال ، ربما من الرسم أو القراءة على ضوء ضئيل . كان يقرأ كثيرا ، محاولا الالمام بحياة اليونان والرومان في تفصيل مثابر ، ولم يصب فنان مثل هذا العلم منذ ليوناردو . فلما أقبل على شيخوخته وجد عينيه تضعفان ويده تهتز . وقطع موت زوجته في الحادية والخمسين (١٦٦٤) رباطا حيا ؛ فلم يعمر بعدها سوى سنة واحدة . كتب صديق يقول « مات أبيلليس » . وعلى المقبرة أو قربها في كنيسة أبرشية سان لورينزو ، أقام شاتوبريان (١٨٢٩) نصبا من الرخام كتب عليه كما يكتب أحد الخالدين من البشر الفانين لآخر :

ف . أ . دشاتوبريان

إلى

نيكولا بوسان

لمجد الفنون وشرف فرنسا

وكان أكبر منافسيه في تصوير مناظر الطبيعة جاره ، وصديقه . كاود جيلليه ، الملقب لوران نسبة إلى مسقط رأسه . وقد شعر هو أيضا بدافع يدفعه نحو إيطاليا ، وقبل أي وظيفة مهما حقرت ليصل إليها ويعيش فيها ، حيث تكشف كل لفتة للعين الباحثة عن أثر ما للفن المسيحي أو قطعة ملهمة من الفن القديم . وفي روما تتلمذ لأجوستينو تاسي ، ومزج له الألوان ، وطهى له طعامه ، وتعلم على يديه . وقد رسم على سبيل التجربة ألف رسم ، وحفر كلشيهات يقدرها اليوم الخبراء العارفون . وكان يشتغل ببطء وتدقيق ، وقد يستغرق أسبوعين في تفصيل واحد . وأخيرا أصبح هو أيضا مصورا ، يرتزق من الطلب على صورة من الكرادلة والملوك الذين يقدرون فنه . وبعد قليل كان له بيته فوق التل البنسي ، وشارك بوسان في اشباع الطلب الجديد للمناظر الطبيعية .

وكان يستجيب لهذا الطلب عن طيب خاطر ؛ لأنه أحب أرض روما وسماءها حبا دفعه أحيانا إلى الاستيقاظ قبل طلوع الفجر ليشهد بزوغ النور

كل صبح ، ويقتنص تغيرات الضوء والظل التى تحدثها كل بوصة طالعة من الشمس . لم يكن الضوء عند كلود مجرد عنصر فى الصورة ، إنما كان موضوعه الأهم ، ومع أنه لم يحب — كما أحب تيرنر — أن ينظر فى عين الشمس ذاتها ، فإنه كان أول من درس ونقل غلاف الضوء المنتشر . وقد التقط حركة الهواء غير الملموســة على الحقول ، وورق الشجر ، والماء ، والغمام ؛ كانت كل لحظة من السماء جديدة ، وبدا أنه عقــد نيته على جعل كل لحظة سائلة تسكّن نفسها فى فنه . وقد أحب ارتعاش القلوع وهى تقابل الريح ، وجلال السفن وهى تمخر البحر . وأحس فتنة المسافات ، ومنطق المنظور وسحره والحنين إلى رؤية لانهائية الفضاء وراء المرئى .

كانت المناظر الطبيعيه لذته الوحيدة . ثم أدخل التراكيب الكلاسيكية فى صوره عملا بنصيحة بوسان — كالمعابد ، والخرائب ، وقواعد الأعمدة — ربما ليضفى وقار الشيخوخة على المشهد العابر . ووافق على إضافة بعض الوجوه البشرية إلى مشهد الطبيعة العريض ، ولكن قلبه لم يكن فى هذه الزوائد . فهذه الوجوه « أضيفت دون مقابل » ، فكان « يبيع مناظره الطبيعية ، ويهب وجوهه [١٤٨] » . وكانت العناوين والقصص التى توحى بها هذه الوجوه تنازلات منه للعقول التى لم تستطع الإحساس بمعجزة الضوء وسر الفضاء دون جمال الأسطورة المسيحية أو بغير بطاقة من القصص الكلاسيكية . أما الواقع فهو أن كلود كان له موضوع واحد لا سواه — عالم الصباح ، والظهر ، والمساء . وقد وهب متاحف أوربا تنويعات حبيبة من الصور ، لا تعنى أسماؤها شيئاً ، ولكن فى وحدة وجــودها تزاوج صوفى بين الشعر والفلسفة .

وقد نسلم لرسكن [١٤٩] بأن كلود وبوسان يرياننا الطبيعة على نحو خداع وهى فى حالاتها الأرق ، غافلين عن جلالها ، مغفلين نوبات تدمها الرهيب . ولكن بفضل جهودهما أرسى تقليد عظيم فى رسم المشهد

الطبيعي . وسنرى أنه سينافس صور الأجسام والوجوه ، والمناظر الكتابية والأسطورية . لقد فتح الطريق لموكب الطبيعة من يعقوب وسليمان رويزدال إلى كورو .

وهكذا نجد أن ريشليو والوحدة القومية ، وكورنيي والأكاديمية ، ومونتيني ومالِرب ، ودبروس ومانزار ، وبوسان ولوران — كل هذا لم يكن حصيلة تافهة أنتجها بلد مشتبك فى الحروب . وها هو لويس الرابع عشر يتأهب للوقوف فوق ذلك التراث الصاعد والتسيد على فرنسا فى أعظم عصورها .



المراجع

CHAPTER IX

1 Evelyn, Diary, I, 225.
2. Ibid , 87
3. Camb Mod. History, IV, 631.
4. Molmenti, Venice, Ib, 218.
5. Ranke, History of the Popes, II, 119.
6. Funk, Manual of Church History, II, 147
7. Hazlitt, W. C., The Venetian Republic, II, 221, Encycl Brit , XIX, 1002.
8. Symonds, J. A , The Catholic Reaction, II, 105
9. On the inaccuracies of both historians cf Ranke, Popes, III, 106-38.
10. Montaigne, Diary, 93; Shakespeare's England, I, 216.
11. Byron, Childe Harold's Pilgrimage, Canto IV, line 2
12. Molmenti, Ib, 181
13 Winckelmann, History of Ancient Art, II, 316
14. Taine, Italy Rome and Naples, 232.
15. Symonds, Catholic Reaction, II, 231
16. Ruskin, Modern Painters, II, i, 7, 13
17. Evelyn, I, 160.
18. Ogg, Europe in the Seventeenth Century, 387.
19. Sitwell, Southern Baroque Art, 43.
20. Stirling-Maxwell, Annals of the Artists of Spain, III, 893.
21 Justi, Velázquez, 343.
22 Byron, Don Juan, XIV 71.
23 Pastor, XVIII, 121, 125.
24. Ranke, Popes, I, 286
25. Ibid., 273.
26. Pastor, XVII, 172
27. Lea, H C., Inquisition in Spain, II, 77.
28. Ranke, Popes, I, 322
29 Montaigne, Diary, 125.
30. Bacon, Fr , Apophthegm 60, in Phil, Works, 869
31 Sully, Memoirs, I, 218n.
32. Ranke, Popes, I, 341
33 Pastor, XXI, 83.
34 Ranke, I, 342
35 Lecky, History of European Morals, II, 97.
36 Sully, Memoirs, III, 29.
37. Camb. Mod History, IV, 687
38. Graves, F P , History of Education, 219
39 Monroe, Paul, Text-Book in the History of Education, 422.
40. Bacon, De Augmentis, vi, 4, in Phil. Works, 559
41 Ranke, Popes, II, 90
42. McCabe, Candid History, 97
43 Symonds, Catholic Reaction, II, 121.
44. Campbell, Thos , The Jesuits, 394.
45. Filmer, Patriarcha, in Locke, Two Treatises on Go-

vernment, 253
46. Campbell, 271
47 Symonds, Catholic Reaction, I, 218; McCabe, Candid History, 184
48. McCabe, 191
Secret of the Jesuits, 285.
49 Fülop-Miller, Power and Secret of the Jesuits, 285.
50 Ibid., 290
51. Ibid., 300-1
52 McCabe, 299
53. In Campbell, 445
54 Montaigne, Diary, 141.
55 Ibid , 159.
56 Molmenti, Venice, IIb, 27.
57. Montaigne, Diary, 151.
58 Symonds, Catholic Reaction, I, 268-74. The Cenci, by F. D Guerrazzi (Milan, 1872), is a novel
59 Evelyn, I, 172.
60 Ibid , 161.
61 Ibid., Nov 8, 1644
62. Burney, History of Music, II, 510; Grove's Dictionary of Music, III, 591, Brockway and Weinstock, The Opera, 1-3.
63. McKinney and Anderson, Music in History, 321.
64. Ibid., 334
65 Granett, Richard, Italian Literature, 269.
66. Ranke, Popes, I, 369
67 Encycl, Brit., III, 132b.
68. Johnoson, S., Lives of the Poets, I, 176.
69. Guarini, The Faithful Shepherd, p. 64
70. Ibid., 177
71. Hallam, Literature, II, 181.
72. Symonds, Italian Literature, II, 243
73. Tr by Leigh Hunt, in Van Doren, Anthology, 590
74 Symonds, Catholic Reaction, I, 367.
75 Boulting, Tasso, 172-3.
76. Ibid., 183, 174
77 Symonds, Catholic Reaction, II, 35; Encycl. Brit., XXI, 831a.
78 Symond,s I, 369.
79. Boulting, 212
80 Smith, History of Culture, I, 552.
81 Boulting, 259
82 Tasso, Gerusalemme liberata, xx, 1087.
83 Galileo, Opere, ed. nazionale, IX, 69. in Smith, P., History of Culture, I, 552.
84 Disraeli, Isaac, Curiosities of Literature, II, 444
85. Burckhardt, J , Recollections of Rubens, 8.
86. Pastor, XXII, 309.
87. Justi, Velázquez, 350.
88. Wittkower, Gian Lorenzo Bernini, 197.
89. Ibid., 2

CHAPTER X

1. El Greco, Phaidon ed , 7.
2. Weisbach, Spanish Baroque Art, 35.
3. Robertson, Freethought, II, 38, Hume, M., Spanish People, 416.
4. Lea, Inquisition in Spain, III, 441.
5 Prescott, Philip II, II, 498
6. Lea, Inquisition, IV, 253.

7 Cf Cervantes, Don Quixote, Part I, ch 28; Vol. I, 223.
8. Stirling-Maxwell, I, 45
9 Lang, P. H., Muisc in Western Civilization, 267.
10 Calvert, A. F, The Escorial, 7
11 Ibid, 65, Calvert, Royal Palaces of Spain, 4-6, El Gerco, Phaidon ed., 11
12 Stirling-Maxwell, I, 209
13 Davies, Golden Age of Spain, 120.
14. Froude, Elizabeth, I, 375
15 Motley, Rise of the Dutch Republic, I, 125.
16. Encycl, Brit, XVII, 722c.
17 Motley, I, 125.
18 Hume, M, The Spanish People, 382, Motley, II, 12.
19 Trend, The Civilization of Spain, 128
20 Motley, I, 125.
21 Voltaire, Works, XIVb, 278
22. Mariana, General History of Spain, Supplement, p 30.
23 Blok, History of the People of the Netherlands, II, 289, 119; cf En. Br., XVII, 722 321; Armstrong, Emperor
24. Cf. Robinson, Readings, 321; Armstrong, Emperor Charles V, II. 376; Hume, M., Spain : Its Greatness and Decay, 150.
25 Prescott, Philip II, II, 431.
26 Davies, Golden Age of Spain, 150.
27 Perscott, Philip, II, II, 451.
28. Altamira, History of Spain, 384
29. Madariaga, Spain, 36, Davies, Golden Age, 194
30 Ibid., 198, History Today, June 1954, p 427
31 Ibid., Lea, Inquisition in Spain, IV, 254-272.
32 Trevor-Roper, Historical Essays, 269, Altamira, History of Spanish Civilization, 133.
33 Davies, Golden Age 121
34 En Br., XXI, 132
35 Prescott, Philip II, I, 68, 210, II, 26
36. Ogg, 170.
37 Davies, 230
38. Ibid., 233
39 Hume, M, Court, of Philip IV, 24; Spain, 211, Camb. Mod. History, III, 542.
40. Don Quixote, Part II, ch. 54.
41 Ximenes, Juan, Life and Virtues of Juan de Ribera, in Buckle, History of Civilization, II, 46.
42. Lea, Inquisition, III, 397, 407-8; Ogg, 364; Hume, M., Spain, 212.
43. Lea, III, 410.
44. Camb Mod. History, IV, 634.
45 Justi, Velázquez, 105.
46 Portrait in Hispanic Society of America, New York.
47. Rooses, Rubens, 486
48. Stephens, H. M., Story of Portugal, 249.
49. Camões, Lusiads, Introd, xvii.

50. Penrose, Travel and Discovery, 72.
51. Camões, Lusiads, iv, 83.
52 Ibid , 89
53. Bell, Aubrey, Portuguese Literature, 183.
54 Camões, Introd xxix

CHAPTER XI

1 Preface to Galatea
2. Hallam, Literature, I, 53
3 Schevill, R., Cervantes, 7
4 Altamira, History of Spanish Civilization, 143
5 Fitzmaurice-Kelly, History of Spanish Literature, 338
6 Gracian, Art of Worldly Wisdom, 20.
7 Ibid , 29.
8 32.
9. 36
10 49
11. 71
12. 144.
13. 150.
14 In Davies, Golden Age, 282
15 Ticknor, History of Spanish Literature, III, 150; cf Fitzmaurice-Kelly, History, 274.
16 In Smith, P, History of Modern Culture, I, 552.
17 Bell, Aubrey, Cervantes, 54, Ticknor, II, 58
18. Ellis, H, Soul of Spain, 233.
19. Schevill, Cervantes, 134.
20 Lockhart, J. G., Introd. to Everyman's Library ed. of Don Quixote, p. xx.
21. Don Quixote, Part I, ch. xii.
22. I, xi.
23 I, xiii.
24. II, xxxii
25 I, iv
26. II, xxxii.
27. II, xix; I, xx; II, iv.
28 I, xxxix
29 I, xxxvi.
30 Cervantes, Exemplary Novels, 5
31 Ibid., 3
32 Don Quixote, II, xlv
33. Schevill, Cervantes, 353.
34 Powys, J. C., Enjoyment of Literature, 174
35. Ticknor, II, 42.
36. Don Quixote, I, xxi; Bell, Cervantes, 27.
37 Tr. by Churton in Fitzmaurice-Kelly, History of Spanish Literature, 281.
38. Quevedo, The Dog and the Fever, 52
39 Tr. by John Masefield in Van Doren, Anthology, 645.
40. Fitzmaurice-Kelly, History 254.
41. Id, Some Masters of Spanish Verse, 98.
42. Id., History, 249-50.
43. Ford, J D, Main Currents of Spanish Literature, 129.
44 Fitzmaurice-Kelly, Some Masters, 43.
45. Lope de Vega, The Star of Seville, in Matthews, B., Chief European Dramatists, 171.
46. Lewes, G. N., Lope de Ve-

ga, in Clark, Great Short Biographies, 596, Fitzmaurice-Kelly, Some Masters, 25.

47 Shelly, Poetical Works, 645.

48. Calderón, Life Is a Dream, II, ii, tr. D. F. McCarthy, in Matthews, 219.

CHAPTER XII

1. Stirling-Maxwell, Annals of the Artists of Spain, I, 349.
2. Dieulafoy, Art in Spain and Portugal, 243.
3. Mâle, Émile, Religious Art from the Twelfth to the Eighteenth Century, 170.
4 In the Escorial
5 In Calvert, Seville, 108.
6 Lassaigne, J., Spanish Painting from the Catalan Frescoes to El Greco, 131
7. En Br, XXII, 69.
8 Naples.
9. Lassaigne, 106, Guinard, El Greco, 54.
10. Goldscheider, El Greco, 10.
11 Caffin, C. H, Story of Spanish Painting, 72.
12 Guinard, 121
13. Meier-Graefe, The Spanish Journey, 145
14. Pacheco, in Guinard, 22.
15 Johnson in Prologue to Addisison's Cato,
16. Soria, M. S., The Paintings of Zurbarán, 30.
17 In Justi, Velázquez, 83.
18. Duke of Wellington Collection, London.
19 Boston Museum of Fine Arts
20. National Gallery, London.
21. Justi, 445.
22. Rouen.
23 New York , Frankfurt
24 Dresden Gallery
25 Modena
26. Earl of Radnor Collection.
27 Stirling-Maxwell, III, 847.
28. Justi, 360.
29 Cheney, World History of Art, 619
30 Vienna.
31 Washington
32 Wallace Collection, London
33. Vienna
34 Calvert and Hartley, Velázquez, 176
35 Ellis, H, Soul of Spain, 153.
36 Meier-Graefe, 151, 200-5
37 Stirling-Maxwell, III, 946
38 Guinard and Baticle, Histoire de la peinture espagnole, 170
39. Louvre
40 Dresden
41 Pliny, Natural History, xxxv, 36
42. Stirling-Maxwell, III, 1003.
43. Prado, Seville, Cádiz, Louvre, Leningard.
44 Dulwich.
45 Rome, Galleria Nazionale.
46 Prado
47. London.
48. Leningrad.
49 Altamira, History of Spanish Civilization, 137f.

CHAPTER XIII

1. Roeder, Catherine de' Medici and the Lost Revolution, 170
2. Sée, Modern Capitalism, 49.
3 Roeder, 250.
4. Guizot, History of France, III, 319.
5. Acton, Lectures, 156
6 Michelet, Histoire de France, III, 483.
7 Thieme, Women of Modern France, 38
8 Roeder, 309.
9. La Tour, Origines de la Réforme, IV, 255f.
10. Hearnshaw, Social and Political Ideas of .. the Renaissaance and Reformation, 29.
11. Walker, W., John Calvin, 381.
12 Guizot, France, III, 303.
13 Sichel, Catherine de' Medici and the French Reformation, 111.
14. Ibid, 24
15 Brantôme, Book of the Ladies, 51
16 Michelet, Histoire, III, 490
17 Sichel, 10
18 Brantôme, 59
19 Sichel, The Later Years of Catherine de' Medici, 116.
20 Sainte-Beuve in Brantôme, 88.
21 Roeder, 361.
22 Ibid., 386
23. Allen, Political Thought,
24 Roeder, 254-6
25 Ranke, Civil Wars .. in France, I, 278-80.
26. Sichel, Catherine de' Medici, 119.
27 Pastor, History of the Popes, XVI, 179
28 Batiffol, The Century of the Renaissance, 201.
29 Ibid, 198, Pastor, XVI, 167; Camb Mod History, II, 300.
30 Pastor, XVI, 179.
31 Ibid
32 Ibid, 180-1.
33 Allen, Political Thought, 305
34 Sichel, 191, 196-7.
35. Lea, Studies in Church History, 496
36. Pastor, XVI, 172
37. Micheler, IV, 418; Batiffol, 203.
38 Guizot, History, III, 334.
39 Ibid., 335.
40 Batiffol, 211; Sichel, 224.
41. Froude, Elizabeth, I, 346.
42 Ranke, Civil Wars, I, 336; Batiffol, 215, Roeder, 366-9; Sichel, The Later Years, 19; Pastor, XVI, 203.
43. Guizot, III, 328
44 Ibid, 330; Pastor, XVIII, 116.
45 Guizot, III, 331.
46. Pastor, XVIII, 154.
47 Froude, Elizabeth, II, 446
48 Sedgwick, H D., Henry of Navarre, 34
49. Ibid, 90
50 Batiffol, 241; Belloc, Richelieu 139n
51. Pastor, XVI, 195-6
52. Roeder, 428

53. Guizot, III, 380.
54. Janssen, J., History of the German People, VIII, 114.
55. Ibid
56. Guizot, III, 384.
57. Ibid. z
58. Camb Mod. History, III, 18.
59 Ibid , 19; Pastor, XIX, 485.
60. Michelet, III, 458
61. Batiffol, 227
62. Sichel, The Later Years, 160.
63. Michelet, III, 462
64. Sichel, The Later Years, 162
65. Ibid., 164.
66. Ibid., 161.
67 Ibid; Roeder, 453
68. Batiffol, 229; Sichel, The Later Years, 164
69. Ibid., 167; Batiffol, 230.
70 Ibid
71. De Thou in Robinson, Readings, 331, Sichel, Later Years, 180
72. Michelet, III, 468; Roeder, 473.
73. Micheler, III, 476
74 Ibid
75 Acton, 160, Roeder, 463.
76 Ibid., 477.
77. Ibid., 479
78 Ibid., 489.
79. Pastor, XIX, 488.
80. Michelet, III, 478.
81 Acton, 162; Pastor, XIX, 489
82. Michelet, III, 483.
83. Pastor, XIX, 509.
84. Roeder, 464.
85. Batiffol, 236; Sichel, The Later Years, 194.
86. Pastor, XIX, 507; Froude, Elizabeth, III, 411.
87. Pastor, XIX, 500-12.
88 Froude, Elizabeth, III, 419.
89 Roeder, 506
90. Sichel, Later Years, 205.
91 Guizot, III, 415.

CHAPTER XIV

1. Lacroix, History of Prostitution, I. 1170-1, 1276-91
2. Sedgwick, Henry of Navarre, 83
3 In Brantôme, Book of the Ladies, 212.
4. Brutus, Junius, Vindiciae contra tyrannos, 97, 109, 169; Carlyle, R W., History of Medieval Political Philosophy, 351f, Allen, Political Thought, 331
5 Ibid., 377.
6 Voltaire, Age of Louis XIV, 397.
7. Ranke, Civil Wars, I, 163
8 Allen, Political Thought, 347-50, Figgis, From Gerson to Grotius, 180.
9 Notes to Sully, Memoirs, I, 207.
10 Michelet, IV, 41.
11 Ibid., 21
12. Sedgwick, Henry, 223.
13. Michelet, IV, 60.
14 Maulde La Clavière, Women of the Renaissance, 469.
15 Sully, I, 299, 311-14, Michelet, III, 463; Guizot, III, 521
16. Ibid., 522.

17. Michelet, IV, 60.
18. Satyre Ménippée, 59-73
19. Guizot, III, 556, Campbell, The Jesuits, 217; Ranke, Popes, II, 55; Sully, I, 447; Fulop-Miller, Jesuits, 317.
20. Sully, I, 2
21. Kirby, Engineering in History, 141.
22. Guérard, Life and Death of an Ideal, 119.
23. Schaff, Swiss Reformation, II, 699
24. Laski, H., in Brutus, Vindiciae contra tyrannos, 9, 35
25. Lowie, R. H., Are We Civilized?, 241.
26. Tallement des Réaux, Miniature Portraits, 9.
27. Ibid., 5
28. Sedgwick, 274
29. Batiffol, 287.
30. Sully, IV, 128n.
31. Sully, III, 365; Michelet, IV, 86.
32. Sedgwick, 130-5.
33. Lacroix, Prostitution, II, 1306.
34. Ibid., 1300
35. Sully, III, 31-2.
36. Sedgwick, 255
37. Ackerman, Phyllis, Tapestry, 262
38. Davis, Golden Age, 237
39. Sully, II, 404-10
40. Camb Mod History, III, 682, 684.
41. Janssen, History of the German People, X 439n
42. Sedgwick, 288-9
43. Fulop-Miller, Jesuits, 127; Gooch, English Democratic Ideas, 23,
44. Sedgwick, 306,

CHAPTER XV

1. Barine, La Grande Mademoiselle, 279.
2. Ibid., 278
3. Sanders, Bossuet, 54.
4. Michelet, IV, 197; Batiffol, 404
5. Michelet, IV, 370
6. Catholic Encyclopedia, XIV, 437.
7. Jackson, C. C., Old Paris, 45
8. Belloc, Paris 311.
9. Boulenger, Seventeenth Century, 49
10. Michelet, IV, 200
11. Acton, Lectures, 171
12. Buckle, Ib, 399-406.
13. Ibid., 399.
14. 405.
15. 403.
16. Boulenger, 37; Barine, 15.
17. Jackson, 56.
18. Richelieu, Oeuvres, 18.
19. Michelet, IV, 156.
20. in Guizot, IV, 131.
21. Ibid., 46
22. 63.
23. Richelieu, 173
24. Guizot, IV, 79
25. Michelet, IV, 295
26. Schoenhof, History of Money and Prices, 186.
27. Nussbaum, History of Economic Institutions, 108
28. In Acton, 179
29. Michelet, IV, 327
30. Guizot, IV, 173.
31. Richelieu, 152, 201.

32 Guérard, Life and Death of an Ideal, 123.
33. Tallement des Réaux, 63.
34. Belloc, Richelieu, 90
35. Michelet, IV, 286, Boulenger, 35.
36. Retz, Secret Memoirs, 97.
37. Hefele, K. J., Life and Times of Cardinal Ximenes, 565
38. Chesterfield, Letters, 28 (Oct. 16, 1747).
39. Lodge, Richelieu, 229
40 Richelieu, Memoirs, 168.
41. Ibid., 125.
42. 181, 40.
43 182.
44. 168
45 32.
46. 19
47. 30.
48 35.
49 Motteville, Mme de, Me-
50. Tallement des Réaux, 27 mois, 1, 67.

CHAPTER XVI

1 Charron, De la Sagesse, I, 24, In Haydn, Counter-Renaissance, 569
2. Sichel, Catherine de' Medici, 6; Lacroix, History of Prostitution, II, 1159.
3. Sedgwick, Henry of Navarre, 55
4. Brantôme, Lives of Gallant Ladies, 131-2.
5. Now in the museum of the Château d'Azay-le-Rideau.
6 Michelet, IV, 222.
7. Tallement, 132.
8 Sanger, Wm., History of Prostitution, 199.
9. Ibid.; Lacroix, Prostitution, II, 1350.
10. Montaigne, Diary, 6.
11. Sully, Memoirs, I, 482, 507.
12. Brantôme, Book of the Ladies, 79.
13. Wright, Womankind in Western Europe, 305
14. Lacroix, Arts of the Middle Ages, 164
15 Wright, Womankind, 302.
16 Montaigne, Essays, II, 12 34.
17. Lowie, Are We Civilized?,
18. Burney, Charles, General History of Music, II, 217.
19 Ibid., 466.
20 Montaigne, Essays, III, 365
21 Ibid., I, xxv, 185
22. I, xxv
23. III, xii, 300.
24 III, xii, 292
25 I, xxxviii, 252.
26 I, xxv, 165
27 Ibid., 163
28 Ibid., 166, 172
29. III, xiii, 324.
30. II, vi, 48
31 Dowden, Michel de Montaigne, 45
32 I, xxvii, 201.
33. Ibid.
34. Gide, A., The Living Thoughts of Montaigne, 14.
35 I, xxvii, 207.
36 III, x, 265
37 III, v, 119
38 Ibid, 105.
39. 73.
40. Cf. his paean to Paris in III, ix, 216

41. III, v, 76. &
42 II, viii, 71
43. Gide, 12.
44 III, ix, 213.
45 III, iii, 49.
46 I, xxxviii, 253-6.
47 I, xxv, 149
48 II, xxxii, 448
49 Sellery, G C., The Renaissance, 47.
50 Pater, Plato and Platonism, 174
51 In Dowden, Montaigne, 240
52 II, iii, 35
53 II, xvii, 385
54. III, v, 107.
55. III, ii, 24
56. II, xxxvi, 523
57 Ibid , 495
58 III, xiii, 354
59 Diary, 259
60 II, xii, 256, Cicero, De veritate, 11
61. III, xii, 291
62 III, xiii, 379
63 Sainte-Beuve, Port-Rayal,
64 II. xii, 306.
II, 440.
65. Ibid., 317.
66. In Spencer, Theodore, Shakespeare and the Nature of Man, 36
67 II, xii, 237.
68. Ibid., 285-7.
69. 312.
70 202
71 250.
82. 324
73. 325
84 Sichel, E., Montaigne, 54.
75 II, xvii, 371.
76 II, xii, 180
77 I, xl, 269; Camb. Mod. History, II, 711
78 II, v.
79. II, viii, 72
80 I, xxx 219
81. II, xii, 198, 250.
82 I, xxx, 229
83. In Dowden, Montaigne, 63
84. III, vi, 144
85 III, ix, 201; v, 105
86 II, xii
87. II, xii, 204.
88 Ibid., 251.
89 225, 266.
90. I, xix, 90
91. III, v, 78
92 III, xi 285
93 II, xii, 130.
94 Ibid , 217.
95 133.
96 Sainte-Beuve, Port-Royal,
97 I, liv, 354; Tilley, A., Studies in the French Renaissance, 280.
98 II, xii, 225.
99 III. xi.
100. III, ix, 198.
101. III, viii, 173.
102 III, ix, 191.
103 III, xii, 301, ii, 26.
104 II xi, 121.
105. III, x, 263
106 Diary, 14
107. Ibid., 17
108 49
109. 107.
110 150.
111. Cf. Diary, 166-9.
112 Ibid., 123
113. Essays, III, iv, 59.
114 III, xiii, 368.

115. II, i 8.
116. Jonson, Volpone, III, ii.
117 Mme du Deffand, Lettres à Voltaire, 41; Jan 28 1759
118. Malebranche, De la Recherche de la vérité, III, v, p 264.
119. In Gide, 3
120 Sainte-Beuve, Port-Royal, II, 379-453.
121 In Frame, Montaigne, 139.
122. Guizot, IV, 194.
123. Van Laun, History of French Literature, II, 181.
124. Disraeli, I, Curiosities of Literature, I, 451.
125 Malherbe, in Sainte-Beuve, Portraits of the Seventeenth Century, II, 47.
126. Boileau in Malherbe, Racan, Maynard, Poésies Choisies, 9n.
127. Ibid, 24-7
128. Winegarten, French Lyric Poetry in the Age of Malherbe, 8, 18.
129. Boulenger, Seventeenth Century, 122.
130. Faguet, Literary History of France, 341.
131. Régnier, De Viau, etc., Poésies choisies, 50.
132 Guizot, Corneille and His Times, 148.
133. Corneille, Le Cid, V, i
134. Guizot, Corneille, 168
135. Livy, T L., History of Rome, i, 25.
136. Corneille, Horace, I, i.
137. Ibid., II, viii.
138 Sainte-Beuve, Port-Royal, I, 124.
139. Evelyn, Diary, I, 48.
140. Blomfield, History of French Architecture, II, 143.
141. Bupal, Bernard Palissy, 43.
142. In Sichel, Catherine dè Medici, 318; Michelet, History de France, IV. 51.
143. Guizot, Histoire, IV, 571.
144 Sutro, E, Nicolas Poussin, 77.
145. Desjardins, Poussin, 71
146. Mousnier, Histoire générale des civilisations, IV. 218.
147. Ruskin, Modern Painters, II, ii, 18.
148. Craven, Treasury of Art Masterpieces, 172; Stranahan, History of French Painting, 45.
149. Ruskin, Modern Painters, II, i, 7-5; IX, v.

رقم الإيداع ١٩٧٦/٥٤٥١

مطابع الدجوى - القاهرة - عابدين